المحجة البيضاء

في تهذيب الإحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله
محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني
المتوفى سنة ١٠٩١ هـ
قدس سره

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

المحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١هـ

صححه وعلق عليه علي اكبر الغفاري

الجزء الأول

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص ب : ٧١٢٠

تقدمة

بسمه تعالى وله الحمد ، والصلاة على نبيّه وآله .

كان في هواجس ضميري أن أعقد جرياً على ماتداول اليوم فصلاً في أوّل هذا الكتاب القيّم الفخم ، و أسبح في لجج هذا البحر اللّجيّ ، وأبسط القول في أبحاثه الرجراجة بالحقائق ، غير أنّي قصيرالباع لم أهتد إلى مايهمّ بيانه سبيلاً ، و بينما كنت أغدو وأروح في فجوة الخيال تجنّزطبع الجزء الأوّل من الكتاب ، فأخذت كراريسه بيدي وساقني الحظّ السعيد إلى دارشيخنا الأكبر، علم العلم الخفّاق ، رجل التحقيق والبحث والتنقيب ، سماحة الحجّة المجاهد مولانا الأميني صاحب كتاب « الغدير » الأغرّ ، فسألني عمّا بيدي فجرى ذكر الكتاب و أعربت عمّا في خلدي ، فقال : قد ركبتَ الصعب المصعب ، وإنّما يركب الصعب من لاذلول له ، ومن المستساغ أن نجنح في عرفان مبلغ الكتب من الصحّة والسقم ، ومالها من القيمة في سوق الاعتبار إلى مقياس كلّي يوزن به كلّ كتاب وهوالفارق الوحيد بين « إحياء العلوم » وتهذيبه «المحجّة البيضاء» فارتجيت بيان ذلك ، فتصفّح المطلب و أملى عليّ ما هذا لفظه حرفيّاً :

إنّ سعادة الإنسان ، و حياته الروحيّة ، وقيمته في سوق الاعتبار إنّما نيطت باصول و دعائم ، و معارف ومعالم متّخذة من الكتاب و السنّة ، و الدعوة النبويّة هي الّتي تتكفّل بتلكم الغايات ، وتوجّه البشر إلى الحياة السعيدة ، و الإنسانيّة السامية ، و الفوز مع الأبد ، و البعثة النبويّة الخاتمة بها تتمّ مكارم الأخلاق ، و تعرف مسالك السعادة ، وتحدو إلى سبل السلام ، ومهيع السعد الخالد ، ولايتأتّى شيء من ذلك بالمزاعم ، ولايتطرّق إليه بالوهم والخيال .

والناسك الجاهل كالعالم المتهتّك قاصم الظهر ، لايهتدي إلى السعادة و الشقاوة

سبيلاً ، حتّى يولّي وجهه شطرالحقيقة ، ينحو نحوها ، ولاتقرب عليه الخطوة ، بل تقع منه في مرمىسحيق ، ويخاف عليه الوبال ، وهومنقادٌ بأهوائه و ميوله وشهواته السائدة ، يخلق له الجهل مهيّة مزعومة تجاهالحقيقة الراهنة ، و يزحزحه عن مناهج السعد ، ولا يرمي برأيه الشواكل ، ولايصيب وجوه الصواب ، وهويحسب أنّه يحسن صنعاً، فينهمك في غمرة الشقاء ، وتستعبده نفسه طيلة حياته إلى آخر نفس لفَظه .

والعلم يهدي إلى الحقّ ، و يعبّد طريق الصدق ، ويتوطّد اُصول السعد ، ويدلّ على الصراط الواضح ، ويدعو إلى المحجّة البيضاء ، ويحدو إلى المنهج القويم ، ويقود إلى جدد الصّدق و العدل ، ويرى الناسك خاتمة الاُمور ناصعة الجبين ، سافرة الوجه ، واضحة المعالم .

والطريق الوحيد إلى السعادة مع الخلود هومامهّده النبيّ الأعظم ﷺ لاُمّته وعبّده بوصيّته المتعاقبة المكرّرة حيناً بعد حين ، وآونة بعد اُخرى من استخلافه كتاب الله وعترته أهل بيته ، ولن يفترقاحتّى يردا عليه الحوض . فمن اتّبعهما فقداهتدى وأدرك رشده ، ومن حاد عنهما فقد ضلّ وهلك .

و هذا هوالباب المفتوح بمصراعيه الّذي منه يؤتى ، ليس إلّا . وهذا هوباب مدينة العلم فحسب . فمن أراد المدينة فليأت الباب . فهنالك الحقيقة والطريقة و الحكمة والفقه و العرفان والرواية والدراية والعلم والأدب والفضيلة . وقدصدّق الخُبرالخَبر ، خبرأنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ، أنا دارالحكمة وعليٌّ بابها ، أنادارالعلم وعليٌّ بابها ، أنامدينة الفقه وعليٌّ بابها ، أنا ميزان العلم وعليٌّ كفّتاه ، أنا ميزان الحكمة وعليٌّ لسانه ، عليٌّ باب علمي ، ومبيّنٌ لاُمّتي ما اُرسلت به من بعدي ، إلى أمثالها الكثيرالطيّب .

وحرصاً على صلاح الملأ الدّيني ، و رغبة في الصالح العام ، وشرهاً في نجح الاُمّة وتسييرها إلى مايُحمد عقباه كان مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام يُعرب عن بعض ما اُوتي به أهل بيته الطاهر ولم يؤت به أحد من العالمين بقوله :

نعم :آل محمّد هم عيش العلم ، وموت الجهل ، يخبر كم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم ، لايخالفون الحقّ ، ولا يختلفون فيه ، هم دعائم

الإسلام ، وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحقّ في نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدّين عقل وعاية ورعاية ، لاعقل سماع ورواية ، فإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل .

وبقوله : نحن شجرة النبوّة ، و محطّ الرسالة ، و مختلف الملائكة ، و معادن العلم و ينابيع الحكم ، ناصرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة ، وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة .

وبقوله : نحن الشعار والأصحاب ، والخزنة والأبواب ، ولاتؤتى البيوت إلّا من أبوابها ، فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقا .

وبقوله : فيهم كرائم القرآن ، وهم كنوز الرحمن ، إن نطقوا صدقوا و إن صمتوا لم يسبقوا .

وبقوله : هم موضع سرّه ، ولجأ أمره ، و عيبة علمه ، و موئل حكمه ، و كهوف كتبه ، وجبال دينه ، بهم أقام انحناء ظهره ، وأذهب ارتعاد فرائصه .

وبقوله : لايقاس بآل محمّد صلّى الله عليه وآله من هذه الأمّة أحدٌ ، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدّين ، وعماد اليقين .

وبقوله : نحن أهل بيت النبوّة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، وعنصر الرحمة ، و معدن العلم والحكمة .

وبقوله : أين الّذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا ؟ كذباً وبغياً علينا ، أن رفعنا الله ووضعهم ، وأعطانا وحرمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يستعطى الهدى ، و يستجلى العمى ، إنّ الأئمّة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم .

وبقوله : فأين يتاه بكم ؟ و كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم ؟ وهم أزمّة الحقّ ، و أعلام الدّين ، وألسنة الصدق ، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن .

وبقوله : قد ركزت فيكم راية الإيمان ، و وقفتكم على حدود الحلال و الحرام ، وألبستكم العافية من عدلي ، وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي ، وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي ، فلا تستعملوا الرأي فيما لايدرك قعره البصر ، ولايتغلغل إليه الفكر .

هذا غيضٌ من فيض ، فالسعيد الصدق ، و الآلهيّ الصادق ، و الأخلاقي الناجع

الناصح الناجح ، والسالك العارف الصحيح ، والحكيم البصير الناقد النابه ، و الناسك الصالح من اتّبع آل الله ، واقتفى أثرهم ، وحذا حذوهم ، ولبّى دعوتهم ، واتّخذ بسيرتهم و اقتدى بهديهم .

والحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، والعلم النافع ، و العرفان التامّ ، و الخلق السجحة ، والمعالم و المعارف ، والظرائف والطرائف ، والغرروالدّرر . والأنوار والأزهار ، والعدل والصدق ، والورع والتقى ، والحقّ والحقيقة ، والأصول والفروع المتّبعة ، والحِكم والآثار ، والكلم الطيّب ، والقول البليغ ، و المنطق السليم ، و الصوب المستقيم ، و الرأي الصائب ، والفكرة الناضجة ، كلّها في مقال إنسان يغترف من بحار علوم آل الله ، ويقتبس من تلكم الأنوار ، ويتّخذ المعالم من معادنها ، ولا يتّبع السبل ، و يقتفي آثار أولئك الأئمّة ، ويرى السعادة والفوز و الفلج في الاقتداء بهم ، و الاستنارة برشدهم ، و المضيّ وراء ضوئهم .

فالمتكلّم بغير هداهم أخبط من حاطب ليل يخبط خبط عشواء ، و يختلط الحابل بالنابل ، والمصلح بغير هديهم متطلّبٌ في الماء جذوة نار ، والعارف الناسك بغير مناسكهم يتيه في واد السّدر ، والسائر إلى الله بغير سيرتهم يضلّ عن رشده ، ويقوده الهوى السائد ، ويستحوذ عليه الشيطان ، ويجرّ عليه الويلات ، ويدخله إلى حضيض التعاسة ، ومأزق الشقاء والدمار ، ويسفّه إلى العار والشنار .

خذ مثالاً يلمسك الحقيقة باليد كتاب « إحياء العلوم » للغزّالي ، و تهذيبه « المحجّة البيضاء » لمولانا الفيض القاشانيّ .

ونحن لانمضي إلّا على ضوء الحقيقة ، ونتّبع موازين القسط ، ولا نصغي حقّ ذي فضل ، ويهمّنا جدّاً النزوع إلى حكم الأدب ، أدب العلم والدّين ، أدب الحجاج ، أدب الكتاب ، أدب المقال ، ولسنا ممّن يبخس الناس أشياءهم ، ولانستسيغ الوقيعة في عالم من الأمّة المسلمة ، والتقوّل والاجتراء عليه والغرّة به ، ولايروقنا الكلام في مؤلّف بمايمسّ كرامته ، أو يحطّ شيئاً من مكانته ، بل نكبر رجال العلم والفضيلة كائناً من كان ، من أيّ عنصر ، من أيّ شعب ، من أيّ مذهب ، من أيّ بيئة ، ونعطي كلّ ذي قدر حقّه ،

ولكلٍّ منهم مقام معلوم ، غير أنّ الحقّ أحقّ أن يتّبع ، والتمويه على الحقائق ، والصفح عنها ، والسكوت عن ردّ الباطل ، والغضّ عن لفت نظر الملأ الديني إلى الواقع لا يرتضيه الدّين والعقل والمنطق والاعتبار الصحيح ، ولا مندوحة لنا عن الإصحار بالحقّ ، والإجهار بالصواب ، وإماطة الستر عن وجه الشُبه ، فنقول :

أمّا « إحياء العلوم » فإنّه مهما كان مؤلّفه متضلّعاً من الفقه و العلم و العرفان والحكمة و البيان والفكرة و الرواية و الأخلاق تراه قد اقتحم مزاعم حرجة ، أحرجته المآزق ، واستشكلت عليه المواقف ، و أعضل به البحث ، وتعايا عليه المخرج كما أعيى الداء الطبيب ، تجده يعلّي اُسس الحقّ على شفا جرف هار ، ويدعم دعواه المجرّدة بتافه القول ، ويرميه على عواهنه ، ويتمسّك بالسُقر والبُقر وبيّنات غير ، فجاء كتابه عيبة السقطات ، و سفط السفسطات ، مشحوناً بالخرافات ، بين دفّتيه ترّهات ، و ملء غضونه تافهات ، و قد أفرد الحافظ ابن الجوزي في الرّدّ عليه كتاباً أسماه « إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء » ، و فصّل القول في الرّد عليه في الجزء التاسع من «المنتظم» وفي «تلبيس إبليس» ص ٣٥٧ وذكرنا جملة ممّا أورد عليه في الجزء الحادي عشر من كتابنا الغدير .

أقول ـ و أنا مصحّح الكتاب ـ : فمن الضروري أن نورد ههنا بعض ما أشار إليه شيخنا الأميني من عثرات أبي حامد الغزّالي في إحيائه ثمّ نرجع إلى بقيّة ما أملاه .

قال في كتاب رياضة النفس من الإحياء : كان بعض الشيوخ في ابتداء إرادته يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول اللّيل ليسمح بالقيام على الرّجل .

أقول : هل مساغ لهذا العمل الفادح عند العقل والطبيعة و الاعتبار ؟ وهذا كتاب الله العزيز يخاطب نبيّه الأقدس بقوله : «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» ونحن نحيل الحكم في هذا التره و فيما يليه من قصص خرافة إلى العقل السليم ، و الشريعة السهلة السمحة ، و الطبيعة المطّردة ، وقبل كلّها إلى سنّة الله الّتي لا تبديل لها .

و قال أيضاً في الكتاب : عالج بعضهم حبّ المال بأن باع جميع ماله و رمى به في البحر .

و قال في كتاب ترتيب الأوراد : إنّ إبراهيم التيميّ يمكث أربعة أشهر لم يطعم

و لم يشرب و ذلك لرؤيا رآها ، و نقل قصّتها .

و قال أيضاً : إنّ كهمس بن منهال يختم القرآن في كلّ شهر تسعين مرّة ، و ما لم يفهمه رجع و قرأه مرّة اُخرى .

و قال أيضاً : كان كرز بن وبرة مقيماً بمكّة فكان يطوف في كلّ يوم سبعين اُسبوعاً ، و في كلّ ليلة سبعين اُسبوعاً ، و كان مع ذلك يختم القرآن في اليوم و اللّيلة مرّتين . فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ ، و يكون في كلّ اُسبوع ركعتان فهو مائتان و ثمانون ركعة ، و ختمتان للقرآن وعشرة فراسخ .

و قال في كتاب التوحيد و التوكّل : قال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بغيرزاد فأصابني فاقة فرأيت المرحلة من بعيد ، فسررت بأن وصلت ، ثمّ فكّرت في نفسي أنّي سكنت و اتّكلت على غيره و آليت أن لا أدخل المرحلة إلّا أن احمل إليها ، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة و واريت جسدي فيها إلى صدري فسمعت صوتاً في نصف اللّيل عالياً : يا أهل المرحلة إنّ لله تعالى وليّاً حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه ، فجاء جماعة فأخرجوني إلى القرية .

و قال أيضاً : قال أبو حمزة الخراساني : حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر ، فنازعني نفسي أن أستغيث ، فقلت : لا و الله لا أستغيث فمااستتممت هذا الخاطر حتّى مرّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر : تعال حتّى نسدّ رأس هذا البئر لئلّا يقع فيه أحدٌ ، فأتوا بقصب و بارية و طمّوا رأس البئر فهممت أن أصيح ، فقلت في نفسي : إلى من أصيح ؟ هو أقرب منهما و سكنت ، فبينا أنا بعد ساعة إذا أنا بشيء جاء و كشف عن رأس البئر وأدلى رحله و كأنّه يقول : تعلّق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك ، فتعلّقت به فأخرجني فإذا هو سبع .

و قال أيضاً : فقد حكي عن عابد أنّه عكف في مسجد و لم يكن له معلوم ، فقال له الإمام : لو اكتسبت لكان أفضل لك ، فلم يجبه حتّى أعاد عليه ثلاثاً ، فقال في الرابعة : يهوديٌّ في جوار المسجد قد ضمن لي كلّ يوم رغيفين ، فقال : إن كان صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد خيرٌ لك ، فقال : يا هذا لو لم تكن إماماً تقف بين يدي الله

و بين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراًلك ، إذ فضّلت وعد يهوديّ على ضمان الله تعالى بالرزق .

و قال : قال إمام المسجد لبعض المصلّين : من أين تأكل ؟ فقال : يا شيخ اصبر حتّى أُعيد الصلاة الّتي صلّيتها خلفك ثمّ أُجيبك .

و قال في باب أعمال المتوكّلين : أعلى درجات التوكّل هو أن يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه و تقويته على الصبر أُسبوعاً و ما فوق ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسّر له شيء .

و قال أيضاً :كان بِشر يعمل بالمغازل فتركها ، و ذلك لأنّ البعادي كاتبه قال : بلغني أنّك استعنت على رزقك بالمغازل أرأيت إن أخذ الله سمعك و بصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها .

و قال أيضاً : قال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره : رأيت الخضر ـ عليه السلام ـ ورضي بصحبتي و لكنّي فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصاً في توكّلي .

و قال أيضاً : الاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدّين و هو بالعلماء أقبح لأنّ شرطهم القناعة ، و العالم القانع يأتيه رزقه و رزق جماعة كثيرة كانوا معه إلّا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس و يأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الّذي سلوكه بظاهر العلم و العمل و لم يكن له سير بالباطن ، فإنّ الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرّب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنّه تفرّغ لله عزّ و جلّ ، و إعانة للمعطي على نيل الثواب .

و قال في كتاب الزهد : أرباب الأحوال قد تغلبهم حالة يقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في درجاتهم ولكن بالاضافة إلى حالهم فإنّ مثل هذه « الأعمال بالنيّات » و ذلك كما روي أنّ بعضهم رأى أبا إسحاق النوري يمدّ يده و يسأل الناس في بعض المواضع ، قال : فاستعظمت ذلك واستقبحته له فأتيت الجنيد فأخبرته بذلك فقال : لايعظم هذا عليك ، فإنّ النوري لم يسأل الناس إلّا ليعطيهم و إنّما سألهم ليثيبهم في الآخرة

فيوجرون من حيث لا يضرّهم .

و اشترط في صحّة التوكّل إذا كان الإنسان منفرداً أن يصيب يقيناً بالموت إن لم يأت رزقه ، علماً بأنّ رزقه الموت و الجوع ، و قال : و هذا و إن كان نقصاناً في الدنيا فهو زيادة له في الآخرة ، فيرى أنّه سيق إليه من خير الرازقين له وهو رزق الآخرة ، وأنّ هذا هو المرض الّذي يموت به ، فيكون راضياً بذلك و أنّه كذا قضى وقدّر فبهذا يتمّ التوكّل .

و قال : كان أبوتراب النخشبي نظر إلى صوفيّ مدّ يده إلى قشر بطّيخ ليأكله بعد ثلاثة أيّام ، فقال له : لا يصلح لك التصوّف ألزم السوق . أي لا تصوّف إلّا مع التوكّل ولا يصحّ التوكّل إلّا لمن يصبر على الطعام أكثر من ثلاثة أيّام .

وقال : قال أبوعليّ الروذباري : إذا قال الفقير بعد خمسة أيّام : أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فإذن بدنه عياله و توكّله فيما يضرّ ببدنه كتوكّله في عياله ، و قال : قد انكشف لك من هذا أنّ التوكّل ليس انقطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدّة والرضا بالموت إن تأخّر الرزق نادراً وملازمة البلاد والأمصار أو البوادي الّتي لا تخلوا عن حشيش و كلّ ذلك من الأسباب إلّا أنّ الناس لم يعدّوا تلك أسباباً لضعف إيمانهم وشدّة حرصهم و قلّة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظنّ وطول الأمل .

أقول : هذه أقاويل إنسان خبّطه الشيطان من المسّ فقد فنّدها مولانا الفيض ـ رحمه الله ـ كما يأتي في بابه .

و قال في كتاب الزهد : الاضطرار إن انضمّ إليه الزهد و تصوّر ذلك فهو من أقصى درجات الزهد .

و عدّ الزهد في ما يضطرّ إليه الإنسان إذا حصل له و الكفّ عنه و عدم تناوله في حالة الاضطرار مع ماله من الاحتياج المبرم إلى ذلك الشيء من أعلى درجات الزهد ، و ردّ عليه شيخنا الفيض و قال : الاضطرار المنضمّ إليه الزهد إن تصوّر فليس من الخصال المحمودة بل ولا من شيم العقلاء فضلاً عن أن يكون من أقصى درجات الزهد ، فإنّ الجائع المضطرّ إلى الخبز ، الفاقد له لو آتاه الله الخبز عفواً صفواً فتأذّى به فهرب من أخذه

عدّ من المجانين .

و قال في كتاب المراقبة والمحاسبة : إنّ رجلاً من العباد كلّم امرأة فلم يزل حتّى وضع يده على فخذها ، ثمّ ندم فوضع يده على النار حتّى يبست .

وقال أيضاً : كان في بني إسرائيل رجلٌ يتعبّد في صومعته فمكث كذلك زماناً طويلاً فأشرف ذات يوم ، فإذا هو بامرأة فافتتن بهاوهمّ بها ، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة ، فقال : ما هذا الّذي اريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه و عصمه الله تعالى فندم ، فلمّا أراد أن يعيد رجله إلى صومعته قال : هيهات هيهات ! رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي ، لايكون و الله ذلك أبداً ، فتركها معلّقة من الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتّى تقطّعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره .

ونقل في الكتاب أيضاً عن الجنيد أنّه قال : سمعت ابن الكريبي يقول : أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخّراً وتقصيراً فحدّثتني نفسي بالتأخير حتّى أصبح و أسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت : و اعجباه أنا أُعامل الله في طول عمري فيجب له عليّ حقٌ فلا أجد في المسارعة و أجد الوقوف والتأخّر ، آليت أن لا أغتسل إلاّ في مرقعتي هذه ، و آليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس .

وقال أيضاً : يحكى عن تميم الداري أنّه نام ليلة لم يقم فيها فيتهجّد ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للّذي صنع .

وقال أيضاً : أنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه فنتف شعرات على صدره حتّى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه : ويحك إنّما أُريد بك الخير .

وقال أيضاً : إنّ عمر كان يضرب قدميه بالدرّة كلّ ليلة و يقول : ماذا عملت اليوم .

ونقل عن مجمع أنّه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا .

وقال في كتاب معاتبة النفس : إنّ صفوان بن سليم إذا جاء الشتاء اضطجع على

السطح ليضرّ به البرد ، و إذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحرّ فلاينام .

وقال أيضاً : إنّ عطاء السلمي مكث أربعين سنة فكان لاينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخرّ مغشياً عليه فأصابه فتق في بطنه .

وقال في كتاب مراقبة النفس : قال أبوعبدالله بن خفيف : خرجت من مصر أُريد الرملة للقاء أبي على الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري الزاهد : إنّ في صور شاباً و كهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لعلّك تستفيد منهما ؟ فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلّمت عليهما فما أجاباني ، فسلّمت ثانية و ثالثة فلم أسمع الجواب ، فقلت : نشدتكما بالله إلّا رددتما عليّ السلام ، فرفع الشابّ رأسه من مرقعته فنظر إليّ وقال : يا ابن خفيف ! الدنيا قليل ومابقي من القليل إلّا القليل فخذ من القليل الكثير ، يا ابن خفيف ! ما أقلّ شغلك حتّى تتفرّغ إلى لقائنا - إلى أن قال -: فبقيت عندهما ثلاثة أيّام لاآكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولاشربا إلى آخر ما قال .

و قال في كتاب قواعد العقائد : إنّه يجوز على الله سبحانه أن يكلّف الخلق مالا يطيقونه .

و قال أيضاً : إنّه يجوز على الله إيلام الخلق و تعذيبهم من غير جرم سابق .

وقال : في كتاب المحبّة قيل لأبي يزيد البسطامي مرّة : حدّثنا عن مشاهدتك من الله تعالى ؛ فصاح ثمّ قال : ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك ، قيل : فحدّثنا بأشدّ مجاهدتك لنفسك في الله تعالى ، فقال : وهذا أيضاً لايجوز أن أُطلعكم عليه . قيل : فحدّثنا عن رياضة نفسك في بدايتك ، فقال : نعم ، دعوت نفسي إلى الله فجمحت عليّ فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . - ثمّ قال : - و يحكى عن يحيى بن معاذ أنّه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ، مستوفزاً على صدور قدميه ، رافعاً أخمصيه مع حقبيه عن الأرض ، ضارباً بذقنه على صدره ، شاخصاً بعينيه لايطرف ، قال : ثمّ سجد عند السحر فأطاله ثمّ قعد فقال : اللّهمّ إنّ

قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإنّي أعوذ بك من ذلك ، و إنّ قوماً طلبوك فأعطيتهم طيّ الأرض فرضوا بذلك و إنّي أعوذ بك من ذلك ، وإنّ قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإنّي أعوذ بك من ذلك ، حتّى عدّ نيّفاً وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء ، ثمّ التفت فرآني فقال : يحيى ! قلت : نعم يا سيّدي ، فقال : مذ متى أنت ههنا ؟ قلت : منذ حين ، فسكت ، فقلت : يا سيّدي حدّثني بشيء فقال : اُحدّثك بما يصلح لك ، أدخلني في الفلك الأسفل ، فدوّرني في الملكوت السفلى ، و أراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثمّ أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السماوات ، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، ثمّ أوقفني بين يديه فقال : سلني أيّ شيء رأيت حتّى أهبه لك ؟ فقلت : يا سيّدي ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إيّاه ، فقال : أنت عبدي حقّاً ، تعبدني لأجلي صدقاً ، لأفعلنّ بك ولأفعلنّ - فذكر أشياء - قال يحيى : فهالني ذلك وامتلأت به و عجبت منه فقلت : يا سيّدي لم لا سألته المعرفة به ، و قد قال لك ملك الملوك : سلني ما شئت ، قال : فصاح بي صيحة وقال : اسكت ويلك ، غرت عليه منّي حتّى لا اُحبّ أن يعرفه سواه .

أقول : و تأتي قصّة خرافيّة اُخرى له في كلام ابن الجوزي فيما ردّ على الغزّالي.

وذكر في كتاب التفكر باب سكرات الموت أقاويل الصحابة و التابعين وطائفة من الصوفيّة عند موتهم ، وبكاء بعضهم حينذاك ، وضحك بعضهم ، و نسب إلى بعضهم السرور والابتهاج والطرب والاستبشار عند الموت وحال النزع مع أنّه ذكر في باب وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه اشتدّ في النزع كربه ، وظهر أنينه ، وترادف قلقه ، وارتفع حنينه ، وتغير لونه ، وعرق جبينه ، و اضطرب في الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتّى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدّة حالّه من شاهد منظره . رأى أنّ ذلك لاستيلاء الخوف عليه ، وقال : لم يمهله ملك الموت ساعة وما أخّره لحظة .

و ذكر قبله بصحيفة أنّ ملك الموت لقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلّم عليه فردّ عليه السلام فقال : إنّ لي إليك حاجة أذكرها في اُذنك فقال : هات ، فسارّه وقال : أنا ملك الموت ، فقال : أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته عليّ فوالله ماكان في الأرض غائب أحبّ

إليّ أن ألقاه منك فقال ملك الموت : اقض حاجتك الّتي خرجت لها ، فقال : مالي حاجة أكبر عندي ولا أحبّ من لقاء الله تعالى ، قال : فاختر على أيّ حال شئت أن أقبض روحك ؟ فقال : تقدر على ذلك ؟ فقال : نعم إنّي اُمرت بذلك ، قال : فدعني حتّى أتوضّأ و اُصلّي ثمّ اقبض روحي و أنا ساجدٌ ، فقبض روحه و هو ساجد .

أقول : هلمّوا معي أيّها المسلمون نسائل هذا المستحوذ عليه الشيطان عن حطّه نبيّ الاسلام عن ذروة القداسة و العظمة إلى أن نزّله عن درجة صحابته و تابعيهم وطائفة من الصوفيّة هل هكذا كان نبيّنا نبيّ العظمة ، فمن أين حقّ لنا القول بأنّه أفضل خلق الله قد اختاره من بريّته واصطفاه ممّن خلق ، والله يعلم ما خلق ؟ نعوذ بالله من تسطير القول بلاتعقّل .

ولا مندوحة لنا في المقام عن ذكر نصّ ما حكاه شيخنا الأمينيّ في «الغدير» ج ١١ ص١٦٣ إلى ١٦٦ و ما أردفه من كلامه قال :

قال ابن الجوزي في المنتظم ج ٩ ص١٦٩ : أخذ في تصنيف كتاب الاحياء في القدس ثمّ أتمّه بدمشق إلّا أنّه وضعه على مذهب الصوفيّة وترك فيه قانون الفقه مثل أنّه :

ذكر في محو الجاه ومجاهدة النفس : أنّ رجلاً أراد محو جاهه فدخل الحمّام فلبس ثياب غيره ، ثمّ لبس ثيابه فوقها ، ثمّ خرج يمشي على محلّ حتّى لحقوه فأخذوها منه و سمّي سارق الحمّام . و ذكر مثل هذا على سبيل التعليم للمريدين قبيح ، لأنّ الفقه يحكم بقبح هذا فإنّه متى كان للحمّام حافظ وسرق سارق قطع ، ثمّ لايحلّ لمسلم أن يتعرّض بأمر يأثم الناس به في حقّه .

و ذكر أنّ رجلاً اشترى لحماً فرأى نفسه تستحيي من حمله إلى بيته فعلّقه في عنقه ومشى .

وهذا في غاية القبح ، و مثله كثير ليس هذا موضعه ، و قد جمعت أغلاط الكتاب وسمّيته [إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء] و أشرت إلى بعض ذلك في كتابي المسمّى بتلبيس إبليس .

مثل ما ذكر في كتاب النكاح : أنّ عائشة قالت للنبي صلّى الله عليه وآله : أنت الّذي تزعم

أنّك رسول الله ؟ و هذا محالٌ - إلى أن قال - :

و ذكر في كتاب الإحياء من الأحاديث الموضوعة و ما لايصحّ غير قليل ، و سبب ذلك قلّة معرفته بالنقل ، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف ، و إنّما نقل نقل حاطب ليل . و كان قد صنّف للمستظهر كتاباً في الردّ على الباطنيّة ، و ذكر في آخر مواعظ الخلفاء .

فقال : روي أنّ سليمان بن عبد الملك بعث إلى أبي حازم : ابعث إليّ من إفطارك فبعث إليه نخالة مقلوّة فبقي سليمان ثلاثة أيّام لا يأكل ، ثمّ أفطر عليها وجامع زوجته، فجاءت بعبد العزيز ، فلمّا بلغ ولدله عمر بن عبدالعزيز ، وهذا من أقبح الأشياء لأنّ عمر ابن عمّ سليمان وهو الّذي ولّاه ، فقد جعله ابن ابنه ، فما هذا حديث من يعرف من النقل شيئاً أصلاً . الخ .

و قال ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٣٥٢ : قد حكى أبوحامد الغزّالي في كتاب الإحياء قال : كان بعض الشيوخ في بدايه إرادته يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول اللّيل لتسمح نفسه بالقيام عن طوع ، قال : و عالج بعضهم حبّ المال بأن باع جميع ماله ورماه في البحر إذا خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود ورياء البذل .

قال : وكان بعضهم يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ليعوّد نفسه الحلم . قال : وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الموج ليصير شجاعاً . ثمّ قال :

قال المصنّف رحمه الله : أعجب من جميع هؤلاء عندي أبوحامد كيف حكى هذه الأشياء ولم ينكرها ؟ و كيف ينكرها وقد أتى بها في معرض التعليم ؟ وقال قبل أن يورد هذه الحكايات : ينبغي للشيخ أن ينظر إلى حالة المبتدي فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر حاجته أخذه وصرفه في الخير ، وفرغ قلبه منه حتّى لايلتفت إليه . وإن رأى الكبرياء قدغلب عليه أمره أن يخرج إلى السوق للكدّ ويكلّفه السؤال و المواظبة على ذلك . وإن رأى الغالب عليه البطالة استخدمه في بيت الماء و تنظيفه و كنس المواضع القذرة و ملازمة المطبخ ومواضع الدخان . و إن رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم ، وإن رآه عزباً ولم تنكسر شهوته بالصوم أمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز، وليلة على الخبز دون الماء ويمنعه اللّحم رأساً . فقال :

قلت : وإنّي لأتعجّب من أبي حامد كيف يأمر بهذه الأشياء الّتي تخالف الشريعة؟ وكيف يحلّ القيام على الرأس طول اللّيل فينعكس الدّم إلى وجهه و يورثه ذلك مرضاً شديداً ؟ وكيف يحلّ رمي المال في البحر ؟ و قد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال ، وهل يحلّ سبّ مسلم بلاسبب ؟ وهل يجوز للمسلم أن يستأجر على ذلك ؟ وكيف يجوز ركوب البحر زمان اضطرابه ؟ وذاك زمان قد سقط فيه الخطاب بأداء الحجّ ، وكيف يحلّ السؤال لمن يقدر أن يكتسب ؟ فما أرخص ما باع أبوحامد الغزّالي الفقه بالتصوّف ؟ .

وقال : وحكى أبوحامد : أنّ أباتراب النخشبي قال لمريد له : لورأيت أبايزيد مرّة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله سبعين مرّة . فقال : قلت : و هذا فوق الجنون بدرجات .

هذه جملة من كلمات ابن الجوزي حول «إحياء العلوم» ومن أمعن النظر في أبحاث هذاالكتاب يجده أشنع ممّاقاله ابن الجوزي ، وحسبك ماجاء به من حلّيّة الغناء والملاهي و سماع صوت المغنّية الأجنبيّة و الرقص واللّعب بالدرق و الحراب و نسبة كلّ ذلك إلى نبيّ القداسة رسول الله ﷺ فقال : بعد سرد جملة من الموضوعات تدعيماً لرأيه السخيف : فيدلّ هذا على أنّ صوت النساء غير محرّم تحريم صوت المزامير ، بل إنّمايحرم عند خوف الفتنة ، فهذه المقاييس و النصوص تدلّ على إباحة الغناء ، و الرقص ، والضرب بالدّف ، واللّعب بالدرق والحراب ، و النظر إلى رقص الحبشيّة و الزنوج في أوقات السرور كلّها قياساً على يوم العيد فإنّه وقت سرور و في معناه يوم العرس ، و الوليمة ، و العقيقة ، و الختان ، ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح ، و هو كلّ مايجوز به الفرح شرعاً ، و يجوز الفرح بزيارة الإخوان و لقائهم و اجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضاً مظنّة السماع . ثمّ ذكر سماع العشّاق تحريكاً للشوق وتهييجاً للعشق و تسليةً للنفس . وفصّل القول في ذلك بمالاطائل تحته ، وخلط الحابل بالنابل و جمع فيه بين الفقه المزيّف و بين السلوك بلافقاهة .

و من طامّات كتاب « الإحياء » أومن شواهد جهل مؤلّفه المبير ومبلغه من الدين والورع ورأيه الساقط في اللّعن قال في ج ٣ ص ١٢١ : و على الجملة ففي لعن الأشخاص

خطر فليجتنب ، ولاخطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره ، فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمر به ؟ قلنا : هذا لم يثبت أصلاً ، فلايجوز أن يقال : إنه قتله ، أو أمر به مالم يثبت فضلاً عن اللعنة ، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . ثم ذكر أحاديث في النهي عن لعن الأموات فقال :

فإن قيل : فهل يجوز أن يقال : قاتل الحسين لعنه الله ، أوالآمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا : الصواب أن يقال : قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله . لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشياً قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعاً ، ولا يجوز أن يلعن والقتل كبيرة ، ولا تنتهي إلى رتبة الكفر ، فإذا لم يقيد بالتوبة و أطلق كان فيه خطر ، وليس في السكوت خطر فهو أولى . اﻫ .

فهلم معي أيها القارىء الكريم إلى هذه التافهات المودوعة في غضون « إحياء العلوم » هل يراها النبي الأعظم ﷺ شيئاً حسناً ، وحلف بذلك[1] ؟ وهل سره دفاع الرجل عن إبليس اللعين أوعن جروه يزيد الطاغية الذي أبكى عيون آل الله وعيون صلحاء أمة محمد ﷺ في ريحانته إلى الأبد ؟!

وهل يحق لمسلم صحيح ينزه عن النزعة الأموية الممقوتة ، و يطلع على فقه الإسلام وطقوسه ، ويعلم تاريخ الأمة ، ويعرف نفسيات أبناء بيت امية الساقط ، ولا يجهل أولا يتجاهل بما أتت به يد يزيد الطاغية الأثيمة ، و ما نطق به ذلك الفاحش المتفحش و ما أحدثه في الإسلام من الفحشاء والمنكر ، وما ثبت عنه من أفعاله وتروكه ، وما صدرعنه من بوائق و جرائم وجرائح أن يدافع عنه بمثل ما أتى به هذا المتصوف الثرثار البعيد عن العلوم الدينية وحياتها ؟ و هولا يبالي بمايقول ، ولا يكترث لمغبة ماخطته يمناه الخاطئة ، والله من ورائه حسيب ، وهونعم الحكم العدل ، والنبي الأعظم ، ووصيه الصديق ، والشهيد السبط المفدى هم خصماء الرجل يوم يحشر للحساب مع يزيد الخمور والفجور ــ ومن أحب حجراً حشره الله معه ــ وسيذوق و بال مقاله و يرى جزاء مخاماته : انتهى مانقلناه من كتاب الغدير .

---

(١) اشارة الى مايأتى من قصة أبى الحسن المعروف بابن حرزم فى الصفحة الاتية .

✿(عود الى بدء)✿

ههنا نعود إلى بقيّة ما أملاه شيخنا الأميني . قال :

و من أمعن النظر في كثير من أبحاث الكتاب يعطي الحقّ لشيخنا المولى الفيض في حذفه منه أبواباً و كتباً و فصولاً برمّتها ، و صفحه عنها ، و تهذيب الكتاب منها ، و عدم الخوض و بسط الكلام في تفنيدها ، محتجّاً بأنّها وليدة الأهواء الضالّة ، ونسيجة الآراء المضلّة ، لا يذهب إليها إلّا من صُفّد بسلاسل البدع و النزعات الكاسدة الفاسدة المدلهمّة ، يحقّ للمسلم الصحيح أن يسكت عنها ، و لا يدنو منها ، و لا يحوم حولها ، ونعمّا فعل ، فإنّها تعمي القلوب ، ولا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتي في الصدور.

ولا يغرنّك من يلهج بالثناء على « إحياء العلوم » جهلاً بما فيه ، أو ذهولاً عن معرّته ، أو ابتهاجاً لما فيه من الحكايات الّتي يستروح بها ، أو نزوعاً إلى حكم العاطفة ، أو غضّاً و غمضاً عن حكم العقل و الشرع و المنطق و الاعتبار ، أو تشويهاً لسمعة الاسلام المقدّس بتلكم المحبوكات على نول الخيال ، و بثّ ما فيه من الآراء و المعتقدات الّتي تضادّ الكتاب الكريم و السنّة الثابتة . قل لي : بأيّ كتاب أم بأيّة سنّة يصح مانشرته يد الإفك و الاختلاق و قصص الخرافة في الذبّ عن كتاب سوّد صحيفة تاريخ مؤلّفه و أبقى عليه عاراً مع الأبد ، و أثنى عليه لسان الوضع و الافتعال ممّا ذكره الإمام أبوالحسن المعروف بابن حرزم و كان مطاعاً في بلاد المغرب إنّه لمّا وقف على « إحياء العلوم » للغزّالي أمر بإحراقه . وقال : هذا بدعة مخالف للسنّة فأمر بإحضار ما في تلك البلاد من نسخ الإحياء ، فجمعوا و أجمعوا على إحراقها يوم الجمعة ، و كان إجماعهم يوم الخميس فلمّا كان ليلة الجمعة رأى أبو الحسن في المنام كأنّه دخل من باب الجامع ، و رأى في ركن المسجد نوراً ، و إذا بالنبيّ ﷺ و أبي بكر و عمر جلوس و الإمام الغزّالي قائم و بيده « الإحياء » و قال : يا رسول الله هذا خصمي ، ثمّ جثا على ركبتيه و زحف عليها إلى أن وصل إلى النبيّ ﷺ فناوله « كتاب الإحياء » وقال : يا رسول الله انظر فيه فإن كان فيه بدعة مخالفة لسنّتك كما زعم تبت إلى الله ، و إن كان شيئاً تستحسنه حصل لي من بركتك فأنصفني من خصمي ، فنظر فيه رسول الله ﷺ ورقة ورقة

إلى آخره ، ثمّ قال : و الله إنّ هذا شيء حسن ، ثمّ ناوله أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فنظر فيه كذلك ، ثمّ قال : نعم و الّذي بعثك بالحقّ يا رسول الله إنّه لحسن ، ثمّ ناوله عمر ـ رضي الله عنه ـ فنظر فيه كذلك ، ثمّ قال كما قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأمر رسول الله ﷺ بتجريد أبي الحسن و ضربه حدّ المفتري ، فجرّد و ضرب ، ثمّ شفع فيه أبوبكر بعد خمسة أسواط ، و قال : يا رسول الله إنّما فعل ذلك اجتهاداً في سنّتك و تعظيماً ، فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلمّا استيقظ أبو الحسن من منامه و أصبح أعلم أصحابه بما جرى و مكث قريباً من الشهر متألّماً من الضرب ، ثمّ سكن عنه الألم و مكث إلى أن مات ، و أثر السياط على ظهره و صار ينظر كتاب « الإحياء » و يعظّمه و ينتحله أصلاً أصيلا .

وفي لفظ اليافعي قال : وبقيت متوجّعاً لذلك خمساً و عشرين ليلة ثمّ رأيت النبيّ ﷺ جاء و مسح عليّ و توّبني فشفيت ونظرت في «الإحياء» ففهمته غير فهم الأوّل ؛ و ذكره السبكي في طبقاته ج ٤ ص ١٣٢ : و قال : هذه حكاية صحيحة حكاها جماعة من ثقات مشيختنا عن الشيخ العارف وليّ الله سيّدي ياقوت الشاذلي عن شيخنا السيّد الكبير وليّ الله أبي العبّاس المرسي ، عن شيخه الشيخ الكبير ولي الله أبي الحسن الشاذلي قدس الله تعالى أسرارهم .

و ذكره المولى أحمد طاش كبرى زاده في مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٠٩ و اليافعيّ في مرآة الجنان ج ٣ ص ٣٣٢ :

و قال السبكي في طبقاته ج ٤ ص ١١٣ : كان في زماننا شخص يكره الغزالي و يذمّه و يستغيبه في الديار المصريّة فرأى النبيّ ﷺ في المنام و أبا بكر و عمر ـ رضي الله عنهما ـ بجانبه و الغزاليّ جالس بين يديه و هو يقول : يا رسول الله هذا يتكلّم فيّ و إنّ النبيّ ﷺ قال : هاتوا السياط ، و أمر به فضرب لأجل الغزالي ، و قام هذا الرجل من النوم و أثر السياط على ظهره ، و لم يزل كان يبكي و يحكيه للناس ، و سنحكي منام أبي الحسن ابن حرزم المغربي المتعلّق بكتاب « الإحياء » و هو نظير هذا . انتهى

هذه الشناشن الأفنة، و العقليّات الطائشة، و التافهات المزخرفة، و الأباطيل الممقوتة، و الآراء السخيفة، و الأفكار الضئيلة، و الطريقة النائية عن الحقيقة.

و هذا الفقه المزيّف، و العلم المردود، و العرفان الذميم، و النسج المزوّر على نول الزور، و الحكم البات الباطل، و الزهد البارد المزهود عنه، و النسك الفارغ الخلق البالي.

كلّ هذه معرّة الاستبداد بالرأي، و الصفح عن الوسيلة المأمور باتّخاذها في كتاب الله العزيز، و عن وصية الرسول الأمين صلى الله عليه و آله المتكرّره، و البعد عن آل الله وعن علومهم و حكمهم، و هي ذنب التقاعس عن الإقتداء بهديهم، و الأخذ منهم، و نتاج الجموح و عدم العناية بشأنهم، و الاخبات إليهم و الإصاخة إلى قولهم، و جناية النزوع إلى حكم العاطفة.

هذا مجمل القول في «الإحياء» و أمّا تهذيبه «المحجّة البيضاء» و ما أدراك ما المحجّة البيضاء، فقد وافق الاسم المسمّى، و هو كتاب مكتنز بالفوائد، ممتلىء من النوادر و الكلام اللّطيف، مفعم برقيق المعاني و سديد القول، يطفح بطرائف الحديث، و طوارف القرائح، و مستظرفات الخواطر، و غرر النوادر، و درر الحكم و الآثار، تفتّح منه أبواب من العلوم الراسخة، تدلّ على وضح الطريق، و ترشد إلى مهيع السبل عند مفترقها، و تهدي إلى سواء السبيل.

يتراءى للباحث في طيّ تلكم الصحائف المكرّمة طريقة معبّدة، و حقيقة راهنة، وفقه مستدلّ، و حكمة بالغة، و موعظة حسنة، و حجّة داحضة، و رواية مع الدراية، و نواميس من الدين ناصعة، و دعوى مدعومة بالبرهنة.

يتراءى لكلّ من طالع ذلك السفر القيّم نسك معقول، و زهد غير مفتعل، و عرفان غير منسوج، و منهج لاحب، و قول سديد، و برهان قويّ، و دليل رصيف، و رأي حصيف، و بيان متين، و مقال بليغ، و كلام وزين، و مسلك جدد، و من سلك الجدد أمن العثار. و قد قال أمير المؤمنين عليه السلام: من سلك الطريق الواضح ورد الماء، و من خالف وقع في التيه.

يُترائى من المحجّة البيضاء لكلّ من سلكها أبحاث ضافية من عظات و عبر ، وبيّنات من صحيح الأثر ، و دروس عالية ممّا يهمّ السائر إلى الله عرفانه من المنجيات و المهلكات .

يُترائى لمن أطلّ عليها و استطلعها إثارة من العلم الناجع ، و قد أتاه المؤلّف من مأتاه ، و أخذه من لسان الصدق و العدل ، من لسان كتاب الله الناطق ، و السنّة المأثورة عن أئمّة بيت الوحي والرسالة و الإمامة ، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنّة الله تحويلاً .

فخطّت تلك الصحائف البيضاء يُمنى إيمان راسخ في العلم ، و هذّبته يد ولاء إنسان صادق في ولائه ، و نمّقته يراعة حَبر براها العلم الصحيح ، ونحتها من تخبّر السير إلى الله و اختبره ، و عرف من أين تؤكل الكتف .

فما قلّدته أنامل الفضيلة و الكرامة جيد هذا الإنسان معلّم الأخلاق من سمط اللئالي ، أو ما خطّه يراع العلم في صحيفة سفره ممّا يذكر ويُحمد ، و يقرء وينتفع به ، أو ما سُجّل في ديوانه من معروف و قول حسن جميل ، أو ما حوته طيّات كتبه من سديد الرأي ، و لطيف الكلام ، و جزيل المعاني ، و جودة السرد ، إلى حقائق و دقائق و رقائق كلّها من بركة آل الله و الاغتراف من بحار فضلهم .

وما أزاحه عن جميع ما في «الإحياء» من الزلّة والعثرة إلّا الأخذ من العترة الهادية .

و ما نحّاه عن كلّ تلكم السقطة و الهفوة إلّا التمسّك بالعروة الوثقى و حبل الله المتين .

و ما صانه عن مداس الترّهات و الشّبه إلّا الإصاخة إلى داعية الحقّ .

و ما دلّه على رشده إلّا السير و راء هدي أهل البيت الطاهر ، و هذا هو الفارق الوحيد بين الكتابين : «الإحياء» و «تهذيبه» . و كذلك بين كلّ كتاب و كتاب ، و صحيفة وصحيفة ، و مقال ومقال ، و الحمد لله أوّلاً وآخراً .

انتهى ما أملاه شيخنا الأجلّ اسوتنا و قدوتنا في المذهب مولانا الأميني حيّاه الله و بيّاه .

المؤلف

محمّد محسن بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود ، المدعوّ بالمولى محسن القاشاني ، المعروف بالفيض أحد نوابغ العلم في القرن الحاديعشر ، كان نشؤه في بلدة قم المشرّفة ، فانتقل إلى قاشان ، ثمّ ارتحل إلى شيراز بعد ما سمع بورود السيّد ماجد بن عليّ البحراني [1] تلك البلدة للأخذ من منهل علومه ، ومن المولى صدر الدين الشيرازي وتخرّج عليهما وتزوّج ابنة المولى الصدر المعظّم ، ثمّ غادرها إلى قاشان [2] و كان هنالك مرجعاً فذّاً لا نِدّ له إلى أن توفّي بها سنة ١٠٩١ و هو ابن أربع و ثمانين [3] ، و دفن هناك و قبره مشهور يزار .

جمل الثناء عليه

إطباق العلماء على فضله و تقدّمه و براعته في العلوم يغنينا عن سرد جمل الثناء عليه و تسطير الكلم في إطرائه .

قال المحدّث المتبحّر الشيخ الحرّ العامليّ : محمّد بن المرتضى المدعوّ بمحسن الكاشاني كان فاضلاً ، عالماً ، ماهراً ، حكيماً ، متكلّماً . محدّثاً ، فقيهاً ، محقّقاً ، شاعراً ، أديباً ، حسن التصنيف من المعاصرين ، له كتب ـ ثمّ عدّ بعضاً من كتبها ثمّ قال : ـ قد ذكره السيّد عليّ بن ميرزا أحمد في السلافة و أثنى عليه ثناءً بليغاً [4] .

و قال الرجاليّ الكبير محمّد بن عليّ الأردبيلي : محسن بن المرتضى ـ رحمه الله ـ

---

(١) هو السيد ماجد بن على بن المرتضى بن على بن ماجد ابو على الحسينى البحرانى من أجل فضلاء البحرين وادبائها كان أوحد زمانه فى العلوم وأحفظ أهل عصره و هو أول من نشر الحديث فى دار العلم شيراز المحروسة . قال الشيخ سليمان الماحوزى فى الفصل الذى ألحقه بالبلغة فى ذكر علماء البحرين : السيد العلامة الفهامة ـ الى أن قال ـ تلمذ عليه أعيان العلماء مثل مولانا العلامة محمد محسن الكاشانى صاحب الوافى . راجع ترجمته أمل الامل ص ٤٩٣ سلافة العصر ص ٥٠٠ ، خلاصة الاثر ج ٣ ص ٣٠٧ للمولى محمد المحبى . مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٤٢٠ .

(٢) راجع لؤلؤة البحرين ص ١٣٢ .

(٣) المستدرك ج ٣ ص ٤٢٠ .

(٤) أمل الامل ص ٥٠٧ من طبعه الملحق بمنهج المقال .

العلّامة المحقّق المدقّق جليل القدر، عظيم الشأن، رفيع المنزلة فاضل كامل، أديب متبحّر في جميع العلوم (١).

و قال السيّد نعمة الله الجزائري الشوشتري كان أُستاذنا المحقّق المولى محمّد محسن القاشاني صاحب الوافي و غيره ممّا يقرب مائتي كتاب ورسالة (٢).

و قال الشيخ يوسف البحراني: المحدّث القاشاني كان فاضلاً، محدّثاً، أخباريّاً صلباً (٣).

و قال السيّد محمّد شفيع الحسيني في الروضة البهيّة في ترجمته: إنّه صرف عمره الشريف في ترويج الآثار المرويّة، و العلوم الإلهيّة، و كلماته في كلّ باب في غاية التهذيب والمتانة وله مصنفات كثيرة.

و أثنى عليه صاحب الروضات بقوله: أمره في الفضل و الفهم و النبالة في الفروع و الأصول و كثرة التأليف مع جودة التعبير و الترصيف أشهر من أن يخفى في هذه الطائفة على أحد إلى منتهى الأبد (٤).

و قال المحدّث النوري: من مشايخ العلّامة المجلسي العالم الفاضل المتبحّر المحدّث العارف الحكيم المولى محسن بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود المشتهر بالفيض الكاشاني (٥).

و قال المحدّث القمّي بعد عنوانه نحواً ممّا مرّ: أمره في الفضل و الأدب، وطول الباع و كثرة الاطّلاع، وجودة التعبير، و حسن التحرير، و الإحاطة بمراتب المعقول و المنقول أشهر من أن يخفى (٦).

وقال العلّامة الأميني في الغدير ج ١١ ص ٣٦٢ في ترجمة علم الهدى ابن المؤلّف: هو ابن المحقّق الفيض علم الفقه، وراية الحديث، و منار الفلسفة، و معدن العرفان، وطود الأخلاق، و عباب العلوم والمعارف، هو ابن ذلك الفذّ الّذي قلّ ما أنتج شكل

(١) جامع الرواة ج ٢ ص ٤٢.
(٢) كذا في زهر الربيع ص ١٦٤ طبع طهران حسبما رقمناه
(٣) لؤلؤة البحرين ص ١٣٣.
(٤) الروضات ص٥١٦.
(٥) خاتمة المستدرك ص ٤٢٠.
(٦) الكنى والالقاب.

الدّهر بمثيله، و عقمت الأيّام عن أن تأتي بمشبهه.

و أورده البحّاثة، الأستاذ (مرتضى المدرّسي چهاردهي) المدرّس في دار المعلّمين العالية بجامعة طهران في كتابه المسمّى بطبقات المفسّرين و أطراه و عظّمه و بجّله بكلام يعجبني ذكره قال:

كان الفيض - رحمه الله - من كبار علماء الإماميّة الّذين كانت لهم عناية بالغة بالقرآن و الحديث، له مسلك خاصّ في التفسير جمع بين الطريقة و الشريعة.

ألّف في الحقائق القرآنيّة الّتي أُسّست على أُصول الفطرة، والحكمة العالية الّتي تنطبق على نواميس الطبيعة، والعرفان الصحيح الّذي يلائم الفطرة و العقل تفسيريه: الصافي، و الأصفى.

ونقل في كتابه «المحجّة البيضاء» الّذي ألّفه في تهذيب إحياء العلوم أخباراً كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في علم الأخلاق و علم النفس و أدبها بوجه رائق، والحقّ أنّه تفسير للقرآن وشرح لأحاديث الإماميّة، وهو يبحث في هذا الكتاب بحثاً تحليليّاً عن عقائد الغزّالي وآرائه ثمّ شرع في نقدها وتهذيبها معتمداً في كلّ ذلك على الكتاب والسنّة.

واستشهد في آرائه في جميع تآليفه بالقرآن والحديث الصادر عن أهل بيت الوحي.

وإذا قسنا بينه و بين أبي حامد في فهم آيات الكتاب الحكيم و الأخبار الصادرة عن منبع الوحي نرى تقدّمه الباهر على الغزّالي مع ماكان له من الشهرة العالميّة واشتهار الفيض في جامعة الشيعة فحسب.

ولو أنّ الدعايات المبثوثة حول الغزّالي في العالم بثّت حول الفيض لظهر عبقريّته وعلم المحقّقون من أعلام الغرب مبلغ عظمته العلميّة وتوجّهوا نحو آرائه القيّمة وعقائده الحقّة في علم التفسير والحديث من ناحية الأخلاق وعلم النفس وأدبها. انتهى

✿(مشايخه و الراوون عنه)✿

روى عن جمع من الفطاحل و جماعة من الأعلام منهم:

١ - الشيخ البهائي محمّد بن الحسين بن عبد الصمد العامليّ.

٢ - المولى محمّد طاهر بن محمّد حسين الشيرازيّ ثمّ النجفي ثمّ القمّيّ.

٣ ـ المولى خليل الغازي القزويني شارح الكافي .

٤ ـ الشيخ محمّد بن الشيخ الحسن بن الشهيد الثاني .

٥ ـ المولى محمّد صالح شارح الكافي .

٦ ـ السيّد الجليل النبيل السيّد ماجد بن السيّد هاشم الحسينيّ البحراني .

٧ ـ الحكيم المتألّه الفاضل محمّد بن إبراهيم الشيرازي الشهير بمولى صدرا .

٨ ـ أبوه الشاه مرتضى بن الشاه محمود .

و يروي عنه جماعة من الأعاظم منهم .

١ ـ العلاّمة المجلسي ـ محمّد باقر بن محمّد تقي صاحب بحار الأنوار .

٢ ـ السيّد نعمة الله الجزائريّ الشوشتري .

٣ ـ القاضي سعيد القمّيّ .

٤ ـ ولده الزكيّ المعروف بعلم الهدى .

☆(تآليفه القيمة وآثاره الثمينة)☆

قال الشيخ يوسف بن أحمد بن إبراهيم البحراني بعد ترجمته و الثناء عليه : له تصانيف أفردلها فهرساً عليحدة ونحن ننقل ذلك عنه ملخّصاً (١).

١ ـ الصافي في تفسير القرآن يقرب من سبعين ألف بيت ، فرغ من تأليفه في سنة خمس وسبعين بعد الألف (٢) .

٢ ـ الأصفى منتخب منه ، أحد وعشرين ألف بيت تقريباً .

٣ ـ الوافي في خمسة عشر جزءاً كلّ منها كتاب برأسه ، يقرب مجموعه من مائة و خمسين ألف بيت ، وقع الفراغ من تصنيفه في سنة ثمان وستّين بعد الألف .

٤ ـ الشافي ، وهو منتخب من الوافي ، في جزأين جزء فيما هو من قبيل العقائد والأخلاق ، وجزء هو من قبيل الشرائع والأحكام ، في كلّ منها اثنا عشر كتاباً ، يقرب من ستّة و عشرين ألف بيت ، وقع الفراغ منه في سنة اثنتين و ثمانين بعد الألف .

---

(١) راجع لؤلؤة البحرين ص ١٢٥ .

(٢) طبع مراة عدة بطهران .

٥ ـ النوادر ، في جمع الأحاديث الغير المذكورة في الكتب الأربعة المشهورة في سبعة آلاف بيت [طبع أخيراً بطهران بعناية مدير مكتبة «الشمس»] .

٦ ـ معتصم الشيعة ، في أحكام الشريعة ، قد خرج منه كتاب الصلاة و مقدّماتها ، مجلّد يقرب من أربعة عشر ألف بيت ، وقع الفراغ منه في سنة اثنتين وأربعين بعدالألف.

٧ ـ النخبة ، يشتمل على خلاصة أبواب الفقه في ثلاثة آلاف بيت و ثلاثمائة تقريباً في سنة خمسين بعد الألف .

٨ ـ التطهير ، وهو نخبة من النخبة لبيان علم الأخلاق يقرب من خمس مائة بيت .

٩ ـ علم اليقين في اصول الدّين ، أربعة عشر ألف بيت وخمس مائة تقريباً ، في سنة اثنتين وأربعين بعد الألف .

١٠ ـ المعارف ، وهو ملخّص من كتاب علم اليقين و لبابه ، في ستّة آلاف بيت تقريباً في سنة ستّ وثلاثين بعد الألف .

١١ ـ اُصول المعارف ، و هو ملخّص مهمّات عين اليقين ، يقرب من أربعة آلاف بيت ، وقد صنّف في سنة تسع وثمانين بعد الألف .

١٢ ـ المحجّة البيضاء ، في إحياء الإحياء ، ومجموعه ثلاثة وسبعون ألف بيت تقريباً ، وقع الفراغ منه في سنة ستّ و أربعين بعد الألف . [أقول : كأنّه تصحيف والصحيح تهذيب الإحياء كما في الأصل] .

١٣ ـ الحقائق في أسرار الدّين ، ملخّص كتاب المحجّة و لبابه في سبعة آلاف بيت في سنة تسعين وألف .

١٤ ـ قرّة العيون ، ثلاثة آلاف وخمس مائة بيت في سنة ثمان وثلاثين وألف .

١٥ ـ الكلمات المكنونة في بيان التوحيد ، في ثمان مائة بيت ، صنّف في سنة ألف و تسعين .

١٦ ـ جلاء العيون في بيان أذكار القلب ، في مائتي بيت .

١٧ ـ تشريح العالم ، في بيان هيئة العالم وأجسامه وأرواحه و كيفيّته وحركات الأفلاك والعناصر وأنواع البسائط والمركّبات ، في ثلاثة آلاف بيت .

١٨ ـ أنوار الحكمة ، وهو مختصر من كتاب علم اليقين مع فوائد حكميّة اختصّت

به ، تقرب من ستّة آلاف بيت ، في سنة ثلاث وأربعين بعد الألف .

١٩ ـ اللّباب ، و هو لباب القول في الإشارة إلى كيفيّة علم الله سبحانه بالأشياء مائتي بيت .

٢٠ ـ اللّب ، و هولبّ القول في معنى حدوث العالم ، في ثلاث مائة وسبعين بيت .

٢١ ـ ميزان القيامة ، ذكرفيه تحقيق القول في كيفيّة ميزان يوم القيامة ، يقرب من ستّ مائة بيت في سنة أربعين بعد الألف .

٢٢ ـ مرآة الآخرة ، تنكشف فيه حقيقة الجنّة والنّار ووجود هماالآن ومحلّهما من الدّنيا ، في تسع مائة بيت ، و قد صنّف في أربع وأربعين بعد الألف .

٢٣ ـ ضياء القلب ، في تحقيق حقيقة أحكام الخمسة الّتي تحكم على الإنسان في باطنه ، يقرب من خمس مائة بيت ، في سنة سبع وخمسين بعد الألف .

٢٤ ـ تنويرالمذاهب ، و هو تعليقات على تفسير القرآن المنسوب إلى الكاشفي ، الموسوم بالمواهب ، يقرب من ثلاثة آلاف بيت .

٢٥ ـ شرح الصحيفة السجّاديّة ، شرح منها ما لعلّه يحتاج إلى الشرح بإيجاز واختصار ، يقرب من ثلاثة آلاف بيت وثلاث مائة .

٢٦ ـ سفينة النجاة في أنّ مأخذ الأحكام الشرعيّة ، ليس إلّا محكمات الكتاب و السنّة ، يقرب من ألف وخمس مائة بيت وقد صنّف في سنة ثمان وخمسين بعد الألف.

٢٧ ـ الرسالة الموسومة بالحقّ المبين في تحقيق كيفيّة التفقّه في الدّين يقرب من مائتين وخمسين بيتاً ، وقد صنّف سنة ثمان وستّين بعد الألف .

٢٨ ـ الاصول الأصليّة ، يشتمل على عشرة أُصول مستفادة من الكتاب و السنّة يقرب من الألف وثمان بيت ، في سنة أربعة وأربعين بعد الألف .

٢٩ ـ تسهيل السبيل في الحجّة في انتخاب كشف المحجّة ، للسيّدبن طاؤوس العلويّ ، يقرب من تسع مائة بيت ، في سنة أربعين بعد الألف .

٣٠ ـ نقدالأصول الفقهيّة يشتمل علىخلاصة علمأُصول الفقه ، صنّف في عنفوان الشباب و هو اوّل تصنيف له ، يقرب من ألفين وثلاث مائة بيت .

٣١ ـ اصول العقائد في تحقيق الاصول الخمسة الدينيّة ، يقرب من ثمان مائة بيت ، في سنة ستّ وثلاثين بعد الألف .

٣٢ ـ منهاج النجاة ، في بيان العلم الّذي طلبه فريضة على كلّ مسلم ، و يقرب من ألفي بيت صنّف سنة اثنتين و أربعين بعد الألف .

٣٣ ـ خلاصة الأذكار يقرب من ألفي بيت و ثلاث مائة بيت ، و قد صنّف في سنة ثلاث وثلاثين بعد الألف .

٣٤ ـ ذريعة الفراغة في جميع الأدعيّة المتضمّنة للمناجاة المنقوله عن الأئمّة عليهم السلام ، يقرب من خمس مائة آلاف بيت ، وقد صنّف في سنة نيّف وخمسين بعد الألف .

٣٥ ـ مختصر الأوراد ، يشتمل على الأذكار والدعوات المتكرّرة في اليوم و اللّيلة والاسبوع والسنّة ، يقرب على خمسمائة آلاف وخمسمائة بيت ، وقع الفراغ من تصنيفه في سنة سبع وستّين و ألف .

٣٦ ـ أهمّ ما يعمل ، يشتمل على مهمّات ماورد في الشريعة المطهّرة من العمل بها ، يقرب من خمسمائة بيت .

٣٧ ـ الخطب يشتمل على مائة خطبة ونيّف لجمعات السنة والعيدين ، يقرب من أربعة آلاف بيت ، وقدتمّ جمعه في سنة سبع وستّين بعد الألف .

٣٨ ـ شهاب الثاقب في تحقيق عينيّة وجوب صلاة الجمعة في زمن الغيبة ، صنّف في سنة سبع و خمسين وألف .

٣٩ ـ أبواب الجنان ، في بيان وجوب صلاة الجمعة و شرائطها وآدابها و أحكامها بالفارسيّة لعامّة الناس في خمسمائة بيت ، و صنّف في سنة خمس و خمسين وألف .

٤٠ ـ ترجمة الصلاة ، يترجم فيه أذكار الصلاة بالفارسيّة في أربعمائة وخمسين بيتاً تقريباً ، صنّف في سنة ثلاث وأربعين بعد الألف .

٤١ ـ مفاتيح الخير ، ممّايتعلّق بفقه الصلاة ولواحقها بالفارسيّة ، يقرب منمائتين وخمسين بيتاً .

٤٢ ـ ترجمة الطهارة وفقهها وما يتعلّق بها بالفارسيّة في مائتين وثمانين بيتاً .

٤٣ ـ أذكار الطهارة، من الأذكار المتعلّقة بها، في خمسين بيتاً .

٤٤ ـ ترجمة الزكاة بالفارسيّة، في مائتين وستّين بيتاً .

٤٥ ـ ترجمة الصيام، و هو مثل ترجمة الزكاة، يقرب من ثلاث مائة بيت .

٤٦ ـ ترجمة العقائد بالفارسيّة .

٤٧ ـ الرسالة الموسومة بالسانح الغيبي في تحقيق معنى الإيمان والكفر ومراتبهما .

٤٨ ـ الرسالة الموسومة براه صواب يذكر فيها بالفارسيّة سبب اختلاف أهل الإسلام في المذاهب و انبعاثهم على تدوين الاُصولين، و تحقيق معنى الإجماع في خمسمائة بيت صنّف في سنة نيّف وأربعين وألف .

٤٩ ـ الرسالة الموسومة بشرائط الإيمان و هومنتخب من رآه صواب .

٥٠ ـ كتاب ترجمة الشريعة بالفارسيّة، فيه معنى الشريعة و فائدتها و كيفيّة سلوكها وبيان أقسام كلّ من الحسنات والسيّئات .

٥١ ـ الأذكار المهمّة، مختصر من خلاصة الأذكار فارسيّ في ثلاث مائة وأربعين بيتاً .

٥٢ ـ الرفع والدفع، في رفع الآفات و دفع البليّات بالقرآن و الدّعاء و العوذ والرقى والدّواء، فارسيّ في أربعمائة وعشرين بيتاً .

٥٣ ـ الرسالة الموسومة بآئينهٔ شاهي، وهومنتخب من ضياء القلب، فارسيّ، تقرب من ثلاث مائة بيت، في سنة ستّ وستّين وألف .

٥٤ ـ الرسالة الموسومة بوصف الخيل، وذكر ماورد من اتّخاذ الخيل و معرفتها وعلاماتها من الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فارسيّة، تقرب من مائتي بيت، قد صنّف في سنة سبع و ستّين و ألف .

٥٥ ـ الرسالة الموسومة بزاد السالك، يذكر فيها كيفيّة سلوك طريق الحقّ وشروطه و آدابه [طبع بعناية الاُستاد الشريف السيّد جلال الدين المعروف بمحدّث] .

٥٦ ـ الرسالة الموسومة بالنخبة الصغرى تشتمل على لباب فقه الطهارة و الصلاة والصيام، في لفظه متعلّقات النخبة الصغرى وفيها تفصيل ما أجملته وتبيين ما أبهمته .

٥٧ ـ الرسالة الموسومة بالضّوابط الخمس في أحكام الشكّ والسهو والنسيان في الصلاة .

٥٨ ـ الرسالة الموسومة بحرمان الأموات تشتمل على اُمّهات المسائل الشرعيّة المتعلّقة بالجنائز .

٥٩ ـ و رسالة في بيان أخذ الاُجرة على العبادات و التغاير الدينيّة ، تقرب من مائة وخمسين بيتاً .

٦٠ ـ رسالة في تحقيق ثبوت الولاية على البكر في التزويج و ما يتعلّق بذلك إلى مائة و ثمانين بيتاً .

٦١ ـ الرسالة الموسومة بغنية الأنام في معرفة الأيّام و الساعات ، ممّا هومستفاد من أخبار أهل البيت عليهم السلام .

٦٢ ـ الرسالة الموسومة بمعيار الساعات ، و هوغريبة من الغنية ، إلّا أنّها بالفارسيّة .

٦٣ ـ والرسالة الموسومة بالأحجار الشداد و السيوف الحداد في إبطال الجواهر الافراد .

٦٤ ـ الرسالة الموسومة بالمحاكمة ، تشتمل على محاكمة بين فاضلين من مجتهدي أصحابنا في معنى التقيّة في الدين .

٦٥ ـ والرسالة الموسومة برفع الفتنة في بيان حقيقة العلم و العلماء ، وشيء من معنى الزهد و العبادة وأصحابها .

٦٦ ـ فهرست العلوم شرحت فيها أنواعها وأصنافها .

٦٧ ـ رسالة في أجوبة مكتوبات و سؤالهنّ منتزعات من كتب العلماء و أهل المعرفة وأشعارهم .

٦٨ ـ الرسالة الموسومة بشرح الصور تشتمل على مجمل ما مضى من الحالات والنوائب في أيّام عمري من ظعني وإقامتي واستفادتي وإفادتي ومكارمي ومقاماتي وخمولي وشهرتي وخلوتي وصحبتي ومفارقة إخواني المحبوبين و مخالطة أصحابي المكرمين ، وهي نفثة من نفثاتي ، وقد صنّف في خمس وستّين و ألف .

أقول : إلى هنا منقول من لؤلؤة البحرين النسخة المطبوعة ولا يخفى ما فيه من الاشتباه والتصحيف والسقط والخلط .

و ذكر العالم المتبحّر الخبير الشيخ محمّد عليّ المدرّس التبريزي في ريحانة الأدب ج ٣ ص ٢٤٢ له كتب أخرى وهي :

٦٩ ـ آب زلال ، مثنويّ ، يخاطب به نفسه في شطر وربّه الأعلى في شطر آخر ، فارسي .

٧٠ ـ الأربعون حديثاً في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام .

٧١ ـ ألفت نامه في ترغيب المؤمنين إلى الأنس والاتّحاد ، فارسيّة .

٧٢ ـ الأمالي .

٧٣ ـ رسالة الانصاف في طريق العلم بأسرار الدين .

٧٤ ـ انموذج أشعار أهل العرفان يحوي سبعين غزلاً في التوحيد ، فارسي .

٧٥ ـ بشارة الشيعة .

٧٦ ـ كتاب التوحيد .

٧٧ ـ ثناء المعصومين .

٧٨ ـ الجبر والاختيار .

٧٩ ـ الكلمات المخزونة مختصر من الكلمات المكنونة .

٨٠ ـ حاشية على رواشح السماويّة لمير الداماد .

٨١ ـ حاشية على صحيفة السجّاديّة .

٨٢ ـ ديوان شعره [طبع أخيراً في طهران بعناية مدير مكتبة « الشمس »] .

٨٣ ـ شوق الجمال وشوق العشق وشوق المهدي كلّها من منظوماته .

٨٤ ـ فهرست مصنّفاته [كما عرفت سابقاً] .

٨٥ ـ گلزار قدس [طبع مع ديوانه] .

٨٦ ـ المصفّى في تفسير القرآن [أقول : ولم يثبت وفيه كلام] .

٨٧ ـ مثنويّات يسمّي تسنيم و سلسبيل وندبة العارف وندبة المستغيث إلى غير ذلك .

٨٨ ـ مفاتيح الشرايع في الفقه . ٨٩ ـ عين اليقين .

قال في اللّؤلؤة : و قد انتقل من بلدة كاشان إلى شيراز للتحصيل على يد السيّد ما جد البحراني والمولى صدر الدين الشيرازي .

حكى السيّد السعيد السيّد نعمة الله الجزائريّ الشوشتري ـ رحمه‌الله ـ قال: كان أُستادنا المحقّق المولى محمّد محسن الكاشاني صاحب الوافي وغيره ممّا يقارب مائتي كتاب و رسالة، و كان نشوؤه في بلدة قم فسمع بقدوم الشيخ الأجلّ المحقّق المدقّق الإمام الهمام السيّد ماجد البحرانيّ الصادقي إلى شيراز، فأراد الارتحال إليه لأخذ العلوم منه، فتردّد والده في الرخصة له ثمّ بنوا الرخصة و عدمها على الاستخارة فلمّا افتتح القرآن جاءت الآية «فلو لا نفر من كلّ فرقة طائفة منهم ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون» ولا آية أصرح و أنصّ وأدلّ على هذا المطلب مثلها، ثمّ تفأّل بعدُ بالديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه‌السلام فجاءت الأبيات هكذا:

تغرّب عن الأوطان في طلب العلى ... و سافر ففي الأسفار خمس فوائدِ

تفرّج همّ واكتساب معيشة ... و علم و آداب و صحبة ماجدِ

فإن قيل في الأسفار ذلّ و محنة ... و قطع الفيافي و ارتكاب الشدائدِ

فموت الفتى خير له من معاشه ... بدار هوان بين واشٍ و حاسدِ

وهذه أيضاً أنسب بالمطلوب ولاسيّما قوله: «وصحبة ماجد» فسافر إلى شيراز وأخذ عنه العلوم الشرعيّة وقرء العلوم العقليّة على الحكيم الفيلسوف المولى صدر الدين الشيرازيّ وتزوّج بابنته.

علي أكبر الغفاريّ

(تذكرة)

قوبل هذا المجلد على ثلاث نسخ نفيسة ثمينة:

١ ـ نسخة مصحّحة جدّاً موشّحة بالحواشي و التعاليق للسيّد الشريف المحقّق السيّد محمّد عليّ الروضاتي دامت فيوضاته، إليك صورتها الفتوغرافيّة تحت رقم ١ .

٢ ـ نسخة مصحّحة لخزانة كتب الحبر العلم النسّابة، سماحة آية الله، السيّد شهاب الدين النجفيّ المرعشي دام ظلّه العالي، راجع صورتها الفتوغرافيّة تحت رقم ٢ .

٣ ـ نسخة نفيسة لمكتبة الأستاذ مرتضى المدرّسي چهار دهي، و إليك صورتها الفتوغرافيّة تحت رقم ٣ .

و سنورد خصوصيّات تلك النسخ كلّها في المجلّد الآخر إن شاء الله.

عليهما السلام العالم كمن معه شمعة تضيء للناس فكل من أبصر بشمعته دعا له بخير كذلك العالم معه شمعة يزيل
بها ظلمة الجهل والحيرة فكل من أضاءت له فخرج بها من حيرة أو نجا بها من جهل فهو من عتقائه من النار والله
يعوضه عن ذلك بكل شعرة لمن أعتقه ما هو أفضل له من الصدقة بمائة ألف قنطار على غير الوجه الذي أمر الله
بل تلك الصدقة وبال على صاحبها لكن يعطيه الله تعالى ما هو أفضل من مائة ألف ركعة بين يدي الكعبة وقال
جعفر بن محمد عليهما السلام علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته يمنعونهم عن الخروج
على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلط عليهم إبليس وشيعته النواصب ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا
كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر ألف ألف مرة لأنه يدفع عن أديان محبينا وذلك يدفع عن أبدانهم
وقال موسى بن جعفر عليهما السلام فقيه واحد ينقذ يتيماً من أيتامنا المنقطعين عنا وعن مشاهدتنا والتعلم
علومنا بتعليمه ما هو محتاج إليه أشد على إبليس من ألف عابد لأن العابد همه ذات نفسه فقط وهذا
همه مع ذات نفسه ذات عباد الله وإمائه لينقذهم من يد إبليس ومردته ولذلك هو أفضل عند الله
من ألف عابد وألف ألف عابد وقال علي بن موسى عليهما السلام يقال للعابد يوم القيامة نعم الرجل كنت همتك
ذات نفسك وكفيت الناس مؤونتك فادخل الجنة ألا إن الفقيه من أفاض على الناس خيره وأنقذهم من
أعدائهم ووفر عليهم نعم جنان الله تعالى وحصل لهم رضوان الله تعالى ويقال للفقيه يا أيها الكافل لأيتام
آل محمد الهادي لضعفاء محبيه ومواليه قف حتى تشفع لكل من أخذ عنك أو تعلم منك فيقف فيدخل
الجنة معه فئاماً وفئاماً حتى قال عشراً وهم الذين أخذوا عنه علومه وأخذوا عمن أخذ عنه إلى يوم القيامة
فانظروا كم فرق ما بين المنزلتين وقال محمد بن علي عليهما السلام إن من تكفل بأيتام آل محمد المنقطعين
عن إمامهم المتحيرين في جهلهم الأسارى في أيدي شياطينهم وفي أيدي النواصب من أعدائنا فاستنقذهم منهم
وأخرجهم من حيرتهم وقهر الشياطين برد وساوسهم وقهر الناصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم ليفضلون عند
الله تعالى على العابد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على الأرض والعرش والكرسي والحجب على السماء وفضلهم
على هذا العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء وقال علي بن محمد عليهما السلام لولا من يبقى بعد
غيبة قائمكم من العلماء الداعين إليه والدالين عليه والذابين عن دينه بحجج الله تعالى والمنقذين لضعفاء
عباد الله من شباك إبليس لعنه الله ومردته ومن فخاخ النواصب الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء
الشيعة كما يمسك السفينة سكانها لما بقي أحد إلا ارتد عن دين الله تعالى ولكنهم هم الأفضلون عند الله عز وجل
وقال الحسن بن علي عليهما السلام يأتي علماء شيعتنا القوامون بضعفاء محبينا وأهل ولايتنا يوم القيامة
والأنوار تسطع من تيجانهم على رأس كل واحد منهم تاج بهاء قد انبثت تلك الأنوار في عرصات القيامة ودورها

١ ـ نسخة السيد الشريف الروضاتي

واستغواهم الطغيان فأصبح كل واحد منهم بعاجل حظه مشغوفاً فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظل
علم الدين مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة يستعين
بها القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام
أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للعوام وحبالة
الحرام وشبكة الحطام فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة
وعلماً وضياءً ونوراً وهداية ورشداً فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً قال ولما كان هذا ثلماً في
الدين ملماً وخطباً مدلهماً رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً إحياءً لعلوم الدين وكشفاً عن مناهج الأئمة
المتقدمين وإيضاحاً لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين أقول ولهذا السبب بعينه مع ما ذكرت
من الأمور اشتغلت بتهذيب كتابه وإحياء إحيائه إحياءً لعلوم الدين بجهة أخرى وكشفاً عن مناهج الأئمة الذين
بهدايتهم أرفع وأعلى وسميته بالمحجة البيضاء في تهذيب الإحياء وإن شئت قلت إحياء الإحياء وتقربت به إلى
الله سبحانه نفع به السالكين وجعله إلى الطريق ذخراً ليوم الدين ووفقني للعمل به وأشركني في أجر سائر
العاملين به بمنه وكرمه آمين قال أبو حامد رحمه الله ولقد أسسته على أربعة أرباع ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات
وربع المنجيات وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم لأكشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله عز وجل الأعيان
بطلبه على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وأميز فيه العلم
النافع من الضار إذ قال صلى الله عليه وآله نعوذ بالله من علم لا ينفع وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب وانخداعهم بلامع
السراب واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب كتاب العلم كتاب
قواعد العقائد كتاب أسرار الطهارة كتاب أسرار الصلاة كتاب أسرار الزكاة كتاب أسرار الصيام كتاب أسرار

الحج

٢ ـ نسخة سماحة آية الله المرعشي

هذا كتاب محجة البيضاء في احياء الاحياء من تصانيف مولانا
محمد محسن الكاشاني بسم الله الرحمن الرحيم ربع العبادات

احمد الله تعالى اولاً احمداً كثيراً دائماً متوالياً وان كان دون حق جلاله حمد الحامدين واصلي
على رسوله واوصيائه رسوله ثانياً صلوة تستغرق مع سيد المرسلين عترته المعصومين
ساير النبيين واستخيره سبحانه ثالثاً فيما انبعث له عزمي من تحرير كتاب في تهذيب احياء
علوم الدين من تصانيف ابي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي قدس الله سره فانه وان اشتهر في
الاقطار اشتهار الشمس في رابعة النهار واشتمل من العلوم الدينية المهمة النافعة في الآخرة على ما
يمكن التوصل به الى الفوز بالدرجات الفاخرة مع حسن البيان والتحرير وجودة الترتيب والتقرير الا ان ابا
حامد لما كان حين تصنيفه عامي المذهب ولم يتشيع بعد وانما رزقه الله هذه السعادة في اواخر عمره كما
اظهره في كتابه المسمى بسر العالمين وشهد به ابن الجوزي الحنبلي كان قد فاته بيان ركن عظيم من الايمان
وهو معرفة الائمة المعصومين الذين جاءت الوصية بالتمسك بهم وبالقرآن من سيد الانس و
الجان صلوات الله عليه وعليهم وكان كثير من مطالبه خصوصاً ما في فن العبادات منها مبتنياً على
اصول واهية فاسدة ومبتدعات لاهل الاهواء كاسدة وكان اكثر الاخبار المروية فيه مسندة

٣ ـ نسخة الأستاذ (المدرسي چهار دهی)

﴿ مصادر التعليق والتصحيح في هذا المجلد ﴾

١ - الاتقان للسيوطي .
٢ - الاحتجاج للطبرسي .
٣ - احياء علوم الدين للغزالي .
٤ - الاختصاص للشيخ المفيد الطبعة الاولى .
٥ - الارشاد « ط ١٣٧٧ .
٦ - ارشاد الساري للقسطلاني .
٧ - الاستبصار للشيخ الطوسي ط النجف .
٨ - الاستغاثة لاحمد بن موسى القمي .
٩ - الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الاصابة .
١٠ - اسد الغابة لابن أثير الجزري .
١١ - أسرار الصلاة للشهيد الثاني .
١٢ - الاصابة لابن حجر العسقلاني ط ١٣٥٩
١٣ - اعتقادات الصدوق .
١٤ - اعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ط ١٣٧٩ .
١٥ - الامالي للشيخ الصدوق .
١٦ - الامالي للشيخ الطوسي .
١٧ - الامالي للشيخ المفيد .
١٨ - الامامة والسياسة لابن قتيبة ط ١٣٧٧ .
١٩ - الانساب للبلاذري .
٢٠ - بحار الانوار للمجلسي .
٢١ - بصائر الدرجات للصفار الطبع الحجري
٢٢ - البيان والتعريف لابن حمزة الحسيني ط الحلب .
٢٣ - التاج الجامع الاصول .
٢٤ - تاريخ الخطيب طبع مصر .
٢٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي .
٢٦ - تاريخ الذهبي .
٢٧ - تحف العقول لابن شعبة ط ١٣٧٦ .
٢٨ - التذكرة لسبط ابن جوزي الطبع الحجري
٢٩ - الترغيب والترهيب للمنذري ط ١٣٧٣
٣٠ - تفسير ابن كثير .
٣١ - تفسير علي بن ابراهيم القمي ط ١٣١٣ .
٣٢ - التفسير الكبير لفخر الدين الرازي .
٣٣ - التوحيد للصدوق ط ١٣٢١ .
٣٤ - تفسير الانوار للبيضاوي .
٣٥ - التهذيب للشيخ الطوسي ط ١٣١٧ .
٣٦ - تيسير الوصول لابن الديبع الدمشقي .
٣٧ - ثواب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
٣٨ - جامع الاخبار .
٣٩ - جامع الرواة للاردبيلي .
٤٠ - الجامع الصغير للسيوطي .
٤١ - الجعفريات والاشعثيات الطبع الحجري .
٤٢ - حلية الاولياء لابي نعيم .

٤٣ ـ الخصال للصدوق الطبعة الاولى .
٤٤ ـ الخصائص للنسائى طبع النجف .
٤٥ ـ الدر المنثور للسيوطى .
٤٦ ـ رجال النجاشى .
٤٧ ـ الرسالة الذهبية (طب الرضا عليه السلام) .
٤٨ ـ الرسالة المعراجية لابن سينا .
٤٩ ـ روضات الجنات للخوانسارى الطبعة الثانية .
٥٠ ـ روضة الواعظين للفتال النيشابورى .
٥١ ـ السرائر لابن ادريس .
٥٢ ـ سر العالمين .
٥٣ ـ سفينة البحار للمحدث القمى .
٥٤ ـ السنن الكبرى لابى بكر أحمد بن الحسين البيهقى .
٥٥ ـ السنن لابى عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائى .
٥٦ ـ السنن لابى عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى .
٥٧ ـ السنن لابى محمد عبدالله بن عبدالرحمن بن الدارمى .
٥٨ ـ السنن لسليمان بن الاشعث السجستانى .
٥٩ ـ السيرة النبوية لابن هشام .
٦٠ ـ الشافى للسيد الشريف المرتضى .
٦١ ـ شرح احياء العلوم للزبيدى .
٦٢ ـ شرح التجريد للقوشجى .
٦٣ ـ شرح النهج لابن أبى الحديد .
٦٤ ـ شرح النهج لابن ميثم البحرانى .
٦٥ ـ الصحاح للجوهرى .
٦٦ ـ الصحيح لابى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى .
٦٧ ـ الصحيح لابن عيسى محمد بن عيسى الترمذى الطبعة الاولى .
٦٨ ـ الصحيح لمحمد بن اسماعيل البخارى طبع محمد على صبيح .
٦٩ ـ صحيفة الرضا عليه السلام .
٧٠ ـ الصواعق المحرقة للهيتمى .
٧١ ـ طبقات لابن سعد طبع ليدن .
٧٢ ـ الطرائف لابن طاوّوس .
٧٣ ـ عدة الداعى لابن فهد الحلى .
٧٤ ـ عقاب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
٧٥ ـ علل الشرائع للصدوق ط ١٣١١ .
٧٦ ـ علم اليقين للمؤلف (الفيض) .
٧٧ ـ عيون اخبار الرضا عليه السلام للصدوق .
٧٨ ـ عيون الاخبار لابن القتيبة .
٧٩ ـ الغدير للعلامة الامينى طبع طهران .
٨٠ ـ الغيبة للنعمانى .
٨١ ـ الفقيه (من لا يحضره الفقيه) ط ١٣٧٦ .
٨٢ ـ الفهرست للشيخ الطوسى .
٨٣ ـ قاموس المحيط للفيروزآبادى .
٨٤ ـ قرب الاسناد للحميرى الطبع الحجرى .
٨٥ ـ الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة فى شروحه للسيد جواد المصطفوى .
٨٦ ـ الكافى للكلينى الطبع الحروفى الحديث .
٨٧ ـ الكافى الشاف للعسقلانى بهامش الكشاف .

٨٨ ـ الكشاف للزمخشري .
٨٩ ـ كشف المحجة لثمرة المهجة لابن طاؤوس .
٩٠ ـ كمال الدين للشيخ الصدوق .
٩١ ـ كنز العمال لعلي متقي .
٩٢ ـ كنز الفوائد للكراجكي .
٩٣ ـ كنوز الحقائق لعبد الرؤوف المناوي .
٩٤ ـ الكنى والالقاب للمحدث القمي .
٩٥ ـ المجازات النبوية للشريف الرضي .
٩٦ ـ مجمع البيان للطبرسي .
٩٧ ـ مجمع الزوائد و منبع الفوائد للهيثمي .
٩٨ ـ المحاسن لاحمد بن محمد بن خالد البرقي .
٩٩ ـ المختصر (مختصر بيان العلم) لاحمد عمر المحمصاني البيروتي طبع مصر .
١٠٠ ـ مرآة العقول للمجلسي .
١٠١ ـ مراصد الاطلاع لعبد المؤمن البغدادي .
١٠٢ ـ مروج الذهب للمسعودي الطبعة الثالثة .
١٠٣ ـ المستدرك لابن البيع الحاكم النيشابوري .
١٠٤ ـ مستدرك الوسائل للنوري .
١٠٥ ـ المسند لابي عوانة .
١٠٦ ـ المسند لابي عبدالله أحمد بن حنبل .
١٠٧ ـ المسند لابي داود الطيالسي .
١٠٨ ـ مشكاة المصابيح لولي الدين محمد ابن عبدالله الخطيب التبريزي .
١٠٩ ـ مصابيح السنة لابي محمد الحسين ابن مسعود الفراء البغوي .
١١٠ ـ مصباح الشريعة .
١١١ ـ مصباح المنير للفيومي .
١١٢ ـ معالم التنزيل للبغوي .
١١٣ ـ معاني الاخبار للصدوق ط ١٣٧٩ .
١١٤ ـ المعارف للدينوري .
١١٥ ـ المغني عن الاسفار للعراقي برمز (م) .
١١٦ ـ مفتاح الفلاح للشيخ البهائي طبع مصر .
١١٧ ـ مفردات القرآن للراغب .
١١٨ ـ مقائيس اللغة لاحمد بن فارس .
١١٩ ـ مكارم الاخلاق للطبرسي ط ١٣٧٦ .
١٢٠ ـ منتخب كنز العمال بهامش المسند .
١٢١ ـ منية المريد للشهيد الثاني .
١٢٢ ـ الموضوعات لمولى علي القاري .
١٢٣ ـ النوادر في جمع الاحاديث للفيض .
١٢٤ ـ النهاية لابن الاثير الجزري .
١٢٥ ـ نهج البلاغة .
١٢٦ ـ نيل الاوطار للشوكاني .
١٢٧ ـ وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي .
١٢٨ ـ الوافي لمولانا الفيض .
١٢٩ ـ الهداية للصدوق .

هذه المصادر التي نقلت عنها بلا واسطة و هي غير هذه من المصادر المنقولة عنها مع الواسطة و هي كثيرة كما هو المشاهد في الكتاب .



المحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١ هـ

صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري

حمداً لك يا من جعل الحمد مفتاحاً لذكره، و طريقاً من طرق الاعتراف بوحدانيّته، وسبباً لمزيد فضله و نعمه، و محجّة بيضاء لطالبي فضله و إحسانه.

و صلاة على رسولك الأعظم، والهادي إلى صراطك الأقوم وعلى آله أئمّة الهدى، ومصابيح الدّجى.

مقدّمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تعالى أوّلاً حمداً كثيراً دائماً متوالياً ، و إن كان يتضاءل دون حقّ جلاله حمد الحامدين [1] ، و أُصلّي على رسوله و أوصياء رسوله ثانياً صلاة تستغرق مع سيّد المرسلين و عترته المعصومين سائر النبيّين ، و أستخيره سبحانه ثالثاً فيما انبعث له عزمي من تحرير كتاب في تهذيب إحياء علوم الدّين من تصانيف أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي الطوسيّ - قدّس الله سرّه - فإنّه و إن اشتهر في الأقطار اشتهار الشمس في رائعة النهار ، و اشتمل من العلوم الدّينيّة المهمّة النافعة في الآخرة على ما يمكن التوصّل به إلى الفوز بالدّرجات الفاخرة ، مع حسن البيان والتحرير ، وجودة الترتيب والتقرير إلّا أنّ أباحامد لمّا كان حين تصنيفه عامّيّ المذهب ولم يتشيّع بعد ، و إنّما رزقه الله هذه السعادة في أواخر عمره - كما أظهره في كتابه المسمّى بسرّ العالمين وشهد به ابن الجوزيّ الحنبليّ - [2] كان قد فاته بيان ركن عظيم من الإيمان ، وهو معرفة الأئمّة المعصومين الّذين جاءت الوصيّة بالتمسّك بهم و بالقرآن من سيّد الإنس والجانّ - صلوات الله عليه وعليهم - .

و كان كثيرٌ من مطالبه خصوصاً ما في فنّ العبادات منها مبتنياً على أُصول عامّيّة فاسدة ، و مبتدعات لأهل الأهواء كاسدة .

و كان أكثر الأخبار المرويّة فيه مسندة عن المشهورين بالكذب و الافتراء على الله و رسوله ﷺ ممّن لا وثوق بأقوالهم مع وجود ما يطابق العقل منها و الدّين في

(١) تضاءل أى صغر و ضعف ، وسقطت الكلمة من بعض النسخ .

(٢) اى شهد بأن كتاب سر العالمين له ، والظاهر المراد سبط ابن الجوزى حيث صرح فى التذكرة ص٣٦ بان كتاب سر العالمين للغزالى .

أحاديثنا المرويّة عن أهل العصمة والطهارة وأهل بيت الوحي والسفارة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ ببيان أحسن وطريق أتقن .

و كان فيه من الحكايات العجيبة و القصص الغريبة المرويّة عن الصوفيّة مالايتلقّاه أكثر العقلاء بالقبول لبعدها عن ظواهر العقول مع قلّة فائدتها و نزارة عائدتها [١] إلى غير ذلك من الاُمور الّتي كان يشمئزّ عنها قلوب أهل الحقّ من الفرقة الناجية الإماميّة وينبو [٢] بسببها عن مطالعته والانتفاع به طباع أكثرهم .

فرأيت أن اُهذّب به تهذيباً يزيل عنه ما فيه من الوصمة و العيب ، و أبني مطالبه كلّها على اُصول أصيلة محكمة لا يتطرّق إليها شكّ و لا ريب ، و اُضيف إليها في بعض الأبواب ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم في ذلك الباب من الأسرار و الحكم المختصّة بهم عليهم السلام وأختصر بعض مباحثه بنظم فرائده وحذف زوائده لكي يزيد فيه رغبة متناوليه ، و اُفصّل أبوابه الطويلة بفصول قصيرة [٣] لئلاّ يملّ متعاطيه من دون تصرّف في ترتيب أبوابه و فصوله بتأخير ما قدّم أو تقديم ما أخّر ، و لا في تقرير ألفاظه و عباراته مهما تيسّر ، لأنّها كانت في غاية الجودة و الإحكام ، و نهاية المتانة و الإبرام ، و مثل هذا الكتاب ممّا لابدّ منه للأنام ، ينتفع بتذكّره الخواصّ والعوامّ ، لاسيّما في هذه الأعصار و الأيّام الّتي عمّت فيها الجهالة ، و فشت الضلالة ، و صار الأمر كما قاله أبو حامد ـ رحمه الله ـ في زمانه : « إنّ الدّاء عمّ الجمّ الغفير ، بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر و الجهل بأنّ الأمر إدّ [٤]، و الخطب جدّ ، و الآخرة مقبلة ، و الدّنيا مدبرة ، و الأجل قريب ، و السفر بعيد ، و الزّاد طفيف [٥] ، والخطر عظيم ، و الطريق سدّ ، و ما سوى الخالص لوجه الله من العلم و العمل عند الناقد البصير ردّ ، و سلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل و لارفيق صعبٌ ، متعبٌ ، مكدّ ،

(١) أى قلة ثمرتها .

(٢) فى النهاية « نباعنه بصره ينبو اى تجافى ولم ينظر اليه ، ونبابه منزله اذا لم يوافقه ، ونبا حد السيف اذا لم يقطع كانه حقرهم ولم يرفع بهم رأساً» .

(٣) فى بعض النسخ [بفصول فيه] .

(٤) الاد ـ بالكسر و الشد ـ : الامر الفظيع . (٥) الطفيف : القليل .

فأدلّة الطريق هم العلماء الّذين هم ورثة الأنبياء و قد شغر عنهم الزمان [1] ولم يبق إلّا المترسّمون، و قد استحوذ على أكثرهم الشيطان، و استغواهم الطغيان، فأصبح كلّ واحد منهم بعاجل حظّه مشغوفاً، فصار يرى المعروف منكراً و المنكر معروفاً، حتّى ظلّ علم الدّين مندرساً، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، و لقد خيّلوا إلى الخلق أن لاعلم إلّا [علم ال]فتوى حكومة تستعين بها القضاة على فصل الخصام عند تهارش الطغام [2] أو جدل يتذرّع به طالب المباهاة إلى الغلبة و الإفحام [3]، أو سجع مزخرف يتوسّل به الواعظ إلى استدراج العوامّ، إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للعوامّ و مجلبة للحرام، و شبكة للحطام.

فأمّا علم طريق الآخرة و ما درج عليه السلف الصالح ممّا سمّاه الله سبحانه في كتابه فقهاً، وحكمة، وعلماً، وضياء، و نوراً، وهداية، ورشداً فقد أصبح من بين الخلق مطويّاً، وصار نسياً منسيّاً».

قال [4]: «ولمّا كان هذا ثلماً في الدّين ملمّاً، وخطباً مدلهمّاً [5] رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهمّاً، إحياءً لعلوم الدّين، وكشفاً عن مناهج الأئمّة المتقدّمين، و إيضاحاً لماهي [6] العلوم النافعة عند النبيّين، والسلف الصالحين».

أقول: و لهذا السبب بعينه مع ما ذكرت من الأمور اشتغلت بتهذيب كتابه و إحياء إحيائه، إحياءً لعلوم الدّين بحياة أخرى، وكشفاً عن مناهج أئمّة الدّين بهداية أرفع وأعلى، وسمّيته **بالمحجة البيضاء في تهذيب الاحياء** وإن شئت قلت: في إحياء الإحياء و تقرّبت بذلك إلى الله سبحانه، نفع الله به السالكين وجعله لي ذخراً ليوم الدّين

---

(۱) شغر البلد أى خلا من الناس (الصحاح).

(۲) التهارش: التواثب، في القاموس «تهارشت الكلاب بعضها بعضاً تواثبت». والطغام: اوغاد الناس وسفلتهم.

(۳) «يتذرع» من الذريعة وفى بعض النسخ بالدال وتدرع و ادرع: لبس الدرع. و أفحمه: أسكته بالحجة في خصومة.

(٤) يعنى قال صاحب الاحياء.

(٥) اى مظلماً. (٦) كذا وفي أكثر نسخ الاحياء وشرح الزبيدي أيضاً [لمناهى].

و وفّقني للعمل به و أشركني في أجر سائر العاملين بمنّه و كرمه آمين .

قال أبوحامد ـ رحمه‌الله ـ : «و قدأسّسته على أربعةأرباع : ربع العبادات ، وربع العادات ، و ربع المهلكات ، و ربع المنجيات ، و صدّرت الجملة بكتاب العلم لأنّه نهاية المهمّ [1] لأكشف أوّلاً عن العلم الّذي تعبّد الله عزّ و جلّ الأعيان بطلبه على لسان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إذ قال : «طلب العلم فريضةٌ على كلّ مسلم ومسلمة[2] » و أُميّز فيه العلم النافع عن الضارّ إذ قال : « نعوذ بالله من علم لاينفع[3]» و أُحقّق ميل أهل‌العصر عن شاكلة الصواب وانخداعهم‌بلامع السراب ، و اقتناعهم من العلوم بالقشر من‌اللّباب .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرارالطهارة ، كتاب أسرارالصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيـام ، كتاب أسرار الحجّ ، كتاب آداب تلاوة القرآن ، كتاب الأذكار و الدّعوات ، كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب‌الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب أحكام‌الكسب ، كتاب‌الحلال و الحرام ، كتاب آداب الصحبة و المعاشرة مع أصناف الخلق ، كتـاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب آداب السماع والوجد ، كتاب‌الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوّة » .

أقول : وأنا أضع بدل كتاب آداب السماع و الوجد فيما بعد كتاب آداب‌المعيشة و أخلاق النبوّة كتاب آداب الشيعة وأخلاق‌الإمامة لأنّ السماع والوجد ليسامن‌مذهب أهل‌البيت عليهم‌السلام .

---

(١) في الاحياء [غاية المهم] .

(٢) الكافي ج ١ ص ٣٠ بدون « و مسلمة » و معها في مصباح الشريعة باب ٦٠ و أيضاً في البحار ج ١ ص ١٧٧ من غوالي اللئالي ، و هكذا أيضاً في مقدمة المعالم وليست في نسخ الاحياء .

(٣) أخرجه ابن‌ماجه تحت رقم ٢٥٠ ، والنسائي في سننه أيضاً و فيه «أعوذ بك من‌علم لاينفع» في حديث طويل ج٨ ص٢٦٤ . وهكذا في مستدرك الحاكم : ج١ ص١٠٤ وفي مصباح الشريعة باب ٦٠ كما في المتن .

قال : « **وأما** ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، كتاب رياضة النفس ، كتاب كسر الشهوتين:(١) شهوة البطن وشهوة الفرج ، كتاب آفات اللّسان ، كتاب ذمّ الغضب (٢) و الحقد و الحسد ، كتاب ذمّ الدّنيا ، كتاب ذمّ المال و البخل ، كتاب ذمّ الجاه و الرّياء ، كتاب ذمّ الكبر والعجب ، كتاب ذمّ الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، كتاب الصبر و الشكر ، كتاب الخوف و الرجاء ، كتاب الفقر و الزهد ، كتاب التوحيد والتوكّل ، كتاب المحبّة و الاُنس و الشوق و الرضا ، كتاب النيّة و الصدق و الإخلاص ، كتاب المراقبة و المحاسبة ، كتاب التفكّر ، كتاب ذكر الموت و ما بعده .

فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها و دقائق سننها و أسرار معانيها ما يضطرّ العالم العامل إليه ، بل لايكون من علماء الآخرة من لم يطّلع عليه و أكثر ذلك ممّا اُهمل في فنّ الفقهيّات .

وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق و أغوارها ، و دقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي ممّا لايستغني متديّنٌ عنها .

وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كلّ خلق مذموم ورد القرآن بإماطته(٣) ، وتزكية النفس عنه و تطهير القلب منه ، و أذكر في كلّ واحد من تلك الأخلاق حدّه و حقيقته ثمّ أذكر سببه الّذي منه يتولّد ؛ ثمّ الآفات الّتي عليها يترتّب ؛ ثمّ العلامات الّتي بها تتعرّف ؛ ثمّ طرق المعالجة الّتي بها منها يتخلّص ، كلّ ذلك مقروناً بشواهد الآيات و الأخبار و الآثار .

وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كلّ خلق محمود و خصلة مرغوب فيها من خصال المقرّبين و الصدّيقين الّتي بها يتقرّب العبد من ربّ العالمين ، و أذكر في كلّ خصلة

(١) في الاحياء [كتاب آفات الشهوتين] .

(٢) في الاحياء [كتاب آفات الغضب] . (٣) أماطه : أبعده وأذهبه .

حدّها وحقيقتها وسببها الّتي بهاتجتلب[١] ، و ثمرتها الّتي منها تستفاد ، و علامتها الّتي بها تتعرّف ، وفضيلتها الّتي لأجلها فيها يرغب ، مع ماورد فيها من شواهد الشرع والعقل ولقد صنّف في مثل هذه المعاني كتب كثيرة [٢] ولكن يتميّز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الأوّل حلّ ما عقدوه ، و كشف ماستروه ، و تفصيل ما أجملوه ؛ الثاني ترتيب ما بدّدوه ، و نظم ما فرّقوه ؛ الثالث إيجاز ما طوّلوه و ضبط ما قرّروه ؛ الرابع حذف ما كرّروه [٣] ؛ الخامس تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام [٤] و لم يتعرّض لها في كتاب أصلاً إذ الكلّ و إن تواردوا على منهج واحد فلامستنكر أن يتفرّد كلّ واحدمن السالكين بالتنبّه لأمر خفيّ بزيادة تخصّه [٥] و يغفل عنه رفقاؤه ، أو لايغفل أحدهم عن التنبّه له ولكن يسهوعن إيراده في الكتب ، أولايسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ، فهذه خواصّ هذا الكتاب مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم .

و إنّما حملني على تأسيس الكتاب على أربعة أرباع أمران : أحدهما ـ و هوالباعث الأصليّ ـ أنّ هذا الترتيب في التحقيق و التفهيم كالضروريّ[٦] لأنّ العلم الّذي يتوجّه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة و إلى علم المكاشفة ؛ وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقطّ ؛ وأعني بعلم المعاملة مايطلب منه مع الكشف العمل به ، والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقطّ دون علم المكاشفة الّتي لارخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمح نظر الصدّيقين[٧] ، وعلم المعاملة طريق إليه ولكن

---

(١) فى الاحياء [الذى به تجتلب] .

(٢) فى الاحياء [و لقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتباً كثيرة] .

(٣) زاد فى الاحياء [واثبات ما حرروه] .

(٤) اعتاص اعتياصاً الامر عليه اشتد وامتنع والتاث عليه ، فلم يهتد الى الصواب .

(٥) فى الاحياء [بأمر يخصه] .

(٦) فى الاحياء [كالضرورة] .

(٧) طمح بصره الى شيء أى ارتفع ، وفى الدعاء «طموح الامال قد خابت الاالديك» اى الامال المرتفعة خابت الالديك .

لم يتكلّم الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ مع الخلق إلّا في علم الطريق والإرشاد إليه ، وأمّا علم المكاشفة فلم يتكلّموا فيه إلّا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال ، علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال « و العلماء ورثة الأنبياء[1] » فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسّي و الاقتداء ؛ ثمّ إنّ علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ـ أعني العلم بأعمال الجوارح ـ و إلى علم باطن ـ أعني العلم بأعمال القلوب ـ و الجاري على الجوارح إمّا عبادة أو عادة ، و الوارد على القلوب الّتي هي بحكم الاحتجاب عن الحواسّ من عالم الملكوت إمّا محمود وإمّا مذموم[2] فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذّ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام .

الباعث الثاني أنّي رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الّذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه للتذرّع[3] به إلى المباهاة ، والاستظهار بجاهه و منزلته في المنافسات و هو مرتّب على أربعة أرباع ـ و المتزيّي بزيّ المحبوب محبوب ـ فلم أبعد أن يكون تصوير هذا الكتاب بصورة الفقه تلطّفاً في استدراج القلوب ولهذا تلطّف بعض من رام استمالة قلوب بعض الرؤساء إلى الطبّ فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعاً في الجداول و الرّقوم و سمّاه تقويم الصحّة ليكون اُنسهم بذلك الجنس جاذباً لهم إلى المطالعة ، والتلطّف في اجتذاب القلوب إلى العلم الّذي يفيد حياة الأبد أهمّ من التلطّف في اجتذابها إلى الطبّ الّذي لا يفيد إلّا صحّة الجسد ، فثمرة هذا العلم طبّ القلوب و الأرواح المتوصّل به إلى حياة تدوم أبد الآباد ، فأين منها الطبّ الّذي يعالج به الأجساد و هي معرضة بالضرورة إلى الفساد[4] في أقرب الآماد[5] . فنسأل الله سبحانه التوفيق والإرشاد و السداد إنّه الكريم الجواد » .

(١) الكافي ج ١ ص ٣٢ و أخرجه أبو داود في سننه ج ٢ ص ٢٨٥ ، و ابن ماجه في سننه تحت رقم ٢٢٣ وهو جزء من حديث أبي الدرداء .

(٢) في الاحياء ههنا زيادة [فبالواجب انقسم هذا العلم الى شطرين ظاهر و باطن ، و الشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم الى عادة و عبادة و الشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم الى مذموم و محمود] .

(٣) اى التوسل : تفعل من الذريعة . و في الاحياء [المتدرع به الى المباهاة] .

(٤) في الاحياء [بالضرورة للفساد] . (٥) جمع أمد أى الوقت .

﴿ كتاب العلم ﴾

و هو الكتاب الأوّل من ربع العبادات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

(و فيه سبعة أبواب)

الباب الأوّل ـ في فضل العلم والتعليم و التعلّم .

الباب الثاني ـ في بيان فرض العين وفرض الكفاية من العلوم ، وبيان حدّ الفقه ، والكلام من علم الدّين ، وبيان علم الآخرة ، وعلم الدّنيا .

الباب الثالث ـ فيما يعدّه العامّة من علوم الدّين و ليس منها ، و فيه بيان جنس العلم المذموم وقدره .

الباب الرابع ـ في سبب إقبال الخلق على المناظرة ، وشروطها ، وآدابها ، وآفاتها .

الباب الخامس ـ في آداب المعلّم و المتعلّم .

الباب السادس ـ في آفات العلم و العلماء ، و العلامات الفارقة بين علماء الدّنيا و الآخرة .

الباب السابع ـ في العقل وفضيلته وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار .

الباب الاول

في فضل العلم و التعليم والتعلّم و شواهده من النقل والعقل

﴿ فصل ﴾

« أمّا شواهده من القرآن فقوله عزّ وجلّ : « شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة و أولوا العلم قائماً بالقسط[1] » فانظر كيف بدأ بنفسه تعالى ، و ثنّى بملائكته ، و ثلّث بأهل العلم ، و ناهيك بهذا شرفاً و فضلاً و جلالاً و نبلاً .

قال الله عزّ وجلّ : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين اُوتوا العلم درجات[2] » .

(١) آل عمران : ١٨ .

(٢) المجادلة : ١١ .

قال ابن عبّاس : « للعلماء درجات فوق درجات المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدّرجتين مسيرة خمسمائة عام» .

و قال عزّ وجلّ : «قل هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لايعلمون[١]» وقال عزّ وجلّ : «إنّما يخشى الله من عباده العلماء[٢]» .

و قال عزّ و جلّ : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب[٣]» .

و قال عزّ وجلّ : « قال الّذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به[٤] » تنبيهاً على أنّه اقتدر عليه بقوّة العلم .

و قال تعالى : « وقال الّذين اُوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ [٥] » بيّن أنّ عظم قدر الآخرة يُعلم بالعلم .

و قال عزّ و جلّ : « و تلك الأمثال نضربها للنّاس و ما يعقلها إلّا العالمون[٦]» .

و قال تعالى : « و لو ردّوه إلى الرّسول و إلى اُولي الأمر منهم لعلمه الّذين يستنبطونه منهم [٧] » ردّ حكمه في الوقايع إلى استنباطهم و ألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله ، و قيل في قوله عزّ و جلّ : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم[٨] » يعني العلم و « ريشاً » يعني اليقين و «لباس التقوى» يعني الحياء .

و قال عزّ وجلّ : «و لقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم[٩]».

و قال عزّوجلّ : «فلنقصّنّ عليهم بعلم[١٠]» .

و قال تعالى: «بل هو آياتٌ بيّنات في صدور الّذين اُوتوا العلم [١١]» .

و قال تعالى : « خلق الانسان علّمه البيان [١٢] » و إنّما ذكر ذلك في معرض الامتنان .

---

(١) الزمر : ٩ .
(٢) الفاطر : ٢٨ .
(٣) الرعد : ٤٣ .
(٤) النمل : ٤٠ .
(٥) القصص : ٨٠ .
(٦) العنكبوت : ٤٣ .
(٧) النساء : ٨٣ .
(٨) الاعراف : ٢٦ .
(٩) الاعراف : ٥٢ .
(١٠) الاعراف : ٧ .
(١١) العنكبوت : ٤٩ .
(١٢) الرحمن : ٣ .

و قال عزّ وجلّ في فضيلة التعلّم : « فلو لانفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين [(١)] » .

و قال : « فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون [(٢)] » .

و في فضيلة التعليم : « و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم [(٣)] » و المراد هو التعليم و الإرشاد .

و قال عزّ و جلّ : « و إذ أخذ الله ميثاق الّذين اُوتوا الكتاب لتبيّننّه للناس ولاتكتمونه [(٤)] » و هو إيجاب للتعليم .

و قال عزّ وجلّ : « و إنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون [(٥)] » و هو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة : « ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه [(٦)] » .

و قال النبيّ ﷺ « ما آتى الله سبحانه عالماً علماً إلّاأخذ عليه من الميثاق ماأخذ على النبيّين أن يبيّنه للناس ولايكتمه [(٧)] » .

و قال عزّ وجلّ : « و من أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله و عمل صالحاً [(٨)] » .

وقال تعالى : « ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة [(٩)] » .

و قال تعالى : « و يعلّمهم الكتاب والحكمة [(١٠)] » .

أقول : هذا ما ذكره أبو حامد من الآيات .

﴿ فصل ﴾

و قال بعض علمائنا ـ رحمهم الله ـ [(١١)] : اعلم أنّ الله سبحانه جعل العلم هو

(١) التوبة : ١٢٢ . (٢) النحل : ٤٣ .
(٣) التوبة : ١٢٢ . (٤) آل عمران : ١٨٧ .
(٥) البقرة : ١٤٦ . (٦) البقرة : ٢٨٣ .
(٧) أخرجه أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود .
(٨) فصلت : ٣٣ . (٩) النحل : ١٢٥ .
(١٠) الجمعة : ٢ .
(١١) يعنى به الشهيد ـ رحمه الله ـ فى كتابه منية المريد ص ٣ من طبعه الملحق بروض الجنان .

السبب الكلّي لخلق هذا العالم العلوي والسفلي طرّاً . و كفى بذلك جلالة و فخراً ، قال الله تعالى في محكم الكتاب تذكرة و تبصرة لأولي الألباب : « الله الّذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير و أنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً[1] » وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم لاسيّما علم التوحيد الّذي هو أساس كلّ علم و مدار كلّ معرفة ، وجعل الله سبحانه العلم أعلى وأشرف ، وأوّل منّة امتنّ بها على ابن آدم بعد خلقه وإبرازه من ظلم العدم إلى ضياء الوجود فقال سبحانه في أوّل سورة أنزلها على نبيّه محمّد ﷺ : « اقرء باسم ربّك الّذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرء و ربّك الأكرم * الّذي علّم بالقلم * علّم الانسان مالم يعلم[2] » فتأمّل كيف افتتح كتابه الكريم المجيد - الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد - بنعمة الايجاد ، ثمّ أردفها بنعمة العلم ، فلو كان ثمّة منّة أو توجد نعمة بعد نعمة الايجاد هي أعلى من العلم لما خصّه الله تعالى بذلك وصدّر به نور الهداية وطريق الدّلالة على الصراط المستقيم الآخذ بحجزة البراعة و دقائق المعاني وحقائق البلاغة ، وقد قيل في وجه التناسب بين الآي المذكورة في صدر هذه السورة الّتي قد اشتمل بعضها على خلق الانسان من علق و في بعضها تعليمه مالم يعلم ليحصل النظم البديع في ترتيب آياته : إنّه تعالى ذكر أوّل حال الانسان و هو كونه علقة مع أنّها أخسّ الأشياء وآخر حاله وهو صيرورته عالماً وهو أجلّ المراتب ، كأنّه تعالى قال : كنت في أوّل حالك في تلك الدّرجة الّتي هي غاية الخساسة فصرت في آخر حالك في هذه الدّرجة الّتي هي الغاية في الشرف والنفاسة وهذا إنّما يتمّ لو كان العلم أشرف المراتب إذ لو كان غيره أشرف لكان ذكر ذلك الشيء في هذا المقام أولى .

ووجه آخر أنّه تعالى قال : « وربّك الأكرم * الّذي علّم بالقلم * علّم الانسان مالم يعلم » و قد تقرّر في أصول الفقه « أنّ ترتّب الحكم على الوصف مشعرٌ بكون الوصف علّة » وهذا يدلّ على أنّ الله سبحانه اختصّ بوصف الأكرميّة لأنّه علّم الانسان

---

(١) الطلاق : ١٢ .

(٢) العلق : ١- الى - ٥ .

العلم فلوكان شيء أفضل من العلم وأنفس لكان اقترانه بالأكرميّة المؤدّاة بأفعل التفضيل أولى و بنى الله سبحانه قبول الحقّ والأخذ به على التذكّر به ، و التذكّر على الخشية وحصر الخشية في العلماء فقال : «سيذكّر من يخشى» ، « وإنّما يخشى الله من عباده العلماء » وسمّى الله تعالى العلم بالحكمة و عظّم أمر الحكمة فقال : « و من يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً »[1] وحاصل ما فسّروه في الحكمة مواعظ القرآن و العلم و الفهم و النبوّة في قوله تعالى : « ومن يؤت الحكمة » ، « و آتيناه الحكم صبيّاً [2] » ، « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة»[3] والكلّ يرجع إلى العلم ورجّح العالمين على من سواهم فقال سبحانه وتعالى : « هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لايعلمون إنّما يتذكّر أُولوا الألباب » .

و قرن في كتابه العزيز بين عشرة : بين الخبيث و الطيّب « قل لايستوي الخبيث والطيّب[4]» وبين الأعمى والبصير، والظلمة والنور ، والظلّ والحرور ، و الحياة والموت ، و إذا تأمّلت تفسير ذلك وجدت مرجعه جميعاً إلى العلم ، و قرن سبحانه أُولي العلم بنفسه وملائكته فقال : « شهد الله أنّه لاإله إلّا هو والملائكة و أُولوا العلم » و زاد في إكرامهم على ذلك أي الاقتران المذكور بقوله : « وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم »[5] وبقوله تعالى : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » وقال تعالى : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات » و قد ذكر الله سبحانه وتعالى الدّرجات لأربعة أصناف للمؤمنين من أهل بدر « إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ـ إلى قوله ـ : لهم درجات عند ربّهم »[6] و للمجاهدين « و فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة » [7] و لمن عمل الصالحات « من يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدّرجات العلى »[8] وللعلماء في قوله تعالى : « يرفع الله الّذين

---

(١) البقرة : ٢٦٩ . (٢) مريم : ١٢ .
(٣) النساء : ٥٤ . (٤) المائدة : ١٠٠ .
(٥) آل عمران : ٧ . (٦) الانفال : ٢ .
(٧) النساء : ٩٥ وفيه «فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» .
(٨) طه : ٧٥ .

آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات » ففضّل أهل بدر على غيرهم من المؤمنين بدرجات وفضّل العلماء على جميع الأصناف بدرجات ، فوجب كون العلماء أفضل الناس ، وقد خصّ الله سبحانه في كتابه العلماء بخمس مناقب : الأوّل الإيمان « و الرّاسخون في العلم يقولون آمنّا » ؛ الثاني التوحيد « شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة و أُولوا العلم » الثالث البكاء والحزن « إنّ الّذين أُوتوا العلم -إلى قوله- : ويخرّون للأذقان يبكون[1] » الرابع الخشوع «إنّ الّذين أُوتوا العلم من قبله -الآية-» ، الخامس الخشية « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » وقال تعالى مخاطباً لنبيّه ﷺ آمراً له مع ما آتاه من العلم و الحكمة : « وقل ربّ زدني علماً[2] » وقال تعالى : « بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أُوتوا العلم[3] » وقال تعالى : «وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلّا العالمون».

فهذه نبذة من فضائله الّتي نبّه الله تعالى عليها في كتابه الكريم .

﴿ فصل ﴾

قال أبو حامد - رحمه الله - : « و أمّا الأخبار قال ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين ويلهمه رشده[4] » .

و قال ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء[5] » و معلوم أنّه لا رتبة فوق رتبة النبوّة فلا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرّتبة .

و قال ﷺ : «يستغفر للعالم ما في السماوات والأرض[6] » و أيّ منصب يزيد

---

(١) الاسراء : ١٠٧ . (٢) طه : ١١٤ .

(٣) العنكبوت : ٤٩ .

(٤) أخرج شطره الاول ابن ماجه في سننه تحت رقم ٢٢٠ ، و البغوى في المصابيح ج١ص٢٠ . و مع شطره الثاني الطبراني في مسنده الكبير كما في مجمع الزوائد ج١ص١٢١، والبزاز أيضاً كما في الترغيب ج١ص٩٢ . ونقله العلامة المجلسي في البحار عن غوالي اللئالي .

(٥) الكافي ج١ ص٣٢ ، وأخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٢٣ ، وأبوداود ج٢ص٢٨٥ والترمذي في حديث طويل من أبي الدرداء في أبواب العلم .

(٦) رواه الكليني في الكافي ج١ ص ٣٤ ، و الصدوق في الامالي ص ٣٧ و فيها « من في السماء و الارض » ، و اخرجه أبو داود في سننه كما في المتن ج ٢ ص ٢٨٥ .

على منصب من يشتغل ملائكة السموات و الأرض بالاستغفار له و هو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الحكمة تزيد الشريف شرفاً و ترفع المملوك حتّى يجلس مجالس الملوك[١] » و قد نبّه بهذا على ثمرته في الدّنيا و معلوم أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «خصلتان لاتكونان في منافق : حسن سمت وفقهٌ في الدّين[٢]» ولاتشكّنّ في الحديث لنفاق بعض فقهاء الزّمان فإنّه ماأراد بالفقه الّذي ظننته ، وسيأتي بيان معنى الفقه ، وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أنّ الآخرة خير من الأولى وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أفضل الناس العالم الّذي إن احتيج إليه نفع و إن استغني عنه أغنى نفسه[٣] » .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «الايمان عريان ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وثمرته العلم[٤]» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أقرب الناس من درجة النبوّة أهل العلم و الجهاد ، أمّا أهل العلم فدلّوا الناس على ما جاءت به الرّسل ، و أمّا أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل[٥]» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « موت قبيلة أيسر من موت عالم[٦]» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « النّاس معادن كمعادن الذّهب والفضّة فخيارهم في الجاهليّة

---

(١) جزء من مواعظ لقمان و فيه «تجلس المسكين مجالس الملوك» كنز الفوائد للكراجكي ص ٢١٤ .

(٢) رواه الشيخ في اماليه ص ٢٢ والصدوق في الخصال ، والراوندي في نوادره ، والبغوي في المصابيح ج١ ص٢٢ . وأخرجه الترمذي في سننه باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة من أبواب العلم .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الايمان ، و رزين أيضاً كما في تيسير الوصول ج ٣ ص ١٥١ ومشكاة المصابيح ص ٣٦ .

(٤) أخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث ابي الدرداء . (م)

(٥) أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس . (م)

(٦) أخرجه الطبراني من حديث ابي الدرداء .(م)

خيارهم في الإسلام إذا فقهوا (١)».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء (٢)».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «من حفظ على اُمّتي أربعين حديثاً من السنّة حتّى يؤدّيها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة (٣)».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «من حمل من اُمّتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فقيهاً عالماً (٤)».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «من تفقّه في دين الله كفاه الله همّه و رزقه من حيث لا يحتسب (٥)».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «أوحى الله عزّ و جلّ إلى إبراهيم عليه السلام يا إبراهيم إنّي عليم اُحبّ كلّ عليم (٦)».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «العالم أمين الله سبحانه في الأرض (٧)».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «صنفان من اُمّتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس: الاُمراء و الفقهاء (٨)».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقرّبني إلى الله تعالى فلا بورك لي

---

(١) أخرجه احمد فى مسنده تحت رقم ٧٤٨٧. والبغوى فى المصابيح ج١ ص٢٠.

(٢) رواه الصدوق فى الفقيه ص٥٨٤ وفى الامالى أيضاً، والشيخ فى أماليه كما فى البحار ج٢ ص١٤ و١٦. ورواه الفتال فى روضة الواعظين ص١٣.

(٣) أخرجه ابن عبد البر فى العلم من ابن عمر (م) و فى مشكاة المصابيح ص ٣٦ عن ابى الدرداء و أخرجه الشيرازى ايضاً فى الالقاب عن ابى الدرداء كما فى البيان والتعريف ج٢ ص٢١٥.

(٤) رواه الكلينى فى الكافى ج ١ ص ٤٩. و أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس وابن عدى أيضاً فى الكامل كما فى الجامع الصغير للسيوطى.

(٥) رواه الخطيب من حديث عبدالله بن جزء. (م)

(٦) قال الحافظ العسقلانى فى الكافى الشاف: ذكره ابن عبد البر فى كتاب العلم بلا اسناد.

(٧) أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ كما فى الجامع الصغير.

(٨) أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس. (م) والفتال فى روضة الواعظين ص ٩. وأخرجه ابن شعبة الحرانى فى تحف العقول مرسلا ص ٥٠.

في طلوع شمس ذلك اليوم[1]» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم في تفضيل العلم على العبادة و الشهادة : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي [2] » فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوّة و كيف حطّ رتبة العمل المجرّد عن العلم و إن كان العابد لا يخلو عن نوع علم بالعبادة الّتي يواظب عليها و لولاه لم تكن عبادة .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب[3]» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يشفع يوم القيامة ثلاثة ، الأنبياء ، ثمّ العلماء ، ثمّ الشهداء [4]» فأعظم بمرتبة هي تلو النبوّة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما عُبدالله بشيء أفضل من فقه في دين ، و لفقيهٌ واحدٌ أشدّ على الشيطان من ألف عابد ، ولكلّ شيء عماد و عماد هذا الدّين الفقه[5]» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «خير دينكم أيسره ، وأفضل العبادة الفقه[6]» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « فضل المؤمن العالم على العابد سبعين درجة [7]» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه ، قليل خطباؤه ، قليل سائلوه ، كثير معطوه ، العمل فيه خيرٌ من العلم ، وسيأتي على النّاس زمانٌ قليلٌ فقهاؤه

---

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط وابن عبدالبر في العلم كمافي مجمع الزوائد ج١ ص ١٣٦ وغيره .

(٢) أخرجه الترمذي في باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة من أبواب العلم عن أبي امامة .

(٣) أخرجه أبوداود في سننه ج٢ ص٢٨٥ ، والصدوق في الامالي ص ٣٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه تحت رقم ٤٢٠٩ ، والحميري في قرب الاسناد ص٣١ .

(٥) رواه الدار قطني والبيهقي وأخرجه الطبراني في الاوسط كما في الترغيب ج١ ص ١٠٢ ومجمع الزوائد ج١ ص ١٢١.

(٦) روى الطبراني شطره الاول في الاوسط والآخر في معاجيمه الثلاثة . (م)

(٧) أخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة ولابي يعلى نحوه من حديث عبدالرحمن ابن عوف كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ١٣٢ .

كثير خطباؤه ، قليلٌ معطوه ، كثيرسائلوه ، العلم فيه خيرٌ من العمل »[1] .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : بين العالم والعابد مائة درجة ، بين كلّ درجتين حضر الجواد المضمّر سبعين سنة[2] ؛ وقيل : يا رسول الله أيّ الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : العلم بالله سبحانه ؛ فقيل : أيّ الأعمال نريد : فقال : العلم بالله سبحانه ؛ فقيل : نسأل عن العمل ، و تجيب عن العلم ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ قليل العمل ينفع مع العلم و إنّ كثير العمل لاينفع مع الجهل »[3] .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يبعث الله عزّ وجلّ العباد يوم القيامة ، ثمّ يبعث العلماء فيقول : يا معشر العلماء إنّي لم أضع علمي فيكم إلّا لعلمي بكم ، ولم أضع علمي فيكم لأعذّبكم اذهبوا فقد غفرت لكم »[4] .

﴿ فصل ﴾

أقول : قال بعض علمائنا - رحمهم الله -[5] : و أمّا السنّة فهي في ذلك كثيرة تنبو عن الحصر .

فمنها قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين »[6] .

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه و قيل : عن أبيه كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ١٢٧ وابن عبدالبر في العلم كما في المختصر ص١٨ .

(٢) رواه الديلمي في الفردوس ، وقال الحافظ العسقلاني : أخرجه أبو يعلى وابن عدي و ابن عبدالبر في العلم كما في الكشاف ج ٤ ص ٣٩٣ ، و في الصحاح الحضر - بالضم - : العدو ، وأحضر الفرس احضاراً و احتضر أي عدا واستحضرته : اعديته ، وفرس محضير أي كثير العدو . و رواه ايضاً الاصبهاني . الترغيب ج١ ص١٠٢ .

(٣) أخرجه ابن عبدالبر من حديث أنس كما في المختصر ص ٢٣ ، والديلمي في الفردوس كما ذكره عبدالرؤوف المناوي في كنوز الحقائق باب القاف .

(٤) رواه الطبراني في الكبير كما في الترغيب ج١ ص١٥١ ومجمع الزوائد ج١ ص١٢٦ .

(٥) يعني به الشهيد - رحمه الله - في منية المريد .

(٦) أخرجه البخاري ج١ ص٢٨ ، و ابن ماجه تحت رقم ٢٢٠ . و في سنن الترمذي الحديث الاول من ابواب العلم ج ١٠ ص ١١٣ وقد مر .

و قال ﷺ : « طلب العلم فريضة على كلّ مسلم » .

و قال ﷺ : « من طلب علماً فأدركه كتب الله تعالى له كفلين من الأجر ، ومن طلب علماً فلم يدركه كتب الله له كفلاً من الأجر »(١) .

و قال ﷺ : « من أحبّ أن ينظر إلى عتقاء الله تعالى من النّار فلينظر إلى المتعلّمين فوالّذي نفسي بيده مامن متعلّم يختلف إلى باب العلم إلّا كتب الله تعالى له بكلّ قدم عبادة سنة ، و بنى الله له بكلّ قدم مدينة في الجنّة ، ويمشي على الأرض وهي تستغفر له ، و يمسي و يصبح مغفوراً له ، و شهدت الملائكة أنّهم عتقاء الله من النّار »(٢) .

و قال ﷺ : « من طلب العلم فهو كالصائم نهاره ، القائم ليله ، و إنّ باباً من العلم يتعلّمه الرّجل خيرٌ له من أن يكون أبو قبيس ذهباً فأنفقه في سبيل الله تعالى »(٣) .

و قال ﷺ : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام كان بينه و بين الأنبياء درجة واحدة في الجنّة »(٤) .

و قال ﷺ : «فضل العالم على العابد سبعون درجة ، بين كلّ درجتين حضر الفرس سبعين عاماً ، و ذلك لأنّ الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها ، و العابد مقبلٌ على عبادته »(٥) .

و قال ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ، إنّ الله و ملائكته و أهل السماوات و الأرض حتّى النملة في جحرها و حتّى الحوت في الماء ليصلّون على

(١) رواه الطبراني في الكبير كما في الترغيب ج ١ ص ٩٦ ، وابن عبدالبر في العلم كما في المختصر ص ٢٣ والدارمي في السنن ج ١ ص ٩٧ من حديث واثلة بن الاسقع ، وفي مشكاة المصابيح ص ٣٦ عنه أيضاً وفيها موضع « كتب الله له » «كان له» .

(٢) ماعثرت عليه الا في منية المريد ص ٥ .

(٣)　»　»　»　»

(٤) أخرجه الدارمي في سننه ج ١ ص ١٠٠ ، وابن السني في رياضة المتعلمين كما في المغني.

(٥) رواه الطبراني في الاوسط كما في الترغيب ج ١ ص ١٠٢ وفيه زيادة . وابن فتال في الروضة ص ١٦ .

معلّم النّاس الخير» (١) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتّى يرجع» (٢) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من خرج يطلب باباً من العلم ليردّ به باطلاً إلى حقّ و ضالًا إلى هدى كان عمله كعبادة أربعين عاماً» (٣) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام: لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم» (٤) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدّنيا و ما فيها (٥) . و روي ذلك أنّه قاله لعليّ عليه السلام أيضاً .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «رحم الله خلفائي، فقيل: ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الّذين يحيون سنّتي و يعلّمونها عباد الله (٦) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ مثل ما بعثني ربّي من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضاً وكان منها طائفة طيّبة، فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أخاذات (٧)

---

(١) أخرجه الترمذى فى باب فضل الفقه على العبادة من أبواب العلم ج ١٠ ص ١٥٧ . و البغوى فى مصابيح السنة ج ١ ص ٢٢ . وأخرج صدره عبد الحميد بن مكحول كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ٢٥٠ .

(٢) أخرجه الترمذى فى فضل طلب العلم من ابواب العلم ج ١ ص ١١٦ و نقله عبد الرؤوف المناوى فى كنوز الحقائق و السيوطى فى الجامع الصغير عنه، و أخرجه الدارمى كما فى مشكاة المصابيح ج ١ ص ٣٤ .

(٣) رواه الشيخ فى أماليه كما فى البحار ج ١ ص ١٨٢ .

(٤) أخرجه أبوداود فى سننه ج ٢ ص ٢٨٩ . والمسلم فى صحيحه ج ٧ ص ١٢٢ و قوله عليه السلام: «حمر النعم» قال النووى: هى ابل الحمر و هى أنفس أموال العرب يضربون بها المثل فى نفاسة الشىء و أنه ليس هناك أعظم منه .

(٥) أخرجه ابن حبان فى روضة العقلاء، وابن عبد البر عن الحسن البصرى (م) وفى كنوز الحقائق عن الطبرانى نحوه .

(٦) رواه الطبرانى فى الاوسط كما فى الترغيب ج ١ ص ١٠١ و الصدوق فى الفقيه ص ٥٩١ وفى المجالس كما فى البحار ج ٢ ص ١٤٤ .

(٧) كذا و فى صحيح البخارى [اجادب] وصححه الاصيلى، و فى ارشاد السارى باعجام الجيم و الذال .

أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس، و شربوا منها و سقوا و زرعوا و أصابت طائفة منها أخرى إنّما هي قيعان [١] لاتمسك ماء ولاتنبت كلأً، و ذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله تعالى به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً و لم يقبل هدى الله الّذي أرسلت به» [٢].

و قال ﷺ: «لا حسد - يعني لاغبطة - إلّا في اثنين: رجل آتاه الله تعالى مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ، و رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها و يعلّمها» [٣].

و قال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً» [٤].

و قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [٥].

و قال ﷺ: «خير مايخلّف الرّجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يعمل به من بعده» [٦].

و قال ﷺ: «إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العالم رضىً بما يصنع» [٧].

---

(١) بكسر القاف جمع قاع و هي ارض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال و الاكام.

(٢) أخرجه البخارى ج ١ ص ٣٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٨. و أخرجه البخارى و مسلم والنسائى عن ابن مسعود كما فى الدر المنثور ج ١ ص ٣٥٠.

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب العلم ج١٠ ص١٤٨، ورواه مسلم كما فى الترغيب ج ١ص ١٢٠. و أخرجه الدارمى ج ١ ص١٢٧.

(٥) أخرجه البغوى فى المصابيح ج ١ ص ٢٠ و ابن عبد البر كما فى المختصر ص ١٤ من حديث ابى هريرة.

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٤١.

(٧) رواه الدارمى فى سننه ج١ ص ٩٧ عن ابن مسعود وهو جزء من حديث ابى الدرداء، رواه الترمذى وابن ماجه و أبى داود وغيرهم.

و قال ﷺ : « اطلبوا العلم ولو بالصّين» [1] .

و قال ﷺ : « من غدا في طلب العلم أظلّت عليه الملائكة ، وبورك في معيشته ولم ينقص من رزقه » [2] .

و قال ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله تعالى له طريقاً إلى الجنّة » [3] .

و قال ﷺ : « نوم مع علم خيرٌ من صلاة مع جهل » [4] .

و قال ﷺ : « فقيه واحدٌ أشدٌ على الشيطان من ألف عابد» [5] .

و قال ﷺ : « إنّ مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر ، فإذا طمست أو شك أن تضلّ الهداة » [6] .

و قال ﷺ : « أيّما ناش نشأ في العلم و العبادة حتّى يكبر أعطاه الله تعالى يوم القيامه ثواب اثنين وسبعين صدّيقاً » [7] .

و قال ﷺ : « يقول الله عزّ و جلّ للعلماء يوم القيامة : إنّي لم أجعل علمي و حكمي فيكم إلّا وأنا أُريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أُبالي » [8] .

---

(١) الجامع الصغير باب الطاء عن البيهقى فى شعب الايمان و العقيلى والطبرانى فى الكبير و الديلمى فى الفردوس و ابن عدى فى الكامل . و ابن فتال فى روضة الواعظين ص ١٦. والخطيب فى تاريخه ج ٩ ص٣٤٦ .

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص ٢٣ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٣) أخرجه ابوداود فى سننه ج٢ ص ٢٨٥ . واحمد فى المسند تحت رقم ٧٤٢١ .

(٤) الجامع الصغير باب النون عن أبى نعيم فى الحلية . وفيه «على جهل » .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى سننه تحت رقم ٢٢٢ .

(٦) رواه الطبرانى فى الكبير كما فى الترغيب ج ١ ص ١٠٠ . و فى روضة الواعظين ص ١٥ وفى منتخب كنز العمال هامش المسند ج٤ ص ٣٢ عن أنس بأدنى تغيير .

(٧) رواه الطبرانى فى الكبير كما فى مجمع الزوائد ج١ ص ١٢٥ .

(٨) اى لا أكترث و لا يهمنى أمركم ، والحديث رواه الطبرانى فى مسنده الكبير كما فى الترغيب ج١ ص ١٠١ و الدرالمنثور ج ١ ص٣٥٠ ، و روضة الواعظين ص١٢ .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما جمع شيء إلى شيء أفضل من علم إلى حلم » (١) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما تصدّق الناس بصدقة مثل علم ينشر » (٢) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما أهدى المرء المسلم إلى أخيه هديّة أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى ويردّه من ردى » (٣) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أفضل الصدقة أن يعلم المرء علماً ثمّ يعلّمه أخاه » (٤) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « العالم و المتعلّم شريكان في الأجر ولاخير في سائر الناس » (٥) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « قليل العلم خيرٌ من كثير العبادة » (٦) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من غدا إلى المسجد لايريد إلّا ليتعلّم خيراً أو ليعلّمه كان له أجر معتمر تامّ العمرة ، ومن راح إلى المسجد لايريد إلّا ليتعلّم خيراً أو ليعلّمه كتب له أجرحاجّ تامّ الحجّة » (٧) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « اغدعالماًأو متعلّماًأو مستمعاًأومحبّاًولاتكن الخامس فتهلك» (٨) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا مررتم في رياض الجنّة فارتعوا ، قالوا : يا رسول الله و ما

---

(١) الجامع الصغير باب الميم عن الطبراني رواه في الاوسط . و أخرج الدارمي نحوه في السنن ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير .كما في الترغيب ج ١ ص ١١٠ ، و الجامع الصغير باب الميم .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الايمان كما في الجامع الصغير باب الميم . و ابن عبد البر في العلم كما في المختصر ص ٣١ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه تحت رقم ٢٤٣.

(٥) أخرجه ابن عبدالبر في العلم كما في المختصر ص ١٩. و الصفار في بصائر الدرجات الجزء الاول .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير كما في الجامع الصغير باب القاف و فيه « قليل الفقه » .

(٧) اخرجه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ٩١ .

(٨) الجامع الصغير باب الالف عن الطبراني في الاوسط و في البحار ج١ ص١٩٥ عن الغوالي و روضة الواعظين . و اخرجه ابن عبد البر كما في المختصر ص ٢٦ .

رياض الجنّة ؟ قال : حلق الذكر، فإنّ لله تعالى سيّارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفّوا بهم»[1] ؛ قال بعض العلماء : حلق الذكر هي مجالس الحلال والحرام كيف يشتري و يبيع و يصلّي ويصوم و ينكح ويطلّق و أشباه ذلك .

أقول : وسيأتي في هذا الحديث كلام آخر إن شاءالله تعالى .

قال : وخرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقّهون ومجلس يدعون الله تعالى و يسألونه فقال : «كلا المجلسين إلى خير ، أمّا هؤلاء فيدعون الله تعالى وأمّا هؤلاء فيتعلّمون و يفقّهون الجاهل ، هؤلاء أفضل ، للتعليم اُرسلت ثمّ قعد معهم»[2] .

و عن صفوان بن عسّال - رضي الله عنه - قال : أتيت النبيّ ﷺ و هو في المسجد متّكىء على برد له أحمر ، فقلت له : يا رسول الله إنّي جئت أطلب العلم ، فقال : مرحباً بطالب العلم إنّ طالب العلم لتحفّه الملائكة بأجنحتها ، ثمّ يركب بعضهم بعضاً حتّى يبلغوا السماء الدّنيا من محبّتهم لما يطلب »[3] .

و عن كثير بن قيس قال : كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال : يا أبا الدرداء إنّي أتيتك من المدينة - مدينة الرسول ﷺ - لحديث بلغني عنك أنّك تحدّثه عن رسول الله ﷺ قال: فما جاء بك تجارة ؟ قال : لا ، قال : ولاجاء بك غيره قال : لا ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة ، و إنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم [4] ، و إنّ العالم

---

(۱) روى شطره الاول الصدوق - رحمه الله - فى المعانى ص ۳۲۱ وسيأتى .

(۲) أخرجه ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص ۲٥ من حديث عبدالله بن عمر بأدنى تغيير فى اللفظ .

(۳) صفوان بن عسال - بمهملتين - المرادى قال البغوى : سكن الكوفة و قال ابن ابى حاتم : كوفى له صحبة مشهور روى عن النبى صلى الله عليه وآله أحاديث . وقال ابن سكن : حديث صفوان بن عسال فى المسح على الخفين و فضل العلم والتوبة مشهور رواه أكثر من ثلاثين من الائمة عن عاصم (الاصابة) . أقول : وحديثه هذا أخرجه ابن عبدالبر كما فى المختصر ص ۲۰ . ورواه احمد فى المسند ج٤ ص ۲٤۰. والطبرانى وابن حبان فى صحيحه كما فى الترغيب ج۱ ص٩٥ والحاكم فى المستدرك ج۱ ص ۱۰۰ و الدارمى ج۱ ص۱۰۱.

(٤) فى بعض نسخ الحديث «رضى به » .

يستغفر له من في السماوات و من في الأرض حتّى الحيتان في الماء ، و فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إنّ العلماء ورثة الأنبياء ، و إنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً و لا ديناراً إنّما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ وافر » ؟ قال : نعم (١) .

وأسند بعض العلماء (٢) إلى أبي يحيى بن زكريّا بن يحيى الساجيّ أنّه قال : كنّا نمشي في أزقّة البصرة إلى باب بعض المحدّثين فأسرعنا في المشي و كان معنا رجلٌ ماجن (٣) فقال : ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة - كالمستهزء - فما زال عن مكانه حتّى جفّت رجلاه .

و أسند أيضاً إلى أبي داود السجستاني أنّه قال : كان في أصحاب الحديث رجل خليع (٤) إلى أن سمع بحديث النبيّ صلّى الله عليه وآله : « إنّ الملائكة لتضع بأجنحتها لطالب العلم » فجعل في رجليه مسمارين من حديد و قال : اُريد أن أطأ أجنحة الملائكة فأصابته الأكلة في رجليه .

وذكر أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل التميميّ هذه الحكاية في شرح مسلم و قال : فشلّت رجلاه وسائر أعضائه .

﴿ فصل ﴾

و من (٥) طريق الخاصّة ما رويناه بالإسناد الصحيح إلى أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عن آبائه عن النبيّ صلّى الله عليه و عليهم أجمعين أنّه قال : « طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ، فاطلبوا العلم في مظانّه ، و اقتبسوه من أهله ، فإنّ تعلّمه لله حسنة ، و طلبه عبادة ، و المذاكرة به تسبيح ، و العمل به جهاد ، و تعليمه من لا يعلمه صدقة ، و

(١) أخرجه أبو داود في سننه ج٢ ص٢٨٥ . و ابن ماجه تحت رقم ٢٢٣ . وفي روضة الواعظين ص ١٢ ، و قدمر .

(٢) نقله أيضاً من منية المريد .

(٣) اى الذى لا احياء له .

(٤) اى المخلوع .

(٥) منقول من المنية أيضاً .

بذله لأهله قربة إلى الله تعالى لأنّه معالم الحلال و الحرام ، و منار سبيل الجنّة ، و المونس في الوحشة ، والصاحب في الغربة والوحدة ، و المحدّث في الخلوة ، و الدّليل على السرّاء و الضرّاء ، و السّلاح على الأعداء ، و الزّين عند الأخلاّء ، يرفع الله تعالى به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة ، تقتصّ آثارهم ، و يقتدى بفعالهم ، و ينتهى إلى آرائهم ، ترغب الملائكة في خلّتهم ، و بأجنحتها تمسحهم ، و في صلواتها تبارك عليهم ، و يستغفر لهم كلّ رطب و يابس حتّى حيتان البحر و هوامّه ، و سباع البرّ و أنعامه ، إنّ العلم حياة القلوب من الجهل ، و ضياء الأبصار من الظلمة ، و قوّة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ، ومجالس الأبرار ، والدرجات العلى في الآخرة و الأولى ، الذكر فيه يعدل بالصيام و مدارسته بالقيام ، به يطاع الربّ ويُعبد ، وبه توصل الأرحام ويعرف الحلال و الحرام ، العلم إمام و العمل تابعه ، يلهمه السعداء ، و يحرمه الأشقياء ، فطوبى لمن لم يحرمه الله تعالى من حظّه »(١) .

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه قال : «أيّها الناس اعلموا أنّ كمال الدّين طلب العلم و العمل به ، ألا وإنّ طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، إنّ المال مقسوم مضمون لكم قد قسّمه عادل بينكم وقد ضمنه وسيفي لكم ، والعلم مخزون عند أهله وقد أُمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه »(٢) .

وعنه عليه السلام العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، و إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدّها إلّا خلف منه »(٣) .

وعنه عليه السلام قال : « كفى بالعلم شرفاً أن يدّعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه ، و كفى بالجهل ذمّاً أن يبرّء منه من هو فيه »(٤) .

وعنه عليه السلام : انّه قال لكميل بن زياد : «يا كميل العلم خير من المال العلم يحرسك

---

(١) البحار ج١ ص١٦٦ و١٧١ نقله من أمالي الصدوق والشيخ ، وأخرجه ابن عبد البر في العلم كما في المختصر ص٢٧ . وفي بعض النسخ [تقتبس آثارهم] مكان « تقتص آثارهم » .
(٢) الكافي ج١ ص٣٠ .
(٣) روى الصفار نحوه في البصائر .
(٤) ما عثرت عليه الا في منية المريد ص ٦ .

و أنت تحرس المال ، و العلم حاكم و المال محكوم عليه ، و المال ينقصه النفقة ، و العلم يزكو على الإنفاق »[١].

وعنه عليه السلام أيضاً «العلم أفضل من المال بسبعة : الأوّل أنّه ميراث الأنبياء و المال ميراث الفراعنة ، الثاني أنّ العلم لاينقص بالنفقة و المال ينقص بها ، الثالث يحتاج المال إلى الحافظ و العلم يحفظ صاحبه ، الرابع العلم يدخل في الكفن و يبقى المال ؛ الخامس المال يحصل للمؤمن و الكافر والعلم لا يحصل إلّا للمؤمن خاصّة ؛ السادس جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في اُمور دينهم ولايحتاجون إلى صاحب المال ؛ السابع العلم يقوّي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه »[٢].

وعنه عليه السلام «قيمة كلّ امرء ما يعلمه» ـ و في لفظ آخر ما يحسنه ـ [٣].

وعن زين العابدين عليه السلام «لو يعلم النّاس ما في طلب العلم لطلبوه و لو بسفك المهج و خوض اللّجج[٤] ، إنّ الله تعالى أوحى إلى دانيال أنّ أمقت عبادي إليّ الجاهل المستخفّ بحقّ أهل العلم ، التارك للاقتداء بهم ، وأنّ أحبّ عبادي عندي التقيّ الطالب للثواب الجزيل ، اللّازم للعلماء ، التابع للحلماء ، القائل عن الحكماء »[٥].

وعن الباقر عليه السلام قال : «من علّم باب هدى فله مثل أجر من عمل به ، و لاينقص اُولئك من أجورهم شيئاً ، و من علّم باب ضلالة كان عليه مثل أوزار من عمل به ، و لاينقص اُولئك من أوزارهم شيئاً »[٦].

وعنه عليه السلام « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد »[٧].

---

(١) رواه الصدوق فى الخصال ج١ ص٨٧ . و ابن عبدالبر فى العلم كما فى المختصر ص٢٩ . وابن شعبة فى التحف ص ١٧٠ مرسلا .

(٢) ماعثرت عليه الا فى المنية .

(٣) نهج البلاغة أبواب الحكم تحت رقم ٨١ .

(٤) المهج جمع مهجة وهى الدم ، أو دم القلب خاصة ، اى بما يتضمن اراقة دمائهم ، و اللجج جمع لجة وهى معظم الماء .

(٥) رواه الكلينى فى الكافى ج١ ص٣٥ . وفيه «القابل عن الحكماء » .

(٦) الكافى ج ١ ص ٣٥ . (٧) الكافى ج١ ص ٣٣ .

وعنه عليه السلام «انّ الّذي يعلّم العلم منكم له أجر مثلاأجر المتعلّم وله الفضل عليه فتعلّموا العلم من حملة العلم و علّموه إخوانكم كما علّمكموه العلماء»(۱) .

وعنه عليه السلام «لمجلس أجلسه إلى من أثق به أوثق في نفسي من عمل سنة»(۲) .

وعن الصادق عليه السلام «من علّم خيراً فله مثل أجر من عمل به ، قلت : فإن علّمه غيره (۳) يجري ذلك له ؟ قال : إن علّمه الناس كلّهم جرى له ، قلت : فإن مات ؟ قال : وإن مات»(٤) .

وعنه عليه السلام قال : « تفقّهوا في الدّين فإنّ من لم يتفقّه منكم في الدّين فهو أعرابيّ (٥) و إنّ الله عزّ وجلّ يقول في كتابه : «ليتفقّهوا في الدّين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون» (٦) .

وعنه عليه السلام قال : «عليكم بالتفقّه في دين الله تعالى و لا تكونوا أعراباً (۷) فإنّه من لم يتفقّه في دين الله تعالى لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة (۸) و لم يزكّ له عملاً»(۹) .

(۱) الكافي ج۱ ص ۳٥ وفيه «مثل أجر» .

(۲) الكافي ج۱ ص۳۹ .

(۳) اى علمه المتعلم ثالثاً . و قوله : « يجرى ذلك له » اى يجرى للاول أجر تعليم الثانى كما يجرى له أجر عمله ، و«علمه الناس كلهم» يعنى بوسائط ، و« انمات» أى مات ذلك المعلم .

(٤) الكافى ج ۱ ص ۳٥ .

(٥) منسوب الى الاعراب ولاواحد له ، و المرادالذين يسكنون البادية ولايتعلمون الاحكام الشرعية .

(٦) التوبة : ۱۲۲ . والخبر رواه الكلينى -رحمه الله- فى الكافى ج ۱ص ۳۱.

(۷) أى لاتكونوا كالاعراب جاهلين بالدين ، غير متعلمين ، غافلين عن أحكامه ، معرضين عنها وعن تعلمها .

(۸) كناية عن سخطه وغضبه عليه وعدم الاعتداد به و سلب رحمته و فيضه واحسانه و اكرامه عنه وحرمانه عن مقام القرب .

(۹) الكافى ج ۱ ص ۳۱ .

وعنه عليه السلام «لوددت أنّ أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتّى يتفقّهوا »[1] .

وعنه عليه السلام «انّ العلماء ورثة الأنبياء ، إنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً و لا ديناراً و إنّما ورّثو أحاديث من أحاديثهم فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظّاً وافراً ، فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه ، فإنّ فينا أهل البيت في كلّ خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين»[2] .

وعنه عليه السلام «إذا أراد الله بعبد خيراً فقّهه في الدّين »[3] .

وقال معاوية بن عمّار للصادق عليه السلام : «رجل راوية لحديثكم يبثّ ذلك في الناس و يشدّده في قلوبهم و قلوب شيعتكم و رجلٌ عابد[4] من شيعتكم ليست له هذه الرّواية أيّهما أفضل ؟ قال : الرّاوية لحديثنا ، يشدّ به قلوب شيعتنا أفضل من ألف عابد».

وعنه عليه السلام قال : «ما من أحد يموت من المؤمنين أحبّ إلى إبليس ـ لعنه الله ـ من موت فقيه »[5] .

وعنه عليه السلام «إذا مات المؤمن الفقيه ثلم في الإسلام ثلمة لايسدّها شيء »[6] .

وعن الكاظم عليه السلام قال : « إذا مات المؤمن بكت عليه الملائكة و بقاع الأرض[7] الّتي كان يعبد الله تعالى عليها و أبواب السماء الّتي كان يصعد منها أعماله ، و ثلم في الاسلام ثلمة لايسدّها شيء لأنّ المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها»[8] .

وعنه عليه السلام قال : « دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال : من هذا ؟ فقيل : علاّمة ، فقال : و ما العلاّمة ؟ فقالوا : أعلم النّاس بأنساب العرب

(١) الكافي ج ١ ص ٣١ ، والسياط جمع سوط و هو ما يجلد به .
(٢) الكافي ج ١ ص٣٢ والبصائر ص٣.
(٣) الكافي ج ١ ص ٣٢ وقدمر .
(٤) الكافي ج ١ ص ٣٣ « و لعل عابداً » .
(٥) الكافي ج ١ ص ٣٨ .
(٦) الكافي ج ١ ص ٣٨ .
(٧) بقاع جمع بقعة وهي القطعة من الارض
(٨) الكافي ج ١ ص ٣٨ .

و وقائعها و أيّام الجاهليّة و الأشعار العربيّة ، قال : فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : ذلك علم لايضرّ من جهله ولاينفع من علمه ، ثمّ قال النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّما العلم ثلاثة : آية محكمة أو فريضة عادلة ، أو سنّة قائمة ، ما خلاهنّ فهو فضل [1] .

﴿ فصل ﴾

قال [2] : و من تفسير العسكري عليه السلام في قوله تعالى : « و إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لاتعبدون إلّا الله ـ إلى قوله ـ و اليتامى [3] » قال الإمام عليه السلام : و أمّا قوله : « و اليتامى » فانّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : حثّ الله تعالى على برّ اليتامى لانقطاعهم عن آبائهم ، فمن صانهم صانه الله تعالى ، و من أكرمهم أكرمه الله تعالى ، و من مسح يده برأس يتيم رفقاً به جعل الله تعالى له في الجنّة بكلّ شعرة مرّت تحت يده قصراً أوسع من الدّنيا وما فيها و فيها ما تشتهي الأنفس و تلذّ الأعين و هم فيها خالدون » .

وقال عليه السلام : « وأشدّ من يتم هذا اليتيم يتيم انقطع عن إمامه لايقدر على الوصول إليه ولايدري كيف حكمه فيما يبتلى به من شرائع دينه ، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا و هذا الجاهل بشريعتنا ، المنقطع عن مشاهدتنا يتيم في حجره ، ألا فمن هداه و أرشده وعلّمه شريعتنا كان معنا في الرّفيق الأعلى حدّثني بذلك أبي ، عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله » .

وقال عليّ عليه السلام : « من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلى نور العلم الّذي حبوناه به جاء يوم القيامة على رأسه تاج من نور ، يضيىء لأهل جميع تلك العرصات ، وعليه حلّة لايقوم [4] لأقلّ سلك منها الدّنيا بحذافيرها ، ثمّ ينادي مناد من عند الله تعالى يا عباد الله هذا عالم من بعض تلامذة آل محمّد عليهم السلام ، ألا فمن أخرجه في الدّنيا عن حيرة جهله فليتشبّث بنوره ليخرجه من حيرة ظلمة هذه العرصات

---

(١) الكافی ج ١ ص ٣٢ .
(٢) يعنى الشهيد الثانی ـ رحمه الله ـ فی المنية .
(٣) البقرة : ٨٣ . (٤) أی لايقاوم ولا يعادل .

إلى نزهة الجنان (١) فيخرج من كان علّمه في الدّنيا خيراً ، أو فتح عن قلبه من الجهل قفلاً ، أو أوضح له عن شبهة ».

قال: «وحضرت امرأة عندفاطمة الصديقة عليها السلام فقالت : إنّ لي والدة ضعيفة ، و قد لبس عليها في أمر صلاتها شيء ، و قد بعثتني إليك أسألك ؟ فأجابتها عن ذلك ، فثنّت فأجابت ، ثمّ ثلّثت فأجابت إلى أن عشّرت فأجابت ، ثمّ خجلت من الكثرة و قالت : لاأشقّ عليك يا بنت رسول الله ، قالت فاطمة عليها السلام : هاتي سلي عمّا بدا لك أرأيت من اكترى يوماً يصعد إلى سطح بحمل ثقيل و كراء مائة ألف دينار أيثقل عليه ذلك ؟ فقالت : لا ، فقالت : أكريت أنا لكلّ مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً فأحرى ألّا يثقل عليّ ، سمعت أبي صلى الله عليه وآله يقول : « إنّ علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله حتّى يخلع على الواحد منهم ألف ألف حلّة من نور، ثمّ ينادي مناد في السماء من ربّنا عزّ وجلّ : أيّها الكافلون لأيتام آل محمّد الناعشون لهم (٢) عندانقطاعهم عن آبائهم الّذين هم أئمّتهم هؤلاء تلامذتكم والأيتام الّذين كفلتموهم ونعشتموهم فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدّنيا فيخلعون على كلّ واحد من أولئك الأيتام على قدر علمه ما أخذوا عنهم من العلوم حتّى أنّ فيهم - يعني في الأيتام - لمن يخلع عليه مائة ألف حلّة و كذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلّم منهم ، ثمّ إنّ الله تعالى يقول : أعيدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتّى تتمّوا لهم خلعهم ، وتضعّفوها ، فيتمّ لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم ويضاعف لهم ، و كذلك من بمرتبتهم ممّن خلع عليهم على مرتبتهم » .

وقالت فاطمة : « يا أمة الله إنّ سلكاً من تلك الخلع لأفضل ممّا طلعت عليه الشمس ألف ألف مرّة و ما فضل ما طلعت عليه الشمس فإنّه مشوب بالتنغيص و الكدر» (٣) .

---

(١) في المنقول منه في البحار « نزه الجنان» وفي تفسير البرهان «روض الجنان» و في بعض نسخه « ذروة الجنان » .

(٢) نعشه أي رفعه .

(٣) ينغص الله عليه العيش تنغيصاً أي كدره .

وقال الحسن بن علي عليهما السلام: «فضل كافل يتيم آل محمد، المنقطع عن مواليه، الناشب في تيه الجهل [1] يخرجه من جهله، و يوضح له ما اشتبه عليه على فضل كافل يتيم يطعمه ويسقيه كفضل الشمس على السهى».

وقال الحسين عليه السلام: «من كفل لنا يتيماً قطعته عنّا محنتنا باستتارنا فواساه من علومنا الّتي سقطت إليه حتّى أرشده بهداه قال الله عزّ وجلّ: يا أيّها العبد الكريم المواسي إنّي أولى بهذا الكرم منك، اجعلوا له يا ملائكتي في الجنان بعدد كلّ حرف علّمه إيّاه ألف ألف قصر وضمّوا إليها مايليق بها من سائر النعم».

وقال عليّ بن الحسين عليهما السلام: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى حبّبني إلى خلقي وحبّب خلقي إليّ، قال: يارب كيف أفعل؟ قال: ذكّرهم آلائي و نعمائي ليحبّوني فلئن تردّ آبقا عن بابي، أوضالاً عن فنائي أفضل لك من عبادة مائة سنة بصيام نهارها و قيام ليلها، قال موسى عليه السلام: ومن هذا العبد الآبق منك؟ قال: العاصي المتمرّد، قال: فمن الضالّ عن فنائك؟ قال: الجاهل بإمام زمانه تعرّفه، والغائب منه بعد ماعرفه، الجاهل بشريعة دينه تعرّفه شريعته، وما يعبد به ربّه، ويتوصّل به إلى مرضاته».

قال عليّ عليه السلام: «فأبشروا معاشر علماء شيعتنا بالثواب الأعظم والجزاء الأوفر».

وقال محمّد بن عليّ عليهما السلام: «العالم كمن معه شمعة تضيىء للنّاس، فكلّ من أبصر بشمعته دعاله بخير، كذلك العالم معه شمعة يزيل بها ظلمة الجهل والحيرة، فكلّ من أضاءت له فخرج بها من حيرة، أو نجى بها من جهل فهو من عتقائه من النّار، والله تعالى يعوّضه عن ذلك بكلّ شعرة لمن أعتقه ماهو أفضل له من الصدقة بمائة ألف قنطار على غير الوجه الّذي أمر الله عزّ وجلّ به، بل تلك الصدقة وبال على صاحبها لكن يعطيه الله تعالى، ما هو أفضل من مائة ألف ركعة بين يدي الكعبة».

وقال جعفر بن محمّد عليهما السلام: «علماء شيعتنا مرابطون بالثغر الّذي يلي إبليس و عفاريته يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا و عن أن يتسلّط عليهم إبليس وشيعته النواصب، ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممّن جاهد الرّوم و الترك والخزر

---

(١) نشب الشيء في الشيء - بالكسر - نشوباً أي علق فيه. (الصحاح).

ألف ألف مرّة . لأنّه يدفع عن أديان محبّينا و ذلك يدفع عن أبدانهم» .

وقال موسى بن جعفر عليه السلام «فقيهٌ واحدٌ ينقذ يتيماً من أيتامنا المنقطعين عنّا وعن مشاهدتنا ، والتعليم عن علومنا بتعليمه ما هو محتاج إليه أشدّ على إبليس من ألف عابد لأنّ العابد همّه ذات نفسه فقط وهذا همّه مع ذات نفسه ذات عباد الله و إمائه لينقذهم من يد إبليس و مردته فلذلك هو أفضل عند الله من ألف ألف عابد و ألف ألف عابدة» .

و قال عليّ بن موسى عليهما السلام : يقال للعابد يوم القيامة : نعم الرّجل كنت ، همّتك ذات نفسك و كفيت النّاس مؤونتك فادخل الجنّة ، ألا إنّ الفقيه من أفاض على الناس خيره وأنقذهم من أعدائهم ، ووفّر عليهم نعم جنان الله تعالى ، وحصّل لهم رضوان الله تعالى و يقال للفقيه : ياأيّها الكافل لأيتام آل محمّد ، الهادي لضعفاء محبّيهم ومواليهم ، قف حتّى تشفع لكلّ من أخذ عنك أو تعلّم منك ، فيقف فيدخل الجنّة معه فئاماً و فئاماً وفئاماً - حتّى قال عشراً - وهم الّذين أخذوا عنه علومه وأخذوا عمّن أخذ عنه وعمّن أخذ عمّن أخذ عنه إلى يوم القيامة ، فانظروا كم فرق ما بين المنزلتين» .

و قال محمّد بن عليّ عليهما السلام : « من تكفّل بأيتام آل محمّد صلّى الله عليه وآله المنقطعين عن إمامهم المتحيّرين في جهلهم ، الأسراء في أيدي شياطينهم ، و في أيدي النواصب من أعدائنا ، فاستنقذهم منهم ، و أخرجهم من حيرتهم ، وقهر الشياطين بردّ وساوسهم ، و قهر الناصبين بحجج ربّهم و دليل أئمّتهم ليفضّلون عند الله تعالى على العباد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على الأرض و العرش و الكرسيّ و الحجب على السماء ، و فضلهم على هذا العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء » .

و قال عليّ بن محمّد عليهما السلام : «لولا من يبقى بعد غيبة قائمنا من العلماء الدّاعين إليه ، و الدالّين عليه ، والذابّين عن دينه بحجج الله تعالى ، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس - لعنه الله - ومردته ، ومن فخاخ النواصب لما بقي أحدٌ إلّا ارتدّ عن دين الله تعالى ولكنّهم الّذين يمسكون أزمّة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سكّانها أولئك هم الأفضلون عند الله عزّ وجلّ» .

و قال الحسن بن عليّ عليهما السلام : تأتي علماء شيعتنا القوّامون بضعفاء محبّينا وأهل

ولايتنا يوم القيامة و الأنوار تسطع من تيجانهم ، على رأس كلّ واحد منهم تاج بهاء ، قد انبثّت تلك الأنوار في عرصات القيامة ، و دورها مسيرة ثلاثمائة ألف سنة ، فشعاع تيجانهم ينبثّ فيها كلّها ، فلايبقى هناك يتيم قد كفلوه و من ظلمة الجهل أنقذوه و من حيرة التيه أخرجوه إلّا تعلّق بشعبة من أنوارهم فرفعتهم إلى العلوّ يحاذى بهم فوق الجنان ، ثمّ ينزلونهم على منازلهم المعدّة في جوار أساتيدهم و معلّميهم وبحضرة أئمّتهم الّذين كانوا إليهم يدعون ، ولايبقى ناصبٌ من النواصب يصيبه من شعاع تلك التيجان إلّاعميت عيناه و صمّت اُذناه ، وأخرس لسانه ، ويحول عليه أشدّ من لهب النيران فيحملهم حتّى يدفعهم إلى الزّبانية فيدفعوهم إلى سواء الجحيم»[(١)] .

فهذه نبذة ممّا ورد في فضائل العلم من الحديث اقتصرنا عليها إيثاراً للاختصار .

﴿ فصل ﴾

قال [(٢)]: ومن الحكمة القديمة : قال لقمان لابنه : «يا بنيّ اختر المجالس على عينك فإن رأيت قوماً يذكرون الله تعالى فاجلس معهم فإن تكن عالماً ينفعك علمك و إن تكن جاهلاً علّموك ولعلّ الله تعالى أن يظلّهم برحمة فتعمّك معهم ، وإذا رأيت قوماً لايذكرون الله تعالى فلاتجلس معهم فإن تكن عالماً لاينفعك علمك و إن تكن جاهلاً يزيدوك جهلاً ولعلّ الله أن يظلّهم بعقوبة فتعمّك معهم»[(٣)] .

وفي التوراة « قال الله تعالى لموسى عليه السلام : عظّم الحكمة فانّي لاأجعل الحكمة في قلب أحد إلّا وأردت أن أغفر له فتعلّمها ، ثمّ اعمل بها ، ثمّ ابذلها كي تنال بذلك كرامتي في الدّنيا والآخرة » .

وفي الزبور « قل لأحبار بني إسرائيل ورهبانهم : حادثوا من الناس الأتقياء ، فإن لم تجدوا فيهم تقيّاً فحادثوا العلماء ، فإن لم تجدوا فيهم عالماً فحادثوا العقلاء ، فإن التقى و العلم والعقل ثلاث مراتب ماجعلتُ واحدة منهنّ في خلقي وأنا اُريد هلاكه» .

---

(١) منية المريد ص ٩ من تفسير المنسوب الى الامام العسكرى عليه السلام .

(٢) يعنى الشهيد - رحمه الله - فى المنية .

(٣) نقله ابن عبدالبر فى العلم كما فى المختصر ص ٥٤ وفى الكافى ج١ ص٣٩ .

قيل: وإنّما قدّم التقى لأنّ التقى لايوجد بدون العلم كما تقدّم من أنّ الجنّة لاتحصل إلّا بالخشية ، والخشية لاتحصل إلّا بالعلم ولذلك قدّم العلم على العقل ، لأنّ العالم لابدّ أن يكون عاقلاً .

وفي الإنجيل « قال الله تعالى في السورة السابعة عشر منه : «ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه كيف يحشر مع الجهّال إلى النّار ، اطلبوا العلم وتعلّموه ، فإنّ العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم ، وإن لم يرفعكم لم يضعكم ، وإن لم يغنكم لم يفقركم ، وإن لم ينفعكم لم يضرّكم ، ولاتقولوا : نخاف أن نعلم ولا نعمل ، ولكن قولوا : نرجوا أن نعلم ونعمل ، والعلم يشفع لصاحبه وحقّ على الله تعالى ألّا يخزيه ، إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة : يامعشر العلماء ماظنّكم بربّكم ؟ فيقولون : ظنّنا أن ترحمنا وتغفر لنا ، فيقول الله تعالى : قد فعلت إنّي استودعتكم حكمتي لا لشرّ أردته بكم بل لخير أردته بكم فادخلوا في صالحي عبادي إلى جنّتي برحمتي » .

وقال مقاتل بن سليمان : « وجدت في الإنجيل أنّ الله تعالى قال لعيسى عليه السلام: عظّم العلماء وأعرف فضلهم فإنّي فضّلتهم على جميع خلقي إلّا النبيّين والمرسلين كفضل الشمس على الكواكب ، وكفضل الآخرة على الدّنيا ، وكفضلي على كلّ شيء » .

ومن كلام المسيح عليه السلام « من علم وعمل فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماء » .

﴿ فصل ﴾

قال: أبوحامد ـ رحمه الله ـ : «وأمّا الآثار ـ وذكر نبذاً ممّا نقلناه عن بعض علمائنا في الأخبار ، وأسند النبويّ منه إلى جماعة من الصحابة وكذلك فعل في الآثار الّتي أوردها في فضيلتي التعلّم والتعليم وذكر في الأخبار الّتي أوردها فيهما بعض ما ذكرناه من الأخبار من طريق الخاصّة ـ .

وممّا ذكره في الآثار: قال أبوالأسود الدئليّ : ليس شيء أعزّ من العلم ، الملوك حكّام على الناس ، والعلماء حكّام على الملوك .

وقال ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ : خيّر سليمان بن داود بين العلم والملك والمال

فاختار العلم فأُعطي المال والملك معه .

وقال بعض العلماء : ليت شعري أيّ شيء أدرك من فاته العلم ، وأيّ شيء فاته من أدرك العلم .

وقال ابن عبّاس : تذاكر العلم بعض ليلة أحبّ إليّ من إحيائها .

و قيل لبعض الحكماء : أيّ الأشياء يقتنى ؟ قال : الأشياء الّتي إذا غرقت سفينتك سبحت معك ـ يعني العلم ـ .

قيل : أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت .

وقال بعض الحكماء : إنّي لأرحم رجلاً كرحمتي لرجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ، ورجل يفهم ولا يطلب العلم .

أقول : وقال بعض علمائنا ـ رحمهم الله ـ ومن الآثار عن أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ : باب من العلم نتعلّمه أحبّ إلينا من ألف ركعة تطوّعاً .

و قال : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيداً » .

وقال وهب بن منبّه : يتشعّب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دنيّاً ، والعزّ وإن كان مهيناً ، والقرب وإن كان قصيّاً ، والغنى وإن كان فقيراً ، والنبل وإن كان حقيراً ، و المهابة و إن كان وضيعاً ، والسلامة و إن كان سقيماً .

وقال بعض العارفين : أليس المريض إذا منع عنه الطعام والشراب والدواء يموت كذا القلب إذا منع عنه العلم والفكر والحكمة يموت .

و قال آخر : من جلس عند العالم ولم يطق الحفظ من علمه فله سبع كرامات : ينال فضل المتعلّمين ، و يحبس عنه الذّنوب ما دام عنده ، و تنزل الرحمة عليه إذا خرج من منزله طالباً للعلم ، و إذا جلس في حلقة العالم نزلت الرحمة عليه فحصل له منها نصيب ، و ما دام في الاستماع يكتب له طاعة ، و إذا استمع و لم يفهم ضاق قلبه بحرمانه عن إدراك العلم فيصير ذلك الغمّ وسيلة إلى حضرة الله لقوله تعالى : « أنا عند المنكسرة قلوبهم » و يرى إعزاز المسلمين للعالم و إذلالهم للفسّاق فيردّ قلبه عن الفسق . و تميل

طبيعته إلى العلم و لهذا أمر ﷺ بمجالسة الصالحين .

و قال أيضاً : من جلس مع ثمانية أصناف من النّاس زاده الله تعالى ثمانية أشياء : من جلس مع الأغنياء زاده الله تعالى حبّ الدنيا و الرّغبة فيها ، و مع الفقراء حصل له الشكر و الرضا بقسم الله تعالى ، و مع السلطان زاده الله تعالى القوّة و الكبر ، و مع النساء زاده الله تعالى الجهل و الشهوة ، و مع الصبيان ازداد من الجرأة على الذّنوب و تسويف التوبة ، و مع الصالحين ازداد رغبة في الطاعات ، و مع العلماء ازداد من العلم ؛ علّم الله تعالى سبعة نفر سبعة أشياء آدم الأسماء كلّها ، و الخضر علم الفراسة ، و يوسف علم التعبير ، و داود صنعة الدّروع ، و سليمان منطق الطير ، و عيسى التوراة و الإنجيل لقوله تعالى : « ويعلّمه الكتاب والحكمة و التورية و الإنجيل[1] » ، و محمّداً ﷺ علم الشرع و التوحيد « و يعلّمك الكتاب و الحكمة[2] » .

فعلم آدم عليه السلام كان سبباً في سجود الملائكة له و الرفعة عليهم ، و علم الخضر كان سبباً لوجود موسى عليه السلام تلميذاً له ، و يوشع عليه السلام و تذلّله له كما يستفاد من الآيات الواردة في القصّة ، و علم يوسف عليه السلام كان سبباً لوجدان الأهل و المملكة و الاجتباء ، و علم داود عليه السلام كان سبباً للرئاسة و الدّرجة ، و علم سليمان عليه السلام كان سبباً لوجدان بلقيس و الغلبة ، و علم عيسى عليه السلام كان سبباً لزوال التهمة عن أُمّه ، و علم محمّد ﷺ كان سبباً في الشفاعة .

طريق الجنّة في أيدي أربعة : العالم ، و الزاهد ، و العابد ، و المجاهد ، فإذا صدق العالم في دعواه رزق الحكمة ، والزاهد يرزق الأمن ، والعابد الخوف والمجاهد الثناء .

قال بعض المحقّقين[3] : العلماء ثلاثة : عالم بالله غير عالم بأمر الله فهو عبد استولت المعرفة الإلهيّة على قلبه ، فصار مستغرقاً بمشاهدة نور الجلال و الكبرياء ، فلا يتفرّغ

(١) آل عمران : ٤٨ .

(٢) كذا وليست الاية هكذا في المصحف ولعل المراد الاية التى كانت في سورة النساء : ١١٣ « و أنزل الله عليك الكتاب والحكمة و علمك مالم تكن تعلم ـ الاية ـ » .

(٣) الظاهر المراد به شقيق البلخى كما هو ظاهر كلام فخر الدين الرازى فى تفسيره عند تفسير آية ٣٠ من سورة البقرة .

لتعلّم علم الأحكام إلّا مالا بدّ منه ، و عالم بأمر الله غير عالم بالله فهو الّذي عرف الحلال و الحرام و دقائق الأحكام لكنّه لا يعرف أسرار جلال الله تعالى ، وعالم بالله و بأمر الله فهو جالس على الحدّ المشترك بين عالم المعقولات و عالم المحسوسات ، فهو تارة مع الله بالحبّ له ، و تارة مع الخلق بالشفقة و الرحمة ، فإذا رجع من ربّه إلى الخلق صارمعهم كواحد منهم كأنّه لا يعرف الله تعالى ، و إذا خلا بربّه مشتغلاً بذكره و خدمته فكأنّه لا يعرف الخلق ، فهذا سبيل المرسلين و الصدّيقين ، و هوالمراد بقوله ﷺ : « سائل العلماء ، و خالط الحكماء ، وجالس الكبراء » .

فالمرادبقوله ﷺ : «سائل العلماء»العلماء بأمر اللهغير العالمين بالله ، فأمر بمساءلتهم عندالحاجة إلى الاستفتاء ، وأمّا الحكماء فهم العالمون بالله الّذين لا يعلمون أوامر الله فأمر بمخالطتهم ، و أمّا الكبراء فهمالعالمون بهما[1] ، فأمر بمجالستهم لأنّ في مجالستهم خير الدنيا و الآخرة .

ولكلّ واحد من الثلاثة ثلاث علامات فللعالم بأمر الله الذّكر باللّسان دون القلب ، و الخوف من الخلق دون الربّ ، و الاستحياء من الناس في الظاهر ، ولا يستحيي من الله تعالى في السرّ ؛ و العالم بالله تعالى ذاكر خائف مستحيي ، أمّا الذكر فذكر القلب لا اللّسان ، و الخوف خوف الرّجاء لا المعصية ، و الحياء حياء ما يخطر على القلب لاحياء الظاهر؛ والعالم بالله وبأمره له ستّة أشياء الثلاثة المذكورة للعالم بالله فقط مع ثلاثة أُخرى : كونه جالساً على الحدّ المشترك بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، و كونه معلّماً للقسمين ، و كونه بحيث يحتاج الفريقان الأوّلان إليه وهو مستغن عنهما ، فمثل العالم بالله وبأمر الله تعالى كمثل الشمس لاتزيد ولا تنقص ، و مثل العالم بالله تعالى فقط كمثل القمر يكمل تارة و ينقص أُخرى ، و مثل العالم بأمر الله كمثل السراج يحرق نفسه و يضيىء لغيره .

﴿ فصل ﴾

قال أبو حامد ـ رحمه الله ـ : « و أمّا الشواهد العقليّة : اعلم أنّ المقصود من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته وما لم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقّق المراد منها لم يمكن

(١) اى بالله و بأحكامه .

أن يعلم وجودها صفة للعلم أولغيره من الخصال ، ولقد ضلّ عن الطريق من طمع أن يعرف أنّ زيداً حكيمٌ أم لا ، و هو بعد لم يفهم معنى الحكمة و حقيقتها ، فالفضيلة مأخوذة من الفضل و هو الزيادة فإذا تشارك شيئان في أمر و اختصّ أحدهما بمزيد يقال : فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء كما يقال : الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنّه يشاركه في قوّة الحمل و يزيد عليه بقوّة الكرّ و الفرّ و شدّة العدو و حسن الصورة ، فلو فرض حمارٌ اختصّ بسلعة زائدة[1] لم تقل : إنّه أفضل من الفرس لأنّ تلك زيادة في الجسم و نقصان في المعنى ، و ليس من الكمال في شيء و الحيوان مطلوب لمعناه و صفاته لا بجسمه ، و إذا فهمت هذا لم يخف عليك أنّ للعلم فضيلة في ذاته ، إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف كما أنّ للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات ، بل شدّة العدو فضيلة في الفرس و ليست فضيلة على الإطلاق ، و العلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ، فإنّه وصف كمال الله سبحانه و به شرّف الملائكة و الأنبياء ، بل الكيّس من الفرس خير من البليد فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة .

و اعلم أنّ الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لذاته ، وإلى ما يطلب لغيره ، و إلى ما يطلب لذاته و لغيره ، و ما يطلب لذاته أشرف و أفضل ممّا يطلب لغيره ، وما يطلب لذاته ولغيره أشرف ممّا يطلب لذاته فحسب ، والمطلوب لغيره كالدراهم و الدنانير فإنّهما حجران لا منفعة فيهما و لولا أنّ الله عزّ و جلّ يسّر قضاء الحاجات بهما لكانا و الحصى بمنزلة واحدة ، و أمّا الّذي يطلب لذاته فالسعادة في الآخرة ، و الّذي يطلب لذاته و لغيره فكسلامة البدن فإنّ سلامة الرجل مثلاً مطلوبة من حيث إنّه سلامة عن الألم ، و مطلوبة للمشي بها ، و التوصّل إلى المآرب والحاجات ، و بهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته و وجدته وسيلة إلى دار الآخرة و سعادتها ، و ذريعة إلى القرب من الله تعالى ، ولا يتوصّل إليه إلّا به ، و أعظم الأشياء رتبة في حقّ الآدميّ السعادة الأبديّة ، و أفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ، و لا يتوصّل إليها إلّا بالعلم و العمل ، ولا يتوصّل إلى العمل أيضاً إلّا بالعلم

(١) السلعة ـ بالكسر ـ خراج فى البدن كالغدة أو زياده فيه .

بكيفيّة العمل ، فأصل السعادة في الدنيا و الآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال و كيف لا ؟ و قد تعرف فضيلة الشيء بشرف ثمرته ، وقد عرفت أنّ ثمرة العلم القرب من ربّ العالمين ، و الالتحاق بأُفق الملائكة و مقارنة الملاء الأعلى ، هذا في الآخرة ، و أمّا في الدّنيا فالعزّ و الوقار ، و نفوذ الحكم على الملوك ، و لزوم الاحترام في الطباع حتّى أنّ أغبياء الترك [1] و أجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيّة علم مستفاد من التجربة ، بل البهيمة بطبعها توقّر الإنسان بشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها ، هذه فضيلة العلم مطلقاً .

ثمّ تختلف العلوم كما سيأتي بيانه و تتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها أمّا فضيلة التعليم و التعلّم فظاهرة ممّا ذكرناه ، فإنّ العلم إذا كان أفضل الأُمور كان تعلّمه طلباً للأفضل و كان تعليمه إفادة للأفضل ؛ و بيانه أنّ مقاصد الخلق مجموعة في الدّين والدّنيا ولا نظام للدّين إلّا بنظام الدنيا فإنّ الدنيا مزرعة الآخرة و هي الآلة الموصلة إلى الله عزّ و جلّ لمن اتّخذها آلة ، و منزلاً لا لمن اتّخذها مستقرًّا و وطناً ، و ليس ينتظم أمر الدّنيا إلّا بأعمال الآدميّين ، وأعمالهم وحرفهم و صناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام :

أحدها أُصول لا قوام للعالم دونها ، و هي أربعة : الزراعة و هي للمطعم ، و الحياكة وهي للملبس ، والبناء وهي للمسكن ، و السياسة و هي للتأليف و الاجتماع و التعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

الثاني ما هي مهيّئة لهذه الصناعات و خادمة لها كالحدادة فإنّها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات باعداد آلاتها وكالحلاجة والغزل فإنّها تخدم الحياكة باعداد محلّها .

الثالث ما هو متمّمة للأُصول و مزيّنة لها كالطحن و الخبز للزراعة و كالقصارة و الخياطة للحياكة و ذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إليه فإنّها ثلاثة أضرب : إمّا أُصول كالقلب و الكبد و الدماغ ، و إمّا خادمة لها كالمعدة و العروق و الشرائين و الأعصاب و الأوردة ، و إمّا مكمّلة لها و مزيّنة كالأظفار و الأصابع و الحاجبين ؛ و أشرف هذه الصناعات أُصولها ، و أشرف أُصولها

(١) الغبى : القليل الفطنة ، الجاهل .

السياسة بالتأليف و الاستصلاح ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفّل بهاما لا يستدعيه سائر الصناعات ، و لذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصنّاع ؛ و السياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدّنيا و الآخرة على أربع مراتب : الأولى - وهي العلياء - سياسة الأنبياء وحكمهم على الخاصّة و العامّة في ظاهرهم و باطنهم ؛ الثانية الخلفاء و الملوك و السلاطين وحكمهم على الخاصّة والعامّة جميعاً ، ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم ؛ الثالثة سياسة العلماء بالله سبحانه وتعالى و بدينه الّذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على باطن الخاصّة فقط ، ولا يرتفع فهم العامّة إلى الاستفادة منهم ولا ينتهي قوّتهم إلى التصرّف في ظواهرهم بالإلزام والمنع ؛ الرّابعة سياسة الوعّاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط . وأشرف هذه السياسات الأربع بعد النبوّة إفادة العلم و تهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة ، و إرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة و هو المراد بالتعليم ، و إنّما قلنا : إنّ هذا أفضل من سائر الحرف و الصناعات لأنّ شرف الصناعة يعرف بثلاثة أمور : إمّا بالالتفات إلى الغريزة الّتي بها يتوسّل إلى معرفتها كفضل العلوم العقليّة على اللّغويّة إذ تدرك الحكمة بالعقل ، و اللّغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ؛ وإمّا بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة ؛ و إمّا بملاحظة المحلّ الّذي فيه التصرّف كفضل الصّياغة على الدباغة إذ محلّ أحدهما الذّهب و الآخر جلد الميتة و ليس يخفى أنّ العلوم الدينيّة و هي فقه طريق الآخرة إنّما تدرك بكمال العقل و صفاء الذكاء ، و العقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتي بيانه إذ به قبل الإنسان أمانة الله عزّ و جلّ و به يصل إلى جوار الله سبحانه ، و أمّا عموم النفع فلا يستريب فيه أحد فإنّ نفعه و ثمرته سعادة الآخرة ، و أمّا شرف المحلّ فكيف يخفى و المعلّم متصرّف في قلوب البشر و نفوسهم ، و أشرف موجود على الأرض جنس الإنسان ، و أشرف جزء من جوهر الإنسان قلبه ، و المعلّم مشتغل بتكميله و تحليته و تطهيره و سياقته إلى القرب من الله عزّ وجلّ ، فتعليم العلم من وجه عبادة لله عزّ وجلّ و من وجه خلافة لله عزّ و جلّ ، و هو أجلّ خلافة ، إذ بالمقاصد تفترق الأحكام ، فإنّ الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الّذي هو أخصّ

صفاته فهو كالخازن لأنفس خزائنه ، ثمّ هو مأذون له في الإنفاق على كلّ من هو محتاج إليه فأيّة رتبة أجلّ من كون العبد واسطة بين ربّه سبحانه و بين خلقه في تقريبهم إلى الله عزّ وجلّ زلفى و سياقتهم إلى الجنّة المأوى» .

﴿ فصل ﴾

أقول : و من الشواهد العقليّة على شرف العلم و نفاسته أنّ اللّذّة و الابتهاج والسرور ليست إلّا بالإدراك ولاشكّ أنّ اللّذّات العقليّة أقوى وأشدّ من اللّذّات الخياليّة والخياليّة أقوى وأتمّ من الحسّيّة ، بل لانسبة للّذّات العقليّة إلى الحسّيّة وذلك لأنّ العقل يدرك الشيء على ما هو عليه مجرّداً عمّا هو غريب له من القشور والملبوسات فينال حاقّ جوهره ولبّ ذاته ، وأمّا الحسّ فلايدرك إلّا المخلوط بغيره ، و المشوب بما سواه ، فلايحسّ باللّون مالم يحسّ معه بالطول والعرض والوضع والأين و بأمور أخرى غريبة عن حقيقة اللّون ، وأيضاً فإنّ إدراك العقل يطابق المدرك ولايتفاوت والحسّ يرى الشيء الواحد عظيماً في القرب ، صغيراً في البعد ، وكلّما صار أبعد يراه أصغر إلى أن يصير بسبب البعد كنقطة ثمّ تبطل رؤيته وكلّما صارأقرب كان أعظم إلى أن يصير بسبب القرب كنصف العالم ثمّ تبطل رؤيته ، و أيضاً العقل الّذي يراعي القوانين العقليّة المنطقيّة و يتطهّر من المعاصي والأدناس ولايزاحمه الوهم والوسواس فهو معصوم من الغلط والخطأ ، وأمّا الحسّ فهو يغلط في الإدراك كثيراً حيث يرى الشمس مقدار أترجة ومقدار جرمها مائة وستّون مثلاً لمقدارجرم الأرض[1] وأيضاً فإنّ مدركات العقل الأمور الكلّيّة الأزليّة والذوات النوريّة الّتي يستحيل تغيّرها وذات الحقّ الأوّل الّذي يصدر منه كلّ كمال وجمال وبهاء في العالم وتفاصيل المعقولات لاتكاد تتناهي لأنّ أجناس الموجودات وأنواعها غير متناهية و كذا المناسبات الواقعة بينها وهي تقوّي العقل وتزيده نوراً كلّما كثرت ، وأمّا مدركات الحسّ فهي الأجسام وأعراضها المستحيلة الزائلة المحصورة في أجناس قليلة وهي تفسد الحسّ إذا قويت لذّته ، فإنّ لذّة العين مثلاً في الضوء وألمها في الظلمة

(١) على ما عليه القدماء .

والضوء القويّ يفسدها ، وكذا الصوت القويّ يفسد السمع ويمنعه من إدراك الخفيّ بعده وأيضاً فإنّ الأمر كما قيل : [إنّ] ألذّ اللّذات الحسيّة هو المنكوحات و المطعومات وأمور تجري مجراها والمتمكّن من غلبة مّا ولو في أمر خسيس كالشطرنج والنرد قد يعرض له مطعوم و منكوح فيرفضه لما يعتاضه من لذّة الغلبة الوهميّة وقد يعرض مطعوم ومنكوح في صحبة حشمة فينفضّ اليد منهما مراعاة للحشمة فيكون مراعاة الحشمة آثر وألذّ لا محالة هناك من المطعوم والمشروب وإذا عرض الكرام من الناس الالتذاذ بإنعام يصيبون موضعه آثروه على الالتذاذ بمشتهى حيوانيّ متنافس فيه و آثروا فيه غيرهم على أنفسهم مسرعين إلى الإنعام به و كذلك ، فإنّ كبير النفس يستصغر الجوع و العطش عند المحافظة على ماء الوجه و يستحقر هول الموت ومفاجات العطب عند مناجزة الأقران والمبارزين وربّما اقتحم الواحد منهم على عدد دهم ممتطياً[1] ظهر الخطر لما يتوقّعه من لذّة الحمد ولو بعد الموت كأنّ تلك تصل إليه وهو ميّت ، فقد بان أنّ اللّذات الباطنة مستعلية على اللّذات الحسيّة وليس ذلك في العاقل فقط بل وفي العجم من الحيوانات ، فإنّ من كلاب الصيد ما تقتنص على الجوع ثمّ يمسكه على صاحبه وربّما حمله إليه ، والراضعة من الحيوانات تؤثر ما ولدته على نفسها وربّما خاطرت محامية عليه أعظم من مخاطرتها في ذات حمايتها نفسها فإذا كانت اللّذات الباطنة أعظم من الظاهرة وإن لم تكن عقليّة فما قولك في العقليّة فطوبى لعقول شريفة تمثّلت فيها جليّة الحقّ الأوّل قدر ما يمكنها أن تنال منه ببهائه الّذي يخصّه ثمّ يتمثّل فيها الوجود كلّه على ما هو عليه مجرّداً عن الشوائب مبتدئاً فيه بعد الحقّ سبحانه بالجواهر العقليّة الجبروتيّة ، ثمّ الروحانيّة الملكوتيّة والأجرام السماويّة ، ثمّ ما بعد ذلك تمثّلاً لا يمايز الذات ، قال بعض العلماء : لو علم الملوك ما نحن فيه من لذّة العلم لحاربونا بالسيوف ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً .

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه قال : « لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدّوا أعينهم إلى ما متّع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقلّ عندهم ممّا يطؤونه بأرجلهم ولنعّموا بمعرفة الله تعالى وتلذّذوا بها تلذّذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله ، إنّ معرفة الله تعالى آنس من كلّ وحشة ،

(١) الدهم : العدد الكثير ، و امتطىء الدابة : ركبها .

وصاحب من كلّ وحدة ، ونورٌ من كلّ ظلمة ، وقوّة من كلّ ضعف ، وشفاء من كلّ سقم ، ثمّ قال : قدكان قبلكم قوم يقتلون ويحرقون وينشرون بالمناشير[1] وتضيق عليهم الأرض ، برحبها فما يردّهم عمّاهم عليه[2] شيءٌ ممّاهم فيه من [البلاء] غير ترة وتروا[3] من فعل ذلك بهم ولاأذى بما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، فسلوا ربّكم درجاتهم و اصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم »[4] .

«الباب الثانى»

« في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما » و فيه بيان ماهو فرض عين وما هو فرض كفاية ، و بيان أنّ موقع الفقه والكلام من علم الدّين إلى أيّ حدّ هو ، وتفصيل علم الآخرة .

❁(بيان العلم الذى هو فرض عين)❁

قال ﷺ : «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم» . وقال ﷺ : «اطلبوا العلم ولو بالصين» . واختلف الناس في العلم الّذي هو فرض عين على كلّ مسلم وتحزّبوا فيه أكثر من عشرين فرقة و لانطيل بنقل التفصيل ولكن حاصله أنّ كلّ فريق نزّل الوجوب على العلم الّذي هو بصدده فقال المتكلّمون : هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات الله سبحانه وصفاته ، وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام ومايحرم من المعاملات ومايحلّ وعنوا به مايحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة ، وقال المفسّرون

(١) مناشير : جمع منشار : آلة ذات اسنان ينشر به الخشب .

(٢) اى عن الطاعة أو دينهم الحق ، والرحب : السعة .

(٣) اى مكروه او جناية أصابوا منهم ، قال فى القاموس : وتر الرجل : أفزعه و أدركه بمكروه ، و وتره ماله نقصه أياه . وفى النهاية الترة : النقص و قيل : التبعة والهاء فيه عوض الوا و المحذوفة .

(٤) رواه الكلينى ـ رحمه الله ـ فى الكافى ج ٨ ص ٢٤٧ تحت رقم ٣٤٧ .

والمحدّثون : هوعلم الكتاب والسنّة إذبهما يتوصّل إلى العلوم كلّها ، وقال المتصوّفة : المراد به هذا العلم أي علمنا ، فقال بعضهم : هوعلم العبد بحاله و مقامه من الله عزّ وجلّ وقال بعضهم : هوالعلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمّة الملك من لمّة الشيطان ، وقال بعضهم : هوعلم الباطن و ذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك ، وصرفوا اللّفظ عن عمومه و قال أبو طالب المكّي : هوالعلم بما يتضمّنه الحديث الّذي فيه مباني الإسلام و هو قوله صلى الله عليه وآله : « بني الإسلام على خمس » لأنّ الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفيّة العمل فيها و بكيفيّة الوجوب .

والّذي ينبغي أن يقطع به المحصّل ولا يستريب فيه ماسنذكره وهوأنّ العلم كما قدّمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علمين : علم معاملة وعلم مكاشفة وليس المراد بهذا العلم إلّا علم المعاملة ، والمعاملة الّذي كلّف العبد البالغ العاقل بها ثلاثة أقسام : اعتقاد ، وفعل ، وترك . فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أوالسنّ ضحوة نهار مثلاً فأوّل واجب عليه تعلّم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول : « لا إله إلّا الله محمّد رسول الله » .

أقول : ويضيف إليه مجمل الاعتقاد بما يجب لله من الكمال وما يمتنع عليه من النقصان والإذعان بالإمامة للإمام والتصديق بما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله من أحوال الدّنيا والآخرة ممّا ثبت عنه تواتراً .

قال : وليس يجب عليه أن يحصّل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلّة بل يكفيه أن يصدّق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب و اضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرّد التقليد والسماع من غير بحث و برهان إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وآله من أجلاف العرب بالتصديق و الإقرار من غير تعلّم دليل فإذا فعل ذلك فقد أدّى واجب الوقت و كان العلم الّذي هو فرض عليه في الوقت تعلّم ذلك على الإجمال و ليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنّه لومات عقيب ذلك كان مطيعاً لله تعالى غير عاص و إنّما يجب غير ذلك بعارض يعرض و ليس ذلك ضروريّاً في حقّ كلّ شخص بل يتصوّر الانفكاك عنها .

و تلك العوارض إمّا أن تكون في الفعل وإمّا في الترك و إمّا في الاعتقاد ، أمّا في

الفعل فبأن يعيش من ضحوة النهار إلى وقت الظهر فيتجدّد عليه بدخول وقت الظهر تعلّم الطهارة و الصلاة و إن كان صحيحاً و كان بحيث لو صبر إلى زوال الشمس لم يتمكّن من تمام التعلّم والعمل في الوقت بل خرج الوقت لو اشتغل بالتعلّم فلا يبعد أن يقال : الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلّم على الوقت و يحتمل أن يقال : وجوب العلم الّذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال و هكذا في بقيّة الصلاة فإن عاش إلى رمضان تجدّد بسببه وجوب تعلّم الصوم و هو أن يعلم أنّ وقته من الصبح إلى غروب الشمس و أنّ الواجب فيه النيّة و الإمساك عن الأكل و الشرب و الوقاع و أنّ ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال ، فإن تجدّد له مال أوكان له مال عند بلوغه لزمه تعلّم ما يجب عليه من الزكاة و لكن لا يلزمه في الحال و إنّما يلزمه عند تمام الحول من وقت إسلامه ، فإن لم يملك إلّا الإبل لم يلزمه تعلّم زكاة الغنم و كذلك في سائر الأصناف فإذا دخلت أشهر الحجّ أو شهر لو توجّه فيه إلى مكّة لوصل إليها في الموسم و كان مستطيعاً لزمه تعلّم كيفيّة الحجّ ولم يلزمه إلّا تعلّم أركانه و واجباته دون نوافله ، فإنّ فعل ذلك نفل فعلمه أيضاً نفل ، فلا يكون فرض عين و هكذا التدريج في علم سائر الأفعال الّتي هي فرض عين ، و أمّا الترك فيجب تعلّم ذلك بحسب ما يتجدّد من الحال و ذلك مختلف بحال الشخص ، إذ لا يجب على الأبكم تعلّم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلّم ما يحرم من النظر ، ولا على البدويّ تعلّم ما يحلّ الجلوس فيه من المساكن فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال فما يعلم أنّه ينفكّ عنه لا يجب تعلّمه و ما هو ملابس له فيجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابساً للحرير أو جالساً في غصب أو ناظراً إلى غير محرم فيجب تعريفه ذلك ، وما ليس ملابساً له ولكنّه بصدد التعرّض له على القرب كالأكل فيجب تعليمه ذلك حتّى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر و أكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك و تنبيهه عليه ، و ما وجب تعليمه وجب عليه تعلّمه .

وأما الاعتقادات و أعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر فإن خطر له شكّ في المعاني الّتي تدلّ عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلّم ما يتوصّل به إلى إزالة الشكّ ، فإن لم يخطر له ذلك و مات قبل أن يعتقد تفاصيل الصفات الثبوتيّة والسلبيّة فقدمات

على الإسلام إجماعاً ، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع و بعضها بالسماع من أهل البلد فإن كان في بلد شاع فيه الكلام و تناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصان في أوّل بلوغه عنها بتلقين الحقّ خشية سبق الباطل قلبه فإنّه لو اُلقي عليه الباطل لوجب إزالته من قلبه ، و ربّما عسر ذلك كما أنّه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد الّذي هو فيه معاملة الرّبا وجب عليه تعلّم الحذر من الربا ، فهذا هو العلم الّذي هو فرض عين و معناه العلم بكيفيّة العمل الواجب ، فمن علِم علمَ العمل الواجب و وقت وجوبه ، فقد علِم علمَ الّذي هو فرض عين .

و ما ذكره الصوفيّة من فهم خاطر العدوّ [و] من لمّة الملك حقّ أيضاً ولكن في حقّ من يتصدّى له ، فإذا كان الغالب أنّ الإنسان لا ينفكّ عن دواعي الشرّ والرياء و الحسد فيلزمه أن يتعلّم من علم ربع المهلكات ما يرى نفسه محتاجاً إليه و كيف لا يجب وقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «ثلاث مهلكات : شحّ مطاع ، وهوى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه ـ الحديث ـ[1] » ولا ينفكّ عنها بشر و بقيّة ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر و الحسد و أخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات و إزالتها فرض عين ولا يمكن إلّا بمعرفة حدودها و معرفة أسبابها و معرفة علاجها ، فإنّ من لا يعرف الشرّ يقع فيه ، و العلاج هو مقابلة السبب بضدّه فكيف يمكن دون معرفة السبب و المسبّب فأكثر ما ذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيان ، وقد تركه الناس كافّة اشتغالاً بما لا يعني ، و ممّا ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل إلى ملّة اُخرى[2] الإيمان بالجنّة والنّار والحشر والنشر حتّى يؤمن به ويصدّق و هو من تتمّة كلمتي الشهادة فإنّه بعد التصديق بكونه صلّى الله عليه وآله وسلّم رسولاً ينبغي أن يفهم معنى الرسالة الّتي هو مبلّغها و هو أنّ من أطاع الله عزّ و جلّ و رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم فله الجنّة و من عصاهما فله النار ، فإذا تنبّهت لهذا التدريج علمت أنّ المذهب الحقّ هو هذا و تحقّقت أنّ كلّ عبد هو في مجاري أحواله في يومه

(١) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في الخصال ج ١ ص ٤٢ من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه و آله .

(٢) في الاحياء « قد انتقل عن ملة الى ملة اخرى » .

و ليلته لا يخلو عن وقائع في عباداته ومعاملاته تجدّد عليه لوازمه فيلزمه السؤال عن كلّ ما يقع له من النوادر و يلزمه المبادرة إلى تعلّم ما يتوقّع وقوعه على القرب غالباً فإذا تبيّن أنّه صلى الله عليه وآله إنّما أراد بالعلم - المعرّف بالألف واللّام - في قوله صلى الله عليه وآله : «طلب العلم فريضة» علم العمل الّذي هومشهور الوجوب على المسلمين لا غير فقد اتّضح وجه التدريج و وقت وجوبه .

❁(بيان العلم الذى هو فرض كفاية)❁

اعلم أنّ الفرض لا يتميّز عن غيره إلّا بذكر أقسام العلوم و العلوم بالإضافة إلى الفرض الّذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعيّة و غيرشرعيّة و أعني بالشرعيّة ما يستفاد من الأنبياء صلوات الله عليهم - و لا يرشد العقل إليها مثل الحساب و الهندسة ولا التجربة مثل الطبّ و لا السماع مثل اللّغة .

و العلوم الّتي ليست شرعيّة تنقسم إلى ما هو محمود و إلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح الدّنيا كالطبّ و الحساب ، و ذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية و إلى ما هو فضيلة و ليس بفريضة ، و أمّا فرض الكفاية فهو كلّ علم لا يستغنى عنه في قوام اُمور الدّنيا كالطبّ إذ هو ضروريّ في حاجة بقاء الأبدان على الصحّة و كالحساب فإنّه ضروريّ في المعاملات و قسمة الوصايا و المواريث و غيرها و هذه هي العلوم الّتي لوخلا البلد عمّن يقوم بها حرج أهل البلد ، و إذا قام بها واحدٌ كفى و سقط الفرض عن الآخرين ولا يتعجّب من قولنا أنّ الطبّ و الحساب من فروض الكفايات ، فإنّ اُصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة فإنّه لو خلا البلد عن الحجّام لتسارع الهلاك إليهم و حرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك فإنّ الّذي أنزل الدّاء أنزل الدواء ، و أرشد إلى استعماله ، و أعدّ الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرّض للهلاك بإهماله .

وأمّا ما يعدّ فضيلة فكالتعمّق في دقائق الحساب و حقائق الطبّ ، و غير ذلك ممّا يستغنى عنه ولكنّه يفيد زيادة قوّة في القدر المحتاج إليه .

و أمّا المذموم منه فعلم السحر والطلسمات و علم الشعبذة والتلبيسات .

وأمّا المباح منه فعلم الأشعار الّتي لاسخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه .

وأما العلوم الشرعيّة وهي مقصودة بالبيان فهي محمودة كلّها ولكن قد يلتبس بها ما يظنّ أنّها شرعيّة وتكون مذمومة ، فتنقسم إلى المحمودة و المذمومة أمّا المحمودة فلها اُصول و فروع و مقدّمات و متمّمات فهي أربعة أضرب :

الضرب الأوّل الاُصول وهي أربعة : كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة رسوله صلّى الله عليه وآله و إجماع الاُمّة ، وآثار الصحابة ، و الإجماع أصل من حيث إنّه يدلّ على السنّة فهو أصل في الدرجة الثانية و كذلك الأثر فإنّه يدلّ أيضاً على السنّة » .

أقول : الصواب على اُصولنا أن يقال بدل آثار الصحابة آثار أهل البيت أعني الأئمّة المعصومين ـ صلوات الله عليهم ـ فإنّ آثار الصحابة كلّهم ليست حجّة عندنا و إنّما الحجّة في قول المعصوم عليه السلام فحسب كما ثبت في محلّه .

قال : « الضرب الثاني الفروع و هو ما فهم من هذه الاُصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبّهت لها العقول فاتّسع بسببها الفهم حتّى فهم من اللّفظ الملفوظ وغيره كما فهم من قوله عليه السلام : « لا يقضي القاضي و هو غضبان [١] » إنّه لا يقضي إذا كان حاقناً أو جائعاً أو متألّماً بمرض أو عطشان أو ذاتوقان أو شبق [٢] و ما أشبهه ممّا يشغله عن الاحتياط في إمضاء ما هو بصدده من اُمور القضاء و فصل الخصومات » .

أقول : هذا قياس غير صحيح عندنا و الصواب على اُصولنا أن يمثّل بقوله عزّ وجلّ : «ولا تقل لهما اُفّ [٣]» فإنّه يفهم منه المنع من الضرب والشتم أيضاً بطريق أولى .

قال : « و هذا على ضربين أحدهما ما يتعلّق بمصالح الدّنيا و يحويه فنّ الفقه و المتكفّل به الفقهاء و هم من علماء الدّنيا ، و الثاني ما يتعلّق بالآخرة و هو علم أحوال القلب و أخلاقه المذمومة و المحمودة و ما هو مرضيّ عند الله عزّ وجلّ و ما هو مكروه ،

(١) رواه الكلينى ـ رحمه الله ـ فى الكافى كتاب القضاء باب أدب الحكم .

(٢) تاق يتوق توقا و توقاناً اليه اشتاق و الى الغاية : اسرع و عينه بالدموع : و تاق منه اشفق ، و ذاشبق اي ذا شهوة فاسدة شديدة .

(٣) الاسراء : ٢٣ .

و هو الّذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب أعني ربعي المهلكات و المنجيات ، ومنه العلم بما يترشّح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها وهو الّذي يحويه الشطر الأوّل .

الضرب الثالث المقدّمات و هو الّذي يجري منها مجرى الآلات كعلم اللّغة و النحو فإنّهما آلات لعلم كتاب الله سبحانه و سنّة رسول الله ﷺ و ليس اللّغة و النحو من العلوم الشرعيّة في أنفسهما و لكن لزوم الخوض فيها بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب و كلّ شريعة فلا تظهر إلّا بلغة فيصير تعلّم تلك اللّغة آلة ، ومن الآلات علم كتابة الخطّ إلّا أنّ ذلك ليس ضروريّاً إذ لو تصوّر استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة و لكنّه صار بحكم العجز في الغالب ضروريّاً .

الضرب الرابع المتمّمات و ذلك إمّا في علم القرآن فإنّه ينقسم إلى ما يتعلّق باللّفظ كعلم القراءات و مخارج الحروف ، وإلى ما يتعلّق بالمعنى كالتفسير فإنّ اعتماده أيضاً على النقل إذ اللّغة بمجرّدها لا تستقلّ به ، و إلى ما يتعلّق بأحكامه كمعرفة الناسخ و المنسوخ ، و الخاصّ و العامّ ، و النصّ والظاهر ، و كيفيّة استعمال البعض منه مع البعض و هو العلم الّذي يسمّى اُصول الفقه و يتناول السنّة أيضاً ؛ و أمّا المتمّمات في الأخبار و الآثار فالعلم بالرجال و أساميهم ، و بأسامي الصحابة و صفاتهم ، و العلم بالعدالة في الرواة ، والعلم بأحوالهم ليتميّز الضعيف عن القويّ ، و العلم بأعمارهم ليتميّز المرسل عن المسند ، و كذلك ما يتعلّق به ، فهذه هي العلوم الشرعيّة و كلّها محمودة بل كلّها من فروض الكفايات » .

﴿ فصل ﴾

أقول : أمّا ما ذكره أبو حامد - رحمه الله - من أنّ العلم بمعاني القرآن و تفسيره إنّما الاعتماد فيه على النقل فصحيح ولكنّه أراد بالنقل ما يروى عن الصحابة و التابعين الّذين كانوا يفسّرون القرآن في الأكثر بآرائهم ، الّذين لا يجوز الاعتماد على أقوالهم و دياناتهم ، و أمّا ما ذكره من أنّ العلم المتعلّق بأحكام القرآن و السنّة من الناسخ

و المنسوخ ، و العامّ و الخاصّ ، و غير ذلك إنّما يعرف من العلم المسمّى بأُصول الفقه فليس كذلك بل الحقّ أنّ الواجب في كلا العلمين أن يؤخذ من أهله و ليس أهله إلّا الّذين أوصى النبيّ صلّى الله عليه و آله بالتمسّك بهم بعده بقوله : «إنّي تارك فيكم الثقلين إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي : كتاب الله و عترتي أهل بيتي ، و إنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض [١] » و معنى عدم الافتراق أنّ علم القرآن عندهم فمن تمسّك بهم تمسّك بهما وهم أُولوا الأمر الّذين قال الله فيهم : «ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لعلمه الّذين يستنبطونه منهم [٢] » و قال سبحانه فيهم : « يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم [٣] » و منشأ هذا الخطأ والاشتباه [٤] أنّه لمّا غلب على أراذل العرب و منافقيهم حبّ الرئاسة ، و اشتعل في نفوسهم نائرة الحسد و النفاسة ، ونبذوا ما أوصاهم به رسول الله صلّى الله عليه و آله - في يوم الغدير و غيره - وراء ظهورهم ، و خذلوا وصيّه ثمّ الأوصياء من بعد وصيّه ، الّذين كانوا هم أزمّة الحقّ ، و ألسنة الصدق ، و شجرة النبوّة ، و موضع الرسالة ، و مختلف الملائكة ، ومهبط الوحي ، و معدن العلم ، و منار الهدى ، و الحجج على أهل الدّنيا ، و خزائن أسرار الوحي و التنزيل ، ومعادن جواهر العلم و التأويل ، الأُمناء على الحقائق ، و الخلفاء على الخلائق ، أُولي الأمر الّذين أُمروا بطاعتهم ، و أُولي الأرحام الّذين أُمروا بصلتهم ، و ذوي القربى الّذين أُمروا بمودّتهم ، وأهل الذكر الّذين أُمروا بمسألتهم ، و الموالي الّذين أُمروا بموالاتهم و متابعتهم ، و أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً ، و الراسخين في العلم الّذين عندهم علم القرآن كلّه تأويلاً و تفسيراً ، أحد السببين اللّذين من تعلّق بهما فازت قداحه ، وثاني الثقلين اللّذين من تمسّك بهما أسفر عن حمد السرى صباحه [٥] الّذين مثلهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ، و من تخلّف عنه غرق ، الّذين إذا نطقوا

(١) اخرجه احمد في مسنده ج ٣ ص ١٤ و١٧ و ٢٦ و٥٩ من حديث ابي سعيد الخدري و ج ٤ ص ٣٦٧ و ٣٧١ و ج ٥ ص ١٨٢ و ١٨٩ بأدنى تغيير في الالفاظ .
(٢) النساء : ٨٣ .
(٣) النساء : ٥٨ . (٤) أي الذي وقع في كلام أبي حامد و أضرابه .
(٥) السرى : السير في الليل وفي المثل المعروف «عند الصباح يحمد القوم السرى» .

نطقوا بالصواب ، و أتوا بالحكمة ، وفصل الخطاب ، و عرّفوا كيف تؤتى البيوت من الأبواب ، فلمّا خذلهم الأوّلون استبهم أمرهم على الآخرين و ذلك لأنّه لمّا جرى في الصحابة ما جرى و خدع بهم عامّة الورى أعرض الناس عن الثقلين و تاهوا في بيداء ضلالتهم عن النجدين إلّا شرذمة من المؤمنين ، فمكثوا بذلك سنين ، و عمهوا في غمرتهم حتّى حين ، و كان العلم مكتوماً و أهله مظلوماً ، لا سبيل لهم إلى إبرازه إلّا بتعميته و إلغازه ، ثمّ خلف من بعدهم خلف غير عارفين الولاية ، ولا ناصبين العداوة ، [و] لم يدروا ما صنعوا ، و عمّن أخذوا ، فعمدوا إلى طائفة ممارين من أهل الأهواء [١] ، و قوم مرائين من الجهلاء وزعموا أنّهم من العلماء ، فكانوا يفتونهم بالآراء و ذلك لأنّ جملة ما كان عندهم من حديث رسول الله ﷺ في الحلال و الحرام و الفرائض و الأحكام ليست إلّا أربعة آلاف على ما قالوه[٢] ولم يكفهم ذلك ، فإذا نزلت حادثة ولم يكن لهم فيها رواية خاضوا في استنباط الحكم فيها بالرأي من اُصول وضعوها و قواعد أسّسوها استناداً إلى رواية كانت من إختلاق أئمّتهم ، و افتراء رؤسائهم ، و كانوا وضعوها لترويج أهوائهم قالوا : « إنّ رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين وجّهه إلى اليمن : بم تقضي ؟ قال : بالكتاب ، قال : فما لم يكن في الكتاب ؟ قال : فبالسنّة ، قال : فما لم يكن في السنّة ؟ قال : اجتهدت رأيي ، قال : الحمد لله الّذي فقّه رسول رسوله [٣]» و هذه الرواية كذّبها القرآن في آيات كثيرة منها قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم [٤] » و قوله عزّ و جلّ : «إن يتّبعون إلّا الظنّ»[٥]، و«إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً [٦] » ، وقوله تعالى : « و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون [٧] » ، و قوله جلّ اسمه : « و أن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهوائهم[٨]» ، و قوله : « إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ

---

(١) أى مجادلين او مشككين من اهل الاهواء الفاسدة .

(٢) منهاج السنة لابن تيمية ج ٤ ص ٥٩ .

(٣) أخرجه ابن عبدالبر فى العلم كما فى المختصر ص ١٢٦ .

(٤) الاسراء : ٣٦ . (٥) الانعام : ١١٦ .

(٦) يونس : ٣٦ . (٧) البقرة : ١٦٩ .

(٨) المائدة : ٤٩ .

لتحكم بين الناس بما أراك الله[١] » ولم يقل : بما رأيت فلوكان الدّين بالرأي لكان رأي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أولى من رأي من ليس بمعصوم ، ومن الخطأ[٢] أقرب إليه من الإصابة ، فإنّ التشريع لايجوز إلّا بالوحي « إن هو إلّا وحي يوحى[٣] » و نحن مأمورون بحكم الحديث النبويّ صلى الله عليه وآله وسلم أن نضرب بالحديث ضرب الحائط إذا كان مخالفاً للكتاب ، و بالجملة غمّضوا العينين ، و رفضوا الثقلين ، و أحدثوا في العقائد بدعاً ، و تحزّبوا فيها شيعاً ، و اخترعوا في الأحكام أشياء حكموا فيها بالآراء ، و فرّعوا تفريعات دقيقة لا يحتاج إلى شيء منها ، حكموا فيها بالأهواء حتّى بدا بينهم بتخالفهم العداوة و البغضاء و زادوا و نقصوا في التكاليف ، و صنّفوا فيها تصانيف حتّى كثر الاختلاف و خيف على بيضة الإسلام من شيوع القول بالجزاف ، فمنعتهم ملوكهم من الاجتهاد على السعة و حصروا المجتهد في الأربعة ، و اعتمد جمهورهم في الأصول على قول رجل يقال له : أبو الحسن الأشعري وكان يقول بالجبر ، وبالصفات الزائدة ، وإثبات القدماء الثمانية إلى غير ذلك ، ثمّ لم يف الناس بذلك و لم يمتنعوا من منع اُولئك بل اتّسعوا في أهوائهم وأكثروا من آرائهم قرناً بعد قرن حتّى آل الأمر إلى ما آل وكان فيهم و بين أظهرهم الأئمّة الحقّ الّذين أقامهم الله مقام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم واحداً بعد واحد .

و كان في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رؤساؤهم في حجّة الوداع بمشهد من سبعين ألف عدد قوم موسى عليه السلام حين خلّف فيهم هارون و ذهب إلى ميقات ربّه فاتّخذوا العجل من بعده أن قال لهم في جملة أقواله في خطبته بغدير خم : « معاشر الناس أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة كما أمركم الله عزّ و جلّ فإن طال عليكم أمد فقصرتم أو نسيتم فعليّ وليّكم ومبيّن لكم ، الّذي نصبه الله عزّ وجلّ بعدي ومن خلقه الله منّي ومنه يخبركم بما تسألون منه و يبيّن لكم مالاتعلمون ، ألا إنّ الحلال والحرام أكثر من أن اُحصيهما و اُعرّفهما فآمر بالحلال و أنهي عن الحرام في مقام واحد ، فاُمرت أن آخذ البيعة عليكم و الصفقة لكم بقبول ما جئت به عن الله في عليّ أمير المؤمنين و الأئمّة من بعده ، الّذين هم منّي

---

(١) النساء : ١٠٥ . (٢) عطف على «من ليس بمعصوم» و بيان له .
(٣) النجم : ٤ .

و منه أُمّة قائمة منهم المهدي إلى يوم القيامة الّذي يقضي بالحقّ ، معاشر الناس كلّ حلال دللتكم عليه و كلّ حرام نهيتكم عنه ، فإنّي لم أرجع عن ذلك و لم اُبدّل ، ألا فاذكروا ذلك و احفظوه و تواصوا به ولا تبدّلوه ولا تغيّروه ـ الحديث بطوله [1] ـ و فيه أشياء اُخر من هذا القبيل فكتموه وبدّلوه و غيّروه فضلّوا وأضلّوا ، و قد أخبر رسول الله صلّى الله عليه وآله عن ذلك بما رووه عنه في كتبهم أنّه قال : « ليردنّ الناس من أصحابي عليّ الحوض حتّى إذا عرفتهم اختلجوا دوني [2] فأقول : أصحابي ـ وفي رواية اُصيحابي اُصيحابي ـ فيقال : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك [3] » .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « يامعشر شيعتنا والمنتحلين ولايتنا إيّاكم وأصحاب الرأي فإنّهم أعداء السنن ، تفلّتت منهم الأحاديث أن يحفظوها و أعيتهم السنّة أن يعوها فاتّخذوا عباد الله خولاً ، وماله دولاً ، فذلّت لهم الرقاب وأطاعهم الخلق أشباه الكلاب ، و نازعوا الحقّ و أهله ، و تمثّلوا بالأئمّة الصادقين ، و هم من الكفّار [الجهّال] الملاعين ، فسئلوا عمّا لايعلمون فأنفوا أن يعترفوا بأنّهم لايعلمون فعارضوا الدين بآرائهم و ضلّوا فأضلّوا ، أمّا لو كان الدّين بالقياس لكان باطن الرجلين أولى بالمسح من ظاهرهما [4] » .

و لمّا فات علماء العامّة و صوفيّتهم ما فات من معرفة الإمام و العلم بمسائل الحلال و الحرام و الفرائض و الأحكام كما ينبغي استغرقوا في بحر البدع و الضلالة و تاهوا في بيداء الحيرة و الجهالة فربما يروى عن أحدهم أنّه كان يفرط في إتعاب نفسه بما لا عائدة فيه إليه و ربما يفرّط فيما هو فرض عليه ، ولهذا تركنا ذكر أكثر ما نقله أبو حامد عنهم في هذا الكتاب من أقوالهم و أفعالهم فيما يحتاج فيه إلى السّماع إذ لا فائدة فيه ولا انتفاع .

---

(١) قطعة من خطبة النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع نقله جماعة منهم أبو على محمد بن احمد بن على الفتال النيسابورى فى الروضة ص١١٩. (٢) والاختلاج : الانصراف .

(٣) الجزء الثامن من صحيح البخارى باب الحوض من كتاب الدعوات ص ١٤٩ .

(٤) أورده المجلسى ـ رحمه الله ـ فى البحار كتاب العلم باب ١٤ من تفسير المنسوب الى الامام العسكرى عليه السلام .

قال مولانا الكاظم عليه السلام في قول الله تعالى: «و من أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله[1]» «يعني من اتّخذ دينه رأية بغير إمام من أئمّة الهدى»[2].

و قال مولانا الباقر عليه السلام: كلّ من دان بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول وهوضالّ متحيّر والله شانيء لأعماله - الحديث -»[3]

و قال عليه السلام: «قال الله تعالى: لأعذبنّ كلّ رعيّة في الإسلام دانت بولاية كلّ إمام جائر ليس من الله و إن كانت الرعيّة في أعمالها برّة تقيّة و لأعفونّ عن كلّ رعيّة في الإسلام دانت بولايه كلّ إمام عادل من الله وإن كانت الرّعيّة في أنفسها ظالمة مسيئة»[4].

فصل

قال أبو حامد: «فإن قلت: فلم ألحقت الفقه بعلم الدّنيا و ألحقت الفقهاء بعلماء الدّنيا؟ فاعلم أنّ الله عزّ وجلّ أخرج آدم عليه السلام من التراب و أخرج ذرّيته من سلالة من طين و من ماء دافق، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام و منها إلى الدّنيا ثمّ إلى القبر ثمّ إلى العرض ثمّ إلى الجنّة أو إلى النار فهذا مبدؤهم و هذه غايتهم، و هذه منازلهم، و خلق الدّنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزوّد فلو تناولوها بالعدل انقطعت الخصومات و تعطّل الفقهاء ولكنّهم تناولوها بالشهوات فتولّدت منها الخصومات فمسّت الحاجة إلى سلطان يسوسهم و احتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة و بطريق التوسّط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه هو معلّم السلطان و مرشده إلى طريق سياسة الخلق و ضبطهم لينتظم باستقامتهم أُمورهم في الدّنيا و لعمري هو متعلّق أيضاً بالدّين و لكن لا بنفسه بل بواسطة الدّنيا فإنّ الدّنيا مزرعة الآخرة ولا يتمّ الدّين إلّا بالدّنيا، والملك والدّين توأمان، والدّين

(١) القصص: ٥٠.

(٢) رواه الكليني فى الكافي ج ١ ص ٣٧٤.

(٣) الكافي ج١ ص ٣٧٥ و«شانيء» اى مبغض.

(٤) الكافي ج ١ ص ٣٧٦.

أصل و السلطان حارس و ما لاأصل له فمنهدم و ما لاحارس له فضايع ، و لا يتمّ الملك و الضبط إلّا بالسلطان و طريق الضبط في فصل الخصومات بالفقه ، وكما أنّ سياسة الخلق بالسلطنة ليس من اُمور الدّين في الدّرجة الاُولى بل هو معين على ما لايتمّ الدّين إلّا به فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم أنّ الحجّ لايتمّ إلّا ببذرقة [1] تحرس من العرب في الطريق و لكنّ الحجّ شيء و سلوك الطريق إلى الحجّ شيء ثان ، و القيام بالحراسة الّتي لايتمّ الحجّ إلّا بها شيء ثالث ، و معرفة طريق الحراسة و حيلها وقوانينها شيء رابع ، و حاصل فنّ الفقه معرفة طريق الحراسة و السياسة و يدلّ على ذلك ماروي مسنداً «لايفتي الناس إلّا ثلاثة : أميراً و مأمور أومتكلّف [2]» فالأمير هو الإمام و قد كانوا هم المفتون ، و المأمور نائبه ، و المتكلّف غيرهما و هو الّذي يتقلّد تلك العهدة من غير حاجة و قد كان السلف يحترزون عن الفتوى إذا سئلوا حتّى كان يحيل كلّ واحد منهم على صاحبه و كانوا لايحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن و طريق الآخرة. و في بعض الروايات بدل المتكلّف المرائي فإنّ من يتقلّد خطر الفتوى وهوغير متعيّن للحاجة فلايقصد به إلّا طلب الجاه والمال .

فإن قلت : هذا إن استقام لك في أحكام الحدود و الجراحات و الغرامات و فصل الخصومات فلايستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام و الصلاة ولافيما يشتمل عليه ربع المعاملات من بيان الحلال و الحرام .

فاعلم أنّ أقرب ما يتكلّم الفقيه فيه من الأعمال الّتي هي أعمال الآخرة ثلاثة : الاسلام ، و الصلاة ، و الحلال و الحرام . فإذا تأمّلت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنّه لايجاوز حدود الدّنيا إلى الآخرة و إذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهي في غيرها أظهر أمّا الإسلام فيتكلّم فيه الفقيه فيما يصحّ منه و ما يفسد و في شروطه ، و ليس يلتفت فيه إلّاإلى اللّسان أمّا القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف و السلطنة عنه حيث قال : « هلاّ شققت عن قلبه [3] » في الّذي قتل من تكلّم بكلمة

---

(١) اى الدليل معرب بدرقة . (٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٧٥٣ وفيه «لايقص».

(٣) اخرجه ابن ابى حاتم عن السدى كما فى الدر المنثور ج ٢ ص ٢٠٠ .

الإسلام معتذراً بأنّه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحّة « الإسلام تحت ظلال السيوف » مع أنّه يعلم أنّ السيف لم يكشف له عن شبهة ، و لم يرفع عن قلبه غشاوة الجهل و الحيرة ، و لكنّه مشفق من صاحب السيف فإنّ السيف ممتدّ إلى رقبته ، واليد ممتدّة إلى ماله ، و هذه الكلمة باللّسان تعصم رقبته و ماله مادامت له رقبة و مالٌ و ذلك في الدّنيا و لذلك قال ﷺ : « اُمرت أن اُقاتل الناس حتّى يقولوا : لا إله إلّا الله فإذا قالوها فقد عصموا منّي دماءهم و أموالهم [1] » جعل أثر ذلك في الدّم و المال ؛ و أمّا الآخرة فلا ينفع فيها الأقوال بل ينفع فيها أنوار القلوب و أسرارها و أخلاقها و ليس ذلك من فنّ الفقيه و إن خاض فيه الفقيه كان كما لو خاض في الكلام أو الطبّ و كان خارجاً من فنّه ، و أمّا الصلاة فالفقيه يفتي بالصحّة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، و إن كان غافلاً في جميع صلاته من أوّلها إلى آخرها ، مشغولاً بالتفكّر في حساب معاملاته في السوق إلّا عند التكبير و هذه الصلاة لاتنفع في الآخرة كثير نفع كما أنّ القول باللّسان في الإسلام لاينفع ولكنّ الفقيه يفتي بالصحّة أي أنّ ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر و انقطع به عنه القتل أو التعزير ، وأمّا الخشوع وإحضار القلب الّذي هو عمل الآخرة و به ينفع العمل الظاهر لايتعرّض له الفقيه ولو تعرّض له لكان خارجاً عن فنّه » .

أقول: فإن قلت : الفقيه يجعل النيّة شرطاً في صحّة الصلاة و يحكم ببطلانها إذا خلت عنها و النيّة أمر قلبيٌّ فقد تجاوز نظره في الصلاة من الدّنيا إلى الآخرة ، قلت : النيّة في الحقيقة ما يبعث المكلّف على الفعل و يحمله على الإتيان به كما يأتي تحقيقه في ربع المنجيات و ذلك أمر لايخلو عنه فاعل ذو شعور يصدر عنه فعل فلا يصحّ أن يتعلّق به التكليف لخروجه عن الاختيار و لهذا قال بعض علمائنا : لو كلّف الله بإيقاع العبادات من دون نيّة لكان تكليفاً بما لا يطاق ، و إنّما يتعلّق التكليف بعوارضها وخصوصيّاتها من الإخلاص و الرياء و نحوهما ممّا يبحث عنه في علم الأخلاق وهو من

(١) أخرجه ابوداود فى سننه كتاب الجهاد ج ٢ ص ٤١ و فى التاج الجامع للاصول ج ٤ ص ٣٢٥ عن البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى .

وظيفة علماء الآخرة وأطبّاء القلوب وليس من وظيفة الفقيه من حيث هو فقيه في شيء وإن تعرّض له الفقيه كان خارجاً عن فنّه وكان على سبيل التطفّل.

و أمّا قول أبي حامد: « إلّا عند التكبير » فلعلّه أشار به إلى صرف وجه القلب إلى الله سبحانه عند افتتاح الصلاة مخطراً بباله أنّه إنّما يصلّي لله و هو الّذي عبّر عنه في أخبارنا بالتوجّه و عند الفقهاء بالنيّة، أو أشار به إلى استشعار عظمة الله عند تكبيرة الافتتاح، وأمّا ما تكلّفه جماعة من الفقهاء من إيجاب استشعار العبادة مع خصوصيّاتها و الأمور الباعثة عليها مقارناً لأوّلها على النحو المخصوص فذلك أمر لم يرد به كتاب ولا سنّة و لاوقع عنه و لاعمّا يتفرّع عليه من المسائل المشكلة على النّاس الموقعة لهم في الوسواس سؤال عن السلف قطّ بل هو من قبيل اسكتوا عمّا سكت الله عنه.

قال أبو حامد: « و أمّا الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتّى أنّه إذا امتنع أحد فأخذها السلطان قهراً حكم أنّه برئت ذمّته و قد حكي أنّ أبايوسف [1] كان يهب ماله لزوجته في آخر الحول و يستوهب مالها لإسقاط الزكاة فحكي ذلك لأبي حنيفة فقال: ذلك من فقهه و صدق، فإنّ ذلك من فقه الدُّنيا و لكن مضرّته في الآخرة أعظم من كلّ جناية و مثل هذا العلم هو الضارّ، و أمّا الحلال و الحرام فالورع عن الحرام من الدّين و لكنّ الورع له أربع مراتب الاُولى الورع الّذي يشترط في عدالة الشهادة و هو الّذي لا يخرج به الإنسان عن أهليّة الشهادة و القضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر، الثانية ورع الصالحين وهو التوقّي من الشبهات الّتي يتقابل فيه الاحتمالات.

قال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لايريبك» [2]. و قال ﷺ: « الاثم حواز القلوب [3]»، الثالثة ورع المتقين و هو ترك الحلال المحض الّذي يخاف منه أداؤه إلى

(١) هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الانصارى الكوفى كان تلميذ أبى حنيفة ومن أتباعه و قيل انه اول من لقب بقاضى القضاة ذكر ابن خلكان حكايات فى أحواله و قضائه، توفى سنة ١٨٢ (الكنى و الالقاب للمحدث القمى).

(٢) أخرجه احمد فى المسند ج١ ص٢٠٠ عن الحسن بن على عن النبى صلى الله عليه و آله.

(٣) رواه احمد من حديث ابن مسعود، و قال الجزرى فى النهاية: الاثم حواز ←

الحرام . قال ﷺ : « لايكون الرجل من المتّقين حتّى يدع ما لا بأس به مخافة ممّا به بأس[1] » و ذلك مثل التورّع عن التحدّث بأحوال الناس خيفة من الإنجرار إلى الغيبة والتورّع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدّي إلى مقارفة المحظورات الرابعة ورع الصدّيقين و هو الإعراض عمّا سوى الله سبحانه خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لايفيد زيادة قربة عندالله تعالى و إن كان يعلم و يتحقّق أنّه لا يفضي إلى حرام ، فهذه الدرجات كلّها خارجة عن نظر الفقيه إلّا الدرجة الأولى و هو ورع الشهود و القضاة و ما يقدح في العدالة ، و القيام بذلك لاينفي الاثم في الآخرة[2].

قال ﷺ لوابصة : « استفت قلبك و إن أفتوك و أفتوك و أفتوك[3] » و الفقيه لايتكلّم في حزازات القلوب و كيفيّة العمل بها بل فيما يقدح في العدالة فقط ، فإذاً جميع نظر الفقيه مرتبط بالدّنيا الّتي بها صلاح طريق الآخرة فإن تكلّم في شيء من صفات القلب و أحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفّل كما يدخل في كلامه شيء من الطبّ و الحساب و النجوم و علم الكلام ، و كما تدخل الحكمة في النحو والشعر» .

« فصل »

« فإن قيل : فقد سوّيت بين الفقه و الطبّ إذ الطبّ أيضاً يتعلّق بالدّنيا و هو صحّة الجسد و ذلك يتعلّق به أيضاً [إ]صلاح الدّين ، و هذه التسوية تخالف إجماع المسلمين .

ـــ القلوب هي الامور التي تحز فيها اي تؤثر كما يؤثر الحز في الشيء و هو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي لفقد الطمأنينة اليها و هي بتشديد الزاى جمع حاز ، يقال : اذا أصاب مرفق البعير طرف كركرته فقطعه و أدماه قيل به حاز ، ورواه شمر «الاثم حواز القلوب» ـ بتشديد الواو ـ أي يحوزها و يتملكها و يغلب عليها ويروى «الاثم حزاز القلوب» بزائين الاولى مشددة وهي فعال من الحز . انتهى .

(١) أخرجه الترمذي و ابن ماجه كما في المغني .

(٢) كذا في جميع النسخ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ٢٢٨ من حديث وابصة بن معبد الاسدي .

فاعلم أنّ التسوية غير لازمة بل بينهما فرق و ذلك أنّ الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه : الأوّل أنّه علم شرعيّ أي مستفاد من النبوّة بخلاف الطبّ فإنّه ليس من علم الشرع ، الثاني أنّه لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة البتّة لا الصحيح و لاالمريض ، و أمّا الطبّ فلا يحتاج إليه إلّا المرضى وهم الأقلّون ، الثالث أنّ علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنّه نظر في أعمال الجوارح ، و مصدر الأعمال و منشأها صفات القلوب ، فالمحمود من الأعمال يصدر من الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة والمذموم يصدر من المذموم ، وليس يخفى اتّصال الجوارح بالقلب ، وأمّا الصحّة و المرض فمنشأهما صفات في المزاج و الأخلاط و ذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب ، فمهما اُضيف الفقه إلى الطبّ ظهر شرفه : و إذا اُضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم الآخرة» .

أقول : ما ذكره أبو حامد من أوّل الفصل إلى آخره ليس على ما ينبغي و ليس معنى علم الفقه ما زعمه بل هو علم شريف الهيّ نبويّ مستفاد من الوحي ليساق به العباد إلى الله عزّ وجلّ وبه يترقّى العبد إلى كلّ مقام سنّي، فإنّ تحصيل الأخلاق المحمودة لا يتيسّر إلّا بأعمال الجوارح على وفق الشريعة الغرّاء من غير بدعة ، و تحصيل علوم المكاشفة لايتيسّر إلّا بتهذيب الأخلاق و تنوير القلب بنور الشرع وضوء العقل ، و ذلك لايتيسّر إلّا بالعلم بما يقرّب إلى الله عزّ وجلّ من الطاعات المأخوذة من الوحي ليتأتّى بها العبد على وجهها ، و العلم بما يبعّد عن الله عزّ و جلّ من المعاصي ليجتنب عنها ، و المتكفّل بهذين العلمين إنّما هو علم الفقه ، فهو أقدم العلوم و أهمّها ، و قد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أنّه ثلث القرآن فكيف لا يكون من علم الآخرة ما هذا شأنه فكأنّ أبا حامد لم يفرّق بين الخلافة النبويّة الحقّة الّتي يعتبر فيها رعاية قلوب الرعيّة من الإمام الداعي و إصلاحها وبين السلطنة المتغلّبة الجائرة الّتي لايعتبر فيها ذلك فصار ذلك منشأ خطائه ، وبالجملة يجب على كلّ مكلّف أن يحصل من علم الفقه ما يحتاج إليه بنفسه بفرض العين و ما يحتاج إليه غيره بفرض الكفاية سواء فيه العبادات و المعاملات من غير فرق ؛ و أمّا فقهاء العامّة فليس يصلح فقههم أن يعدّ من العلم حتّى يقال إنّه من

علوم الدّنيا أو الآخرة لأنّه مخلوط ببدع و جهالات و أهواء مخترعة مضلّات كما سنشير إلى بعضها في مواضعه إن شاء الله .

روى عليّ بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ « في تفسير قوله تعالى : « و الشعراء يتّبعهم الغاوون [١] » أنّها نزلت في الّذين غيّروا دين الله وخالفوا أمر الله عزّ وجلّ ، هل رأيتم شاعراً قطّ يتّبعه أحد و إنّما عنى بذلك الّذين وضعوا ديناً بآرائهم فيتّبعهم النّاس على ذلك ، قال : «ألم تر أنّهم في كلّ واديهمون» يعني يناظرون بالأباطيل و يجادلون بالحجج المضلّين و في كلّ مذهب يذهبون يعني بهم المغيّرين دين الله « و إنّهم يقولون مالايفعلون» يعني يعظون الناس ولايتعظّون ، و ينهون عن المنكر ولاينتهون ، ويأمرون بالمعروف ولايعملون ، قال : وهم الّذين غصبوا آل محمّد حقّهم [٢]» .

و روى شيخنا الصدوق ـ رحمه الله ـ في معاني الأخبار [٣] « عن الباقر عليه السلام في هذه الآية : هل رأيت شاعراً يتّبعه أحد ، إنّماهم قوم تفقّهوا لغير الله فضلّوا و أضلّوا» .

و عن الصادق عليه السلام : «هم قوم تعلّموا وتفقّهوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا » .

و ممّا يدلّ على شرف علم الفقه و شدّة الإهتمام به ما روّيناه من طريق الخاصّة بإسنادنا الصحيح عن معاوية بن وهب « قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : إنّ آية الكذّاب بأن يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب فإذا سألته عن حرام الله تعالى و حلاله لم يكن عنده شيء » [٤] .

---

(١) الشعراء : ٢٢٢ . والخبر فى ذيل الاية فى التفسير ص ٤٧٥ .

(٢) ورواه العياشى كما فى المجمع ذيل الاية .

(٣) باب النوادر فى خاتمة الكتاب ص ٣٨٥ .

(٤) الكافى ج ٢ ص ٣٤٠ و قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فى بيانه : ذلك لان العلم بحقائق الاشياء على ماهي عليه لايحصل لاحد الا بالتقوى وتهذيب السر عن رذائل الاخلاق . قال الله تعالى : « اتقوا الله و يعلمكم الله » ولا يحصل التقوى الا بالاقتصاد على الحلال والاجتناب عن الحرام ولا يتيسر ذلك الا بالعلم بالحلال والحرام فمن أخبر عن شيء من حقائق الاشياء ولم يكن عنده معرفة بالحلال والحرام فهو لامحالة كذاب يدعي ماليس عنده .

﴿ فصل ﴾

قال أبو حامد : «فإن قلت : فصّل لي علم الآخرة تفصيلاً يشير إلى تراجمه إن لم يمكن استقصاء تفاصيله ، فاعلم أنّه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة : القسم الأوّل علم المكاشفة و هو علم الباطن و ذلك غاية العلوم قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيبٌ من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة و أدنى النصيب منه التصديق به و تسليمه لأهله ، وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم : بدعة أو كبر ، و قيل : من كان محبّاً للدّنيا أو مصرّاً على هوى لم يتحقّق به و قد يتحقّق بسائر العلوم ، و أقلّ عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه شيئاً و هو علم الصدّيقين و المقرّبين أعني علم المكاشفة و هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره و تزكيته من صفاته المذمومة فينكشف من ذلك النور اُمور كان يسمع من قبل أسمائها و يتوهّم لها معاني مجملة غير متّضحة ، فيتّضح له ذلك حتّى يحصل المعرفة الحقيقيّة بذات الله سبحانه ، و بصفاته التامّات ، و بأفعاله و بحكمته في خلق الدّنيا و الآخرة ، و وجه ترتيبه الآخرة على الدّنيا ، و المعرفة بمعنى النبوّة و النبيّ ، ومعرفة معنى الوحي ، و معنى لفظ الملائكة و الشياطين ، و كيفيّة معادات الشيطان للإنسان ، و كيفيّة ظهور الملك للأنبياء ، و كيفيّة وصول الوحي إليهم ، و المعرفة بملكوت السماوات و الأرض ، و معرفة القلب و كيفيّة تصادم جنود الملائكة و الشياطين فيه ، و معرفة الفرق بين لمّة الملك و لمّة الشيطان ، و معرفة الآخرة و الجنّة و النّار و عذاب القبر و الصراط و الميزان و الحساب ، و معنى قوله عزّ وجلّ : «كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً [1] » و معنى قوله عزّ وجلّ : «وإنّ الدّار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون [2] » ومعنى لقاء الله عزّ وجلّ والنظر إلى وجهه الكريم و معنى القرب منه و النزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى و مقاربة الملائكة و النبيّين ، و معنى تفاوت درجات أهل الجنّة حتّى يرى بعضهم بعضاً

(١) الاسراء : ١٤ .

(٢) العنكبوت : ٦٤ .

كما يرى الكوكب الدرّي في جوّ السماء إلى غير ذلك ممّا يطول تفصيله، إذ للناس في معاني هذه الأُمور بعد التصديق بأُصولها مقامات:

فبعضهم يرى أنّ جميع ذلك أمثلة و أنّ الّذي أعدّه الله لعباده الصالحين ما لاعينٌ رأت، و لا أُذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر، و أنّه ليس مع الخلق من الجنّة إلّا الصفات والأسماء.

و بعضهم يرى أنّ بعضها أمثلة و بعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها. و كذا يرى بعضهم أنّ منتهى معرفة الله سبحانه الاعتراف بالعجز عن معرفته. و بعضهم يدّعي أُموراً عظيمة في المعرفة بالله عزّ وجلّ.

و بعضهم يقول: حدّ معرفة الله تعالى ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام، وهو أنّه سبحانه موجود عالم قادر سميع بصير متكلّم مريد، فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتّى يتّضح له جليّة الحقّ في هذه الأُمور إيضاحاً يجري مجرى العيان الّذي لا يشكّ فيه و هذا ممكن في جوهر الإنسان إلّا أنّ مرآة القلب قد تراكم صداها وخبثها بقاذورات الدّنيا، و إنّما نعني بعلم طريق الآخرة العلم بكيفيّة تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث الّتي هي الحجاب عن الله سبحانه، و عن معرفة صفاته و أفعاله، و إنّما تصفيتها و تطهيرها بالكفّ عن الشهوات و الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام في جميع أحوالهم فبقدر ما يتجلّي من القلب و يحاذي به شطر الحقّ يتلألأ فيه حقائقه، ولا سبيل إلى ذلك إلّا بالرياضة الّتي يأتي تفصيلها في موضعه و بالعلم و التعلّم، و هذه هي العلوم الّتي لاتسطر في الكتب ولا يتحدّث بها من أنعم الله سبحانه عليه منها بشيء إلّا مع أهله، و هو المشارك فيه على سبيل المذاكرة، و بطريق الأسرار وهذا العلم الخفي هو الّذي أراده النبي صلّى الله عليه وآله بقوله: «إنّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلّا أهل المعرفة بالله فإذا نطقوا به لم يجهله إلّا أهل الاغترار بالله عزّ و جلّ ولم يتحمّله إلّا أهل الاعتراف بالله، فلا تحقروا عالماً آتاه الله علماً فإنّ الله تعالى لم يحقره إذ آتاه إيّاه [1]».

أقول: و من طريق الخاصّة ما رويناه بإسنادنا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

---

(١) شطره الاخر في البحار ج ٢ ص ٤٤ من كنز الفوائد للكراجكي.

« إنّ من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن ، و تجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه - إلى أن قال : - قد خلع سرابيل الشهوات ، و تخلّى من الهموم إلّاهمّاً واحداً انفرد به فخرج من صفة العمى ، و مشاركة أهل الهوى ، و صار من مفاتيح أبواب الهدى ، و مغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه ، وسلك سبيله ، و عرف مناره ، و قطع غماره ، و استمسك من العرى بأوثقها ، و من الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس »[1] .

وفي كلام آخر له عليه السلام : «قد أحيا قلبه ، وأمات نفسه ، حتّى دقّ جليله ، ولطف غليظه ، و برق له لامع كثير البرق ، فأبان له الطريق ، و سلك به ، السبيل و تدافعته الأبواب إلى باب السلامة ، و دار الإقامة ، و ثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن و الراحة ، بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»[2] .

و قال عليه السلام : « اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة »[3] .

و قال عليه السلام : «تعلّمت من رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم ففتح لي بكلّ باب

---

(١) النهج البلاغة خطبة : ٨٤ . و قوله : « و قطع غماره » بالكسر جمع غمر - بالفتح - و هو معظم الماء والبحر، ولعل المراد بقطع الغمار خروجه عن فتن الدنيا و مضلاتها بسفن النجاة والهدايات خاصة ، ولعل المراد بأوثق العرى الايمان و بأمتن الحبال اتباع أوامر المولى سبحانه ومتابعة سبيل الهدى .

(٢) النهج خطبة : ٢١٨ . و قوله : «تدافعته الابواب » يمكن أن يكون الابواب عبارة عن اسباب القرب من الطاعات و ترك اللذات فان كل واحد منها باب من أبواب الجنة فينتقل منها حتى ينتهى الى باب الجنة التى هى قرار الامن والراحة . و يمكن ان يكون الابواب عبارة عن اللذات والمطالب النفسانية التي يريد الانسان أن يدخلها بمقتضى طبعه فيكون تدافعها كناية عن منعها اياه للدخول اى منع التأييد الالهى اياه عن دخول كل ما تريده النفس من تلك الابواب حتى ينتهى الى باب السلامة فيدخله و هو الدخول فى دار الاقامة اى جنته الخلد .

(٣) النهج خطبة : ٥ . واندمج الشيء اذا دخل فى شيء واستحكم فيه . و باح سراً أظهره . والرشاء - بالكسر والمد - : الحبل جمعه أرشية . والطوى : البئر المطوية .

ألف باب »[١].

و سأله كميل بن زياد النخعيّ عن الحقيقة فقال عليه السلام : « مالك و الحقيقة ؟ قال : أو لست صاحب سرّك ؟ قال : بلى و لكن يرشّح عليك مايطفح منّي ، ثمّ أجابه عمّا سئل »[٢].

و روى كميل «أنّه عليه السلام أخذ بيدي وأخرجني إلى الجبّان فلمّا أصحر تنفّس الصعداء ، ثمّ قال لي : يا كميل بن زياد إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها فاحفظ عنّي ما أقول لك النّاس ثلاثة : فعالم ربّانيّ ، و متعلّم على سبيل نجاة ، و همج رعاع أتباع كلّ ناعق ، يميلون مع كلّ ريح ، لم يستضيئو بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق - إلى أن قال : - هاه إنّ ههنا لعلماً جمّاً ، و أشار إلى صدره - لو أصبت له حملة ؟ بلى أصبت لقناً [٣] غير مأمون عليه ، مستعملاً آلة الدّين للدّنيا ، و مستظهراً بنعم الله على عباده و بحججه على أوليائه ، أو منقاداً لحملة الحقّ لا بصيرة له في أحنائه[٤] ينقدح الشكّ في قلبه لأوّل عارض من شبهة ، ألا لاذا و لا ذاك[٥] ، أو منهوماً باللّذّة ، سلس القياد للشهوة ، أومغرماً بالجمع والادّخار ، ليسا من رعاة الدّين في شيء ، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة كذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللّهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة إمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً ، لئلاّ تبطل حجج الله و بيّناته وكم ذا ؟ و أين أولئك ؟ أولئك - و الله - الأقلّون عدداً والأعظمون قدراً ، بهم يحفظ الله حججه و بيّناته حتّى يودعوها نظراءهم ، و يزرعوها في قلوب أشباههم ؛ و هجم بهم

---

(١) الحديث معروف راجع البحار ج٩ من الطبع الحجرى ص ٤٧٥ و ج٧ص٢٨٢ وج ٦ باب وصايا النبى صلى الله عليه و آله .

(٢) رجال النيسابورى كما في الروضات في ترجمة كميل .

(٣) اى سريع الفهم .

(٤) الضمير راجع الى العلم والاحناء : الاطراف وذلك لعدم علمه بالبرهان والحجة .

(٥) «لاذا» اشارة الى المنقاد و « لاذاك» اشارة الى اللقن ويجوز أن يكون المعنى لا هذا المنقاد محمود عندالله ناج ولاذاك اللقن .

العلم على حقيقة البصيرة ، و باشروا روح اليقين ، و استلانوا ما استوعره المترفون[1] وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدّنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه ، و الدّعاة إلى دينه آه آه شوقاً إلى رؤيتهم»[2] .

و عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال : « والله لو علم أبوذرّ ما في قلب سلمان لقتله و لقد آخا رسول الله بينهما فما ظنّكم بسائر الخلق ، إنّ علم العلماء صعب مستصعب لا يحتمله إلّا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أوعبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان ؛ قال : « و إنّما صار سلمان من العلماء لأنّه امرء منّا أهل البيت فلذلك نسبته إلى العلماء[3] » .

أراد عليه السلام أهل بيت التوحيد والعلم والمعرفة والحكمة لا أهل بيت النسوان والصبيان والأهل والأولاد .

و في حديث النبويّ صلّى الله عليه وآله أيضاً «سلمان منّا أهل البيت[4]» .

و فيه أيضاً « لو علم أبو ذرّ ما في بطن سلمان من الحكمة لكفّره » و في رواية لقتله[5] .

و عن زين العابدين عليه السلام في أبيات منسوبة إليه .

إنّي لأكتم من علمي جواهره * كي لا يرى الحقّ ذو جهل فيفتتننا
و قد تقدّم في هذا أبو حسن * إلى الحسين و وصّى قبله الحسنا
يا ربّ جوهر علم لو أبوح به * لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا
و لاستحلّ رجالٌ مسلمون دمي * يرون أقبح ما يأتونه حسنا

و عن ابنه الباقر عليه السلام : « النّاس كلّهم بهائم إلّا قليل من المؤمنين » .

---

(١) اى ما استصعبوه من خشونة المطعم و جشوبة المضجع والملبس و مصابرة الصيام والسهر ؛ و مااستوحش منه الجاهلون هوالامور المذكورة .

(٢) النهج ابواب الحكم رقم ١٤٧ .

(٣) رواه الصفار فى البصائر ص ٨ . والكلينى فى الكافى ج ١ ص٤٠١ .

(٤) الخبر معروف راجع سفينة البحار ج ١ ص ٦٤٦ .

(٥) المجلد السادس من البحار ـ ط (الكمبانى) ـ ص ٧٥٤ .

أقول : و تصديق ذلك قول الله عزّ و جلّ : « أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً »(١) .

و عن ابنه الصادق عليه السلام : « إنّ أمرنا سرّ مستور في سرّ مقنّع بالميثاق من هتكه أذلّه الله »(٢) .

وقال عليه السلام : إنّ أمرنا سرّ مستور في سرّ وسرّ مستسر وسرّ لايفيده إلّاسرّ وسرّ على سرّ وسرّ مقنّع بسرّ »(٣) .

و قال عليه السلام : « هو الحق وحقّ الحقّ و هو الظّاهر ، و باطن الظاهر ، و باطن الباطن ، و هو السرّ و سرّ السرّ وسرّ المستسرّ وسرّ مقنّع بالسرّ »(٤) .

وقال عليه السلام : مشيراً إلى كتمان هذا السرّ : « التقيّة ديني ودين آبائي ، فمن لاتقيّة له لادين له »(٥) .

و قال عليه السلام : خالطوا الناس بما يعرفون و دعوهم ممّا ينكرون و لاتحمّلوا على أنفسكم و علينا إنّ أمرنا صعب مستعصب لا يحتمله إلّا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان »(٦) .

﴿ فصل ﴾

قال أبو حامد : « وأمّا القسم الثاني و هو علم المعاملة فهو علم أحوال القلب أمّا ما يحمد منها فكالبصر و الشكر و الخوف و الرجاء و الرضا و الزهد و التقوى و القناعة والسخاوة ، ومعرفة المنّة لله في جميع الأحوال و الإحسان و حسن الظنّ وحسن الخلق وحسن المعاشرة و الصدق و الإخلاص فمعرفة حقائق هذه الأحوال و حدودها و أسبابها الّتي بها تكتسب و ثمراتها وعلاماتها و معالجة ما ضعف منها حتّى

---

(١) الفرقان : ٤٤ .

(٢) و(٣) و(٤) رواه الصفار في بصائر الدرجات ص ٩ .

(٥) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢١٩ بادنى اختلاف .

(٦) رواه الصفار في البصائر ص ٩ .

يقوي و ما زال حتّى يعود من علم الآخرة و أمّا ما يذمّ فخوف الفقر ، و سخط المقدور[1] و الغلّ و الحقد و الحسد و الغشّ و طلب العلوّ و حبّ الثناء وحبّ طول البقاء في الدّنيا للتمتّع[2] و الكبر و الرياء و الغضب والأنفة والعداوة والبغضاء والطمع و البخل و الرغبة و البذخ[3] و الأشر و البطر و تعظيم الأغنياء و الاستهانة بالفقراء و الفخر والخيلاء والتنافس والمباهات والاستكبار عن الحقّ و الخوض فيما لا يعني و حبّ كثرة الكلام والصلف[4] و التزيّن للخلق والمداهنة والعجب و الاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية منه وشدّة الانتصار للنفس إذا نالها ذلّ وضعف الانتصار للحقّ و اتّخاذ إخوان العلانية على عداوة السرّ و الأمن من مكر الله - سبحانه - في سلب ما أعطى و الاتّكال على الطاعة والمكر و الخيانة و المخادعة و طول الأمل والقسوة و الفظاظة و الفرح بالدّنيا والأسف على فواتها والاُنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم والخفاء والطيش و العجلة وقلّة الحياء و قلّة الرّحمة ، فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش و منابت الأعمال المحظورة[5] و أضدادها هي الأخلاق المحمودة منبع الطاعات والقربات فالعلم بحدود هذه الاُمور و حقائقها وأسبابها و ثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة[6] وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة والمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة ، كما أنّ المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدّنيا بحكم فتوى فقهاء الدّنيا ، فنظر الفقهاء في فروض العين بالإضافة إلى إصلاح الدّنيا ، وهذا بالإضافة إلى

(١) كذا والظاهر « المقدر » بصيغة التفعيل .

(٢) قيده بالتمتع لان حب طول البقاء لارادة الطاعة ليس بمذموم .

(٣) البذخ - محركة - : الكبر ، بذخ - كفرح - وتبذخ : تكبر .

(٤) الصلف - بالتحريك - : التكلم بما يكرهه صاحبك و التمدح بما ليس عندك و مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبراً .

(٥) الاعمال المحظورة اى الممنوعة التى فى ارتكابها خطر .

(٦) الظاهر « من » بدل « هو » كما فى ماسبق .

إصلاح الآخرة ، و لو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتّى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكّل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقّف فيه مع أنّه فرض عينه الّذي في إهماله هلاكه في الآخرة ولو سألته عن اللّعان و الظهار والسبق والرمي يسرد [(١)] عليك مجلّدات من التعريفات الدقيقة الّتي ينقضي الدّهر و لا يحتاج إلى شيء منها وإن اُحتيج لم يخل البلد ممّن يقوم بها و يكفيه مؤونة التعب فيها فلا يزال يتعب في ذلك ليلاً و نهاراً وفي حفظه و درسه ، و يغفل عمّا هو مهمّ نفسه في الدّين وإذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنّه علم الدّين و فرض الكفاية ويلبّس على نفسه و على غيره في تعلّمه ، و الفطن يعلم أنّه لو كان غرضه أداء حقّ الأمر في فروض الكفاية لقدّم عليه فرض العين بل قدّم عليه كثيراً من فروض الكفايات . هيهات هيهات قد اندرس علم الدّين بتلبيس العلماء السوء فالله المستعان و إليه اللّياذ [(٢)] في أن يعيذنا من هذا الغرور الّذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان ، و قد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرّين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب . وقد قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك ، وعلماء الباطن زينة السماء و الملكوت » .

أقول : و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام [(٣)] « قال : العلم أصل كلّ حال سنيّ و منتهى كلّ منزلة رفيعة ، لذلك قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « العلم فريضة على كلّ مسلم » أي علم التقوى و اليقين .

و قال عليّ عليه السلام : « اطلبوا العلم و لو بالصين » و هو علم معرفة النفس و فيه معرفة الربّ عزّ وجلّ » .

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « من عرف نفسه فقد عرف ربّه » .

ثمّ عليك من العلم بما لا يصحّ العمل إلّا به و هو الإخلاص .

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « نعوذ بالله من علم لا ينفع » و هو العلم الّذي يضادّ العمل بالإخلاص و اعلم أنّ قليل العلم يحتاج إلى كثير العمل لأنّ علم ساعة يلزم صاحبه

(١) السرد : جودة سياق الحديث .

(٢) اللياذ : الملجاء وفي الاحياء « الملاذ » .

(٣) من ههنا الى آخر الفصل في المصباح باب ٦٥ ص ٤٣ .

استعماله طول دهره .

قال عيسى عليه السلام : « رأيت حجراً عليه مكتوب اقلبني فقلبته فإذا على باطنه من لا يعمل بما علم فشؤمٌ عليه طلب ما لا يعلم و مردودٌ عليه ما علم » .

و عنه عليه السلام : « الخشية ميزان العلم ، و العلم شعاع المعرفة و قلب الإيمان ، ومن حرم الخشية لا يكون عالماً و إن شقّ الشعر في متشابهات العلم قال الله تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » و آفة العلماء ثمانية أشياء الطمع و البخل و الرياء و العصبيّة و حبّ المدح و الخوض فيما لم يصلوا إلى حقيقته و التكلّف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ ، و قلّة الحياء من الله ، و الافتخار و ترك العمل بما علموا » ،

قال عيسى ابن مريم عليه السلام : « أشقى الناس من هو معروف عند الناس بعلمه مجهول بعمله » .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « لا تجلسوا عند كلّ داع مدّع يدعوكم من اليقين إلى الشكّ ، و من الإخلاص إلى الرياء و من التواضع إلى الكبر ، و من النصيحة إلى العداوة ، و من الزهد إلى الرغبة ، و تقرّبوا إلى عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع ، و من الرياء إلى الإخلاص ، و من الشكّ إلى اليقين ، و من الرغبة إلى الزهد ، و من العداوة إلى النصيحة» ولا يصلح لموعظة الخلق إلّا من خاف هذه الآفات بصدقه و أشرف على عيوب الكلام و عرف الصحيح من السقيم و علل الخواطر وفتن النفس والهوى .

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : «كن كالطبيب الرفيق الشفيق الّذي يضع الدواء بحيث ينفع [1]» .

﴿ فصل ﴾

قال أبو حامد : « فإن قلت : لم لم تورد في أقسام العلوم الكلام والفلسفة ولم تبيّن أنّهما مذمومان أو محمودان ؟

فاعلم أنّ حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلّة الّتي ينتفع بها فالقرآن

---

(١) في بعض النسخ [يدع الداء] وهو تصحيف .

و الأخبار مشتملة عليه و ما خرج عنهما فهو إمّا مجادلة مذمومة و هي من البدع كما سيأتي بيانه و إمّا مشاغبة (١) بالتعلّق بمناقضات الفرق و تطويل بنقل المقالات الّتي أكثرها ترّهات و هذيانات تزدريها الطباع وتمجّها الأسماع (٢) و بعضها خوض فيما لا يتعلّق بالدّين و لم يكن شيء من ذلك مألوفاً في العصر الأوّل و كان الخوض فيه بالكلّيّة من البدع ولكن تغيّر الآن حكمه أذ حدثت البدع الصارفة عن مقتضى [حكم] القرآن و السنّة و انبعث جماعة لفقّقوا لها شبهاً، و رتّبوا فيها كلاماً مؤلّفاً فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه بل صار من فروض الكفاية و هو القدر الّذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدّعوة إلى البدعة و ذلك إلى حدّ محدود معروف، سنذكره في الباب الّذي يلي هذا.

و أمّا الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء الأوّل الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق و لا نمنع منهما إلّا من يخاف عليه أن يتجاوزهما إلى علوم مذمومة، فإنّ أكثر الممارسين لها قد خرجوا منها إلى البدع فيصان الضعيف عنها لا لعينه كما يصان الصبيّ عن شاطىء النهر خوفاً من الوقوع في النهر و كما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفّار خوفاً عليه مع أنّ القويّ يندب إلى مخالطتهم، الثاني المنطق و هو بحث عن وجه الدّليل و شروطه و وجه الحدّ و شروطه و هما داخلان في علم الكلام؛ الثالث الإلهيّات و هو بحث عن ذات الله سبحانه و صفاته و هو أيضاً داخل في الكلام، و الفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر و بعضها بدعة، وكما أنّ الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلّمين و أهل البحث و النظر انفردوا بمذاهب باطلة فكذلك الفلاسفة، الرابع الطبيعيّات و بعضها مخالف للشرع و الدين الحقّ فهو جهل و ليس بعلم حتّى نورد في أقسام العلوم،

(١) شاغبه: شاره و أكثر الشغب معه و الشغب: اللفظ المؤدى الى الشر، و تشاغب الرجل، يعاصي يقال: طلبت منه كذا فتشاغب.

(٢) الازراء: التهاون بالشيء. و يقال في المثل: «هذا كلام تمجه الاسماع» اى تقذفه و تستكرهه.

و بعضها بحث عن صفات الأجسام و خواصّها و كيفيّة استحالتها و تغيّرها و هو شبيه بنظر الأطبّاء إلّا أنّ الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض و يصحّ و هم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغيّر و تتحرّك ولكن للطبيب فضل عليه و هو أنّه محتاج إليه و أمّا علومهم في الطبيعيّات فلا حاجة إليها .

أقول : أجزاء علم الفلسفة غير منحصرة فيما ذكره أبو حامد ـ رحمه الله ـ ولا الأمر فيه كما قاله ، بل هو علم شريف جامع لجميع العلوم العقليّة الحقيقيّة الّتي لاتتغيّر بتغيّر الأزمان ولا تتبدّل بتبدّل الأديان وتسمّى في عرفهم بالحكمة ويفسّر بأنّه العلم بحقائق الأشياء على ماهي عليه بقدر الطاقة البشريّة و هو شامل لكثير من المسائل الّتي عدّها أبو حامد من علم المكاشفة و لأكثر ما ذكره في علم المعاملة حتّى علم الشرائع على وجه كلّي و يندرج تحته أيضاً علما الهيئة والتشريح اللّذين قيل : من لم يعرفهما فهو عنين في معرفة الله عزّ وجلّ و علم الطبّ و النجوم و الخطابة و الشعر وغيرها من العلوم الدنيويّة و الاُخرويّة ، وأكثره مأخوذ من الوحي النازل على الأنبياء عليهم السلام و بعضه مستفاد من الإلهامات الواردة على القلوب المنوّرة و النفوس المرتاضة لأولي الخلوات و المجاهدات إلّا أنّ الفلاسفة لم يبلغوا في شيء من علومهم مبلغ الأنبياء بل كانوا قاصرين في أكثرها خصوصاً فيما يتعلّق منها بالمكاشفة فإنّه بقي لهم من العلم بالله و اليوم الآخر اُمور كثيرة ، أتمّها لهم الرّسل ـ صلوات الله عليهم ـ و ذلك لأنّ نظر الأنبياء عليهم السلام أوسع و أحدّ ومعرفتهم بالغة إلى جزئيّات الاُمور و تعيين الأعمال المقرّبة إلى الله تعالى كما هي بالغة إلى كلّيّاتها و لهم قدرة النزول في المعارف بالله إلى العاميّ الضعيف الرأي بما يصلح بعقله [(۱)] من ذلك و إلى الكبير العقل الصحيح النظر بما يصلح بعقله ، وهم أعلم خلق الله فيما غاب عنهم و همّتهم في معرفة حقائق اُمور النشأة الآخرة أكثر منها في معرفة اُمور هذه النشأة بل لايخوضون من الفانية إلّا فيما هووسيلة إلى الباقية و لهذا لمّا سئل نبيّنا صلّى الله عليه وآله عن التشكّلات البدريّة و الهلاليّة للقمر أمر بالإعراض عن الجواب إلى أمر آخر تنبيهاً على أنّ هذا السؤال ليس بمهمّ

(۱) في بعض النسخ [تعقله] وفي بعضها [لعقله] ههنا و ما يأتي .

في شأن علماء العامّة من ذلك لعدم ثبوته ولا دلالة لأكثره على فضيلة و أذكر بدله في موضع آخر ممّا اتّفق عليه أهل الإسلام من فضائل أهل البيت عليهم السلام ما يعلم أنّ الّذين ينتحلون التشيّع و يدّعون محبّتهم عليهم السلام لكاذبون وقد روى في الكافي[1] «عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال قال لي : ياجابر أيكفي من انتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت فوالله ماشيعتنا إلّا من اتّقى الله و أطاعه و ما كانوا يعرفون يا جابر إلّا بالتواضع و التخشّع و الأمانة و كثرة ذكر الله و الصوم و الصلاة و البرّ بالوالدين والتعهّد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة و الغارمين و الأيتام، و صدق الحديث و تلاوة القرآن و كفّ الألسن عن الناس إلّا من خير و كانوا اُمناء عشائرهم في الأشياء قال جابر: فقلت : ياابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة فقال : يا جابر لاتذهبنّ بك المذاهب حسب الرجل أن يقول اُحبّ عليّاً و أتولّاه ثمّ لا يكون مع ذلك فعّالاً فلو قال : إنّي اُحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله خير من عليّ ثمّ لايتّبع سيرته ولا يعمل بسنّته ما نفعه حبّه إيّاه شيئاً فاتقوا الله و اعلموا لما عند الله ليس بين الله و بين أحد قرابة أحبّ العباد إلى الله و أكرمهم عليه تعالى أتقاهم و أعملهم بطاعته يا جابر والله ما يتقرّب إلى الله تعالى إلّا بالطاعة ، ما معنا براءة من النار ولا على الله لأحد من حجّة ، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ و من كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ ، وما تنال ولايتنا إلّا بالعمل والورع».

و في حديث آخر إنّ شيعة عليّ الحلماء العلماء ، الذبل الشفاه ، تعرف الرهبانيّة في وجوههم ـ إلى غير ذلك ـ وسيأتي تمام الكلام في هذا الباب في كتاب آداب الشيعة وأخلاق الإمامة من ربع العادات إن شاء الله تعالى .

﴿ الباب الثالث ﴾

«فيما يعدّه العامّة من العلوم المحمودة وليس منها و فيه بيان الوجه الّذي يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة و بيان القدر المحمود من العلوم الشرعيّة والقدر المذموم منها .

---

(١) المجلد الثاني منه ص ٧٤ .

✿ (بيان علة ذم العلم المذموم) ✿

و لعلّك تقول : العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به و هو من صفات الله سبحانه فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً ؟

فاعلم أنّ العلم لايذمّ لعينه وإنّما يذمّ في حقّ العباد لأحد أسباب ثلاثة : الأوّل أن يكون مؤدّياً إلى ضرر إمّا بصاحبه و إمّا بغيره كما يذمّ علم السحر والطلسمات و هو حقّ إذ شهد القرآن له و أنّه سبب يتوصّل به إلى التفريق بين الزوجين و قدسحر رسول الله صلى الله عليه وآله و مرض بسببه حتّى أخبره جبرئيل عليه السلام بذلك[1] و أخرج السحرمن تحت حجر في قعر بئر و هو نوع علم يستفاد من العلم بخواصّ الجواهر و بأُمورحسابيّة في مطالع النجوم ، فيتّخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويترصّد له وقت مخصوص في المطالع و يقترن به كلمات يتلفّظ بها من الكفر و الفحش المخالف للشرع و يتوصّل بها إلى الإستعانة بالشياطين و يحصل من مجموع ذلك أحوال غريبة في الشخص المسحور و معرفة هذه الأسباب من حيث أنّها معرفة ليست مذمومة و لكنّها لا تصلح إلّا للإضرار بالخلق و الوسيلة إلى الشرّ شرّ ، فكان ذلك هو السبب في كونه مذموماً بل من أتبع وليّاً من أولياء الله ليقتله و قد اختفى منه في موضع حريز إذا سأل الظالم عن محلّه لم يجز تنبيهه عليه بل وجب الكذب فيه و ذكر موضعه له إرشاد و إفادة علم بالشيء على ما هو عليه ولكنّه مذموم لأدائه إلى الضرر .

الثاني أن يكون مضرّاً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم فإنّه في نفسه غير مذموم لذاته إذ هو قسمان قسم حسابي و قد نطق القرآن بأنّ مسير الكواكب محسوب إذ قال عزّ وجلّ : « الشمس و القمر بحسبان[2] » و قال عزّ وجلّ : « و القمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم[3] » و قسم الأحكام و حاصله يرجع إلى الاستدلال

---

(١) عدم تأثير السحر في الانبياء عليهم السلام مشهور عند الشيعة الامامية وذلك لانه شيطانى ولاسبيل له على الانبياء عليهم السلام قال الله تعالى : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » . (٢) الرحمن : ٥.

(٣) يس : ٣٩.

و لتلك الرّياح أسباب خفيّة هولا يطّلع عليها، فتارة يصيب في تخمينه و تارة يخطیء و لهذه العلّة يمنع القويّ عن النجوم أيضاً».

أقول: و ممّا يؤيّد ما ذكره ما روّيناه عن الصادق عليه السلام أنّه قال في هذا العلم: «إنّ كثيره لا يدرك و قليله لا ينتفع به [1]».

و قال أيضاً: «لا يعلمه إلّا أهل بيت من العرب و أهل بيت بالهند [2]».

قال أبو حامد: «و الثالث أنّه لا فائدة فيه فأقلّ أحواله أنّه خوض في فضول لا يعني و تضييع العمر الّذي هو أنفس بضاعة الإنسان بغير فائدة و ذلك غاية الخسران، فقد مرّ رسول الله صلّى الله عليه و آله برجل و الناس مجتمعون عليه فقال: «ما هذا؟ فقالوا: رجل علّامة فقال: بما ذا؟ قالوا: بالشعر وأنساب العرب، فقال: علم لا ينفع وجهل لا يضرّ، و قال صلّى الله عليه و آله. إنّما العلم آية محكمة أو سنّة قائمة أو فريضة عادلة» [3].

فالخوض [4] إذاً في النجوم و ما يشبهها اقتحام خطر و خوض في جهالة من غير فائدة فإنّ ما قدّر كائن و الاحتراز غير ممكن بخلاف الطبّ فإنّ الحاجة إليه ماسّة و أكثر أدلّته ممّا يطّلع عليها، و بخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنّه جزء من ستّة و أربعين جزء من النبوّة ولا خطر فيه».

أقول: و قد ذكر بعض علمائنا [5] وجهاً آخر للزجر عنه و هو أنّ الأحكام النجوميّة إخبارات عن اُمور ستكون و هي تشبه الإطّلاع على الاُمور الغيبيّة و أكثر الخلق من العوام و النساء و الصبيان لا يميّزون بينها و بين علم الغيب و الإخبار به

---

(١) الكافي ج ٨ ص١٩٥ في حديث طويل عن عبدالرحمن بن سيابة.

(٢) الكافي ج ٨ ص ٣٣١.

(٣) الكافي ج١ ص ٣٢. بزيادة و رواه الصدوق في الامالي كما في البحار ج ١ ص ٢١١ منه و من السرائر، وأخرجه ابن عبدالبر في العلم كما في المختصر ص ١٠٧.

(٤) من كلام أبي حامد.

(٥) اراد به كمال الدين بن ميثم بن علي بن ميثم البحراني ذكره في شرح خطبة ٧٧ من كتاب نهج البلاغة.

فكان تعلّم تلك الأحكام و الحكم بها سبباً لضلال كثير من الخلق و موهناً لاعتقاداتهم في المعجزات إذ الإخبار عن الكائنات منها و كذلك في عظمة بارئهم و يسلكهم في عموم صدق قوله تعالى : « قل لا يعلم من في السموات و الأرض الغيب إلّا الله »[١] ، « و عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو [٢] » و قوله تعالى : « إنّ الله عنده علم الساعة و ينزّل الغيث و يعلم ما في الأرحام و ما تدري نفس ما ذا تكسب غداً و ما تدري نفس بأيّ أرض تموت [٣] » فالمنجم إذا حكم لنفسه بأنّه يصيب كذا في وقت كذا فقد ادّعى أنّ نفسه تعلم ما تكسب غداً و بأي أرض تموت و ذلك عين التكذيب للقرآن » .

و هذا هو الوجه أيضاً لتحريم الكهانة و السحر و العزائم و نحوها و إليه أشار أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه السابق .

قال أبو حامد : « السبب الثالث الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه به فإنّه مذموم في حقّه كتعلّم دقيق العلوم قبل جليلها ، و خفيّها قبل جليّها ، و كالبحث عن الأسرار الإلهيّة إذ لا يطّلع الفلاسفة و المتكلّمون عليها ولم يستقلّوا بها ، و لا يستقلّ بها و بالوقوف على طرق بعضها إلّا الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ و الأولياء فيجب كفّ النّاس عن البحث عنها و ردّهم إلى ما نطق به الشرع ففي ذلك مقنع للموفّق و كم من شخص خاض في العلوم و استضرّ بها و لو لم يخض في ذلك لكان حاله أحسن في الدّين ممّا صار إليه ، و لا ينكر كون بعض العلم ضارّاً لبعض الناس كما يضرّ لحم الطير وأنواع الحلاوات اللّطيفة بالطفل الرضيع ، بل ربّ شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور فلقد حكي أنّ بعض الناس شكا إلى طبيب عقم زوجته و أنّها لا تلد فجسّ الطبيب بنبضها و قال : لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنّك ستموتين إلى أربعين يوماً و قد دلّ النبض عليه فاستشعرت المرأة خوفاً عظيماً و تنغّص عليها عيشها و أخرجت أموالها و فرّقتها و أوصت و بقيت لا تأكل ولا تشرب حتّى انقضت المدّة فلم تمت ، فجاء زوجها إلى الطبيب فقال

(١) النمل : ٦٥ .

(٢) الانعام : ٥٩ .

(٣) لقمان : ٣٤ .

و حفظ المقالات المتعلّقة بها ، فمن كان أشدّ تعمّقاً فيها و أكثر اشتغالاً بها يقال : هو الأفقه ، و لقد كان اسم الفقه في العصر الأوّل مطلقاً على علم طريق الآخرة ، و معرفة دقائق آفات النفوس ، و مفسدات الأعمال ، و قوّة الاحاطة بحقارة الدّنيا ، و شدّة التطلّع إلى نعيم الآخرة ، و استيلاء الخوف على القلب ، و يدلّك على ذلك قول الله تبارك و تعالى : « ليتفقّهوا في الدّين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم[1] » وما به الإنذار و التخويف هوهذا العلم وهذا الفقه دون تفريعات الطلاق و اللّعان و السّلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار و لا تخويف بل التجرّد له على الدوام يقسي القلب و ينزع الخشية منه كما يشاهد من المتجرّدين له قال الله تعالى : « لهمقلوبٌ لا يفقهون بها »[2] و أراد به معاني الإيمان دون الفتاوي ، و لعمري الفقه و الفهم في اللّغة إسمان لمعنى واحد و إنّما يتكلّم في عادة الاستعمال قديماً و حديثاً ، وقال تعالى : « لأنتم أشدّ رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنّهم قومٌ لا يفقهون »[3] فأحال قلّة خوفهم من الله عزّ و جلّ و استعظامهم سطوة الخلق على قلّة الفقه فانظر أكان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوي و الأقضية أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم ؟ .

و قد قال صلى الله عليه وآله : « علماء حكماء فقهاء »[4] للّذين وفدوا عليه و قال صلى الله عليه وآله : « ألا أُنبّئكم بالفقيه كلّ الفقيه ؟ قالوا : بلى ، قال صلى الله عليه وآله : « من لم يقنّط الناس من رحمة الله - سبحانه - و لم يؤمنهم من مكر الله عزّ و جلّ - و لم يؤيسهم من روح الله - عزّ وجلّ - و لم يدع القرآن رغبة عنه إلى ماسواه »[5] .

---

(١) التوبة : ١٢٢.

(٢) الاعراف : ١٧٩

(٣) الحشر : ١٣ .

(٤) الكافى ج٢ص٤٨ وقال العراقى : هذاالخبر أخرجه ابو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث سويد بن الحرث باسناد ضعيف .

(٥) أخرجه ابن عبدالبر فى العلم كما فى المختصر ص١٢٠ عن على بن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه و آله ، وفى سنن الدارمى ج ١ ص ٨٩ باسناده عن يحيى بن عباد عن على عليه السلام أيضاً وفى تيسير الوصول ج٤ ص١٦٢ عن على عليه السلام وقال اخرجه رزين .

وقال ﷺ : « لا يفقه العبد كلّ الفقه حتّى يمقت النّاس في ذات الله عزّ وجل، و حتّى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة »[1].

و روي أيضاً موقوفاً على أبي الدرداء مع قوله ﷺ ثمّ يقبل على نفسه فيكون لها أشدّ مقتاً»[2].

و قال بعض السلف : إنّما الفقيه الزاهد في الدّنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربّه[3] الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم . و لم يقل في جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوي ، ولست أقول : إنّ اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوي في الأحكام الظاهرة و لكن كان بطريق العموم و الشمول أو بطريق الاستتباع ، و كان إطلاقهم له على علم الآخرة و أحكام القلب أكثر فثار من هذا التخصيص تلبيس بعض الناس على التجرّد له و الإعراض عن علم الآخرة و أحكام القلب و وجدوا على ذلك معيناً من الطبع ، فإنّ علم الباطن غامضٌ و العمل به عسير و التوصّل به إلى طلب الولاية و القضاء و الجاه و المال متعذّر فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الّذي هو اسم محمود في الشرع .

﴿ فصل ﴾

اللّفظ الثاني العلم و قد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى و بآياته و أفعاله في عباده و خلقه و قد تصرّفوا فيه بالتخصيص حتّى شهروه في الأكثر بمن يشتغل

(١) أخرجه ابن عبدالبر فى العلم من حديث شداد بن أوس كما فى المختصر ص ١٢١ و منتخب كنز العمال بهامش المسند ج٤ ص ٣٦ عن الخطيب في المتفق و المفترق عن شداد بن أوس . و قال العراقى : فى سند الحديث صدقة بن عبدالله و هو ضعيف عندهم مجمع على ضعفه وهذا حديث لايصح مرفوعاً و إنما الصحيح فيه انه من قول ابى الدرداء ، فمن ابى قلابة عنه قال : « لن تفقه كل الفقه ـ الخبر ـ» .

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص ١٢١ .

(٣) الى هنا أخرجه الدارمى فى سننه ج١ ص ٨٩ باسناده عن الحسن البصرى .

في جمع المال و الجاه و استكثار الأسباب و متوجّه بالكلّيّة إليها، فمتى وجّه وجهه للّذي فطر السماوات والأرض؟ وهذه الكلمة خبرعن حقيقة التوحيد، فالموحّد هوالّذي لايرى إلّا الواحد و لا يتوجّه وجهه إلّا إليه و هو امتثال قوله عزّوجلّ: «قل الله ثمّ ذرهم»[١] و ليس المراد به القول باللّسان إنّما اللّسان ترجمان يصدق مرّة و يكذب اُخرى و إنّما موقع نظر الله عزّ وجلّ [هو] المترجم عنه [و] هو القلب فهو معدن التوحيد و منبعه.

﴿ فصل ﴾

اللّفظ الرابع الذكر و التذكير وقد قال الله تعالى: «فذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين»[٢] وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر والتذكير أخبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وآله: «إذا مررتم برياض الجنّة فارتعوا فيها قيل: ومارياض الجنّة؟ قال: مجالس الذكر»[٣].

و في الحديث: «إنّ لله عزّ و جلّ ملائكة سيّاحين في الهواء سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً ألا هلمّوا إلى بغيتكم، فيأتونهم و يحفّون بهم و يستمعون ألا فاذكروا الله و ذكّروا أنفسكم»[٤] فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعّاظ في هذا الزمان يواظبون عليه من القصص و الأشعار و الشطح و الطّامات، أمّا القصص فهي بدعة و قد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصّاص و قالوا: لم يكن ذلك في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله و لا في زمان الخلفاء حتّى ظهرت الفتنة فظهرت القصّاص و أخرج عليّ عليه السلام القصّاص من مسجد البصرة و لما سمع كلام حسن البصريّ لم يخرجه إذ كان يتكلّم في علم الآخرة و التذكير بالموت و التنبيه على عيوب

(١) الانعام: ٩١.

(٢) الذاريات: ٥٥.

(٣) مرعن معاني الاخبار و أخرجه الترمذي ايضاً كما قاله العراقي وأخرجه أيضاً البغوي في المصابيح كتاب الدعوات باب ذكر الله عز و جل ج ١ ص١٤٩.

(٤) قال العراقي: الحديث متفق عليه من حديث ابي هريرة دون قوله: «في الهواء» و للترمذي «سياحين في الارض و قال مسلم سيارة».

النفس و آفات الأعمال و خواطر الشيطان و وجه الحذر منها و يذكّر بآلاء الله سبحانه و نعمائه و تقصير العبد في شكره و يعرّف حقارة الدّنيا و عيوبها و تصرّمها و قلّة عهدها و خطر الآخرة و أهوالها » .

أقول : إن صحّ ما ذكره أبو حامد من عدم إخراجه عليه السلام الحسن من المسجد فلعلّ الوجه فيه اتّقاء شرّه و ذلك لأنّه كان منافقاً مبغضاً لأمير المؤمنين عليه السلام كان يمنع الناس في مواعظه من امتثال أمر أمير المؤمنين عليه السلام و القتال معه على أنّ أكثر ما يتكلّم به الحسن ممّا يعظ به في مواعظه و يأتي به في مجالسه في معرض الإفادة كان من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فإنّه كان يجلس في مجالس خطبه و مواعظه و كان يكتبها و يحفظها ثمّ يسردها على الناس و يريها أنّه من كلام نفسه حتّى قال علماء العامّة : إنّ كلام الحسن يشبه كلام الأنبياء و إنّما كان من كلامه من كان يفتخر به الأنبياء فقد روّينا عن أبي يحيى الواسطي أنّه قال : لمّا افتتح أمير المؤمنين عليه السلام البصرة اجتمع النّاس عليه و فيهم الحسن البصريّ و معه الألواح فكان كلّما لفظ أمير المؤمنين عليه السلام بكلمة كتبها فقال له أمير المؤمنين عليه السلام بأعلى صوته : ما تصنع ؟ قال : نكتب آثاركم لنحدّث بها بعدكم ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أما إنّ لكلّ قوم سامريّاً و هذا سامريّ هذه الأمّة إلّا أنّه لا يقول : لا مساس ولكنّه يقول : لاقتال . رواه الشيخ الطبرسيّ في كتاب احتجاجه (۱) .

قال أبو حامد : « فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الّذي ورد الحثّ عليه في حديث أبي ذرّ حيث قال : حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة و حضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض ، و حضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة و قيل : يارسول الله و من قراءة القرآن ؟ فقال صلّى الله عليه وآله : و هل ينفع قراءة القرآن إلّا بالعلم » (۲) .

« فقد اتّخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجّة على تزكية أنفسهم و نقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم و زهلوا عن طريق الذكر المحمود و اشتغلوا بالقصص الّتي

(۱) ص ۹۲ من طبع النجف .

(۲) جامع الاخبار الفصل العشرون .

يتطرّق إليها الاختلاف و الزيادة و النقصان و تخرج عن القصص الواردة في القرآن و تزيد عليه فإنّ من القصص ما ينفع سماعه و منها ما يضرّ سماعه و إن كان صدقاً ، ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب و النافع بالضارّ فلهذا نهي عنه ، و لذلك قيل : ما أحوج الناس إلى قاصّ صادق فإن كانت القصّة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلّق بأُمور دينهم و كان [القاصّ صادقاً] صحيح الرواية فلا بأس به و ليحذر الكذب و حكاية أحوال تؤمي إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات و متداركة بحسنات تغطّى عليها فإنّ العامي يعتصم بذلك في مساهلاته و هفواته و يمهّد لنفسه عذراً فيه و يحتجّ بأنّه حكى كيت و كيت عن بعض المشايخ و بعض الأكابر و كلّنا بصدد المعاصي فلا غرو إن عصيت الله فقد عصى من هو أكبر منّي و يفيده ذلك جرأة على الله عزّ و جلّ من حيث لا يدري فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلابأس به وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة [و] إلى ما يشتمل عليه القرآن و صحّ في الكتب الصحيحة من الأخبار » .

أقول : و أمّا على أُصولنا الأصيلة فيمتنع صدور الهفوة و المساهلة عن الأنبياء صلوات الله عليهم و كذا الأئمّة عليهم السلام و لو على سبيل الندرة و أمّا ما يستفاد من القرآن من ذلك فمؤوّل كما يأتي بيانه في محلّه فنسبة الهفوة إليهم عليهم السلام كذب على أيّ حال فالمحذورين عند التحقيق يرجعان إلى واحد .

قال : « و من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغّبة في الطاعات و يزعم أنّ قصده فيه دعوة الخلق إلى الحقّ و هذا من نزغات الشيطان (١) فإنّ في الصدق لمندوحة عن الكذب ، و فيما ذكره الله سبحانه و رسوله صلى الله عليه وآله غنية عن الاختراع في الوعظ ، كيف و قد كره تكلّف السجع وعدّ ذلك من التصنّع و قد قال النبيّ صلى الله عليه وآله لعبد الله ابن رواحة في سجع بين ثلاث كلمات : « إيّاك و السجع يا ابن رواحة» (٢) فكان السجع

---

(١) نزغات الشيطان و ساوسه و مايحمل به الانسان على المعاصى .

(٢) قال العراقى فى المغنى : لم أجده هكذا و لاحمد وابى يعلى وابن السنى و ابى نعيم فى كتاب الرياضة من حديث عائشة باسناد صحيح أنها قالت للسائب اياك والسجع ←

المحذور المتكلّف ما زادعلى كلمتين و لذلك لمّا قال ذلك الرجل في دية الجنين كيف ندى من لا شرب و لا أكل و لا صاح و لا استهلّ و مثل ذلك يطلّ ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: أسجع كسجع الكهّان » [1] .

أقول : ومن طريق الخاصّة في هذا الباب ما رواه الصدوق - رحمه الله - في إعتقاداته « قال : و ذكر القصّاصون عند الصادق عليه السلام فقال : لعنهم الله يشنعون علينا ، و سئل الصادق عليه السلام عن القصّاص أيحلّ الاستماع لهم ؟ فقال : لا ، وقال عليه السلام : من أصغى إلى ناطق فقد عبده ، فإن كان الناطق عن الله فقد عبدالله و إن كان عن إبليس فقد عبد إبليس ؛ وسئل الصادق عليه السلام عن قوله عزّوجلّ : « والشعراء يتّبعهم الغاوون» [2] قال : هم القصّاص ؛ وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : من أتى ذا بدعة فوقّره فقدسعى في هدم الإسلام» انتهى كلام الصدوق .

فصل

قال أبو حامد : وأمّا الأشعارفتكثيرهافي المواعظ مذموم قال الله تعالى : «والشعراء يتّبعهم الغاوون ، ألم ترأنّهم في كلّ واد يهيمون » و قال عزّوجلّ : « وما علّمناه الشعر و ما ينبغي له إن هو إلّا ذكر» . وأكثر مااعتاده الوعّاظ من الأشعار ما يتعلّق بالتواصف في العشق و جمال المعشوق و روح الوصال و ألم الفراق ، و المجلس لا يحوي إلّا أجلاف العوام و بواطنهم مشحونة بالشهوات و قلوبهم غير منفكّة من الالتفات إلى الصور الجميلة فلا تحرّك الأشعار من قلوبهم إلّا ما هو مستكنّ فيها ، فيشتعل فيها نيران الشهوة فيزعقون[3] و يتواجدون و أكثرذلك أو كلّه يرجع إلى نوع فساد فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلّا ما فيه موعظة و حكمة على سبيل استشهاد و استيناس ، فقد قال النبيّ

— فان النبى صلى الله عليه و آله وأصحابه كانوا لا يسجعون ، و لابن حبان و اجتنب السجع و فى البخارى نحوه من قول ابن عباس .

(١) فى الاحياء « كسجع الاعراب» و فى صحيح مسلم ج٥ص١١١ من حديث مغيرة هكذا ، و روى الكلينى فى الكافى ج٧ باب دية الجنين تحت رقم ٣ نحوه .

(٢) الشعراء : ٢٢٤ . (٣) زعق - كمنع - : صاح .

ﷺ : « إنّ من الشعر لحكمة » (١) ولو حوى المجلس الخواصّ الّذين وقع الاطّلاع على استغراق قلوبهم بحبّ الله تعالى و لم يكن معهم غيرهم فإنّ أولئك لا يضرّ معهم الشعر الّذي يشير ظاهره إلى الخلق فإنّ المستمع ينزل كلّما يسمعه على ما يستولى على قلبه و لذلك كان الجنيد يتكلّم على بضعة عشر رجلاً فإن كثروا لم يتكلّم ، و ماتمّ أهل مجلسه عشرين ، وحضر جماعة باب دار ابن سالم فقيل له : تكلّم فقد حضر أصحابك فقال : ما هؤلاء أصحابي إنّما هم أصحاب المجلس - أي أصحابي هم الخواصّ - .

فصل

و أمّا الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفيّة أحدهما الدّعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله سبحانه و الوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتّى ينتهي قوم إلى دعوى الاتّحاد و ارتفاع الحجاب و المشاهدة بالرؤية و المشافهة بالخطاب فيقولون : قيل لنا كذا و قلنا كذا و يتشبّهون فيه بالحسين الحلاّج الّذي صلب لإطلاقه كلمات من هذا الجنس ، و يستشهدون بقوله : أنا الحقّ ؛ و بما يحكون عن أبي يزيد البسطاميّ أنّه قال : سبحاني سبحاني . وهذا فنّ من الكلام عظم ضرره في العوامّ حتّى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم و أظهروا مثل هذه الدعاوي ، فإنّ هذا الكلام يستلذّه الطبع إذ فيه البطالة عن الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات و الأحوال فلا يعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقّف كلمات مخبطة مزخرفة و مهما أنكر ذلك عليهم لم يعجزوا أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم و الجدل ، و العلم حجاب و الجدل عمل النفس و هذا الحديث لا يلوح إلّا من الباطن بمكاشفة نور الحقّ فهذا ممّا قد استطار في بعض البلاد شرره و عظم ضرره و من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله سبحانه من إحياء عشرة ، و أمّا أبو يزيد البسطاميّ فلا يصحّ عنه ما حكي عنه و إن سمع ذلك منه فلعلّه كان يحكيه عن الله عزّ و جلّ في كلامه يردّده في نفسه كما لو سمع وهو يقول :

(١) أخرجه الترمذى فى ابواب الادب باب ماجاء ان من الشعر لحكمة من سننه ج ١٠ ص ٢٧٨ .

« إنّني أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني » فإنّه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلّا على سبيل الحكاية ؛ والصنف الثاني من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة و ليس ورائها طائل ، و ذلك إمّا أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله و تشويش في خياله لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه و هذا هو الأكثر و إمّا أن تكون مفهومة له ولكنّه لا يقدر على تفهيمها و إيرادها بعبارة تدلّ على ضميره لقلّة ممارسته للعلم و عدم تعلّمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلّا أنّه يشوّش القلوب و يدهش العقول و يحيّر الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معاني غير ما أريدت بها ويكون فهم كلّ واحد على مقتضى هواه وطبعه .

و قد قال ﷺ : « ما حدّث أحدكم قوماً بحديث لا يفهمونه إلّا كان فتنة عليهم »(١) .

وقال ﷺ :« كلّموا النّاس بما يعرفون و دعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذّب الله و رسوله (٢) » و هذا فيما يفهمه صاحبه و لا يبلغه عقل المستمع فكيف فيما لا يفهمه قائله فإن كان يفهمه القائل دون السامع فلا يحلّ ذكره .

و قال عيسى عليه السلام : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها(٣) ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الدّاء »(٤).

ـ و في لفظ آخر ـ « من وضع الحكمة في غير أهلها جهل ومن منعها أهلها ظلم ، إنّ للحكمة حقّاً و إنّ لها أهلاً ، فأعط كلّ ذي حقّ حقّه » .

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ج ١ ص ٩ بلفظ آخر و في الاحياء « لا يفقهونه » .

(٢) صحيح البخاري ج ١ ص ٤٣ و في كنوز الحقائق باب الكاف منه بلفظ « حدثوا الناس » و رواه النعماني في الغيبة كما في البحار ج٢ ص ٧٧ .

(٣) رواه الصدوق في المعاني و العلل كما في البحار ج٢ ص ٦٦ .

(٤) أخرجه ابن عبدالبر في العلم كما في المختصر ص ٥٥ ، والدارمي ج١ ص ١٠٦ باختلاف يسير في اللفظ .

﴿ فصل ﴾

و أمّا الطامّات فيد خلها ما ذكرناه في الشطح و أمر آخر يخصّها ، و هو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى اُمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام شيء كدأب الباطنيّة في التأويلات و هذا أيضاً حرامٌ و ضرره عظيمٌ فإنّ الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه ينقل عن صاحب الشرع و من غير ضرورة تدعوا إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ و يسقط به منفعة كلام الله عزّ وجلّ و كلام رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّ ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به و الباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر و يمكن تنزيله على وجوه شتّى ، و هذا أيضاً من البدع الشائعة العظيم ضررها وإنّما قصد أصحابها بها الإغراب لأنّ النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذّة له ، و بهذا الطريق يتوصّل الباطنيّة إلى هدم جميع الشرائع بتأويل ظواهرها و تنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذهبهم في الكتاب المستظهري المصنّف في الردّ على الباطنيّة و مثل تأويلات أهل الطامّات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى : « اذهب إلى فرعون إنّه طغى[1] » أنّه أشار إلى قلبه و قال : هو المراد بفرعون الطاغي على كلّ إنسان ؛ و في قوله تعالى : « ألق عصاك [2] » أي كلّ ما تتوكّأ عليه وتعتمدة ممّا سوى الله تعالى فينبغي أن تلقيه ؛ و في قوله صلى الله عليه وآله : « تسحّروا فإنّ في السحور بركة [3] » أراد به الاستغفار بالأسحار ، و أمثال ذلك حتّى يحرّفون القرآن من أوّله إلى آخره عن ظاهره و عن تفسيره المنقول عن العلماء و بعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً كتنزيل فرعون على القلب فإنّ فرعون شخص محسوس تواتر إلينا وجوده و دعوة موسى له كأبي لهب و أبي جهل وغيرهما من الكفّار وليس من جنس الملائكة و الشياطين وما لم يدرك بالحسّ حتّى

(١) طه : ٢٤ .
(٢) الاعراف : ١١٧ .
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح ج ٣ ص ٣٦ وابن ماجه تحت رقم ١٦٩٢ و مسلم ج٣ ص١٣٠ .

يتطرّق التأويل إلى ألفاظه وكذلك حمل التسحّر على الاستغفار فإنّه كان رسول الله ﷺ يتناول الطعام ويقول: «تسحّروا فإنّ في السحور بركة» و «هلمّوا إلى الغداء المبارك[1]» فهذه أمور يدرك بالتواتر و الحسّ بطلانها و بعضها يعلم بغالب الظنّ وذلك في أمور لايتعلّق بها الإحساس و كلّ ذلك حرام و ضلالة و إفساد للدّين على الخلق ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين، و لايظهر لقول رسول الله ﷺ: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النّار[2]» معنى إلّا هذه النمط و هو أن يكون غرضه و رأيه تقرير أمر و تحقيقه فيستجيز شهادة القرآن إليه و يحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظيّة لغويّة أو نقليّة و لاينبغي أن يفهم منه أنّه يجب أن لا يفسّر القرآن بالاستنباط و الفكر فإنّ من الآيات مانقل فيها عن الصحابة والمفسّرين خمسة معان و ستّة و سبعة و يعلم أنّ جميعها غير مسموعة من النبيّ ﷺ فإنّها قد تكون متنافية لاتقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم و طول الفكر و لهذا قال النبيّ ﷺ لابن عبّاس: «اللّهم فقّهه في الدّين، وعلّمه التأويل[3]» و من يستجيز من أهل الطامّات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنّها غير مرادة من الألفاظ و يزعم أنّه يقصد به دعوة الخلق إلى الحقّ يضاهي من يستجيز الاختراع و الوضع على رسول الله ﷺ لما هو في نفسه حقّ و لكن لم ينطق به الشرع كمن يضع في كلّ مسألة يراها حقّاً حديثاً عن رسول الله ﷺ و ذلك ظلم و ضلال و دخول في الوعيد المفهوم من قوله ﷺ: «من كذب عليّ متعمّداً فليتبوء مقعده من النّار» بل الشرّ في تأويل هذه الألفاظ أطمّ و أعظم[4] لأنّها مبطلة للثقة بالألفاظ و قاطعة طريق الاستفادة و الفهم من القرآن بالكلّيّة فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق من العلوم المحمودة إلى المذمومة و كلّ ذلك من تلبيس العلماء السوء بتبديل الأسامي فإن اتّبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم

---

(١) أخرجه النسائى ج ٤ ص ١٤٥.

(٢) أخرجه الترمذى و ابن جرير الطبرى كما نقله ابوالفداء اسماعيل بن كثير القرشى فى مقدمة تفسيره ص ٢.

(٣) مفردات الراغب ٢٥٢ والاتقان فى طبقات المفسرين ج ٢ ص ١٨٧.

(٤) من طم الماء اذا غمر، و طم الشيء اذا كثر حتى علا.

المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأوّل كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتّباع من يسمّى حكيماً (١) في هذا العصر وذلك بالغفلة عن تبديل اللّفظ.

﴿ فصل ﴾

اللّفظ الخامس الحكمة فإنّ اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب و الشاعر والمنجّم حتّى على الّذي يدحرج القرعة على أكفّ السواديّة (٢) في شوارع الطرق و الحكمة هي الّتي اثنى الله عزّ و جلّ عليها فقال عزّ من قائل: «و من يؤت الحكمة فقد اُوتي خيراً كثيراً (٣)» و قال ﷺ: «كلمة من الحكمة يتعلّمها الرجل خير له من الدّنيا [و ما فيها] (٤)» فانظر ما الّذي كانت الحكمة عبارة عنه و إلى ماذا نقل و قس به بقيّة الألفاظ و احترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء فإنّ شرّهم أعظم على الدّين من شرّ الشيطان إذ الشيطان بواسطتهم يتذرّع إلى انتزاع الدّين من قلوب الخلق فلهذا لمّا سئل رسول الله ﷺ عن شرّ الخلق أبى و قال: «اللّهمّ غفراً (٥)» حتّى كرّر عليه ثمّ قال: هم علماء السوء فقد عرفت العلم المحمود و المذموم و مثار الالتباس و إليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف أو تتدلّى (٦) بحبل الغرور و تتشبّه بالخلف، فكلّ ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس و ما أكبّ الناس عليه فأكثره مبتدع محدث و قد صحّ قول رسول الله ﷺ: «بدء الإسلام غريباً و سيعود غريباً كما بدء فطوبى للغرباء فقيل: و من الغرباء يا رسول الله؟ قال: الّذين يصلحون ما أفسده الناس من سنّتي والّذين

(١) في الاحياء «باتباع من يسمي حكيماً فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب و الشاعر والمنجم في هذا العصر و ذلك الخ»

(٢) سواد الناس عوامهم. (الصحاح)

(٣) البقرة: ٢٦٩.

(٤) تقدم نحوه.

(٥) راجع مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨٥، وأخرجه البزار في المسند الكبير كما في الترغيب ج ١ ص ١٢٦.

(٦) تدلي من الشجرة تعلق به.

يحيون ما أماتوه من سنّتي »[1] . وفي خبر آخر «هم المتمسّكون بماأنتم عليه اليوم» .

و في حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير ، من يبغضهم أكثر ممن يحبّهم» .

وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها ولذلك قيل : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنّه مخلّط لأنّه إن نطق بالحقّ أبغضوه [2] .

❁ (بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة) ❁

اعلم أنّ العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام ، قسم هو مذموم قليله و كثيره ، وقسم هو محمود قليله و كثيره ، و كلّما كان أكثر كان أحسن و أفضل ، و قسم يحمد منه مقدار الكفاية و لايحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه وهو مثل أحوال البدن فإنّ منه مايحمد قليله و كثيره كالصحّة و الجمال و منه ما يذمّ قليله و كثيره كالقبح و سوء الخلق و منه ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فإنّ التبذير لايحمد فيه و هو بذل و كالشجاعة فإنّ التهوّر لايحمد فيها و إن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم ، فالقسم المذموم منه قليله و كثيره هو مالافائدة فيه في دين ولادنيا إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات و النجوم فبعضه لافائدة فيه أصلاً و صرف العمر الّذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة و إضاعة النفائس مذمومة ، ومنه ما فيه ضرر يربي على ما يظنّ أنّه يحصل به من قضاء الوتر في الدّنيا فإنّ ذلك لايعتدّ به بالاضافة إلى الضرر الحاصل منه .

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله سبحانه و بصفاته و أفعاله و سنّته في خلقه و حكمته في ترتيب الآخرة علي الدّنيا ، فإنّ هذا علم مطلوب لذاته و للتوصّل به إلى سعادة الآخرة و بذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حدّ الواجب ، فإنّه البحر الّذي لايدرك غوره و إنّما يحوم المتحوّمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسّر لهم و ما خاض أطرافه إلّا الأنبياء عليهم السلام و الأولياء و الراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوّتهم و تفاوت تقديرالله عزّ وجلّ في حقّهم وهذا

(١) اخرج صدره ابن ماجه تحت رقم٣٩٨٧ . وج ١ ص٩٠ بلفظ آخر وابن عبدالبر تمامه في العلم كما في المختصر ص١٧٤ والترمذی ج١٠ ص٩٦ .

(٢) من كلام سفيان الثوری كما فی الاحياء .

هو العلم المكنون الّذي لايسطر في الكتب و يعين على التنبيه له التعلّم و مشاهدةأحوال علماء الآخرة كما سيأتي علامتهم هذا في أوّل الأمر و يعين عليه في الآخرة المجاهدة و الرياضة و تصفية القلب و تفريغه عن علائق الدنيا و التشبّه فيه بأنبياء الله و أوليائه عليهم السلام ليتّضح منه لكلّ ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد و لكن لاغنى فيه عن الاجتهاد فالمجاهدة مفتاح الهداية لامحالة لامفتاح لها سواها .

وأما العلوم الّتي لايحمد منها إلّا مقدار مخصوص فهي العلوم الّتي أوردناها في فروض الكفايات فإنّ في كلّ علم منها اقتصاداً هو الأقلّ ، و اقتصاداً و هو الوسط ، و استقصاء هو وراء الاقتصاد لامردّ له إلى آخر العمر ، فكن أحد رجلين إمّا مشغولاً بنفسك و إمّا متفرّغاً إلى غيرك بعد الفراغ من نفسك وإيّاك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك فإن كنت المشغول بنفسك فلاتشتغل إلّا بالعلم الّذي هو فرض عينك بحسب ما يقتضيه حالك و هو ما يتعلّق منه بالأعمال الظاهرة من تعلّم الطهارة و الصوم و الصلاة ، و إنّما الأهمّ الّذي أهمله الكلّ علم صفات القلب و ما يحمد منها و ما يذمّ إذ لاينفكّ بشرّ عن الصفات المذمومة من الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب و أخواتها و جميع ذلك مهلكات و إهمالها مع الاشتغال (١) بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذّي بالجرب و الدماميل و التهاون بإخراج المادّة بالفصد و الحجامة و الإسهال و حشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كماتشير الطرقيّة من الأطباء بطلاء ظاهر البدن وعلماء الآخرة لايشيرون إلّابتطهير الباطن وقطع موادّ الشرّ بإفساد منابتها و قلع مغارسها و هي في القلب و إنّما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح و استصعاب أعمال القلوب كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرّة المقرّة البشعة فلايزال يتعب في الطّلاء و يزيد في الموادّ و يتضاعف به الأمراض فإن كنت مريد الآخرة و طالباً للنجاة و هارباً من هلاك الأبد فاشتغل بعلم العلل الباطنة و علاجها على ما فصّلناه في ربع المهلكات ، ثمّ ينجرّ ذلك بك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربع المنجيات لامحالة

(١) فى الاحياء « و اهمالها من الواجبات مع أن الاشتغال » .

ن ّ القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود و الأرض إذا نقيت من الحشيش ينبت فيها
ناف الزروع و الرياحين و إن لم تفرغ من ذلك فلاتشتغل بفروض الكفايات لاسيّما
ي الخلق من قد قام بها ، فإنّ مهلك نفسه في طلب صلاح غيره سفيه ، فما أشدّ حماقة
دخلت الأفاعي و العقارب داخل ثيابه و همّت بقتله و هو يطلب مذبّة (١) يدفع بها
باب عن غيره ممّن لايغنيه ولاينجيه ممّا يلاقيه من تلك الحيّات و العقارب إذاهمّهنّ
، وإن تفرّغت من نفسك و تطهيرها و قدّرت على ترك ظاهر الاثم و باطنه و صار ذلك
تاً لك وعادة متيسّرة فيك و ماأبعد ذلك فاشتغل بفروض الكفايات و راع التدريج فيها
تدء بكتاب الله تعالى ثمّ بسنّة رسوله صلى الله عليه وآله ثمّ بعلم التفسير و ساير علوم القرآن
الناسخ و المنسوخ و المفصول و الموصول و المحكم و المتشابه و كذلك في السنّة ثمّ
تغل بالفروع و هو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ثمّ بأُصول الفقه و هكذا
بقيّة العلوم على ما يتّسع له العمر و يساعد فيه الوقت ، و لاتستغرق عمرك في فنّ
حد طالباً للاستقصاء فإنّ العلم كثير والعمر قصير ، و هذه العلوم آلات و مقدّمات
يست مطلوبة لعينها بل لغيرها ، و كلّ ما يطلب لغيره فلاينبغي أن ينسى فيه المطلوب
بستكثر منه فاقتصر من شايع علم اللّغة على ما يفهم به كلام العرب و ينطق به ، ومن
يبه على غريب القرآن و غريب الحديث ، ودع التعمّق فيه و اقتصر من النحو على ما
ملّق بالكتاب و السنّة .

أقول : أراد بعلم المذهب العلم بمذاهب أئمّتهم الضالّين المضلّين من الشافعي
أبي حنيفة و مالك و أحمد و غيرهم الّذين كانوا يفتون في المسائل الدّينيّة بآرائهم
أهوائهم ، و أراد بعلم الخلاف علم وجوه اختلافاتهم و توجيه آرائهم ، و بأُصول الفقه
ُصول الّتي وضعوها لبناء الآراء عليها ثمّ اختلفوا فيها ، وبالجمله ليس شيء منها يصلح
ن يسمّى علماً بل هي بدع و ضلالة و على قواعد الإماميّة ـ رحمهم الله ـ يجب أخذ
علوم الدّينيّة كلّها عن أهل البيت عليهم السلام إمّا بالمشافهة و النصّ عنهم أو بالاستنباط
ن أخبارهم و آثارهم عليهم السلام واستعمال الرويّة فيها مع القدرة على ذلك و تحصيل شرائطه المقرّرة

(١) المذبة ـ بالكسر ـ : مايذب به الذباب .

و مقدّماته المعتبرة ، و إنّما يجب تحصيل العلوم الآليّة من النحو و الصرف و اللّغة و غيرها على التقدير الثاني دون الأوّل غالباً و من لم يمكنه الوصول إليهم و لم يكن له سبيل إلى الاستنباط المذكور إما لعجزه عنه أو عن تحصيل شرائطه جاز له تقليد عالم متديّن يحسن اعتقاده فيه من الّذين يستنبطون و إن اختلفوا أخذ بقول الأعلم والأورع و إن اشتبه الأمر عليه فهو بالخيار و يحتاط في العمل ما استطاع وفي حديث أهل البيت عليهم السلام في باب اختلاف الرواية عنهم « بأيّهما أخذت من باب التسليم و سعك »[1] .

﴿ الباب الرابع ﴾

في بيان سبب إقبال الخلق على المناظرة و ذكر شروطها وآدابها و آفاتها ـ و قد تصرّفت في عنوان هذا الباب وفي تقرير كلام أبي حامد تصرّفاً مّا .

(بيان سبب اقبال الخلق على المناظره)

اعلم أنّه لمّا أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام لم يعلموا شيئاً اضطرّوا إلى الاستعانة بالفقهاء و إلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في جميع مجاري أحكامهم إلى طلبهم لتولية القضاء والحكومات ، فرأى أهل تلك الأعصار عزّ العلماء و إقبال الولاة و الحكّام عليهم مع إعراضهم عنهم فاشرأبّوا لطلب العلم توسّلاً إلى نيل العزّ و درك الجاه من قبل الولاة فأكبّوا على الفتاوي و عرضوا أنفسهم على الولاة و تعرّفوا إليهم و طلبوا الولايات و الصلات منهم ، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح ، و المنجح لم يخل عن ذلّ الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين و بعد أن كانوا أعزّة بالإعراض عن السلاطين أذلّة بالإقبال عليهم إلّا من وفّقه الله في كلّ عصر من علماء دينه ثمّ ظهر بعدهم من الصدور و الاُمراء من سمع مقالات الناس في قواعد العقائد و مالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فانكبّ الناس إلى علم الكلام وأكثروا فيها التصانيف ، و رتّبوا فيها طرق المجادلات ، و استخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، و زعموا أنّ غرضهم الذّبّ عن دين الله ، و النضال عن السنّة و قمع البدعة ،

(١) الكافي ج ١ ص ٦٦ .

ثمّ ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام و فتح باب المناظرة فيه لما تولّد من فتح بابه التبغّضات والخصومات الناشئة من اللّداد ، المفضية إلى تخريب البلاد و مالت نفسه إلى المناظرة في الفقه و بيان الأولى من مذاهب المجتهدين ، فترك الناس الكلام و فنون العلم و أقبلوا على المسائل الخلافيّة و زعموا أنّ غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذاهب وتمهيداُصول الفتاوي وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، و رتّبوا فيها أنواع المجادلات وهم مستمرّون عليه إلى الآن و ليس يدرى ما الّذي قدّر الله فيما بعدنا من الأعصار ، فهذا هو الباعث على الإكباب على المناظرة في الخلافيّات ، و لو مالت نفوس أرباب الدّنيا إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً ولم يسكتوا عن التعلّل و الاعتذار بأنّ ما اشتغلوا به علم الدّين وأن لامطلب لهم سوى التقرّب إلى ربّ العالمين .

✡ (بيان شروط المناظرة و آدابها) ✡

اعلم أنّ المناظرة في أحكام الدّين من الدّين و لكن لها شروط و محلّ و وقتٌ ، فمن اشتغل بها على وجهها و قام بشروطها فقد قام بحدودها و اقتدى بالسلف فيها فإنّهم تناظروا و ما تناظروا إلّا لله ولطلب ما هو حقٌّ عندالله ، و لمن يناظر لله و في الله علامات بها يتبيّن الشروط و الآداب .

الأوّل أن يقصدبها إصابة الحقّ وطلب ظهوره كيف اتّفق ، لاظهور صوابه و غزارة علمه و صحّة نظره ، فإنّ ذلك مراء منهيٌّ عنه بالنهي الأكيد و من آيات هذا القصد ألّا يوقعها إلّامع رجاء التأثير فأمّا إذاعلم عدم قبول المناظرة للحقّ و أنّه لايرجع عن رأيه وإن تبيّن له خطاؤه فمناظرته غير جائزة لترتّب الآفات الآتية عليها و عدم حصول الغاية المطلوبة منها .

الثاني أن لا يكون ثمّة ما هو أهمّ من المناظرة فإنّ المناظرة إذا وقعت على وجهها الشرعيّ و كانت في واجب فهي من فروض الكفايات ، فإذا كان ثمّة واجبٌ عينيٌّ أو كفائيٌّ هو أهمّ منه لم يكن الاشتغال بها سائغاً ، و من جملة الفروض الّتي لاقائم بها في هذا الزمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و قد يكون المناظر في مجلس مناظرته مصاحباً لعدّة مناكير كما لايخفى على من سبر الأحوال و الأفعال المفروضة و المحرّمة

ثمّ هو يناظر فيما لا يتّفق أو يتّفق نادراً من الدّقايق العلميّة و الفروع الشرعيّة بل يجري منه و من غيره في مجلس المناظرة من الإيحاش و الإفحاش و الإيذاء و التقصير فيما يجب رعايته من النصيحة للمسلمين و المحبّة و المودّة ما يعصي به القائل و المستمع ولايلتفت قلبه إلى شيء من ذلك ثمّ يزعم أنّه يناظر لله تعالى .

الثالث أن يكون المناظر في الدّين مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب أحد حتّى إذا بان له الحقّ على لسان خصمه انتقل إليه ، فأمّا من لا يجتهد فليس له مخالفة مذهب من يقلّده فأيّ فائدة له في المناظرة و هو لا يقدر على تركه إن ظهر ضعفه ؟ ثمّ على تقدير أن يباحث مجتهداً و يظهر له ضعف دليله ما ذا يضرّ المجتهد فإنّ فرضه الأخذ بما يترجّح عنده و إن كان في نفسه ضعيفاً كما اتّفق ذلك لسائر المجتهدين ، فإنّهم يتمسّكون بأدلّة ثمّ يظهر لهم أو لغيرهم أنّها في غاية الضعف فيتغيّر فتواهم لذلك حتّى في المصنّف الواحد بل في الورقة الواحدة .

الرابع أن يناظر في واقعة مهمّة أو في مسألة قريبة من الوقوع و أن يهتمّ بمثل ذلك ، و المهمّ أن يعيّن الحقّ ولايطول الكلام زياده على ما يحتاج إليه في تحقيق الحقّ و لا يغترّ بأنّ المناظرة في تلك المسائل النادرة توجب رياضة الفكر و ملكة الاستدلال و التحقيق كما يتّفق ذلك كثيراً لقاصدي، حظّ النفوس من إظهار المعرفة فيتناظرون في التعريفات و ما يشتمل عليه من النقوض و التزييفات و نحو ذلك ، و لو اختبر حالهم حقّ اختبار لوجد مقصد هم على غير ذلك الاعتبار .

الخامس أن يكون المناظرة في الخلوة أحبّ إليه منها في المحفل و الصدور ، فإنّ الخلوة أجمع للهمّ و أحرى لصفاء الفكر و درك الحقّ في حضور الخلق ما يحرّك دواعي الرياء و الحرص على الإفحام ولو بالباطل و قد يتّفق لأصحاب المقاصد الفاسدة الكسل عن الجواب عن المسألة في الخلوة و تنافسهم في المسألة في المحافل و احتيالهم على الاستيثار بها في المجامع .

السادس أن يكون في طلب الحقّ كمنشد ضالّة يكون شاكراً متى وجدها ولا يفرّق بين أن يظهر على يده أو يد غيره فيرى رفيقه معيناً لا خصماً و يشكره إذا عرّفه الخطأ

و أظهر له الحقّ ، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالّة فنبّهه غيره على ضالّته في طريق آخر ، و الحقّ ضالّة المؤمن يطلبه كذلك ، فحقّه إذا ظهر الحقّ على لسان خصمه أن يفرح به و يشكره لا أنّه يخجل و يسوّد وجهه و يزيل لونه و يجتهد في مجاهدته و مدافعته جهده .

السابع أن لا يمنع معينه من الانتقال من دليل إلى دليل و من سؤال إلى سؤال بل يمكّنه من إيراد ما يحضره و يخرج من كلامه ما يحتاج إليه في إصابة الحقّ فإن وجده في جملته أو استلزامه و إن كان غافلاً عن اللّزوم فليقبله و ليحمد الله تعالى فإنّ الغرض إصابة الحقّ و إن كان في كلام متهافت إذا حصل منه المطلوب ، فأمّا قوله : « هذا لا يلزمني فقد تركت كلامك الأوّل و ليس لك ذلك » و نحو ذلك من أراجيف المناظرين فهو محض العناد و الخروج عن نهج السداد و كثيراً ممّا ترى المناظرات في المحافل تنقضي بمحض المجادلات حتّى يطلب المعترض الدّليل و يمنع المدّعي وهو عالم به و ينقضي المجلس على ذلك الإنكار و الإصرار على العناد ، و ذلك عين الفساد والخيانة للشرع المطهّر و الدخول في ذمّ من كتم علمه .

الثامن أن يناظر مع من هو مستقلّ بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحقّ و الغالب أنّهم يحترزون من مناظرة الفحول و الأكابر خوفاً من ظهور الحقّ على لسانهم و يرغبون فيمن دونهم طمعاً في ترويج الباطل عليهم و وراء هذه الشروط و الآداب شروط اُخر و آداب دقيقة لكن فيما ذكرنا يهديك إلى معرفة المناظرة لله و من يناظر لله أو لعلّة .

و اعلم بالجملة أنّ من لا يناظر الشيطان و هو مستول على قلبه و هو أعدى عدوّ له ولا يزال يدعوه إلى إهلاكه ثمّ يشتغل بمناظرة غيره في المسائل الّتي المجتهد فيها مصيب أو مساهم للمصيب في الأجر فهو مضحكة للشيطان(١) و عبرة للمحصّلين و لذلك شمت الشيطان به بما غمسه فيه من ظلمات الآفات الّتي نعدّدها و نذكر تفصيلها .

---

(١) في الاحياء « فهو ضحكة للشيطان » .

✿(بيان آفات المناظرة)✿
(و ما يتولّد منها من مهلكات الأخلاق)

اعلم أنّ المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة و الإفحام و إظهار الفضل و الشرف عند الناس و قصد المباهات و الممارات و استمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله تعالى المحمودة عند عدوّ الله إبليس و نسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر و العجب والرياء و الحسد والمنافسة وتزكية النفس وحبّ الجاه و غيرها نسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنى و القذف و القتل و السرقة ، وكما أنّ الّذي خيّر بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقيّة الفواحش في سكره فكذلك من غلب عليه حبّ الإفحام و الغلبة في المناظرة وطلب الجاه و المباهات دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلّها في النفس و هيّج فيه جميع الأخلاق المذمومة و هذه الأخلاق سيأتي أدلّة مذمّتها من الأخبار و الآيات في ربع المهلكات ولكنّا نشير الآن إلى مجامع ما تهيّجه المناظرة .

فمنها الحسد وقال رسول الله ﷺ : «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » [١] ولا ينفكّ المناظر عن الحسد فإنّه تارة يغلب و تارة يُغلب ، و تارة يحمد كلامه و تارة يحمد كلام غيره ، فما دام يبقى في الدّنيا واحد يذكر بقوّة في العلم و النظر أو يظنّ أنّه أحسن منه كلاماً و أقوى نظراً فلا بدّ أن يحسده و يحبّ زوال النعمة عنه و انصراف الوجوه و القلوب عنه إليه ، والحسد نار محرقة فمن ابتلى به فهو في العذاب الأليم في الدّنيا و لعذاب الآخرة أشدّ و أعظم و لذلك قال ابن عبّاس - رحمه الله - : خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم في بعض فإنّهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة »[٢] .

و منها التكبّر والترفّع على النّاس وقد قال رسول الله ﷺ : « من تكبّر وضعه

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢١٠ .

(٢) أخرجه ابن عبدالبر في العلم كما في المختصر ص ١٩٤ والزريبة : حضيرة المواشي .

الله و من تواضع رفعه الله » [١] .

و قال حكاية عن الله عزّ وجلّ : « العظمة إزاري و الكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته » [٢] و لا ينفكّ المناظر عن التكبّر على الأمثال و الأقران و الترفّع إلى فوق قدره حتّى أنّهم ليقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيها في الارتفاع والانخفاض و القرب من و سادة الصدر و البعد منها و التقدم في الدخول عند مضائق الطرق وربّما يتعلّل الغبيّ و المكّار الخدّاع منهم بأنّه يبغي صيانة نفسه و عزّ العلم و أنّ المؤمن منهيّ عن إذلال نفسه فيعبّر عن التواضع الّذي اثنى الله عزّ وجلّ عليه و سائر أنبيائه عليهم السلام بالذلّ و عن التكبّر الممقوت عند الله عزّ و جلّ بعزّ الدّين تحريفاً للاسم و إضلالاً للخلق به كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما .

و منها الحقد فلايكاد المناظر يخلو عنه و قد قال صلى الله عليه وآله : « المؤمن ليس بحقود » [٣] و ورد في ذمّ الحقد مالايخفى ولاترى مناظراً يقدر على أن لايضمر حقداً على من يحرّك رأسه على كلام خصمه و يتوقّف في كلامه ولايقابله بحسن الإصغاء بل يضطرّ إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد و تربيته في النفس ، و غاية تماسكه الإخفاء بالنفاق و يترشّح منه إلى الظاهر لامحالة في غالب الأمر و كيف ينفكّ عنه ولايتصوّر إتّفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه و استحسان جميع أحواله في إيراده و إصداره ، ثمّ لو صدر من خصمه أدنى تشبيب فيه [٤] أو قلّة مبالات بكلامه انغرس في صدره حقداً لايقلعه يد الدهر إلى آخر العمر .

و منها الغيبة و قد شبّهها الله عزّ وجلّ بأكل الميتة و لايزال المناظر مثابراً [٥] على أكل الميتة فإنّه لاينفكّ عن حكاية كلام خصمه و مذمّته و غاية تحفّظه أن يصدق

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الايمان بزيادة كما فى مشكاة المصابيح ص ٤٣٤ . و روى الكلينى نحوه فى الكافى ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٥ . و فيه « ألقيته فى النار » « مكان قصمته » .

(٣) ما عثرت بلفظه فى أصل . و مضمونه مروى عن اميرالمؤمنين عليه السلام فى الكافى باب المؤمن وعلاماته وصفاته ج٢ ص٢٢٦ . (٤) كذا ولى الاحياء «سبب فيه» .

(٥) المثابرة : الحرص على الفعل اوالقول و ملازمتها . (النهاية) .

فيما يحكيه عليه و لا يكذب في الحكاية فيحكي عنه لا محالة ما يدلّ على قصور كلامه و عجزه و نقصان فضله و هو الغيبة و أمّا الكذب فبهتان و كذلك لايقدر على أن يحفظ لسانه من التعرّض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغى إلى خصمه و يقبل عليه حتّى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلّة الفهم والبلادة .

و منها تزكية النفس قال الله عزّ وجلّ : « فلاتزكّوا أنفسكم[1] » وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه ، و لايخلو المناظر عن الثناء على نفسه بالقوّة و الغلبة و التقدّم بالفضل على الأقران ، ولاينفكّ في أثناء المناظرة عن قوله : «لست ممّن يخفى عليه أمثال هذه الأمور وأنا المتفنّن في العلوم والمستقلّ بالأصول وحفظ الأحاديث» و غير ذلك ممّا يتمدّح به تارة على سبيل الصلف [2] و تارة للحاجة إلى ترويج كلامه ومعلوم أنّ الصلف و البذخ [3] مذموم شرعاً و عقلاً .

و منها التجسّس و تتبّع عورات النّاس و قد قال الله عزّوجلّ : « و لا تجسّسوا و لا يغتب بعضكم بعضاً [4] » و المناظر لا ينفكّ عن طلب عثرات أقرانه و تتبّع عورات خصومه حتّى أنّه ليخبر بورود مناظر إلي البلد فيطلب من يخبره ببواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتّى يعدّ ذلك ذخيرة لنفسه في إفضاحه و تخجيله إذا مسّت إلى ذلك حاجة حتّى أنّه ليستكشف عن أحوال صباه و عن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ، ثمّ إذا أحسّ بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكاً ويستحسن منه ذلك ويعدّه من لطائف التّشبيب[5] ولايمتنع عن الإفضاح إن كان متبجحاً[6] بالسّفاهة و الإستهزاء كما حكي عن أقوام من أكابر المناظرين و المعدودين من فحولهم .

---

(١) النجم : ٣٢ .

(٢) الصلف ـ ككتف ـ : التكلم بمايكرهه صاحبك و التمدح بما ليس عندك او مجاوزة قدر الظرف و الادعاء فوق ذلك تكبراً و يقال له بالفارسية : لاف زدن .

(٣) البذخ : التكبر والتفاخر .

(٤) الحجرات : ١٢.

(٥) كذا وفى الاحياء «لطائف التسبب» وشبب قصيدته بفلانة زينها وحسنها والعادة التشبيب فى مبتدء قصائد المدح ثم سمى ابتداء كل أمر تشبيباً وان لم يكن فى ذكر الشباب .

(٦) التبجح ـ بتقديم المعجمة على المهملة ـ المباهاة و الافتخار .

و منها الفرح بمساءة النّاس و الغمّ بما يسرّهم و من لا يحبّ لأخيه المسلم ما يحبّ لنفسه فهو بعيد عن أخلاق المؤمنين ، و كلّ من طلب المباهات بإظهار الفضل يسرّه لامحالة ما يسوء أقرانه و أشكاله الّذين يساومونه في الفضل و يكون التباغض بينهم كما بين الضرائر و كما أنّ إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفرّ لونها فكذا ترى المناظر إذا رأى مناظراً فيربدّ لونه و يضطرب عليه فكره و كأنّه شاهد شيطاناً [ماردأ] أو سبعاً ضارياً ، فأين الاستيناس و الاسترواح الّذي كان يجري بين علماء الدّين عند اللّقاء و ما نقل عنهم من المؤاخاة و التناصر و التساهم في السرّاء و الضرّاء حتّى قيل : العلم بين أهل العقل رحم متّصل ، فناهيك بالشيء شرّاً أن يلزمك أخلاق المنافقين و يبرئك عن أخلاق المؤمنين و المتّقين ، ومنها النفاق ولايحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمّه وهم مضطرّون إليه فإنّهم يلقون الخصوم ومحبّيهم وأشياعهم ولا يجدون بدّاً من التودّد باللّسان و إظهار الشوق والاعتداد بمكانهم و أحوالهم و يعلم المخاطب و المخاطب و كلّ من يسمع ذلك منهم أنّ ذلك كذب و زور و نفاق و فجور ، و أنّهم متوادّون بالألسنة متباغضون بالقلوب - نعوذ بالله من ذلك - فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا تعلّم الناس العلم و تركوا العمل و تحابّوا بالألسن و تباغضوا بالقلوب و تقاطعوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك فأصمّهم و أعمى أبصارهم » [1] و قد صحّ ذلك بمشاهدة الحال .

ومنها الاستكبار عن الحقّ و كراهته والحرص على الممارات فيه حتّى أنّ أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر الحقّ على لسان خصمه ومهما ظهر تشمّر لجحده و إنكاره بأقصى جهده و بذل غاية إمكانه في المخادعة و المكر و الحيلة لدفعه ، ثمّ تصير الممارات فيه طبيعة فلايسمع كلاماً إلّا وينبعث من طبعه داعية إلى الاعتراض عليه حتّى يغلب ذلك على قلبه في أدلّة القرآن وألفاظ الشرع فيضرب البعض منها بالبعض والمراء في مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ترك المراء بالحقّ على الباطل فقال صلى الله عليه وآله : « من ترك المراء و هو مبطل بنى الله له بيتاً في ربض الجنّة و من ترك المراء و هو محقّ بنى الله له بيتاً في أعلى الجنّة » [2] و قد سوّى الله سبحانه بين من افترى على الله عزّ وجلّ كذباً و بين

(١) أخرجه الطبراني من حديث سلمان باسناد ضعيف كما في المغني .
(٢) أخرجه أبوداود و ابن ماجه و الترمذي كما في الترغيب ج ١ ص ١٣٠ .

من كذب بالحق» و قال عزّ و جلّ : «فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّب بالحق لمّا جاءه»[1] و قال : «فمن أظلم ممّن كذب على الله و كذّب بالصدق إذ جاءه»[2].

و منها الرّياء و هو ملاحظة الخلق و الجهد في استمالة قلوبهم و صرف وجوههم إليه و الرياء هو الداء العضال الّذي يدعوا إلى أكبر الكبائر كما سيأتي في كتاب الرياء ، و المناظر لا يقصد إلّا الظهور عند الخلق و إطلاق ألسنتهم بالثناء عليه فهذه عشر خلال من اُمّهات الفواحش الباطنة سوى ما يتّفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدّي إلى الضرب و اللكم و تمزيق الثياب و الأخذ باللّحى و سبّ الوالدين و شتم الأستادين و القذف الصريح فإنّ أولئك ليسوا معدودين في زمرة المعتبرين و إنّما الأكابر و العقلاء منهم لا ينفكّون عن هذه الخصال العشر نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أوظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته ولاينفكّ أحدٌ منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة ، ثمّ يتشعّب من كلّ واحدة من هذه الخصال العشر عشر اُخرى من الرذائل لم نطوّل بذكرها و تفصيل آحادها مثل الأنفة و الغضب و البغضاء و الطمع و حبّ المال و الجاه للتمكّن من الغلبة و المباهات والأشر و البطر وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردّد إليهم والأخذ من حرامهم والتجمّل بالخيول و المراكب و الثياب المحظورة ، و استحقار الناس بالفخر والخيلاء ، و الخوض فيما لايعني ، وكثرة الكلام و خروج الخشية والحرمة[3] من القلب واستيلاء الغفلة عليه حتّى لايدري المصلّي منهم في صلاته ما الّذي يقرؤه و من الّذي يناجيه و لايحسّ بالخشوع من قلبه ، و استغراق العمر في العلوم الّتي تعين في المناظرة مع أنّها لاتنفع في الآخرة من تحسين العبارة و تسجيع اللّفظ و حفظ النوادر إلىغير ذلك من اُمورلاتحصى و المناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم و لهم درجات شتّى و لا ينفكّ أعظمهم

(١) العنكبوت : ٦٨ .

(٢) الزمر : ٣٢ .

(٣) فى الاحياء « و الرحمة » .

ديناً و أكثرهم عقلاً عن جعل من موادّ هذه الأخلاق و إنّما غايته اخفاؤها و مجاهدة النفس بها ».

أقول و ممّا ورد من طريق الخاصّة في مذمّة المناظرة و الخصومة في الدّين ما رواه شيخنا الصدوق أبو جعفر محمّد بن عليّ بن بابويه ـ رحمه الله ـ عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «من طلب الدّين بالجدل تزندق»[1].

و روي أنّ رجلاً قال للحسين بن عليّ عليهما السلام: اجلس حتّى نتناظر في الدّين قال: «يا هذا أنا بصير بديني مكشوف عليّ هداي فإن كنت جاهلاً بدينك فاذهب فاطلبه مالي و للمماراة»[2].

وبإسناد الصدوق عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال لي: يا أبا عبيدة إيّاك و أصحاب الخصومات و الكذّابين علينا فإنّهم تركوا ما اُمروا بعلمه و تكلّفوا ما لم يؤمروا بعلمه حتّى تكلّفوا علم السماء، يا أبا عبيدة خالقوا الناس بأخلاقهم و زايلوهم بأعمالهم، إنّا لانعدّ الرجل فقيهاً عاقلاً حتّى يعرف لحن القول، ثمّ قرأ هذه الآية «ولتعرفنّهم في لحن القول»[3].

و بإسناده عنه عليه السلام «الخصومة تمحق الدّين وتحبط العمل وتورث الشكّ»[4].

و بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام لايخاصم إلّا شاكّ أو من لاورع له»[5].

و في رواية إلّا من ضاق بما في صدره»[6].

و بإسناده عن أبي الحسن عليه السلام أنّه قال لعليّ بن يقطين: «مر أصحابك أن

(١) كتاب الاعتقادات ص ٧٤ الملحق بشرح باب حادى عشر.

(٢) مصباح الشريعة باب ٤٨.

(٣) سورة محمد: ٣٠ والخبر في توحيد الصدوق ص ٤٧٦ باب النهى عن الكلام والجدال و المراء فى الله.

(٤) المصدر ص ٤٧٦.

(٥) المصدر ص٤٧٨.

(٦) المصدر ص٤٧٩.

يكفّوا من ألسنتهم و يدعوا الخصومة في الدّين و يجتهدوا في عبادة الله عزّوجلّ»[1] .

و بإسناده عن محمّد بن عيسى «قال : قرأت في كتاب عليّ بن هلال [2] أنّه سأل عن الرجل - يعني أبا الحسن عليه السلام أنّهم نهوا عن الكلام في الدّين فتأوّل مواليك المتكلّمون بأنّه إنّما نهى من لا يحسن أن يتكلّم فيه فأمّا من يحسن أن يتكلّم فلم ينهه فهل ذلك كما تأوّلوا أولا ؟ فكتب عليه السلام المحسن و غير المحسن لا يتكلّم فيه فإنّ إثمه أكبر من نفعه »[3] إلى غير ذلك من الأخبار و هي كثيرة .

﴿ فصل ﴾

قال أبو حامد : « واعلم أنّ هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير و الوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول و إقامة الجاه و نيل الثروة و العزّ و هي لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب و الفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء و ولاية الأوقاف و التقدّم على الأقران و بالجملة هي لازمة لكلّ من يطلب بالعلم غير ثواب الآخرة ، فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد ، و لذلك قال صلى الله عليه وآله : «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله تعالى بعلمه»[4] فلقد ضرّه مع أنّه لم ينفعه وليته نجى منه رأساً برأس وهيهات فخطر العلم عظيم و طالبه طالب آلة الملك المؤبّد والنعيم السرمد فلا ينفكّ عن الملك أو الهلك ، وهو كطلب الملك في الدنيا فإن لم يتّفق الإصابة لم يطمع في سلامة الارذال بل لابدّ من لزوم أفضح الأحوال .

فإن قلت : في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم إذ لولا حبّ الرئاسة لاندرست العلوم . فقد صدقت فيما ذكرته من وجه و لكنّه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان و اللّعب بالعصافير ما رغب الصبيان في المكتب و ذلك لا يدلّ

(١) المصدر ص ٤٧٨ .

(٢) فى المصدر [على بن بلال] و الظاهر من جامع الرواة هو الصحيح .

(٣) التوحيد ص ٤٧٧.

(٤) أخرجه ابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الصغير والبيهقى فى شعب الايمان كما فى الجامع الصغير باب الالف وأخرجه أيضاً ابن عبدالبر فى العلم كما فى المختصر ص ٨٤ .

على أنّ الرغبة فيه محمودة ، ولولاحبّ الرئاسة لاندرس العلم ولايدلّ ذلك على أنّ طالب الرئاسة ناج بل هو من الّذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « إنّ الله عزّ وجلّ يؤيّد هذا الدّين بأقوام لاخلاق لهم »(١) . و قال ﷺ : « إنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرجل الفاجر »(٢) .

فطالب الرئاسة في نفسه هالك و قد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا و ذلك فيمن كان حاله في ظاهر الأمر حال علماء السلف و لكنّه يضمر قصد الجاه فمثاله مثال الشمع الّذي يحرق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاح غيره في هلاكه ؛ فأمّا إذاكان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة الّتي تأكل نفسها و غيرها ، فالعلماء ثلاثة : إمّا مهلك نفسه و غيره وهم المصرّحون بطلب الدّنيا والمقبلون عليها ، وإمّا مسعد نفسه و غيره وهم الداعون إلى الله عزّ وجلّ المعرضون عن الدّنيا ظاهراً وباطناً ، و إمّا مهلك نفسه مسعد غيره و هو الّذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدّنيا في ظاهره و قصده في الباطن قبول الخلق و إقامة الجاه ، فانظر من أيّ الأقسام أنت و من الّذي اشتغلت بالاعتداد له ولاتظنّنّ أنّ الله سبحانه يقبل غير الخالص لوجهه من العلم والعمل ، وسيأتيك في كتاب الرياء بل في جميع ربع المهلكات ما ينفي عنك الريبة في ذلك إن شاء الله تعالى» .

الباب الخامس

«في آداب المتعلّم و المعلّم - أمّا المتعلّم فآدابه و وظائفه كثيرة ولكن ينظّم تفاريقها تسع جمل : الأولى تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق و مذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب و صلاة السرّ و قربة الباطن إلى الله عزّ وجلّ فكما لاتصحّ الصلاة الّتي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلّا بتطهير الظاهر عن الأحداث و الأخباث فكذلك لا تصحّ عبادة الباطن و عمارة القلب بالعلم إلّا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق و أنجاس الأوصاف

(١) الجامع الصغير باب الالف عن ابن حبان والنسائي و مسند احمد و مسند كبير الطبراني .

(٢) أخرجه احمد في المسند ج ٢ ص ٣٠٩ من حديث أبي هريرة .

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « بني الدّين على النظافة »[1] وهو كذلك ظاهراً و باطناً ، و قال الله عزّ وجلّ : « إنّما المشركون نجس »[2] تنبيهاً للعقول على أنّ الطهارة و النجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة بالحسّ فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن و لكنّه نجس الجوهر أي باطنه ملطّخ بالخبائث و النجاسة عبارة عمّا يجتنب و يطلب البعد منه و خبائث صفات الباطن أهمّ بالاجتناب فإنّها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل و لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب »[3] و القلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحلّ استقرارهم ، والصفات الرديّة مثل الغضب والشهوة والحقد و الحسد و الكبر و العجب و أخواتها كلاب نابحة فأنّى تدخله الملائكة و هو مشحون بالكلاب و نور العلم لايقذفه الله عزّ و جلّ في القلب إلّا بواسطة الملائكة ، قال الله تعالى : «وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً »[4] و هكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنّما يتولّاها الملائكة الموكّلون بها و هم المقدّسون المطهّرون المبرّؤون عن المذمومات فلايلاحظون إلّا طيّباً ولايعمرون بماعندهم من خزائن رحمة الله سبحانه إلّا طاهراً ، و لست أقول : المراد بلفظ البيت هو القلب وبالكلب أنّه الغضب والصفات المذمومة ، ولكنّي أقول : هو تنبيه عليه وفرق بين التعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ، ففارق الباطنيّة بهذه الدقيقة ، فإن هذا طريق الاعتبار و هو مسلك العلماء و الأبرار ، إذ معنى الاعتبار أن يعبر ممّا ذكر إلى غيره و لايقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة بغيره فيكون له فيها عبرة بأن يعبّر منها إلى التنبّه لكونه أيضاً عرضة للمصائب وكون الدّنيا بصدد الانقلاب فعبوره من غيره إلى نفسه و من نفسه إلى أصل الدّنيا عبرة محمودة فاعبر أنت أيضاً من البيت الّذي هو بناء الخلق إلى القلب الّذي هو بيت من بناء الله سبحانه و من الكلب الّذي ذمّ لصفته لالصورته وهو لما فيه من سبعيّة و نجاسة إلى روح الكلبيّة و هي السبعيّة

---

(١) ما عثرت عليه بهذا اللفظ فى اى أصل .

(٢) التوبة : ٢٨ .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٢٨ ، و رواه الصدوق فى الفقيه ج١ص ١٥٩ تحت رقم ٧٤٤ .

(٤) الشورى : ٥١ .

و اعلم أنّ القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدّنيا والتكالب عليها و الحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة ، ونور البصيرة يلاحظ المعاني دون الصور و الصور في هذا العالم غالبة على المعاني و المعاني باطنة فيها و في الآخرة تتبع الصور المعاني و تغلب المعاني فلذلك يحشر كلّ شخص على صورته المعنويّة ، فيحشر الممزّق لأعراض الناس كلباً ضارياً ، و الشره إلى أموالهم ذئباً عادياً ، و المتكبّر عليهم في صورة نمر ، و طالب الرئاسة في صورة أسد ، وقد وردت بذلك الأخبار و شهد به الاعتبار عند ذوي البصائر و الأبصار .

فإن قلت : كم من طالب رديّ الأخلاق حصّل العلوم . فهيهات ما أبعدك عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فإنّ من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أنّ المعاصي سموم مهلكة وهل رأيت من يتناول شيئاً مع علمه بكونه سمّاً إنّما الّذي تسمعه من المترسّمين حديث يلغفونه بألسنتهم مرّة و يردّدونه بقلوبهم أُخرى و ليس ذلك من العلم في شيء ، قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : ليس العلم بكثرة الرواية إنّما العلم نور يقذف في القلوب» .

اقول : و قد ورد عن أئمّتنا عليهم السلام مثل ذلك .

قال أبو حامد : «وقال بعضهم : إنّ العلم الخشية قال الله عزّ وجلّ : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء »[1] و كأنّ هذا إشارة إلى أخصّ ثمرات العلم و لذلك قال بعض المحقّقين : معنى قولهم : تعلّمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلّا لله . أنّ العلم أبى و امتنع علينا فلم ينكشف لنا حقيقته و إنّما حصل لنا حديثه و ألفاظه .

فإن قلت : إنّي أري جماعة من الفقهاء المحقّقين برزوا في الأصول و الفروع وعدّوا من جملة الفحول و أخلاقهم ذميمة لم يتطهّروا منها ، فيقال : إذا عرفت مراتب العلوم و عرفت علم الآخرة استبان لك أنّ ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علماً وإنّما غناؤه من حيث كونه عملاً لله تعالى إذا قصد به التقرّب إلى الله سبحانه ، و قد سبق إلى هذا إشارة و سيأتيك فيه مزيد بيان و إيضاح .

(١) الفاطر : ٢٨ .

الثانية أن يقلّل علائقه من أشغال الدّنيا ويبعد عن الوطن و الأهل فإنّ العلائق شاغلة و صارفة و «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»(١) ومهما توزّعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق و لذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتّى تعطيه كلّك ، فإذا أعطيته كلّك فأنت من إعطائه إيّاك بعضه على خطر ، و الفكرة المتوزّعة على أُمور متفرّقة كجدول تفرّق ماؤه فانتشفت الأرض بعضه واختطفت الهواء بعضه فلا يبقى منه مايجتمع و يبلغ المزرعة .

الثالثة أن لا يتكبّر على العلم و لا يتأمّر على المعلّم بل يلقى إليه زمام أمره بالكلّيّة في كلّ تفصيل و يذعن لنصحه إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق و ينبغي أن يتواضع لمعلّمه و يطلب الثواب و الشرف بخدمته .

قال الشعبيّ : صلّى زيد بن ثابت على جنازة فقربت له بغلة ليركبها فجاء ابن عبّاس فأخذ بركابه فقال زيد : خلّ عنه يا ابن عمّ رسول الله ، فقال ابن عبّاس : هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبّل زيدبن ثابت يده و قال : هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا صلى الله عليه وآله (٢) .

وقال صلى الله عليه وآله : «و ليس من أخلاق المؤمن التملّق إلّا في طلب العلم» (٣) فلاينبغي للطالب ان يتكبّر على العلم و من تكبّره على العلم أن يستنكف من الاستفادة إلّا من المرموقين (٤) المشهورين و هو عين الحماقة فإنّ العلم سبب النجاة و السعادة و من طلب

---

(١) الاحزاب : ٤.

(٢) أخرجه ابن عبدالبر فى العلم كما فى المختصر ص ٦٤ .

(٣) فى البحار نقلا ـ عن كتاب عدة الداعي ـ باب حق العالم من المجلد الاول ، و فيه « الملق » و أخرجه البيهقى فى شعب الايمان باسناد ضعيف عن معاذ كما فى الجامع الصغير و فيه « ليس من اخلاق المؤمن التملق و لا الحسد الا فى طلب العلم » فينبغى للمؤمن حسد الغبطة فى العلم و التملق أى كثرة التودد مع المعلم ليستخرج ما عنده من الحقائق أو لينصح المعلم فى التعليم .

(٤) رمقته أرمقه رمقاً : نظرت اليه . (الصحاح) .

مهرباً من سبع ضاري يفترسه لم يفرّق بين أن يرشده إلى المهرب مشهورٌ أو خاملٌ، وضراوة سباع النّار بالجهّال بالله عزّ وجلّ أشدُّ من ضراوة كلّ سبع ، فالحكمة ضالّة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ، و يتقلّد المنّة لمن ساقها إليه كائناً من كان ، ولذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالي * كالسيل حرب للمكان العالي

فلا ينال العلم إلّا بالتواضع و إلقاء السمع ، قال الله عزّ و جلّ : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » (۱) و معنى كونه ذا قلب أن يكون قابلاً للعلم فهماً ، ثمّ لا يغنيه القدرة على الفهم حتّى يلقي السمع و هو شهيد حاضر القلب يستقبل كلّ ما اُلقي إليه بحسن الإصغاء و الضراعة و الشكر و الفرح و قبول المنّة لله تعالى ، فليكن المتعلّم لمعلّمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً (۲) فشربت بجميع أجزائها و أذعنت بالكلّية لقبوله ، و مهما أشار عليه المعلّم بطريق في التعلّم فليقلّده و ليدع رأيه فإنّ خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه ، إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنّه يعظم نفعها ، فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوّته إلى حدّ يحتمل صدمة العلاج فيتعجّب منه من لاخبرة له ، وقد نبّه الله عزّ و جلّ بقصّة الخضر و موسى صلوات الله عليهما حيث قال الخضر : « إنّك لن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً » (۳) ثمّ شرط عليه السكوت والتسليم فقال : «فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتّى أحدث لك منه ذكراً» ثمّ لم يصبر و لم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب فراق ما بينهما .

و بالجملة كلّ متعلّم استبقى لنفسه رأياً واختياراً وراء اختيار المعلّم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران .

فإن قلت : فقد قال الله تعالى : « فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (٤) فالسؤال مأمورٌ به ، فاعلم أنّه كذلك ولكن فيما يأذن المعلّم في السؤال عنه فإنّ السؤال

(۱) سورة (ق) : ۳۷ .

(۲) أرض دمثة اى سهلة لينة . و الغزير : الكثير .

(۳) الكهف : ٦٧ و ٦٨ .

(٤) النحل : ٤۳.

عمّا لم تبلغ رتبتك إلى فهمه مذموم و لذلك منع الخضر موسى عليهما السلام من السؤال أي دع السؤال قبل أوانه ، فالمعلّم أعلم بما أنت أهله و بأوان الكشف و ما لم يدخل أوان الكشف في كلّ درجة من مراقي الدّرجات لا يدخل أوان السؤال عنه .

و قد قال عليّ عليه السلام : « إنّ من حقّ العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنّته في الجواب ، و لا تلحّ عليه إذا كسل ، و لا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفش له سرّاً ، ولا تغتابنّ عنده أحداً ، و لا تطلبنّ عثرته ، و إن زلّ قبلت معذرته ، و عليك أن توقّره وتعظّمه لله ما دام يحفظ أمر الله ، ولاتجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته » (١) .

الرابعة أن يحترز الخائض في العلم في مبدء الأمر عن الإصغاء إلى اختلافات الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدّنيا أو من الآخرة ، فإنّ ذلك يدهش عقله ، و يحيّر ذهنه ، و يفتر رأيه ، و يؤيسه عن الإدراك و الاطّلاع ، بل ينبغي أن يتقن أوّلاً الطريقة الواحدة الحميدة المرضيّة عند اُستاده ، ثمّ بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه ، و إن لم يكن اُستاده مستقلاً باختيار رأي واحد وإنّما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحترز منه فإنّ إضلاله أكثر من إرشاده ولا يصلح الأعمى لقود العميان و إرشادهم ، و من هذا حاله فهو بعد في عمى الحيرة و تيه الجهل ، و منع المبتدي عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفّار ، و ندب القويّ إلى النظر في الاختلافات يضاهي حثّ القويّ على مخالطة الكفّار ، و لذلك يمنع العاجز عن التهجّم على صفّ الكفّار و يندب الشجاع إلى ذلك ، و من الغفلة عن هذه الدقيقة ظنّ بعض الضعفاء أنّ الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز و لم يدر أنّ وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء و لذلك قال بعضهم : من رآني في البداية صار صدّيقاً و من رآني في النهاية صار زنديقاً ، إذ النهاية تردّ الأعمال إلى الباطن و تسكّن الجوارح إلّا عن رواتب الفرائض فيتراءى إلى الناظر أنّها بطالة و كسل و إهمال و هيهات فذلك مرابطة للقلب في عين الشهود و الحضور و ملازمة للذكر الّذي هو أفضل الأعمال على الدّوام و بمثل

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في العلم كما في المختصر ص٦٥ ، و روى نحوه الشيخ المفيد في الارشاد ص ١١١ .

هذا جوّز للنبيّ ﷺ مالا يجوّز لغيره حتّى اُبيح له تسع نسوة إذ كان له ﷺ من القوّة ما يتعدّي منه صفة العدل إلى نسائه و إن كثرن و أمّا غيره فلا يقدر على العدل بل يتعدّي ما بينهنّ من الضرار إليه حتّى ينجرّ إلى معصية الله تعالى في طلب رضاهنّ، فما أفلح من قاس الملائكة بالحدّادين.

الخامسة أن لايدع طالب العلم فنّاً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعها إلّا و ينظر فيه نظراً يطّلع منه على مقصد ذلك العلم و غايته، ثمّ إن ساعده العمر طلب التبحّر فيه و إلّا اشتغل بالأهمّ منه فاستوفاه و تطرّف من البقيّة فإنّ العلوم متعاونة و بعضها مرتبط بالبعض و يستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله. فإنّ الناس أعداء ما جهلوا، قال الله تعالى: «و إذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم»[1] و قال الشاعر:

و من يك ذا فم مرّ مريض * يجد مرّاً به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها، إمّا سالكة بالعبد إلى الله تعالى، وإمّا معينة على السلوك نوعاً من الإعانة، و لها منازل مرتّبة في القرب و البعد من المقصود، و القوّام بها حفظة كحفظة الرباطات و الثغور، و لكلّ واحد رتبة وله بحسب درجته أجرٌ في الآخرة إن قصد به وجه الله تعالى جلّ جلاله.

السادسة أن لا يأخذ فرقة[2] من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعي القريبة فإنّ العمر إذا كان لا يتّسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كلّ شيء أحسنه ويكتفي منه بشمّه و يصرف جمام قوّته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الّذي هو أشرف العلوم و هو علم الآخرة، أعني قسمي المعاملة و المكاشفة، فغاية المعاملة المكاشفة، و غاية المكاشفة معرفة الله تعالى، ولست أعني به الاعتقاد الّذي تلقّفه العاميّ وراثة أو تلقّفاً، ولاطريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين ذلك عن مراوغات الخصوم[3]

(١) الاحقاف: ١١.
(٢) في بعض نسخ الاحياء «أن لا يخوض في فن».
(٣) راوغه مراوغة: صارعه و خادعه، راوغه على الامر: راوده، راوغ القوم: طلب بعضهم بعضاً على وجه المكر.

كما هو غاية المتكلّم بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهّر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث ، وعلى الجملة فأشرف العلوم و غايتها معرفة الله عزّ و جلّ و هو بحر لايدرك منتهى غوره و أقصى درجات البشر رتبة الأنبياء صلوات الله عليهم ثمّ الأولياء ثمّ الّذين يلونهم ، وقد روي أنّه رئي صورة حكيمين من الحكماء المتعبّدين في مسجد و في يد أحدهما رقعة و فيها «إن أحسنت كلّ شيء فلاتظنّنّ أنّك أحسنت شيئاً حتّى تعرف الله تعالى و تعلم أنّه مسبّب الأسباب و موجد الأشياء» ؛ و في يد الآخر «كنت قبل أن أعرف الله سبحانه أشرب وأظمأ حتّى إذا عرفته رويت بلاشرب» .

السابعة أن يعرف السبب الّذي به يدرك شرف العلوم و أنّ ذلك يراد به شيئان أحدهما شرف الثمرة و الثاني وثاقة الدليل وقوّته ، و ذلك كعلم الدين و علم الطبّ ، فإنّ ثمرة أحدهما الحياة الأبديّة وثمرة الآخر الحياةالفانية ، فيكون علم الدّين أشرف و مثل علم الحساب و علم الطبّ فإنّ الحساب أشرف لوثاقة أدلّته و قوّتها و إذا نسب الحساب إلى الطبّ كان الطبّ أشرف باعتبار ثمرته و الحساب أشرف باعتبار أدلّته و ملاحظة الثمرة أولى ولذلك كان الطبّ أشرف و إن كان أكثره بالتخمين و بهذا يتبيّن أنّ أشرف العلوم العلم بالله سبحانه و ملائكته و كتبه و رسله و العلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم ، فإيّاك وأن ترغب إلّا فيه و تحرص إلّا عليه .

الثامنة أن يكون قصد المتعلّم في الحال تحلية باطنه و تجميله بالفضيلة و في المآل القرب من الله عزّوجلّ والترقّي إلى جوارالملأ الأعلى من الملائكة و المقرّبين ، ولايقصد به الرئاسة و المال و مماراة السفهاء ومباهات الأقران ، و إذاكان هذا مقصده طلب لامحالة الأقرب إلى مقصوده و هو علم الآخرة ، و مع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعني علم الفتاوي و علم النحو و اللّغة المتعلّقين بالكتاب و السنّة و غيرهما ممّا أوردناه في المقدّمات و المتمّمات من ضروب العلم الّتي هي فرض كفاية ؛ و لاتفهمنّ من غلوّنا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالمتكفّلون بالعلوم كالمتكفّلين بالثغور و المرابطين لها و الغزاة المجاهدون في سبيل الله عزّ وجلّ و منهم المقاتل و منهم الردء و منهم الّذي يسقيهم الماء و منهم الّذي يحفظ دوابّهم و لاينفكّ واحد منهم عن

الأجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء . قال الله عزّ وجلّ : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات »[1] وقال عزّ وجلّ : «هم درجاتٌ عند الله»[2] و الفضيلة نسبيّة واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لايدلّ على حقارتهم إذا قيسوا بالكنّاسين ولا تظنّنّ أنّ ما نزل عن الرتبة القصوى فهو ساقط القدر ، بل الرتبة العليا للأنبياء صلوات الله عليهم ، ثمّ للأولياء ، ثمّ للعلماء الراسخين ، ثمّ للصالحين على تفاوت درجاتهم ، و بالجملة « من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره » و من قصد الله عزّ و جلّ بالعلم أيّ علم كان نفعه ورفعه لامحالة .

التاسعة أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيلا يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهمّ على غيره ومعنى المهمّ ما يهمّك ولا يهمّك إلّا شأنك في الدنيا والآخرة وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا و نعيم الآخرة كما نطق به القرآن و شهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان ، فالأهمّ مايبقى أبد الآباد و عند ذلك تصير الدنيا منزلاً و البدن مركباً و الأعمال سعياً إلى المقصد و لامقصد إلّا لقاء الله عزّ و جلّ ففيه النعيم كلّه و إن كان لايعرف في هذا العالم قدره إلّا الواصلون و هم الأقلّون ، والعلوم بالاضافة إلى سعادة لقاء الله عزّ وجلّ و النظر إلى وجهه الكريم أعني النظر الّذي طلبه الأنبياء صلوات الله عليهم وفهموه دون مايسبق إلى أفهام العوام والمتكلّمين على ثلاث مراتب تفهّمها بالموازنة بمثال و هو أنّ العبد الّذي علّق عتقه وتمكينه من الملك على الحجّ وقيل له : إن حججت و تمّمت وصلت إلى الملك و العتق جميعاً و إن ابتدأت بطريق الحجّ و الاستعداد له و عاقك في الطريق مانع ضروريٌّ فلك العتق و الخلاص من شقاء الرقّ فقطّ دون سعادة الملك ، فله ثلاثة أصناف من الشغل : الأوّل تهيئة الأسباب بشراء الراحلة وخرز الراوية[3] و إعداد الزاد ، الثاني السلوك و مفارقة الوطن بالتوجّه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل ، و الثالث الاشتغال بأعمال الحجّ ركناً بعد ركن ثمّ بعد النزوع عن هيئة الإحرام وطواف

(١) المجادلة : ١١ .
(٢) آل عمران : ١٦٣ .
(٣) في بعض النسخ [حرز الراوية] .

الوداع استحق التعرّض للملك والسلطنة وله في كلّ مقام منازل من أوّل إعداد الأسباب إلى آخره ، و من أوّل سلوك البوادي إلى آخره ، و من أوّل أركان الحجّ إلى آخرها ، وليس قرب من ابتدأ بأركان الحجّ من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه .

فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجري مجرى إعداد الزاد و الراحلة و شراء الناقة و هو علم الطبّ و الفقه و ما يتعلّق بمصالح البدن في الدنيا ، وقسم يجري مجرى سلوك البوادي و قطع العقبات و هو تطهير الباطن عن كدورات الصفات بطلوع تلك العقبات الشامخة الّتي عجز عنها الأوّلون و الآخرون إلّا الموفّقين فهذا سلوك للطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق و منازله ، و كما لايغني علم المنازل و طرق البوادي دون سلوكها فكذلك لايغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ، لكنّ المباشرة دون العلم غير ممكن ، و قسم ثالث يجري مجرى نفس الحجّ و أركانه و هو العلم بالله عزّ وجلّ و صفاته و أفعاله و ملائكته و جميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة و ههنا النجاة و الفوز بالسعادة ، فالنجاة حاصلة لكلّ سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد و هو السلامة و أمّا الفوز بالسعادة فلا يناله إلّا العارفون فهم المقرّبون و المنعّمون في جوار الله عزّ وجلّ بالرّوح والريحان و جنّة نعيم ، وأمّا الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة و السلامة كما قال الله تعالى : « فأمّا إن كان من المقرّبين فروح و ريحان وجنّة نعيم * و أمّا إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين»[1] و كلّ من لم يتوجّه إلى المقصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لاعلى قصد الامتثال و العبوديّة بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال و من الضالّين فله « نزل من حميم * وتصلية جحيم »[2] .

✿ (بيان وظائف المرشد المعلم) ✿

اعلم أنّ للإنسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال إذ لصاحب المال

(١) الواقعة : ٩٠ و ٩١ .
(٢) الواقعة : ٩٢و٩٣ و فيها «فنزل من حميم » .

حال استفادة فيكون مكتسباً ، و حال إدّخار لما اكتسبه فيكون به غنيّاً عن السؤال ، و حال إنفاق على نفسه فيكون به منتفعاً ، وحال بذل لغيره فيكون بهسخيّاً متفضّلاً وهو أشرف أحواله فكذلك العلم يقتنى كالمال فله حال طلب و اكتساب ، و حال تحصيل يغني عن السؤال ، و حال استبصار و هو التفكّر في المحصّل و التمتّع به ، و حال تبصير و هو أشرف الأحوال فمن علم و عمل وعلّم فذلك الّذي يدعا عظيماً في ملكوت السماوات فإنّه كالشمس تضيىء لغيرها وهي مضيئة و كالمسك الّذي يطيب غيره و هو طيب و الّذي يعلم و لا يعمل به كالدفتر الّذي يفيد غيره و هو خال عن العلم ، وكالمسنّ الّذي يشحذ غيره و هو لايقطع ، والأبرة الّتي تكسو غيرها وهي عارية ، وذبالة المصباح تضيىء لغيرهاوهي تحترق ، وفي مثله قيل :

و ما هو إلّا ذبالة وقدت * تضيىء للناس وهي تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلّد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه .

الوظيفة الأولى الشفقة على المتعلّمين و أن يجريهم مجرى بنيه ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّما أنا لكم مثل الوالد لولده » (١) فإنّ قصده إنقاذهم من نار الآخرة وذلك أهمّ من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، و لذلك صار حقّ المعلّم أعظم من حقّ الوالدين فإنّ الوالد سبب الوجود الحاضر و الحياة الفانية و المعلّم سبب الحياة الباقية و لو لا المعلّم لانساق ما حصل من جهة الوالد إلى الهلاك الدائم ، و إنّما المعلّم هوالمفيد للحياة الاُخرويّة الدائمة أعني معلّم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لاعلى قصد الدنيا ، فأمّا التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك - نعوذ بالله منه - ، و كما أنّ حقّ أبناء الرجل الواحد أن يتحابّوا و يتعاونوا على المقاصد فحقّ تلامذة الرجل الواحد التحابّ ، ولايكون إلّا كذلك إن كان مقصودهم الآخرة ، ولايكون إ ّ التحاسد والتباغض

(١) أخرجه الدارمي ج١ ص ١٧٢ بلفظه عن أبي هريرة ، وابوداود في سننه ج ١ ص ٢ عن سلمان و فيه « انما انالكم بمنزلة الوالد أعلمكم ، فاذا أتى أحدكم الغائط فلايستقبل القبلة ولايستدبرها ولايستطيب بيمينه» . وأخرجه أيضاً ابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه و أحمد في مسنده والنسائي عن أبي هريرة كما في الجامع الصغير باب الالف و مشكاة المصابيح ج١ ص ٤٢ .

إن كان مقصدهم الدنيا ، فإنّ العلماء و أبناء الآخرة مسافرون إلى الله عزّ وجلّ وسالكون إليه الطريق ، و الدّنيا و سنوها و شهورها منازل الطريق و الترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التوادّ و التحابّ ، فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى و الترافق في طريقه و لا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لايكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفكّ عن ضيق التزاحم و العادلون إلى طلب الرئاسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله عزّ و جلّ : « إنّما المؤمنون إخوة »(١) وداخلون في مقتضى قوله عزّ وجلّ : «الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين»(٢).

الثانية أن يقتدي بصاحب الشرع ﷺ فلا يطلب على إفاضة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً بل يعلّم لوجه الله تعالى و طلباً للتقرّب إليه ، فلا يرى لنفسه منّة عليهم و إن كانت المنّة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذّبوا قلوبهم لأن يتقرّب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالّذي يعيرك أرضاً لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض إذ تقلّده به منّة منه وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلّم عند الله عزّ و جلّ ، و لولا المتعلّم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلّا من الله سبحانه قال الله تعالى : « قل لا أسئلكم عليه أجراً » (٣) فإنّ المال و ما في الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيّتها ، والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه ونعله بمحاسنه لينظفه فجعل المخدوم خادماً و الخادم مخدوماً و ذلك هو الانتكاس على اُمّ الرأس (٤) و مثله هو الّذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربّهم ، و على الجملة فالفضل و المنّة للمعلّم و انظر كيف انتهى أمر الّذين يزعمون أنّ مقصود هم التقرّب إلى الله عزّ وجلّ بماهم فيه من علم الفقه و الكلام و التدريس فيهما و في غيرهما ، فإنّهم يبذلون المال و الجاه و يتحمّلون أصناف الذلّ في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات و لو تركوا ذلك

(١) الحجرات : ١٠ .
(٢) الزخرف : ٦٧ .
(٣) الانعام : ٩٠ .
(٤) انتكس المريض وقع على رأسه .

لتركوا ولم يختلف إليهم أحد ، ثمّ يتوقّع المعلّم من المتعلّم أن يقوم له في كلّ نائبة و ينصر وليّه و يعادي عدوّه وينتهض جهاراً له في حاجاته و مسخّراً بين يديه في أوطاره فإن قصّر في حقّه ثار عليه و صار من أعدى أعدائه فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثمّ يفرح بها ثمّ لايستحيي من أن يقول : غرضي من التدريس نشر العلم تقرّباً إلى الله عزّ و جلّ و نصرة لدينه فانظر إلى الأمارات حتّى ترى ضروب الاغترارات .

الثالثة أن لا يدّخر من نصح المتعلّم شيئاً ، و ذلك بأن يمنعه من التصدّي لرتبة قبل استحقاقها و التشاغل بعلم خفيّ قبل الفراغ من الجليّ ، ثمّ ينبّهه على أنّ مطلب العلوم القرب من الله عزّ وجلّ دون الرئاسة و المباهات و المنافسة و يقرّر ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر ممّا يفسده فإن علم من باطنه أنّه لا يطلب العلم إلّا للدنيا نظر إلى العلم الّذي يطلبه فإن كان من علوم الدنيا المتعلّقة بالدين فيمنعه من ذلك لأنّه ليس من العلوم الّتي قيل فيها : تعلّمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلّا لله ، و إن كان من علوم الآخرة ولكن قصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنّه يتشمّر له طمعاً [1] في الوعظ و الاستتباع ولكن يتنبّه في أثناء الأمر أو آخره لما يعرف من الاُمور المخوفة من الله سبحانه ، المحقّرة للدنيا ، المعظّمة للآخرة و ذلك يوشك أن يردّ إلى الصواب بالآخرة حتّى يتّعظ بما يعظ به غيره و يجري حبّ القبول و الجاه مجرى الحبّ الّذي ينثر حول الفخّ ليقتنص به الطير وقد فعل الله عزّ و جلّ ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل ، و خلق أيضاً حبّ الجاه ليكون سبباً لإحياء العلوم ، و هذا متوقّع في علم التفسير و الحديث و معرفة أخلاق النفس و كيفيّة تهذيبها ونحو ذلك ، فأمّا مجادلات المتكلّمين و معرفة التفريعات و نحوها فلا يزيد التجرّد لها مع الإعراض عن غيرها إلّا قسوة في القلب و غفلة عن الله سبحانه و تمادياً في الضلال و طلباً للجاه إلّا من تداركه الله برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينيّة ولابرهان على هذا كالتجربة و المشاهدة ، فانظر واعتبر و استبصر لتشاهد تحقيق ذلك في البلاد و العباد ، والله المستعان .

---

(١) في بعض نسخ الاحياء « فانه يشمر له طمعاً » .

وقد روئي بعض العلماء حزيناً فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متّجراً لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتّى إذا تعلّم جعل عاملاً أو قاضياً أوقهرماناً .

الرابعة و هي من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلّم من سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرّح و بطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيّج الحرص على الإصرار قال رسول الله صلى الله عليه وآله و هو مرشد كلّ معلّم : «لو منع الناس عن فتّ البعر لفتّوه و قالوا : ما نهينا عنه إلّا و فيه شيء » و ينبّهك على هذا قصّة آدم وحوّاء عليهما السلام و ما نهيا عنه فما ذكرت القصّة معك لتكون سمراً بل لتتنبّه بها على سبيل العبرة و لأنّ التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة و الأذهان الزكيّة إلى استنباط معاني ذلك فيفيد فرح التفطّن لمعناه رغبة في العمل به ليعلم أنّ ذلك ممّا لا يعزب عن فتنة .

الخامسة أنّ المتكفّل ببعض العلوم لا ينبغي أن يقبح في نفس المتعلّم العلوم الّتي و رائه كمعلّم اللّغة إذ عادته تقبيح الفقه و معلّم الفقه عادته تقبيح الحديث و التفسير وأنّ ذلك نقل محض و سماع مجرّد و هو شأن العجايز و لا نظر للعقل فيه ، و معلّم الكلام ينفرعن الفقه ويقول : هوفرع و كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفات الرحمن فهذه أخلاق مذمومة للمعلّمين ينبغي أن يجتنب بل المتكفّل بعلم واحد ينبغي أن يوسّع على المتعلّم طريق التعلّم في غيره و إن كان متكفّلاً بعلوم فينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلّم من رتبة إلى رتبة .

السادسة أن يقتصر بالمتعلّم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداءً في ذلك بسيّد البشر صلى الله عليه وآله حيث قال : « نحن معاشر الأنبياء اُمرنا أن ننزّل الناس منازلهم و نكلّم الناس على قدر عقولهم»[1] .

و قال صلى الله عليه وآله : « ما أحد يحدّث قوماً بحديث لا يبلغه عقولهم إلّا كان فتنة على

---

(١) قال العراقي : الحديث رويناه في جزء من حديث ابي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه وعند ابى داود من حديث عائشة «انزلوا الناس منازلهم» انتهى و أخرج شطره الاخير الكليني في الكافي ج١ ص ٢٣ والصدوق في الامالي ص٢٥٠.

بعضهم »[1].

و قال عليّ عليه السلام و أشار إلى صدره : «إنّ ههنا علوماً جمّة ، لو وجدت لها حملة»[2] و صدق عليّ عليه السلام فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلاينبغي أن يفشي العالم كلّما يعلمه إلى كلّ أحد ، هذا إذاكان يفهمه المتعلّم و لم يكن أهلاً للانتفاع به فكيف فيما لايفهمه و قد قال عيسى عليه السلام : « لا تعلّقوا الجواهر في أعناق الخنازير ، فإنّ الحكمة خير من الجواهر و من كرهها فهو شرّ من الخنزير[3] » فلذلك قيل : كِل لكلّ عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان عمله[4] حتّى تسلم منه وينتفع بك و إلّا وقع الإنكار لتفاوت المعيار ، وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب ، فقال السائل : أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»[5] فقال : اترك اللّجام و اذهب فإن جاء من يفقه و كتمته فليلجمني ، وفي قول الله عزّ وجلّ : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»[6] تنبيه على أنّ حفظ العلم ممّن يفسده ويضرّه أولى و ليس الظلم في إعطاء غير المستحقّ بأقلّ من الظلم في منع المستحقّ كما قيل :

و من منح الجهّال علماً أضاعه * ومن منع المستوجبين فقد ظلم

السابعة أنّ المتعلّم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلّي اللايق به و لا يذكر له أنّ وراء هذا تدقيقاً و هو يدّخره عنه فإنّ ذلك يفتر رغبته في الجلّي و يشوّش قلبه و يوهم إليه البخل به عنه إذ يظنّ كلّ أحد أنّه أهل لكلّ علم دقيق فما من أحد إلّا و هو راض عن الله عزّ و جلّ في كمال عقله و أشدّهم حماقة و أضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله و بهذا يعلم أنّ من تقيّد من العوام بقيد الشرع و رسخت في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه و من غير تأويل و حسنت مع ذلك سيرته و لم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلاينبغي أن يشوّش عليه اعتقاده ، بل ينبغي أن يخلّي و حرفته فإنّه لو

(١) اخرجه مسلم فى مقدمة الصحيح ص ٩ .

(٢) مر بلفظ آخر فى حديث كميل بن زياد .

(٣) أخرجه ابن عبد البر فى العلم بنحو أبسط كما فى المختصر ص ٥٦ .

(٤) فى الاحياء « بميزان فهمه » .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٦٤ . (٦) النساء : ٥ .

ذكر له تأويلات الظواهر انحلّ عنه قيد العوام و لم يتيسّر تقييده بقيد الخواصّ فيرتفع السدّ الّذي بينه و بين المعاصي ، و ينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه و غيره ، بل لاينبغي أن يخاض بالعوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات و تعليم الأمانة في الصناعة الّتي هو بصددها و يملأ قلبه من الرغبة و الرهبة بالجنّة والنّار كما نطق به القرآن و لايحرّك عليه شبهة فإنّه ربّما تعلّق الشبهة بقلبه و يعسر حلّها فيشقى و يهلك .

و بالجملة فلاينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنّه يعطّل عليهم صناعاتهم الّتي بها قوام الخلق و دوام عيش الخواصّ .

الثامنة أن يكون المعلّم عاملاً بعلمه فلايكذّب قوله بفعله لأنّ العلم يدرك بالبصائر و العمل بالأبصار و أرباب الأبصار أكثر ، فإذا خالف العمل بالعلم منع الرشد و كلّ من تناول شيئاً و قال للناس : لاتناولوه فإنّه سمّ مهلك سخر الناس به و اتّهموه و زاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لو لا أنّه أطيب الأشياء وألذّها لما كان يستأثر به ، و مثل المعلّم المرشد من المسترشد مثل النقش من الطين و العود من الظلّ و كيف ينقّش الطين بما لانقش فيه و كيف استوى الظلّ و العود أعوج ولذلك قيل :

لا تنه عن خُلق وتأتي مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم

و قال الله تعالى : « أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم » (۱) و لذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر إذ يزلّ بزلّته عالم كثير يقتدون به « ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها» (۲) و لذلك قال عليّ عليه السلام : « قصم ظهري رجلان عالم متهتّك و جاهل متنسّك ، فالجاهل يغرّ الناس بتنسّكه و العالم ينفرهم بتهتّكه» (۳) .

(۱) البقرة : ٤٤ .

(۲) أخرجه ابن ماجه تحت رقم : ۲۰۳ .

(۳) غوالى اللئالى كما فى كتاب النوادر فى جمع الاحاديث للمؤلف ص ۱۸ .
و روى مضمونه الصدوق ـ رحمه الله ـ بنحو أبسط فى الخصال باب الاثنين .

﴿ الباب السادس ﴾

في آفات العلم و بيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء ، قد ذكرنا ما وردمن فضائل العلم و العلماء و قد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلّت على أنّهم أشدّ الخلق عذاباً يوم القيامة ، فمن المهمّات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، ونعني بعلماء الدنيا العلماء السوء الّذين قصدهم من العلم التنعّم بالدنيا و التوصّل إلى الجاه والمنزلة عندأهلها ، قال النبيّ ﷺ : «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»(١) .

و يروى عنه ﷺ أنّه قال : « لايكون المرء عالماً حتّى يكون بعلمه عاملاً »(٢)

و قال ﷺ : «العلم علمان علم على اللّسان فذلك حجّة الله عزّ وجلّ على ابن آدم وعلم في القلب فذلك العلم النافع»(٣) .

وقال ﷺ : «يكون في آخر الزمان عبّاد جهّال وعلماء فسّاق »(٤) .

وقال ﷺ : « لاتتعلّموا العلم لتباهوا به العلماء و لتماروا به السفهاء و لتصرفوا وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النّار»(٥) .

و قال ﷺ : «من كتم علماً عنده اُلجم بلجام من نار» (٦) .

و قال ﷺ : « لأ نا من غير الدجّال أخوف عليكم من الدجال ، فقيل : وما ذاك ؟ فقال : أئمّة مضلّون»(٧) .

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير و ابن عدى في الكامل والبيهقى في شعب الايمان كما فى الجامع الصغير باب الالف .

(٢) قال العراقى : أخرجه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء والبيهقى فى المدخل موقوفاً .

(٣) أخرجه ابن عبد البر فى العلم بتقديم وتأخير كما فى المختصر ص ٩٠ والدارمى ج ١ ص ١٠٢.

(٤) أخرجه الحاكم من حديث أنس كما فى المغنى .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٥٩ . والدارمى فى سننه ج١ ص ١٠٤ عن مكحول .

(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج١ ص ١٠٢ .

(٧) أخرجه احمد فى مسنده ج٥ ص ١٤٥ من حديث أبى ذر بادنى اختلاف فى اللفظ .

و قال صلى الله عليه و آله : « من ازداد علماً و لم يزدد هدى لم يزدد من الله إلّا بعداً »[١] .

و قال عيسى عليه السلام : « إلى متى تصفون الطريق للمدلجين و أنتم مقيمون مع المتحيّرين »[٢] .

فهذا و غيره من الأخبار يدلّ على عظم خطر العلم و أنّ العالم إمّا متعرّض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد و أنّه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة .

أقول ومن طريق الخاصّة ما رواه الكليني - رحمه الله - في الكافي[٣] بإسناده عن سليم ابن قيس الهلالي « قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يحدّث عن النبيّ صلى الله عليه و آله أنّه قال في كلام له : العلماء رجلان رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج ، و عالم تارك لعلمه فهذا هالك وإنّ أهل النّار ليتأذّون من ريح العالم التارك لعلمه ، و إنّ أشدّ أهل النّار ندامة و حسرة رجلٌ دعا عبداً إلى الله فاستجاب له و قبل منه فأطاع الله و أدخله الله الجنّة و أدخل الدّاعي النّار بتركه علمه و اتّباعه الهوى و طول الأمل ، أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل يُنسي الآخرة » .

و بإسناده عنه « قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : قال رسول الله صلى الله عليه و آله : منهومان[٤] لا يشبعان : طالب علم وطالب دنيا ، فمن اقتصر من الدنيا على ما أحلّ الله له سلم ومن تناولها من غير حلّها هلك إلّا أن يتوب أو يراجع ، و من أخذ العلم من أهله و عمل بعلمه نجى ومن أراد به الدنيا فهي حظّه »[٥] .

و بإسناده عن محمّد بن خالد رفعه « قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له خطب به على المنبر : أيّها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلّكم تهتدون ، إنّ العالم العامل بغيره كالجاهل الحائر الّذي لا يستفيق عن جهله ، بل قد رأيت أنّ الحجّة عليه أعظم و الحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه منها على هذا الجاهل المتحيّر في جهله

---

(١) اخرجه الديلمى فى الفردوس عن على عليه السلام كما فى الجامع الصغير باب الميم وفيه «و لم يزدد فى الدنيا زهداً» مكان «هدى» .

(٢) لم نجده فى اى أصل . (٣) فى المجلد الاول ص ٤٤ تحت رقم ١ .

(٤) اى حريصان . (٥) المجلد الاول ص ٤٦ تحت رقم ١ .

و كلاهما حائر بائر ، لا ترتابوا فتشكّوا ولا تشكّوا فتكفروا ، و لا ترخّصوا لأنفسكم فتدهنوا ، و لا تدهنوا في الحقّ فتخسروا ، وإنّ من الحقّ أن تفقّهوا ، و من الفقه أن لا تغترّوا ، و أنّ أنصحكم لنفسه أطوعكم لربّه ، و أغشّكم لنفسه أعصاكم لربّه ، و من يطع الله يأمن و يستبشر و من يعص الله يخب و يندم »[1] .

و بإسناده إلى عليّ بن الحسين عليهما السلام قال : « جاء رجل إليه فسأله عن مسائل فأجاب ، ثمّ عاد ليسأل عن مثلها فقال عليّ بن الحسين عليهما السلام : مكتوب في الإنجيل لا تطلبوا علم ما لا تعلمون و لمّا تعملوا بما علمتم ، فإنّ العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلّا كفراً و لم يزدد من الله إلّا بعداً »[2] .

وبإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه النّاس إليه فليتبوّء مقعده من النّار إنّ الرئاسة لا تصلح إلّا لأهلها »[3] .

و بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « العلم مقرون إلى العمل فمن علم عمل و من عمل علم ، و العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل عنه »[4] .

و عنه عليه السلام قال : « إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ المطر عن الصفا »[5] .

و عنه عليه السلام قال : « من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا و الآخرة »[6] .

وعنه عليه السلام قال : « إذا رأيتم العالم محبّاً لدنياه فاتّهموه على دينكم فإنّ كلّ محبّ للشيء يحوط ما أحبّ »[7] .

---

(١) المجلد الاول ص ٤٥ تحت رقم ٦ .
(٢) المجلد الاول ص ٤٤ تحت رقم ٤ .
(٣) المجلد الاول ص ٤٧ تحت رقم ٦ .
(٤) المجلد الاول ص ٤٤ تحت رقم ٢ .
(٥) المجلد الاول ص ٤٤ تحت رقم ٣ و الصفا : الحجر الاملس .
(٦) المجلد الاول ص ٤٦ تحت رقم ٢ .
(٧) المجلد الاول ص ٤٦ تحت رقم ٤ وأخرجه ابن عبدالبر في العلم كما في المختصر ص ٩٢ .

وقال عليه السلام: « أوحى الله إلى داود عليه السلام لا تجعل بيني و بينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبّتي فإنّ أُولئك قطّاع طريق عبادي المريدين، إنّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم»[1].

و عنه عليه السلام قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الفقهاء أُمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل: يا رسول الله وما دخولهم في الدنيا؟ قال: اتّباع السلطان فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»[2].

و عنه عليه السلام قال: «طلبة العلم ثلاثة فأعرفهم بأعيانهم[3] و صفاتهم: صنف يطلبه للجهل و المراء، و صنف يطلبه للاستطالة والختل، و صنف يطلبه للفقه و العقل، فصاحب الجهل و المراء مؤذ ممار متعرّض للمقال في أندية الرجال[4] بتذاكر العلم وصفة الحلم قد تسربل بالخشوع وتخلّى من الورع[5] فدقّ الله من هذا خيشومه و قطع منه حيزومه[6] و صاحب الاستطالة والختل ذو خبّ و ملق[7] يستطيل على مثله من أشباهه و يتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوائهم هاضم ولدينه حاطم، فأعمى الله على هذا خبره و قطع من آثار العلماء أثره، و صاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر قد تحنّك في برنسه و قام اللّيل في حندسه[8] يعمل و يخشى وجلاً داعياً مشفقاً مقبلاً على شأنه، عارفاً بأهل

(١) المجلد الاول ص ٤٦ تحت رقم ٤، و أخرجه ابن عبدالبر فى العلم كما فى المختصر ص ٩٢.
(٢) المجلد الاول ص ٤٦ تحت رقم ٥.
(٣) اى باقسامهم.
(٤) الاندية: المجلس.
(٥) تسربل اى لبس السربال و فى الامالى « بالتخشع» و التخشع تكلف الخشوع و «تخلى» اى خلى جداً.
(٦) الحيزوم ما استدار بالظهر والبطن او ضلع الفؤاد او ما اكتنف بالحلقوم من جانب الصدر، والخيشوم: اقصى الانف و هما كنايتان اما عن اذ لاله أو كنايتان عن قطع حياته و الثانى أقرب.
(٧) الخب ـ بالكسر ـ: الخدعة.
(٨) كآبة ـ بالتحريك والمد والتسكين ـ: سوء الحال والانكسار من شدة الحزن، و قوله عليه السلام: «تحنك فى برنسه» اى تعمد للعبادة و توجه اليها و صار فى ناحيتها و تجنب الناس وصار فى ناحية منهم، وتبرنس الرجل اذا لبس البرنس. و «قام الليل فى حندسه» اى فى ظلامه، والحندس ـ بكسر الحاء ـ الظلمة.

زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه، فشدّ الله من هذا أركانه و أعطاه يوم القيامة أمانه»[۱].

وعنه عليه السلام «قال: يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[۲].

وعنه عليه السلام «قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: ويل للعلماء السوء كيف تلظّى عليهم النّار»[۳].

و روى الصدوق في كتاب الخصال[٤] بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ من العلماء من يحبّ أن يجمع علمه ولا يحبّ أن يؤخذ عنه فذاك في الدّرك الأوّل من النّار، و من العلماء من إذا وُعظ أنف و إذا وعظ عنف[٥] فذاك في الدرك الثاني من النّار، و من العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة و الشرف و لايرى له في المساكين وضعاً فذلك في الدّرك الثالث من النّار، و من العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة و السلاطين فإن ردّ عليه من قوله أو قصّر[٦] في شيء من أمره غضب فذاك في الدرك الرابع من النّار، و من العلماء من يطلب أحاديث اليهود و النصارى ليغزر به علمه[۷] و يكثر به حديثه فذلك في الدّرك الخامس من النّار، و من العلماء من يضع نفسه للفتيا و يقول: سلوني و لعلّه لا يصيب حرفاً واحداً والله لا يحبّ المتكلّفين فذاك في الدّرك السادس من النّار، و من العلماء من يتّخذ العلم مروّة و عقلاً[۸] فذاك في الدّرك السابع من النّار».

(۱) المجلد الاول ص ٤۹ تحت رقم ٥ .

(۲) المجلد الاول ص ٤۷ تحت رقم ۱ .

(۳) المجلد الاول ص ٤۷ تحت رقم ۲ .

(٤) ابواب السبعة .

(٥) «من اذا وعظ» ـ على المجهول ـ أنف اى استكبر عن قبول الوعظ . «واذا وعظ» ـ على المعلوم ـ عنف أى جاوز الحد، والعنف ضد الرفق .

(٦) «او قصر» ـ على المجهول من باب التفعيل ـ اى ان وقع التقصير من احد في شيء من أمره كاكرامه و الاحسان اليه غضب.

(۷) «ليغزر» أى ليكثر .

(۸) أى يطلب العلم و يبذله ليعده الناس من اهل المروءة والعقل (قاله العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ في البحار ج۲ ص ۱۰۹).

﴿فصل﴾

قال أبو حامد: «و إنّما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنّه عصى عن علم و لذلك قال الله عزّ وجلّ: «إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النّار»[1] لأنّهم جحدوا بعد العلم، و جعل اليهود شرّاً من النصارى مع أنّهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا: إنّه ثالث ثلاثة[2]، و لكنّهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال تعالى: «يعرفونه كما يعرفون أبنائهم»[3]، و قال عزّ و جلّ: «فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به»[4] و قال تعالى في قصّة بلعم بن باعورا: «واتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها - حتّى قال تعالى - : فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث[5] و ذلك للعالم الفاجر فإنّ بلعم كان اُوتي كتاب الله عزّ و جلّ فأخلد إلى الشهوات فشبّهه بالكلب أي سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات.

و قال عيسى عليه السلام: «مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر لاهي تشرب الماء و لاهي تترك الماء يخلص إلى الزرع، و مثل علماء السوء كمثل قناة الحشّ ظاهرها جصّ وباطنها نتن[6]، و مثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى» فهذه الأخبار و الآثار تبيّن أنّ العالم الّذي هو من أبناء الدنيا أخسّ حالاً و أشدّ عذاباً من الجاهل و أنّ الفائزين المقرّبين هم علماء الآخرة و لهم علامات فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإنّ أقلّ درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا و خسّتها و كدورتها، و انصرامها، و عظم الآخرة و دوامها و صفاء نعيمها و جلالة ملكها، و يعلم أنّهما متضادّتان، وأنّهما كالضرّتين مهما أرضيت إحديهما أسخطت الاُخرى، و أنّهما ككفّتي

---

(١) النساء: ١٤٤.

(٢) هو قول النسطورية والملكانية منهم القائلين بالاقانيم الثلاثة.

(٣) البقرة: ١٤١. (٤) البقرة: ٨٣.

(٥) الاعراف: ١٧٥. و اللهث فى اللغة اخراج الكلب لسانه من فمه.

(٦) الحش - بالفتح -: الكنيف و موضع قضاء الحاجة. (النهاية)

ميزان مهما رجحت إحداهما خفّت الاُخرى ، و أنّهما كالمشرق و المغرب متى قربت من إحديهما بعدت من الاُخرى ، و أنّهما كقدحين أحدهما مملوّ و الآخر فارغ فبقدر ما تصبّه منه في الآخر حتّى يمتلي يفرغ الآخر فإنّ من لا يعلم حقارة الدنيا و كدوراتها وامتزاج لذّتها بألمها ثمّ انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل ، فإنّ المشاهدة و التجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ و من لايعلم عظم أمر الآخرة و دوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ؟ و من لا يعلم مضادّة الدنيا للآخرة و أنّ الجمع بينهما طمع في غير مطمع فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلّهم بل هو كافر بالقرآن من أوّله إلى آخره فكيف يعدّ من زمرة العلماء ؟ و من علم هذا كلّه ثمّ لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان ، و قد أهلكته شهوته ، و غلبت عليه شقوته ، فكيف يعدّ من أحزاب العلماء من هذه درجته ؟ .

و في أخبار داود عليه السلام « إنّ أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهواته على محبّتي أن اُحرّمه لذيذ مناجاتي ، يا داود لاتسألنّ عنّي عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدّك عن طريق محبّتي أولئك قطّاع الطريق على عبادي»(١) .

«يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً ، ياداود من ردّ إليّ هارباً كتبته جهبذاً ، ومن كتبته جهبذاً لم اُعذّبه أبداً »(٢).

ولذلك قيل : عقوبة العلماء موت قلوبهم ، و موت قلوبهم طلب الدنيا بعمل الآخرة ، و لذلك قال يحيى بن معاذ الرازيّ : إنّما يذهب بهاء العلم و الحكمة إذا طلبت بهما الدنيا ، وكان يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم قصوركم قيصريّة ، وبيوتكم كسرويّة ، و أثوابكم طاهريّة ، و أخفافكم جالوتيّة ، ومراكبكم قارونيّة ، و أوانيكم فرعونيّة ، و مآتمكم جاهليّة ، ومذاهبكم شيطانيّة ، فأين المحمديّة ؟ وأنشدوا :

(١) رواه الصدوق في العلل كما في البحار ج٢ ص١٠٧ وفيه «لاتجعل بيني و بينك عالما مفتونا بالدنيا فيصدك ـ الحديث ـ» .

(٢) قوله : « جهبذاً» الجهبذ هو الناقد العارف البصير بتمييز الحق من الباطل ، وفي بعض النسخ [جهيداً] .

وراعي الشاء يحمي الذئب عنها * فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

و قيل :

يا معشر القرّاء يا ملح البلد * ما يصلح الملح إذا الملح فسد

و قيل لبعض العارفين : أترى أنّ من تكون المعاصي قرّة عينه لايعرف الله ؟ قال : لاأشكّ أنّ من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنّه لايعرف الله تعالى وهذا دون ذلك بكثير ، ولاتظنّنّ أنّ ترك المال يكفي في اللّحوق بعلماء الآخرة فإنّ الجاه أضرّ من المال و لذلك قيل : «حدّثنا» باب من أبواب الدنيا[1] و إذا سمعت الرجل يقول : « حدّثنا» وإنّما يقول : أوسعوا لي .

وقيل : فتنة الحديث أشدّ من فتنة الأهل والمال والولد ، و قيل : العلم كلّه دنيا والآخرة منه العمل به ، والعمل كلّه هباء إلّا الإخلاص .

و قال عيسى عليه السلام : « كيف يكون من أهل العلم من يكون مسيره إلى آخرته و هو مقبل على دنياه ؟ و كيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم ليخبر به لاليعمل به[2] »

و عن النبيّ صلى الله عليه وآله «من طلب علماً ممّا يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنّة يوم القيامة»[3] .

و قد وصف الله عزّ وجلّ علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم و وصف علماء الآخرة بالخشوع و الزهد فقال في علماء الدنيا : « و إذ أخذ الله ميثاق الّذين اُوتوا الكتاب لتبيننّه للنّاس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً »[4] و قال في علماء الآخرة : « و إنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله و ما اُنزل إليكم و ما اُنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربّهم»[5] .

---

(١) قوله «حدثنا» يعنى قول حدثنا فهو مبتدأ و «باب من أبواب الدنيا» خبره .

(٢) أخرج شطره الاول ابن الشيخ في اماليه ص ١٣٠ وتمامه الدارمى فى سننه ج١ ص١٠٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه ج ٢ ص٢٩٠ و أخرجه ابن عبد البر أيضاً فى العلم عن ابى هريرة كما فى المختصر ص ٩٠ .

(٤) آل عمران : ١٨٧ .

(٥) آل عمران : ١٩٩ .

وعن النبي ﷺ «قال : أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام «قل للذين يتفقهون لغير الدين و يتعلّمون لغير العمل و يطلبون الدنيا بعمل الآخرة و يلبسون للناس مسوك الكباش ، و قلوبهم كقلوب الذئاب ، وألسنتهم أحلى من العسل ، و قلوبهم أمرّ من الصبر إيّاي يخادعون ، و بي يستهزؤون : لأُتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم حيران[1]» إلى غير ذلك من الأخبار و الآثار .

ومنها أن لايخالف قوله فعله بل لايأمر بالشيء ما لم يكن هو أوّل عامل به .

قال الله تعالى : «أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم»[2] .

و قال عزّ وجلّ : «كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون»[3] .

و قال عزّ وجلّ في قصّة شعيب عليه السلام : «وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهيكم عنه»[4] .

و قال تعالى : «و اتّقوا الله و يعلّمكم الله»[5] «و اتّقوا الله و اعلموا»[6] «واتّقوا الله و اسمعوا»[7] .

و قال عزّ وجلّ لعيسى عليه السلام : «يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتّعظت فعظ الناس وإلّا فاستحي منّي» .

وقال رسول الله ﷺ : مررت ليلة أُسري بي بقوم كان تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم؟ فقالوا : إنّا كنّا نأمر بالخير و لانفعله و ننهى عن الشرّ ونفعله»[8] .

و قال ﷺ : «هلاك أُمّتي عالم فاجر وعابد جاهل ، وشرّ الشرار شرار العلماء ، و خير الخيار خيار العلماء»[9] .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في العلم كما في المختصر ص٩٠ من حديث ابي الدرداء .

(٢) البقرة : ٤٤ . (٣) المؤمن : ٣٥ .

(٤) هود : ٨٨ . (٥) البقرة : ٢٨٢ .

(٦) البقرة : ١٩٦ . (٧) المائدة : ١٠٨ .

(٨) أخرجه ابن حبان من حديث أنس كما في المغني .

(٩) أخرجه ابن عبد البر في العلم كما في المختصر ص ٩١ .

و قال أبو الدرداء : ويل لمن لايعلم مرّة وويل لمن يعلم ولايعمل سبع مرّات[١].

و روى مكحول عن عبدالرحمن بن غنم أنّه قال : حدّثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ أنّا كنّا ندرّس العلم في مسجد قبا إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : «تعلّموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتّى تعملوا»[٢].

و قال عيسى عليه السلام : «مثل الّذي يتعلّم العلم و لا يعمل به كمثل امرأة زنت في السرّ فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لايعمل بعلمه يفضحه الله تبارك وتعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد».

و قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلب فلاينتفع يومئذ بالعلم عالمه و لامتعلّمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجدلها عذوبة و ذلك إن مالت قلوب العلماء إلى حبّ الدنيا و إيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبها الله ينابيع الحكمة و يطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنّه يخشى الله عزّ وجلّ بلسانه و الفجور بيّن في عمله ، فما أخصب الألسن يومئذ و أجدب القلوب فو الله الّذي لا إله إلّا هو ما ذاك إلّا لأنّ المعلّمين علّموا لغير الله تعالى والمتعلّمين تعلّموا لغير الله تعالى .

و في الإنجيل مكتوب : «لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتّى تعملوا بماعلمتم»[٣].

و قال حذيفة : إنّكم في زمان من ترك فيه عشر مايعلم هلك ، وسيأتي زمان من عمل بعشر ما علم نجى وذلك لكثرة البطّالين .

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال : «إنّ الشيطان ربّما سبقكم إلى العلم ، فقيل : يارسول الله و كيف ذلك ؟ قال : يقول : اطلب العلم ولاتعمل حتّى تعلم فلايزال في العلم قائلاً وللعمل مسوّفاً حتّى يموت و ما عمل»[٤].

---

(١) أورده ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص ٩٦ .
(٢) أخرجه ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص ٩٧ .
(٣) أخرجه ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص ٩٧ .
(٤) قال العراقى : الحديث فى الجامع من حديث أنس . انتهى . وفى الاحياء « ربما يسوفكم بالعلم » .

و قال ابن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية وإنّما العلم الخشية [١] .

و قال : أُنزل القرآن ليعمل به فاتّخذتم دراسته عملاً و سيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخيار كم و العالم الّذي لا يعمل كالمريض الّذي يصف الدواء و لا يتداوي به و الجائع الّذي يصف لذائذ الأطعمة و لا يجدها و في مثله يقال : « و لكم الويل ممّا تصفون » .

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه الكلينيّ ـ رحمه الله ـ باسناده عن الصادق عليه السلام «أنّه قال : إنّ رواة الكتاب كثير وإنّ رعاته قليل و كم من مستنصح للحديث مستغشّ للكتاب فالعلماء يحزنهم ترك الرعاية والجهّال يحزنهم حفظ الرواية فراع يرعي حياته و راع يرعي هلكته ، فعند ذلك اختلف الراعيان وتغاير الفريقان» [٢] .

وباسناده عنه عليه السلام في قول الله تعالى : «إنّما يخشى الله من عباده العلماء» [٣] قال : يعني بالعلماء من صدّق فعله قوله ومن لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم» [٤] .

وفي رواية اُخرى « و من لم يكن فعله لقوله موافقاً فإنّما ذلك مستودع» .

وفي مصباح الشريعة عنه عليه السلام [٥] : « أنّه قال : العالم حقّاً هو الّذي ينطق عنه أعماله الصالحة وأوراده الزاكية و صدقه و تقواه لالسانه و تطاوله [٦] و دعواه ، ولقد كان يطلب هذا العلم في غير هذا الزّمان من كان فيه عقل و نسك و حكمة و حياء و خشية وإنّما نرى طالبه اليوم من ليس فيه من ذلك شيء ، والعالم يحتاج إلى عقل و رفق وشفقة و نصح و حلم وصبر و بذل ، والمتعلّم يحتاج إلى رغبة و إرادة و فراغ و نسك وخشية وحفظ وحزم » .

و عنه عليه السلام «قال : أوحى الله عزّ وجلّ : إلى داود عليه السلام : أنّ أهون ما أنا صانع بعالم غير عامل بعلمه أشدّ من سبعين عقوبة باطنيّة أن اُخرج من قلبه حلاوة ذكري » .

(١) أورده ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص ١٠٨ .
(٢) المجلد الاول ص ٤٩ تحت رقم ٦ .
(٣) فاطر :٢٨ .
(٤) المجلد الاول ص ٣٦ تحت رقم ٢ . والرواية الاخرى ص ٤٥ رقم٥ .
(٥) الباب الثانى و الستون ص ٤١ .
(٦) فى بعض النسخ [تصاوله] .

ومنها [1] أن يكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة ، المرغّب في الطاعة ، متجنّباً للعلوم الّتي يقلّ نفعها و يكثر فيها الجدال و القيل و القال ، فمثل من يعرض عن علم الأعمال و يشتغل بالجدال مثال رجل مريض به علل كثيرة و قد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى عليه فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصيّة العقاقير و الأدوية وغرائب الطبّ و ترك مهمّه الّذي هو مؤاخذ به و ذلك محض السفه ، وقد روي أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له : علّمني من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت في رأس العلم ؟ قال : و ما رأس العلم ؟ قال : هل عرفت الربّ ؟ قال : نعم ، قال : و ما صنعت في حقّه ؟ قال : ماشاء الله ، قال صلى الله عليه وآله : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم ، قال : فما أعددت له ؟ قال : ماشاء الله ، قال صلى الله عليه وآله : إذهب فأحكم ما هنالك ثمّ تعال نعلّمك غرائب العلم » .[2]

بل ينبغي أن يكون التعلّم من جنس ما روي عن بعض السلف أنّه قال له اُستاده : منذ كم صحبتني؟ فقال : منذ ثلاث وثلاثين سنة ، قال : فماتعلّمت منّي في هذه المدّة ؟ فقال : ثمان مسائل ، فقال الاُستاد : إنّا لله و إنّا إليه راجعون ذهب عمري معك و لم تتعلّم إلّا ثمان مسائل : قال : يا اُستاد لم أتعلّم غيرها و لا اُحبّ أن أكذب ، فقال له : هات الثمان مسائل حتّى أسمعها ؟

قال : الاُولى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلّ واحد يحبّ محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر فإذا وصل إليه فارقه فجعلت الحسنات محبوبي فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي ، فقال : أحسنت .

فما الثانية ؟ قال : نظرت في قول الله عزّ و جلّ : « و أمّا من خاف مقام ربّه و نهى النفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى »[3] فعلمت أنّ قوله سبحانه هو الحقّ فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتّى استقرّت عليّ طاعة الله تعالى .

الثالثة أنّي نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلّ من معه شيء له قيمة عنده ومقدار

---

(١) من كلام أبي حامد .

(٢) أخرجه ابن عبد البر في العلم كما في المختصر ص ٩٧ .

(٣) النازعات : ٤٠ .

رفعه و حفظه ، ثمّ نظرت في قول الله عزّ وجلّ : « ما عندكم ينفد و ما عند الله باق»[1] فكلّما وقع معي شيء له قيمة و مقدار وجّهته إليه ليبقى لي عنده .

الرابعة أنّي نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلّ واحد منهم يرجع إلى المال و الحسب و الشرف و النسب فنظرت فإذا هي لاشيء ثمّ نظرت إلى قول الله تعالى : « إنّ أكرمكم عند الله أتقيكم»[2] فعملت في التقوى حتّى أكون عند الله عزّ و جلّ كريماً .

الخامسة نظرت إلى هذا الخلق و هم يطعن بعضهم في بعض و يلعن بعضهم بعضاً و أصل هذا كلّه الحسد ، ثمّ نظرت فرجعت إلى قول الله سبحانه : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا»[3] فتركت الحسد و اجتنبت الخلق و علمت أنّ القسمة من عند الله سبحانه و تركت عداوة الخلق عنّي .

السادسة نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً فرجعت إلى قول الله عزّ وجلّ : « إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً »[4] فعاديته وحده و اجتهدت في أخذحذري منه لأنّ الله تعالى شهد عليه أنّه عدوّي فتركت عداوة الخلق .

السابعة نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلّ واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذلّ نفسه و يدخل فيما لايحلّ له ثمّ نظرت إلى قول الله تعالى : « و ما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها »[5] فعلمت أنّي واحدٌ من هذه الدوابّ الّتي على الله رزقها ، فاشتغلت بما لله عليّ و تركت مالي عنده .

الثامنة نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم متوكّلين هذا على ضيعته ، و هذا على تجارته ، و هذا على صناعته ، و هذا على صحّة بدنه ، و كلّ مخلوق يتوكّل على مخلوق فرجعت إلى قوله عزّ و جلّ : « و من يتوكّل على الله فهو حسبه »[6] فتوكّلت على الله فهو حسبي و نعم الوكيل .

قال الأُستاد : وفّقك الله فإنّي نظرت في علم التوراة والإنجيل و الزبور و الفرقان

---

(١) النحل : ٩٦ . (٢) الحجرات : ١٣ .
(٣) الزخرف : ٣٢ . (٤) فاطر : ٦ .
(٥) هود : ٦ . (٦) الطلاق : ٣ .

العظيم وهي تدور على هذه المسائل الثمانية فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة ،

أقول : و قد ينسب هذا إلى مولينا الصادق عليه السلام مع بعض تلامذته بأدنى تغيير في اللّفظ .

قال (١) : « فهذا الفنّ من العلم يهتمّ بإدراكه و التفطّن له علماء الآخرة و أمّا علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسّر به اكتساب المال و الجاه و يهملون أمثال هذه العلوم الّتي بها بعث الله الأنبياء عليهم السلام كلّهم ، و قال الضحّاك بن مزاحم : أدركتهم و ما يتعلّم بعضهم من بعض إلّا الورع وهم اليوم يتعلّمون الكلام .

ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفّه في المطعم ، والتنعّم في الملبس ، و التجمّل بالأثاث و المسكن ، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك و يتشبّه فيه بالسلف و يميل إلى الاكتفاء بالأقلّ في جميع ذلك و كلّما زاد إلى طرف القلّة ميله ازداد من الله سبحانه قربه و ارتفع في علماء الآخرة درجته ، و يشهد لذلك ما حكي عن أبي عبدالله الخواصّ وكان من أصحاب حاتم الأصمّ قال : دخلت مع حاتم الريّ و معنا ثلاثمائة و عشرون رجلاً نريد الحجّ و عليهم الزرمانقات (٢) و ليس معهم جراب و لاطعام فدخلنا على رجل من التجّار متقشّف يحبّ المساكين فأضافنا تلك اللّيلة فلمّا كان من الغد قال لحاتم : ألك حاجة فإنّي اُريد أن أعود فقيهاً لنا هو عليل ، فقال حاتم : عيادة المريض لها فضل و النظر إلى الفقيه عبادة فأنا أيضاً أجيىء معك و كان العليل محمّد بن مقاتل قاضي الريّ فلمّا جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن فبقي حاتم متفكّراً يقول : باب عالم على هذه الحال ، ثمّ اُذن لهم فدخلوا فإذا دار قوراء و إذا بزّة (٣) وسعة وستور ، فبقي حاتم متفكّراً ثمّ دخلوا إلى المجلس الّذي هو فيه فإذا بفرش وطئة و هو راقد عليها و عند رأسه غلام و بيده مذبّة (٤) فقعد الرّازي و سأل وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس ،

(١) من كلام أبي حامد .

(٢) زرمانقة : جبة صوف .

(٣) دار قوراء أي واسعة ، و البز : السلاح كالبزة ، و البزة ـ بالكسر ـ الهيئة والسلاح (الصحاح) .

(٤) المذبة ما يدفع به الذباب .

قال ، لا أجلس ، فقال : لعلّ لك حاجة ؟ فقال : نعم ، قال : ماهي ؟ قال مسئلة أسألك عنها ، قال : سلني ، قال : قم فاستو حتّى أسألك ، فاستوى ، قال حاتم : علمك هذا من أين أخذته ؟ قال : الثقات حدّثوني به ، قال : عمّن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله ﷺ قال : وأصحاب رسول الله ﷺ عمّن ؟ قال : عن رسول الله ﷺ ، قال : و رسول الله عمّن ؟ قال : عن جبرئيل عن الله سبحانه وتعالى ، قال حاتم : ففيما أدّاه جبرئيل عن الله سبحانه إلى رسول الله ﷺ و أدّاه رسول الله إلى أصحابه و أصحابه أدّوه إلى الثقات و أدّاه الثقات إليك هل سمعت في العلم من كان داره دار أمير و كانت سعته أكثر كان له عندالله عزّ وجلّ المنزلة أكثر ؟ قال : لا ، قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت من زهد في الدنيا و رغب في الآخرة و أحبّ المساكين و قدّم لآخرته كان له عندالله تعالى المنزلة أرفع ، قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت ؟ أبالنبي ﷺ وأصحابه الصالحين أم بفرعون ونمرود ؟ أوّل من بنى بالجصّ و الآجر ، يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل المكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شرّاً منه ، و خرج من عنده ، فازداد ابن مقاتل مرضاً و بلغ أهل الريّ ماجرى بينه و بين ابن مقاتل ، فقالوا : إنّ الطنافسيّ بقزوين أكثر شيئاً منه [(١)] فسار حاتم إليه متعمّداً فدخل عليه فقال : رحمك الله أنا رجل عجميّ أحبّ أن تعلّمني مبدأ ديني و مفتاح صلاتي كيف أتوضّأ للصلاة قال : نعم و كرامة يا غلام هات إناء فيه ماء ، فأُتي به فقعد الطنافسيّ و توضّأ ثلاثاً ثلاثاً ثمّ قال : هكذا توضّأ ، قال حاتم : مكانك حتّى أتوضّأ بين يديك فيكون أوكد لما أُريد ، فقام الطنافسي وقعد حاتم فتوضّأ ، ثمّ غسل ذراعين أربعاً فقال الطنافسي : أسرفت يا هذا ، قال له حاتم : فيماذا ؟ قال : غسلت ذراعك أربعاً ، قال : يا سبحان الله إنّي في كفّ ماء أسرفت و أنت في هذا الجمع كلّه لم تسرف ؟ فعلم الطنافسيّ أنّه قصد ذلك دون التعلّم ، فدخل إلى البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوماً .

فلمّا دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا : يا أبا عبدالرحمن أنت رجل ألكن عجميّ ليس يكلّمك أحد إلّا قطعته : قال : معي ثلاث خصال بهنّ أظهر على خصمي :

---

(١) في الاحياء « أكثر توسعاً » .

أفرح إذا أصاب خصمي ، و أحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسي أن لاتجهل عليه ، فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال : يا سبحان الله ما أعقله ؟! قوموا بنا إليه ، فلمّا دخلوا عليه قالوا : يا أباعبدالرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أبا عبدالله لا تسلم من الدنيا حتّى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلهم ، و تمنع جهلك ، و تبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيساً ، فإذا كنت هكذا سلمت .

ثمّ سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال : يا قوم أيّة مدينة هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، قال : فأين قصر رسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى اُصلّي فيه ؟ قالوا : ماكان له قصر إنّما كان له بيت لاطيء بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه ؟ قالوا : ماكانت لهم قصور إنّما كانت لهم بيوت لاطئة ، فقال حاتم : يا قوم فهذه مدينة فرعون ، فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا : هذا العجميّ يقول : هذه مدينة فرعون ، قال الواليّ : ولم ذاك ؟ قال حاتم : لاتعجل عليّ أنا رجل عجميّ غريب دخلت البلد فقلت : مدينة من هذه ؟ فقالوا : مدينة الرسول صلّى الله عليه وآله فقلت : أين قصره ؟ و قصّ القصّة ، ثمّ قال : و قد قال الله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله اُسوة حسنة[1] » فأنتم بمن تأسّيتم ؟ أبرسول الله أم بفرعون أوّل من بنى بالجصّ و الآجر ؟ فخلّوا عنه و تركوه ـ هذه حكاية حاتم ـ .

و سيأتي من سيرة السلف في البذاذة و ترك التجمّل ما يشهد لذلك في مواضعه و التحقيق فيه أنّ التزيّن بالمباح ليس بحرام ولكنّ الخوض فيه يوجب الاُنس به حتّى يشقّ تركه و استدامة الزينة لا يمكن إلّا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة و مراعات الخلق ومراياتهم واُمور اُخرى محظورة ، والحزم اجتناب ذلك لأنّ من خاض في الدنيا لا يسلم منها البتّة و لو كانت السلامة مبذولة مع الخوض في الدنيا لكان رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يبالغ في ترك الدنيا حتّى نزع القميص المعلّم و نزع الخاتم الذّهب في أثناء الخطبة إلى غير ذلك ممّا سيأتي بيانه فالتعريج على التنعّم بالمباح خطره عظيم و هو بعيد من الخوف و الخشية و خاصيّة علماء الله سبحانه الخشية وخاصيّة الخشية التباعد من مظانّ الخطر.

---

(١) الاحزاب : ٢١ .

أقول : و ممّا يشهد لذلك ماروواه السيّد الرضيّ - رحمه‌الله - في كتاب نهج‌البلاغة عن مولينا أمير المؤمنين عليه‌السلام أنّه قال في كلام له طويل[1]: «من عظمت الدنيا في عينه و كبر موقعها من‌قلبه آثرها على‌الله ، فانقطع إليها ، وصار عبداً لها . و لقد كان في‌رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله كاف لك في الاُسوة ، و دليل لك على ذمّ الدنيا و عيبها ، و كثرة مخازيها[2] و مساويها ، إذ قبضت عنه أطرافها ، و وطّئت لغيره أكنافها ، و فطم عن رضاعها ، وزوي عن زخارفها[3] وإن شئت ثنّيت بموسى كليم الله عليه‌السلام إذيقول : «ربّ إنّي لماأنزلت‌إليّ من خير فقير» و الله ما سأله إلّا خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض، و لقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله و تشذّب لحمه ،[4] و إن شئت ثلّثت بداود صاحب المزامير و قارىء أهل الجنّة فلقد كان يعمل سفائف‌الخوص[5] بيده ويقول لجلسائه : أيّكم يكفيني بيعها و يأكل قرص الشعير من‌ثمنها ، و إن شئت قلت في‌عيسى ابن مريم عليه‌السلام فلقدكان يتوسّد الحجر ، و يلبس الخشن ، و يأكل الجشب ، و كان إدامه الجوع ،[6] وسراجه باللّيل القمر ، وظلاله في الشتاء مشارق‌الأرض ومغاربها[7]، وفاكهته و ريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ، و لم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، و لا مال يلفته ، ولا طمع يذلّه ، دابّته رجلاه ، و خادمه يداه ، فتأسّ بنبيّك الأطيب الأطهر صلى‌الله‌عليه‌وآله فإنّ فيه اُسوةً لمن تأسّى ، وعزاء لمن‌تعزّى ، وأحبّ العباد إلى‌الله المتأسّي بنبيّه ،

---

(١) خطبة ١٥٨ من النهج أولها امره قضاء و حكمة .

(٢) جمع مخزاة وهى مايستحيى منذكره لقبحه ، والمساوى : العيوب .

(٣) قبض الاطراف كناية عن المنع ، ووطئت - بالتشديد - اى هيأت . وأكناف الشيء جوانبه ، وزوى اى قبض متاعها و زينتها .

(٤) شف الثوب اى رق ، والصفاق - ككتاب - : الجلدالاسفل تحت الجلدالذى عليه الشعر ، وقيل : جلد البطن كله . والتشذب : التفرق و انهضام اللحم .

(٥) السفائف- جمع‌سفيفة- وصف‌من سف الخوص اذا نسجه‌اى منسوجات‌الخوص .

(٦) اى لايأكل من الخبز مايرفع الجوع .

(٧) ظلاله اى مأواه و مكمنه من البرد .

والمقتصّ لأثره ، قضم الدنياء قضماً[1] ولم يعرها طرفاً ، أهضم أهل الدنيا كشحاً ، وأخمصهم من الدنيا بطناً ، [2] عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها ، و علم أنّ الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه ، وحقّر شيئاً فحقّره ، وصغّر شيئاً فصغّره ، ولو لم يكن فينا إلّا حبّنا ما أبغض الله و رسوله و تعظيمنا ما صغّر الله و رسوله لكفى به شقاقاً لله و محادّة عن أمر الله ، و لقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأكل على الأرض و يجلس جلسة العبد ، و يخصف بيده نعله ، و يرقع بيده ثوبه ، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه ، و يكون الستر على باب بيته ، فيكون فيه التصاوير فيقول : يا فلانة ـ لإحدى أزواجه ـ غيّبيه عنّي فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا و زخارفها ، فأعرض عن الدنيا بقلبه ، و أمات ذكرها من نفسه ، و أحبّ أن تغيب زينتها عن عينه ؛ لكيلا يتّخذ منها رياشاً ، ولا يعتقدها قراراً ، و لا يرجو فيها مقاماً ، فأخرجها من النفس ، و أشخصها عن القلب ، و غيّبها عن البصر ، وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه ، و أن يذكر عنده ، و لقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يدلّك على مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصّته وزُويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته ، فلينظر ناظرٌ بعقله أأكرم الله محمّداً بذلك أم أهانه ؟ فإن قال : أهانه فقد كذب و [الله] العظيم [و أتى بالإفك العظيم] و إن قال : أكرمه فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له ، و زواها عن أقرب الناس منه فتأسّى متأسّ بنبيّه ، [3] و اقتصّ أثره ، و ولج مولجه ، و إلّا فلا يأمن الهلكة فإنّ الله جعل محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم علماً للسّاعة ، ومبشّراً بالجنّة ، و منذراً بالعقوبة ، خرج من الدنيا خميصاً ، و ورد الآخرة سليماً ، لم يضع حجراً على حجر حتّى مضى لسبيله و أجاب داعي ربّه ، فما أعظم منّة الله عندنا حين

(١) اقتص أثره اى اقتدى به و اتبعه ، وقضم ـ بالضاد المعجمة كسمع ـ اى أكل باطراف اسنانه وقيل : يختص باكل اليابس كذلك والتنوين للتقليل والتحقير أى لم يبالغ فيتناول الدنيا بل قنع بالبلغة والكفاف .

(٢) « لم يعرها طرفاً » اى لم يعطها نظرة على وجه العارية . والهضم ـ محركة ـ انضمام الجنبين وخمص البطن . و الكشح مابين الخاصرة الى الضلع الخلفى . وأخمصهم اى اخلاهم .

(٣) «فتأسى» خبر يريد به الطلب اي فليقتد مقتد بنبيه .

أنعم علينا به سلفاً نتّبعه و قائداً نطأ عقبه .

و الله لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها ، و لقد قال لي قائل : ألا تنبذها ؟ فقلت : اغرب عنّي فعند الصباح يحمد القوم السرى »[١] .

و في الكافي باسناده عن الصادق عليه السلام « أنّه قال : كلّما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته »[٢] .

« ومنها[٣] أن يكون مستقصياً عن السلاطين لا يدخل عليهم البتّة مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً ، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم و إن جاؤوا إليه فإنّ الدنيا حلوة خضرة و زمامها بأيدي السلاطين و المخالط لهم لا يخلو عن تكلّف في طلب مرضاتهم و استمالة قلوبهم مع أنّهم ظلمة و يجب على كلّ متديّن الإنكار عليهم و تضييق صدورهم باظهار ظلمهم و تقبيح فعلهم ، فالداخل عليهم إمّا أن يلتفت إلى تجمّلهم فيزدري نعمة الله عزّ وجلّ عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً أو يتكلّف في كلامه لمرضاتهم و تحسين حالهم ، و ذلك هو البهت الصريح أو يطمع في أن ينال من دنياهم و ذلك هو السحت ، و سيأتي في كتاب الحلال و الحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين و ما لا يجوز من الإدرار و الجوائز و غيرها وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح لشرور عدّة ، و علماء الآخرة طريقهم الاحتياط و قد قال صلى الله عليه وآله : « من بداجفا ـ يعني من سكن البادية ـ و من اتّبع الصيد غفل ، و من أتى السلطان افتتن »[٤] .

---

(١) «اغرب عنى» اى اذهب و ابعد . السرى : السير بالليل و المثل معروف معناه اذا أصبح النائمون و قد رأوا السارين واصلين الى مقاصدهم حمدوا سراهم و ندموا نوم أنفسهم ، او اذا أصبح السارون وقد وصلوا الى ما ساروا اليه حمدوا سراهم و ان كان شاقاً حيث أبلغهم الى ما قصدوا .

(٢) المجلد الثانى باب فضل فقراء المسلمين ص ٢٦١ تحت رقم ٤ .

(٣) من كلام أبى حامد .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس كما فى الجامع الصغير و تمام الحديث «من بداجفا و من اتبع الصيد غفل و من أتى أبواب السلطان افتتن » . و الزيادة فى المتن من أبى حامد ذكره توضيحاً .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ستكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد برىء ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع أبعده الله ، قيل : يا رسول الله : أفلا نقاتلهم ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : لا ، ما صلّوا »[1] .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « العلماء اُمناء الرسل على عباد الله عزّ و جلّ ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم و اعتزلوهم » ـ رواه أنس[2] .

أقول و قد مرّ هذا الحديث من طريق الخاصّة عن الصادق عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً .

قال : و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « شرار العلماء الّذين يأتون الاُمراء و خيار الاُمراء الّذين يأتون العلماء »[3] .

أقول : وروي أنّ بعض الفضلاء قال لبعض الأبدال : ما بال كبراء زماننا وملوكها لا يقبلون منّا ولا يجدون للعلم مقداراً و قد كانوا في سالف الزمان بخلاف ذلك ؟ فقال : إنّ علماء ذلك الزمان كان يأتيهم الملوك و الأكابر و أهل الدنيا فيبذلون لهم دنياهم و يلتمسون منهم علمهم فيبالغون في دفعهم و ردّ منّتهم عنهم فصغرت الدنيا في أعين أهلها و عظم قدر العلم عندهم نظراً منهم إلى أنّ العلم لولا جلالته و نفاسته ما آثره هذه الفضلاء على الدنيا و لولا حقارة الدنيا و انحطاطها لما تركوها رغبة عنها و لمّا أقبل علماء زماننا على الملوك و أبناء الدنيا و بذلوا لهم علمهم إلتماساً لدنياهم عظمت الدنيا في أعينهم و صغر العلم لديهم لعين ما تقدّم .

قال بعض علمائنا :[4] اعلم أنّ القدر المذموم من ذلك ليس هو مجرّد اتّباع

---

(١) أخرجه ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص٨٥ . وأخرجه أحمد فى المسند ج ٦ ص ٢٩٥ بدون جملة «أبعده الله» و فى آخره «ما صلوا لكم الخمس» وفى الجامع الصغير باب السين عن سنن ابى داود صدره .

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى العلم كما فى المختصر ص ٨٧ .

(٣) أخرجه ابن عبدالبر فى العلم بلفظ آخر كما فى المختصر ص ٨٨ . و بلفظه نقله الشهيد فى المنية .

(٤) يعنى به الشهيد الثانى ذكره فى المنية ص٢١ من طبعه الملحق بروض الجنان .

السلطان كيف اتّفق بل اتّباعه ليكون توطئة له و وسيلة إلى ارتفاع الشأن و الترفّع على الأقران و عظم الجاه و المقدار و حبّ الدنيا و الرئاسة و نحو ذلك ، أمّا لو اتّبعه ليجعله وصلة إلى إقامة نظام النوع و إعلاء كلمة الدين و ترويج الحقّ و قمع أهل البدع و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و نحو ذلك فهو من أفضل الأعمال فضلاً عن كونه مرخّصاً و بهذا يجمع بين ما ورد من الذمّ و ما ورد أيضاً من الترخّص في ذلك بل قد فعل جماعة من الأعيان كعليّ بن يقطين ، و عبدالله النجاشي ، و أبي القاسم ابن روح ـ أحد نوّاب الشريفة ـ و محمّد بن إسماعيل بن بزيع ، و نوح بن درّاج وغيرهم من أصحاب الأئمّة عليهم السلام ، و من الفقهاء مثل السيّدين الأجلّين المرتضى والرضي وأبيهما ، و الخواجة نصير الدين الطوسي ، و العلاّمة بحر العلوم جمال الدين بن المطهّر وغيرهم و قد روى محمّد بن إسماعيل بن بزيع و هو الثقة الصدوق عن الرضا عليه السلام أنّه قال : «إنّ لله تعالى بأبواب الظالمين من نوّر الله به البرهان و مكّن له في البلاد ليدفع به[1] عن أوليائه و يصلح الله به اُمور المسلمين ، لأنّه ملجأ المؤمنين من الضرر وإليه يفزع ذو الحاجة من شيعتنا ، بهم يؤمن الله تعالى روعة المؤمن في دار الظلمة اُولئك هم المؤمنون حقّاً ، اُولئك اُمناء الله في أرضه ، اُولئك نور الله تعالى في رعيّتهم يوم القيامة ، و يزهر نورهم لأهل السماوات كما يزهر الكواكب الزاهرة لأهل الأرض ، اُولئك من نورهم نور القيامة ، تضيء منهم القيامة ، خلقوا والله للجنّة و خلقت الجنّة لهم ، فهنيئاً لهم ، ما على أحدكم أن لو شاء لنال هذا كلّه ، قال : فقلت : بماذا جعلني الله فداك ؟ قال : يكون معهم فيسرّنا بإدخال السرور على المؤمنين من شيعتنا فكن منهم يا محمّد[2]» و اعلم أنّ هذا ثواب كريم ، لكنّه موضع الخطر الوخيم و الغرور العظيم ، فإنّ زهرة الدنيا و حبّ الرئاسة و الاستعلاء إذا نبتا في القلب غطّيا عليه كثيراً من طرق الصواب و المقاصد الصحيحة الموجبة للثواب فلا بدّ من التيقّظ في هذا الباب .

اقول : و العمدة فيه أن يكون القلب معرضاً عنه ساخطاً عليه بقدر ظلمه و طغيانه و إن قضى له حاجة أو قرّبه أو أحسن إليه ، وأن لا يتغيّر كيفيّة معاشرته مع الناس بعد

(١) في بعض النسخ «بهم» موضع «به» . (٢) رواه النجاشي في رجاله .

التقرّب إليه و الله المستعان .

قال أبو حامد ـ رحمه الله ـ : « و هذه فتنة عظيمة للعلماء و ذريعة صعبة للشيطان عليهم ، لا سيّما من له لهجة مقبولة و كلام حلو إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه أنّ في وعظك لهم و دخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ، و يقيم شعائر الشرع إلى أن يخيّل إليه أنّ الدخول عليهم من الدين ، ثمّ إذا دخل لم يلبث أن يتلطّف في الكلام ويداهن ، و يخوض في الثناء و الإطراء و فيه هلاك الدين ، و كان يقال : العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا ، فإذا شغلوا فقدوا ، فإذا فقدوا طلبوا ، فإذا طلبوا هربوا ، و كتب بعض الاُمراء إلى بعض أهل العلم أمّا بعد فأشر عليّ بقوم أستعين بهم على أمر الله تعالى . فكتب إليه أمّا أهل الدين فلن يريدوك و أمّا أهل الدنيا فلن تريدهم و لكن عليك بالأشراف فإنّهم يصونون شرفهم أن يدنّسوه بالخيانة . فإذا كان شرط أهل الدين الهرب من السلاطين فكيف يستتبّ طلبهم و مخالطتهم[1] .

ومنها أن لا يكون متسارعاً إلى الفتوى بل يكون متوقّفاً و محترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً ، فإن سئل عمّا يعلمه تحقيقاً بنصّ كتاب الله تعالى أو بنصّ حديث أو إجماع ثابت أفتى ، و إن سئل عمّا يشكّ فيه قال : لا أدري ، و إن سئل عمّا يظنّه باجتهاد و تخمين احتاط ودفع عن نفسه و أحال على غيره إن كان في غيره غنية ، هذا هو الحزم لأنّ تقلّد خطر الاجتهاد عظيم وفي الخبر «العلم ثلاثة : كتاب ناطق ، و سنّة قائمة ، و لا أدري »[2] قال الشعبي : لا أدري نصف العلم . و من سكت حيث لا يدري لله سبحانه فليس أقلّ أجراً ممّن نطق لأنّ الاعتراف بالجهل أشدّ على النفس وهكذا كانت عادة الصحابة و السلف .

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : إنّ الّذي يفتي الناس في كلّ ما يستفتونه لمجنون[3] ؛ و قال : جنّة العالم لا أدري فإذا أخطأها اُصيبت مقاتله . و قال إبراهيم

---

(١) استتب الامر : استقام و اطرد و استمر .

(٢) رواه الخطيب في اسماء من روى عن مالك موقوفاً على ابن عمر و لابي داود و ابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً نحوه مع اختلاف . (المغني)

(٣) نقله ابن عبد البر في العلم كما في المختصر ص ١٢٥ .

ابن أدهم : ليس شيء أشدّ على الشيطان من عالم يتكلّم بعلم و يسكت بعلم ويقول انظروا إلى هذا سكوته أشدّ عليّ من كلامه ؛ و وصف بعضهم الأبدال فقال : أكلهم فاقة ، و كلامهم ضرورة . أي ما يتكلّمون حتّى يُسألوا وإذا سئلوا و وجدوا من يكفيهم سكتوا فإن اضطرّوا أجابوا ؛ وكانوا يعدّون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفيّة للكلام ؛ وقال بعضهم : كان أسرعهم إلى الفتوى أقلّهم علماً ، و أشدّهم دفعاً لها أورعهم ؛ و في الخبر إذا رأيتم الرجل قد اُوتي صمتاً و زهداً فاقتربوا منه فإنّه يلقّن الحكمة ؛ و قيل : العالم إمّا عالم عامّة و هو المفتي و هم أصحاب الأساطين ، أو عالم خاصّة و هو العالم بالتوحيد و أعمال القلوب و هم أرباب الزوايا المتفرّدون ؛ و قيل : المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام ؛ و قال بعضهم : إذا كثر العلم قلّ الكلام ؛ و كتب سلمان إلى أبي الدرداء بلغني أنّك قعدت طبيباً تداوي المرضى فانظر فإن كنت طبيباً فتكلّم فإنّ كلامك شفاء وإن كنت متطبّباً فالله الله لاتقتل مسلماً ، فكان أبو الدرداء يتوقّف بعد ذلك إذا سئل » .

أقول : و ممّا ورد في هذا الباب من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي «عن الباقر عليه السلام أنّه سئل ما حقّ الله على العباد قال : أن يقولوا ما يعلمون و يقفوا عند ما لا يعلمون » [1] .

و عن الصادق عليه السلام : « إذا سئل الرجل منكم عمّا لا يعلم فليقل : لا أدري ، و لا يقل : الله أعلم فيوقع في قلب صاحبه شكّاً ، و إذا قال المسؤل : لا أدري فلايتّهمه السائل »[2] .

و في مصباح الشريعة [3] « عنه عليه السلام أنّه قال : لا تحلّ الفتيا لمن لا يستفتي من الله عزّ و جلّ بصفاء سرّه ، و إخلاص عمله و علانيته ، و برهان من ربّه في كلّ حال لأنّ من أفتى فقد حكم و الحكم لايصحّ إلّا بإذن من الله و برهانه ، و من حكم بالخبر بلا معاينة فهو جاهل مأخوذ بجهله مأثوم بحكمه ، قال النبيّ صلّى الله عليه و آله : «أجرؤكم على الفتيا

(١) المجلد الاول ص ٤٣ تحت رقم : ٧ .
(٢) المجلد الاول ص ٤٢ تحت رقم : ٦ .
(٣) باب ٦٣ . ص ٤١ .

أجرؤكم على الله عزّ وجلّ ، أولا يعلم المفتي أنّه هو الّذي يدخل بين الله تعالى و بين عباده وهو الجائز [١] بين الجنّة والنّار».

و قال سفيان بن عيينة : كيف ينتفع بعلمي غيري و أنا قد حرمت نفسي نفعها ، ولا تحلّ الفتيا في الحلال و الحرام بين الخلق إلّا لمن كان أتبع الخلق من أهل زمانه و ناحيته و بلده بالنبيّ صلّى الله عليه وآله [و عرف ما يصلح من فتياه] قال النبيّ صلّى الله عليه وآله ، و ذلك لربّما و لعلّ و عسى لأنّ الفتيا عظيمة ، قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام لقاض : هل تعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : فهل أشرفت على مراد الله عزّ و جلّ في أمثال القرآن ؟ قال : لا ، قال : إذاً هلّكت و أهلكت » [٢] و المفتي يحتاج إلى معرفة معاني القرآن وحقائق السنن و بواطن الإشارات [٣] و الآداب و الإجماع و الاختلاف و الاطّلاع على اُصول ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه ، ثمّ حسن الاختيار ، ثمّ العمل الصالح ، ثمّ الحكمة ، ثمّ التقوى ، ثمّ حينئذٍ إن قدر».

« **ومنها** [٤] أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب و معرفة طريق الآخرة و سلوكها و صدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة و المراقبة فإنّ المجاهدة تفضي إلى المشاهدة في دقائق علم القلوب و تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب أمّا الكتب و التعلّم فلا تفي بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعدّ ، إنّما تنفتح بالمجاهدة و المراقبة و مباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة ، و الجلوس مع الله سبحانه في الخلوة مع حضور القلب بصفاء الفكر و الانقطاع إلى الله عزّ و جلّ عمّا سواه ، فتلك مفاتيح الإلهام ومنبع الكشف فكم من متعلّم طال تعلّمه و لم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة و كم من مقتصر على المهمّ في التعلّم و متوفّر على العمل و مراقبة القلب فتح الله عزّ و جلّ له من لطائف الحكم ما يحار فيه عقول ذوي الألباب و لذلك قال صلّى الله عليه وآله : « من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم [٥] » وفي بعض الكتب السالفة : « يا بني إسرائيل

(١) فى بعض النسخ [الحائر] .

(٢) بتشديد اللام فى «هلكت» يقال لمن ارتكب أمراً عظيماً : « هلكت وأهلكت » (البستان) .　(٣) فى بعض النسخ [مواطن الاشارات].

(٤) من كلام أبي حامد .　(٥) أخرجه ابو نعيم فى الحلية من حديث أنس (المغنى) .

لا تقولوا : العلم في السماء من ينزل به و لا في تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به ، العلم مجعول في قلوبكم تأدّبوا بين يديّ بآداب الروحانيّين و تخلّقوا إليّ بأخلاق الصدّيقين ، أظهر العلم من قلوبكم حتّى يغطّيكم و يغمركم ».

و قال سهل التستري : خرج العلماء والزهّاد والعبّاد من الدنيا وقلوبهم مقفّلة ولم يفتح إلّا قلوب الصدّيقين و الشهداء ثمّ تلا « و عنده مفاتح الغيب » و لولا أنّ إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك[1] » وقال صلى الله عليه وآله فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ : « لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى اُحبّه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ـ الحديث ـ »[2] فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجرّد للذكر ، و الفكر يخلو عنها كتب التفاسير ولا يطّلع عليها أفاضل المفسّرين و إذا انكشف ذلك للمراقب و عرض على المفسّرين استحسنوه و علموا أنّ ذلك من تنبيهات القلوب الزكيّة و ألطاف الله تعالى بالهمم المتوجّهة إليه ، و كذلك في علوم المكاشفة و أسرار علوم المعاملة و دقائق خواطر القلوب فإنّ كلّ علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه ، و إنّما يخوضه كلّ طالب بقدر مارزق و بحسب ما وفّق له من حسن العمل و في وصف هؤلاء العلماء قال عليّ عليه السلام في حديث طويل : « القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير ، و الناس ثلاثة : عالم ربّانيّ ، و متعلّم على سبيل نجاة ، و همج رعاع ، أتباع كلّ ناعق ، يميلون مع كلّ ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم و لم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك و أنت تحرس المال ، و العلم يزكو على الإنفاق ، و المال تنقصه النفقة ، محبّة العالم دين يدان به ، تكتسب به الطاعة في حياته ، وجميل الاُحدوثة بعد وفاته ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، و منفعة المال تزول بزواله ، مات خزّان الأموال و هم أحياء و العلماء باقون ما بقي الدهر ، ثمّ تنفّس الصعداء فقال : هاه إنّ ههنا علماً جمّاً ، لو وجدت له حملة بل أجد طالباً إمّا لقناً غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا

(١) قد مر سابقاً .

(٢) تمام الحديث فى الكافى ج ٢ ص ٣٥٢ مع شرحه ونقله ابن الديبع الشيبانى فى تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٩٣ عن البخارى .

و يستطيل بنعم الله على أوليائه ، و يستظهر بحججه على خلقه ، أومنقاداً لأهل الحقّ ينزرع الشكّ في قلبه ، بأوّل عارض من شبهة ، لابصيرة له ، وليس من رعاة الدين في شيء ، ألا لاذا و لا ذاك فمنهوم باللّذة ، سلس القياد في طلب الشهوات أو مغرماً بجمع الأموال و الادّخار ، منقاداً لهواه ، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة ، اللّهمّ هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثمّ لاتخلو الأرض من قائم لله بحجّة إمّا ظاهر مكشوف ، و إمّا خائف مقهور ، لئلاّ تبطل حجج الله و بيّناته ، و كم وأين ؟! اُولئك الأقلّون عدداً الأعظمون قدراً أعيانهم مفقودة ، و أمثالهم في القلوب موجودة ، يحفظ الله تعالى بهم حججه ، حتّى يودعوها نظراءهم ، و يزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى ، اُولئك أولياء الله من خلقه ، و عمّاله في أرضه ، و الدعاة إلى دينه ، ثمّ بكى ؛ وقال : واشوقاه إلى رؤيتهم» .

فهذا الّذي ذكره أخيراً هو وصف علماء الآخرة و هو العلم الّذي يستفاد أكثره من العمل و المواظبة على المجاهدة » .

أقول : و أنا قد ذكرت هذا الحديث فيما مضى عند ذكر تفصيل علم الآخرة بأدنى تغيير في اللّفظ مع أخبار اُخر في وصف علماء الآخرة نافعة هنا .

«**ومنها** أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإنّ اليقين هو رأس المال من الدين ، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « اليقين الإيمان كلّه » [1] ولا بدّ من تعلّم علم اليقين أعني أوائله ، ثمّ ينفتح للقلب طريقه و لذلك قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « تعلّموا اليقين » [2] و معناه جالسوا الموقنين و اسمعوا منهم علم اليقين و واظبوا على الاقتداء بهم ليقوي يقينكم كما قوي يقينهم ، و قليل من اليقين خيرٌ من كثير من العمل ، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله لمّا قيل له رجل حسن اليقين كثير الذّنوب ، و رجل مجتهد في العبادة قليل اليقين ، فقال صلّى الله عليه وآله : «ما من

(١) قال العراقي : اخرجه البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود .

(٢) رواه ابن ابي الدنيا في اليقين كما قاله العراقي ايضاً وروى البرقي في المحاسن ص ٢٤٨ تحت رقم ٢٥٤ عن امير المؤمنين عليه السلام قال في خطبة له : «سلوا الله اليقين و ارغبوا اليه في العافية ».

آدمي إلّا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل و سجيّته اليقين لم تضرّه الذنوب لأنّه كلّما أذنب ذنباً تاب و استغفر و ندم فتكفر ذنوبه و يبقى له فضل يدخل به الجنّة »[1] و لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر و من أُوتي حظّه منهما لم يبال مافاته من صيام النهار و قيام اللّيل »[2] و في وصيّة لقمان لابنه « يا بنيّ لا يستطاع العمل إلّا باليقين ، و لا يعمل المرء إلّا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتّى ينقص يقينه » .

و قال يحيى بن معاذ : إنّ للتوحيد نوراً و للشرك ناراً ، و إنّ نور التوحيد أحرق لسيّئات الموحّدين من نار الشرك لحسنات المشركين . و أراد به اليقين و قدأشارالقرآن إلىذكر الموقنين في مواضع دلّ به علىأنّ اليقين هوالرابطة للخيرات والسعادات .

فإن قلت : فما معنى اليقين ؟ وما معنى قوّته و ضعفه ؟ فلابدّ من فهمه أوّلاً ثمّ الاشتغال بطلبه و تعلّمه ، فإنّ ما لايفهم صورته لايمكن طلبه ؟

فاعلم أنّ اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أمّا النظّاروالمتكلّمون فيعنون باليقين عدم الشكّ إذ ميل النفس إلىالتصديق بالشيء له أربع مقامات : الأوّل أن يعتدل التصديق و التكذيب و يعبّر عنه بالشكّ كما إذا سئلت عن شخص معيّن أنّ الله عزّ وجلّ يعاقبه أم لا ؟ و هو مجهول الحال عندك فإنّ نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات و نفي بل يستوي عندك إمكان الأمرين فيسمّى هذا شكّاً ، الثاني أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه و لكنّه إمكان لا يمنع ترجيح الأوّل كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح و التقوى أنّه بعينه لو مات على هذه الحالةهل يعاقب ؟ فإنّ نفسك تميل إلى أنّه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب و ذلك لظهور علامات الصلاح و مع هذا فإنّك تجوّز إخفاء أمر يوجب العقاب فيباطنه وسريرته فهذا

(١) قال العراقي : رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث انس باسناد مظلم .

(٢) روى الكليني في الكافي ج ٢ ص ٥١ تحت رقم ٢ في حديث « و ما قسم فيالناس شيء أقل من اليقين » و تحت رقم ٤ « فما اوتي الناس اقل من اليقين » و روى ابن عبدالبر في العلم من حديث معاذ ما أنزل الله شيئا اقل من اليقين » و لم أجد تمام الحديث في أصل .

التجويز مساوق لذلك الميل ولكنّه غير دافع رجحانه ، فهذه الحالة تسمّى ظنّاً ، الثالث أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال نقيضه ولو أخطر بالبال لنبت النفس عن قبوله (١) ولكن ليس ذلك عن معرفة محقّقة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمّل و الإصغاء إلى التشكيك و التجويز لاتّسعت نفسه للتجويز و هذا يسمّى اعتقاداً مقارناً لليقين و هو اعتقاد العوام في الشرعيّات كلّها إذ رسخت في نفوسهم بمجرّد السماع حتّى أنّ كلّ فرقة تثق بصحّة مذهبها و إصابة إمامها و متبوعها و لو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله ، الرابع المعرفة الحقيقيّة الحاصلة بطريق البرهان الّذي لا يشكّ فيه و لا يتصوّر التشكيك فيه (٢) ، فإذا امتنع وجود الشكّ و إمكانه تسمّى يقيناً عند هؤلاء و مثاله أنّه إذا قيل للعاقل : هل في الوجود شيء هو قديم فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأنّ القديم غير محسوس لا كالشمس و القمر فإنّه يصدّق بوجودهما بالحسّ و ليس العلم بوجود شيء قديم أوّليّاً ضروريّاً مثل العلم بأنّ الاثنين أكثر من الواحد بل مثل العلم بأنّ حدوث حادث بلا سبب محال ، فإنّ هذا أيضاً ضروريّ ، فحقّ غريزة العقل أن تتوقّف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال و البديهة ، ثمّ من الناس من يسمع ذلك و يصدّق بالسماع تصديقاً جزماً و يستمرّ عليه و ذلك هو الاعتقاد و هو حال جميع العوام ، و من الناس من يصدّق به بالبرهان و هو أن يقال له : إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلّها حادثة فإن كانت كلّها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب و ذلك محال و المؤدّي إلى المحال محال فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأنّ الأقسام ثلاثة و هي أن يكون الموجودات كلّها قديمة أو كلّها حادثة أو بعضها حادثاً و بعضها قديماً فإن كانت كلّها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت في الجملة قديم و إن كان الكلّ حادثاً فهو محال لأنّه يؤدّي إلى حدوث حادث بغير سبب فثبت القسم الثالث أو الأوّل و كلّ علم حصل على هذا الوجه يسمّى يقيناً سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحسّ

(١) نباعنه ينبو أي تجافى وتباعد .

(٢) في بعض النسخ [و لا يتصور التشكك فيه] .

أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر كالعلم بوجود مكّة أو بتجربة كالعلم بأنّ المطبوخ مسهل [1] أو بدليل كما ذكرناه ، فشرط إطلاق الاسم عندهم عدم الشكّ فكلّ علم لا يشكّ فيه يسمّى يقيناً عندهم و على هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشكّ .

الاصطلاح الثاني للفقهاء والمتصوّفة و أكثر العلماء - و هو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز و الشكّ بل إلى استيلائه و غلبته على القلب حتّى يقال : فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنّه لا يشكّ فيه و يقال : فلان قويّ اليقين في إتيان الرزق مع أنّه قد يجوّز أن لا يأتيه ، فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء و غلب ذلك على القلب واستولى حتّى صار هو المتحكّم و المتصرّف في النفس بالتحريض و المنع سمّي ذلك يقيناً ولاشكّ في أنّ الناس يشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشكّ فيه ولكن فيهم من لا يلتفت إليه و إلى الاستعداد له فكأنّه غير موقن به ، و فيهم من استولى ذلك على قلبه حتّى استغرق همّه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متّسعاً لغيره فيعبّر عن مثل هذه الحالة بقوّة اليقين ، و لذلك قال بعضهم : ما رأيت يقيناً لاشكّ فيه أشبه بشكّ لا يقين فيه من الموت . و على هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالقوّة والضعف ونحن أردنا بقولنا : «إنّ من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين» اليقين بالمعنيين جميعاً ، و هو نفي الشكّ ثمّ تسلّط اليقين على النفس حتّى يكون هو الغالب المتحكّم و هو المتصرّف فإذا فهمت هذا علمت المراد من قولنا إذا قلنا : إنّ اليقين ينقسم ثلاث انقسامات بالقوّة و الضعف ، و القلّة و الكثرة ، و الخفاء و الجلاء ، فأمّا بالقوّة و الضعف فعلى الاصطلاح الثاني و ذلك في الغلبة و الاستيلاء على القلب ، و درجات اليقين في القوّة و الضعف لا تتناهى ، و تفاوت الخلق في استعدادهم للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني ، و أمّا التفاوت بالخفاء و الجلاء فلا ينكر أيضاً أمّا فيما يتطرّق إليه التجويز فلا ينكر - أعني الاصطلاح الثاني - و فيما انتفى الشكّ عنه أيضاً لا سبيل إلى إنكاره فإنّك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكّة و وجود فدك مثلاً و بين تصديقك بوجود موسى و وجود يوشع عليهما السلام مع أنّك

---

(١) فيه سقط وفى الاحياء « بان السقمونيا المطبوخ مسهل » .

لا تشكّ في الأمرين جميعاً إذ مستند هما التواتر ولكن ترى أحدهما أجلى و أوضح في قلبك من الثاني لأنّ السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين و كذلك يدرك الناظر هذا في النظريّات المعلومة بالأدلّة فإنّه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح بأدلّة كثيرة مع تساويهما في نفي الشكّ و هذا قد ينكره المتكلّم الّذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدرك من تفاوت الأحوال ، و أمّا القلّة والكثرة فذلك بكثرة متعلّقات اليقين كما يقال : فلان أكثر علماً أي معلوماته أكثر ، و كذلك قد يكون العالم قويّ اليقين في جميع ما ورد به الشرع و قد يكون قويّ اليقين في بعضه .

فإن قلت : فقد فهمت اليقين و قوّته وضعفه ، و كثرته و قلّته ، و جلاءه و خفاءه بمعنى نفي الشكّ و بمعنى الاستيلاء على القلب فما متعلّقات اليقين و مجاريه ؟ و فيما ذا يطلب اليقين ؟ فإنّي ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه .

فاعلم أنّ جميع ما ورد به الأنبياء عليهم السلام من أوّله إلى آخره هو من مجاري اليقين فإنّ اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة و متعلّقة المعلومات الوارد في الشرائع فلا مطمع في إحصائها ولكنّي أُشير إلى بعض اُمّهاتها فمن ذلك التوحيد و هو أن يرى الأشياء كلّها من مسبّب الأسباب و لا يلتفت إلى الوسائط ، بل يرى الوسائط مسخّرة لا حكم لها فالمصدّق بهذا موقن فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشكّ فهو موقن بأحد المعنيين فإن غلب على قلبه غلبة بحيث أزال منه الغضب على الوسائط و الرضا عنهم و الشكر لهم ونزّل الوسائط في قلبه بمنزلة القلم و اليد في حقّ المنعم بالتوقيع فإنّه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين و واسطتين فقد صار موقناً بالمعنى الثاني وهو الأشرف و هو ثمرة اليقين الأوّل و روحه و فائدته ، و مهما تحقّق أنّ الشمس و القمر و النجوم و الجماد و النبات و الحيوان و كلّ مخلوق فهي مسخّرات بأمره حسب تسخّر القلم في يد الكاتب وأنّ القدرة الأزليّة هي المصدر للكلّ استولى عليه التوكّل و الرضا و التسليم و صار بريئاً من الغضب و الحقد و الحسد و سوء الخلق فهذا أحد أبواب اليقين ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه للرزق في قوله تعالى : « و ما من دابّة في الأرض إلّا

على الله رزقها »[1] و اليقين بأنّ ذلك يأتيه و أنّ ما قدّر له سيساق إليه ، و مهما غلب ذلك على قلبه كان مجملاً في الطلب ولم يشتدّ حرصه وشرهه و تأسّفه على ما يفوته ، وأثمر هذا اليقين أيضا جملة من الطاعات و الأخلاق الحميدة و من ذلك أن يغلب على قلبه أنّ من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره و هو اليقين بالثواب و العقاب حتّى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع و نسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك ، فكما يحرص على تحصيل الخبز طالب الشبع فيحفظ قليله و كثيره فكذلك يحرص على الطاعة قليلها و كثيرها و كما يجتنب قليل السمّ و كثيره فكذلك يجتنب قليل المعاصي و كثيرها و صغيرها و كبيرها ، و اليقين بالمعنى الأوّل قد يوجد لعموم المؤمنين ، أمّا بالمعنى الثاني فيختصّ به المقرّبون و ثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات و السكنات و الخطرات ، و المبالغة في التقوى و التحرّز عن السيّئات ، و كلّما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشدّ و التشمّر أبلغ ، و من ذلك اليقين بأنّ الله تعالى مطّلع عليك في كلّ حال و مشاهد لهواجس ضميرك و خفايا خواطرك و فكرك وهذا متيقّن عند كلّ مؤمن بالمعنى الأوّل و هو عدم الشكّ ، و أمّا بالمعنى الثاني وهو المقصود فهوعزيز جدّاً يختصّ به الصدّيقون و ثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدّباً في جميع أحواله و أعماله كالجالس بمشهد ملك عظيم ينظر إليه لا يزال مطرقاً متأدّباً متماسكاً محترزاً عن كلّ حركة تخالف هيئة الأدب و يكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة إذ يتحقّق أنّ الله تعالى مطّلع على سريرته كما يطّلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته في عمارة باطنه و تطهيره و تزيينه لعين الله الكالئة[2] أشدّ من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس ، و هذا المقام في اليقين يورث الحياء و الخوف و الانكسار و الذلّ و الاستكانة و الخضوع و جملة من الأخلاق المحمودة ، و هذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة ، فاليقين في كلّ باب من هذه الأبواب مثل الشجرة ، و هذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرّعة منها و هذه الأعمال و الطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار و الأنوار المتفرّعة من الأغصان ،

---

(١) هود : ٦ . (٢) اى الحافظة الحارسة .

فاليقين هو الأساس و الأصل وله مجاري و أبواب أكثر ممّا عدّدناه و سيأتي ذلك في ربع المنجيات و هذا القدر كاف في تفهيم معنى اللّفظ الآن .

ومنها أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته و كسوته و سيرته و حركته و سكونه و نطقه و سكوته ، لا ينظر إليه ناظر إلّا و كان نظره مذكّراً لله تعالى و كان صورته دليلاً على علمه « فالجواد عينه فراره » [1] ، فعلماء الآخرة يعرفون بسيما هم في السكينة والذلّة و التواضع و قد قيل : ما ألبس الله عبداً لبسة أحسن من خشوع في سكينة ، فهي لبسة الأنبياء صلوات الله عليهم و سيماء الصدّيقين و العلماء ، فأمّا التهافت في الكلام و التشدّق والاستغراق في الضحك و الحدّة في الحركة و النطق فكلّ ذلك من آثار البطر و الأمن و الغفلة عن عظيم عقاب الله سبحانه وشديد سخطه و كلّ ذلك دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله عزّ وجلّ دون العلماء به و هذا لأنّ العلماء ثلاثة كما قاله سهل التستري : عالم بأمر الله لا بأيّام الله و هم المفتون بالحلال و الحرام و هذا العلم لا يورث خشية ، و عالم بالله لا بأمر الله ولا بأيّام الله و هم عموم المؤمنين ، و عالم بالله و بأمر الله و بأيّام الله و هم الصدّيقون . و الخشية و الخشوع إنّما يغلب عليهم و أراد بأيّام الله أنواع عقوباته الغامضة و نقمه الباطنة الّتي أفاضها على القرون السالفة واللّاحقة ، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه» .

أقول روى في الكافي بإسناده عن أبي بصير [2] « قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : يا طالب العلم إنّ العلم ذو فضائل كثيرة فرأسه التواضع ، و عينه البراءة من الحسد ، و اُذنه الفهم ، و لسانه الصدق ، و حفظه الفحص ، و قلبه حسن النيّة ، و عقله معرفة الأشياء و الاُمور ، و يده الرحمة ، و رجله زيارة العلماء و همّته السلامة ، وحكمته الورع ، ومستقرّه النجاة ، و قائده العافية ، و مركبه الوفاء ،

(١) قال الجوهري : الفرير ولد البقرة الوحشية ، وكذلك الفرار - بضم الفاء . و يقال : « ان الجواد عينه فراره » و قد يفتح ، أي يغنيك شخصه و منظره عن أن تختبره و أن تفر اسنانه ، و قال أيضاً : فررت الفرس أفره - بالضم - فراً اذا نظرت الى اسنانه .

(٢) المجلد الاول ص ٤٨ تحت رقم ٢ .

و سلاحه لين الكلمة ، و سيفه الرضا ، و قوسه المداراة ، و جيشه محاورة العلماء ، و ماله الأدب ، و ذخيرته اجتناب الذنوب ، و زاده المعروف ، و مأواه الموادعة ، و دليله الهدى ، و رفيقه محبّة الأخيار ».

و بإسناده الصحيح عن معاوية بن وهب « قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : اطلبوا العلم ، و تزيّنوا معه بالحلم و الوقار ، و تواضعوا لمن تعلّمونه العلم ، و تواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبّارين فيذهب باطلكم بحقّكم » (١).

و بإسناده الصحيح « عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : إنّ من علامات الفقه الحلم و الصمت » (٢).

و بإسناده ، عن محمّد بن سنان رفعه قال : قال عيسى ابن مريم عليهما السلام : يا معشر الحواريّين لي إليكم حاجة اقضوها لي ، قالوا : قُضيت حاجتك يا روح الله فقام فقبّل أقدامهم فقالوا : كنّا نحن أحقّ بهذا يا روح الله ، فقال : إنّ أحقّ الناس للخدمة العالم إنّما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم ، ثمّ قال عيسى عليه السلام : بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر ، و كذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل » (٣).

وقال بعض علمائنا ـ رحمه الله ـ (٤): اعلم أنّ المتلبّس بالعلم منظور إليه ومتأسّى بفعله و قوله و هيئته ، فإذا حسن سمته ، و صلحت أحواله ، و تواضعت نفسه ، وأخلص لله تعالى علمه و عمله انتقلت أوصافه إلى غيره من الرعيّة ، و فشى الخير فيهم ، وانتظمت أحوالهم ، و متى لم يكن كذلك كان الناس دونه في المرتبة الّتي هو عليها فضلاً عن مساواته فكان مع فساد نفسه منشأً لفساد النوع و خلله و ناهيك بذلك ذنباً و طرداً عن الحقّ و بعداً ، و ياليته إذا هلك انقطع عمله و بطل وزره ، بل هو باق ما بقي من تأسّى به و استنّ بسنّته ، و قد قال بعض العارفين : إنّ عامّة الناس أبداً دون المتلبّس بالعلم

---

(١) المجلد الاول ص ٣٦ تحت رقم ١ .
(٢) المجلد الاول ص ٣٦ تحت رقم ٤ .
(٣) المجلد الاول ص ٣٧ تحت رقم ٦ .
(٤) يعنى به الشهيد ـ رحمه الله ـ قاله فى المنية ص ٢١ .

بمرتبة ، فإذا كان ورعاً تقيّاً صالحاً تلبّست العامّة بالمباحات و إذا اشتغل بالمباح تلبّست العامّة بالشبهات ، فإذا دخل في الشبهات تعلّق العاميّ بالحرام ، فإن تناول الحرام كفر العاميّ . و كفى شاهداً على صدق هذه العيان و عدول الوجدان فضلاً عن نقل الأعيان .

قال أبو حامد : « وروي أنّه قيل : يارسول الله أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله تعالى ، قيل : فأيّ الأصحاب خير ؟ قال صلّى الله عليه و آله : صاحب إن ذكرت الله أعانك وإن نسيته ذكّرك ، قيل : فأيّ الأصحاب شرّ ؟ قال صلّى الله عليه و آله : صاحب إن نسيت لم يذكّرك و إن ذكرت لم يعنك ، قيل : فأيّ الناس أعلم ؟ قال : أشدّهم لله خشية ، قالوا : فأخبرنا بخيارنا نجالسهم ؟ قال : الّذين إذا رؤوا ذكر الله عزّ وجلّ برؤيتهم و إذا ذكر الله اقشعرّ جلودهم ، قالوا : فأيّ الناس شرّ ؟ قال : اللّهمّ غفراً ، قالوا : أخبرنا يا رسول الله ، قال : العلماء إذا فسدوا » (١) .

و قال عليه السلام : « إنّ أكثر الناس يوم القيامة أماناً أكثرهم فكراً في الدنيا ، و أكثر النـاس ضحكاً في الآخرة أكثرهم بكاءً في الدنيا ، وأشدّ الناس فرحاً في الآخرة أطولهم حزناً في الدنيا » .

و قال عليّ عليه السلام في خطبته (٢) : « ذمّتي رهينة و أنا زعيم أن لا يهيج على التقوى زرع قوم ولا يظمأ على الهدى سنخ أصل ، و إنّ أجهل الناس من لا يعرف قدره ، و إنّ أبغض الخلق إلى الله عزّ و جلّ رجل قمش علماً أغار في أغباش الفتنة سمّاه أشباه الناس و أرذالهم عالماً ولم يغن (٣) في العلم يوماً سالماً ، بكّر فاستكثر ممّا قلّ منه خير ممّا كثر ، حتّى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل ، جلس للنّاس مفتياً لتخليص ما التبس على غيره و إن نزلت به إحدى المبهمات هيّأ لها حشو الرأي من رأيه ، فهو من قطع الشبهات في مثل غزل العنكبوت ، لا يدري أخطأ أم أصاب ، ركّاب جهالات ، خبّاط عشوات ، لا يعتذر ممّا لا يعلم فيسلم ، و لا يعضّ على العلم بضرس قاطع فيغنم ،

(١) ما عثرت على الرواية في أي أصل و كذا التي بعدها .
(٢) الخطبة السادسة عشر من النهج مع اختلاف غير يسير .
(٣) يأتي معنى الالفاظ آنفاً .

يذري الرواية ذرو الريح الهشيم ، تبكي منه الدماء و تستحلّ بقضائه الفروج الحرام ولا مليء و الله با صدار ما ورد عليه ولا هو أهلٌ لما فوّض إليه ، اُولئك الّذين حلّت عليهم المثلات و حقّت عليهم النياحة و البكاء أيّام الحياة » .

اقول : « و هذا الحديث ممّا رواه أصحابنا من طريق الخاصّة أيضاً على اختلاف في ألفاظه ؛ و ممّن رواه ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكلينيّ - رحمه الله - [۱] باسناده عن ابن محبوب رفعه « عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : إنّ من أبغض الخلق إلى الله تعالى لرجلين رجلٌ و كله الله تعالى إلى نفسه فهو حائر عن قصد السبيل ، مشغوف [۲] بكلام بدعة ، قد لهج بالصوم و الصلاة فهو فتنة لمن افتتن به ، ضالٌّ عن هدي [۳] من كان قبله ، مضلٌّ لمن اقتدى به في حياته و بعد موته ، حمّال خطايا غيره ، رهن بخطيئته ، ورجل قمش جهلاً في جهّال الناس ، عان بأغباش الفتنة [٤] ، قد سمّاه أشباه الناس عالماً ولم يغن [٥] فيه يوماً سالماً ، بكّر [٦] فاستكثر ما قلّ منه خير ممّا كثر حتّى إذا ارتوى من آجن و اكتنز من غير طائل [۷] ، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره و إن خالف قاضياً سبقه لم يأمن أن ينقض حكمه من يأتي بعده كفعله بمن كان قبله

(۱) الكافي المجلد الاول ص ٥٤ تحت رقم ٦ .

(۲) اى دخل حب كلام البدعة شغاف قلبه أى حجابه و قيل : سويداءه .

(۳) بفتح الهاء و سكون المهملة أى السيرة و الطريقة .

(٤) « عان » بالعين المهملة و النون من قولهم عنا فيهم اسيراً أى اقام فيهم على اسارة واحتبس وعناه غيره - بالتشديد - : حبسه والعاني الاسير ، اومن عنى - بالكسر - عناً تعب ، أو من عنى به فهو عان أى اهتم به واشتغل . و فى بعض النسخ بالغين المعجمة من غنى بالمكان - كرضى - أى أقام به ، اومن غنى - بالكسر - أيضاً بمعنى عاش . والغبش - بالتحريك - ظلمة آخر الليل .

(٥) اى لم يلبث فيه يوماً تاماً .

(٦) أى خرج للطلب بكرة و هى كناية عن شدة طلبه و اهتمامه فى كل يوم فى اول العمر الى جمع الشبهات و الاراء الباطلة .

(۷) الاجن : الماء المتغير المتعفن أى شرب و شبع منه . و قوله : « واكتنز » أى عدما جمعه كنزاً و هو غير طائل اى ما لا نفع فيه .

وإن نزلت به إحدى المبهمات المعضلات هيّألها حشواً من رأيه [١] ، ثمّ قطع به ، فهو من لبس الشبهات في مثل غزل العنكبوت لا يدري أصاب أم أخطأ ، لايحسب العلم في شيء ممّا أنكر ولا يرى أنّ وراء ما بلغ فيه مذهباً ، إن قاس شيئاً بشيء لم يكذّب نظره وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه [يكنّ الصواب] [٢] لكيلا يقال له : لا يعلم ثمّ جسر فقضى ، فهو مفتاح عشوات [٣] رُكّاب شبهات ، خبّاط جهالات [٤] ، لا يعتذر ممّا لا يعلم فيسلم ، و لا يعضّ في العلم بضرس قاطع فيغنم ، يذري الروايات ذرو الريح الهشيم [٥] ، تبكي منه المواريث ، و تصرخ منه الدّماء ، و يستحلّ بقضائه الفرج الحرام و يحرم بقضائه الفرج الحلال ، لا مليء بإصدار [٦] ما عليه ورد ولا هو أهل لما منه فرط من ادّعائه علم الحقّ » .

قال أبو حامد : « و قال عليّ عليه السلام أيضاً : « إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجّه القلوب » .

و قال بعض السلف : من ضحك ضحكة مجّ من العلم مجّة ، و قيل : إذا جمع المعلّم ثلاثاً تمّت النعمة بها على المتعلّم : الصبر ، و التواضع ، و حسن الخلق ، و إذا جمع المتعلّم ثلاثاً تمّت النعمة بها على المعلّم : العقل ، و الأدب ، و حسن الفهم .

و على الجملة فالأخلاق الّتي ورد بها القرآن لا ينفكّ عنها علماء الآخرة لأنّهم يتعلّمون القرآن للعمل لا للدّراسة . و قيل : خمس من الأخلاق هنّ من علامات علماء الآخرة مفهوم من خمس آيات : الخشية و الخشوع و التواضع و حسن الخلق و إيثار الآخرة على الدنيا و هو الزهد أمّا الخشية فمن قوله عزّ و جلّ : « إنّما يخشى

---

(١) اى كثيراً بلا فائدة .

(٢) ليست هذه الجملة فى أكثر نسخ الكافي ولكنها موجودة فى الوافى .

(٣) العشوة : الظلمة أى يفتح على الناس ظلمات الشبهات .

(٤) الخبط المشي على غير استواء .

(٥) اى كما أن الريح فى حمل الهشيم و تبديده لاتبالى بتمزيقه و اختلال نسقه كذلك هذا الجاهل يفعل بالروايات ماتفعل الريح بالهشيم والهشيم مايبس من النبت و تفتت .

(٦) المليء - بالهمزة - : الثقة والغني ، والاصدار : الارجاع .

الله من عباده العلماء » [١]، و أمّا الخشوع فمن قوله تعالى : « خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً » [٢]، و أمّا التواضع فمن قوله تعالى : « و اخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين » [٣]، و أمّا حسن الخلق فمن قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم » [٤] و أمّا الزّهدفمن قوله تعالى : « و قال الّذين أُتوا العلم ويلكم ثواب اللهخير لمن آمن » [٥] و لمّا تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » [٦] فقيل : «ما هذا الشرح يا رسولالله ؟ فقال : إنّ النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر و انفسح ، قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم التجافي عن دار الغرور، و الإنابة إلى دار الخلود ، و الاستعداد للموتقبل نزوله »[٧].

ومنها أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال و ما يفسدها و يشوّش القلوب و يهيّج الوساوس و يثير الشرّ ، فإنّ أصل الدين التوقّي من الشرّ ولذلك قيل :

عرفت الشرّ لا للشرّ لكن لتوقّيه * ومن لايعرف الشرّ من الناس يقع فيه

ولأنّ الأعمال الفعليّة قريبة وأقصاها المواظبة علىذكر الله تعالى بالقلب واللّسان و إنّما الشأن في معرفة ما يفسدها و يشوّشها و هذا ممّا تكثر شعبه و يطول تفريعه و كلّ ذلك ممّا يغلب مسيس الحاجة إليه و يعمّ البلوي به في سلوك طريق الآخرة وأمّا علماء الدنيا فإنّهم يتتبّعون غرائب التفريع فيالحكومات و الأقضية و يتعبون في وضع صور تنقضي الدّهور و لا تقع و إن وقعت فإنّما تقع لغيرهم لالهم ، و إذا وقعت كان في القائمين لها كثرة و يتركون ما يلازمهم و يتكرّر عليهم آناء اللّيل و النهار في خواطرهم و وساوسهم و أعمالهم ، و ما أبعد عن السعادة من باع مهمّ نفسه اللاّزم بمهمّ غيره النادر إيثاراً للقبول و التقرّب من الخلق على القرب من الله تعالى . و شرّهاً في أن يسمّيه البطّالون من أبناء الدنيا فاضلاً محقّقاً عالماً بالدقائق ، و جزاؤه من الله تعالى أنلاينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدّر عليه صفوه بنوائب الزمان ثمّ يرد يوم القيامة مفلساً

---

(١) فاطر : ٢٨ .
(٢) آل عمران : ١٩٩ .
(٣) الشعراء : ٢١٥ .
(٤) آل عمران : ١٥٩ .
(٥) القصص : ٨٠ .
(٦) الانعام : ١٢٥ .
(٧) الدر المنثور ج ٣ ص٤٤ .

متحسّراً على ما يشاهده من ربح العالمين [١] وفوز المقرّبين و ذلك هو الخسران المبين .

قيل لحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ : نراك تتكلّم بكلام لا نسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصّني به رسول الله ﷺ كان الناس يسألونه عن الخير و كنت أسأله عن الشرّ مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أنّ الخير لا يسبقني و قال مرّة : فعلمت أنّ من لا يعرف الشرّ لا يعرف الخير [٢] ؛ و في لفظ آخر : كان الناس يقولون : يا رسول الله ما لمن عمل كذا و كذا فيسألونه من فضائل الأعمال ، و كنت أقول : يا رسول الله ما يفسد كذا و كذا ، فلمّا رآني أسأل عن آفات الأعمال خصّني بهذا العلم .

و كان حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أيضاً قد خصّ بعلم المنافقين و اُفرد بمعرفة علم النفاق و أسبابه و دقائق الفتن وكان عمر و عثمان و غيرهما من الصحابة يسألونه عن الفتن العامّة و الخاصّة ، وكان يُسأل عن المنافقين فيخبر بأعداد من بقي منهم ولا يخبر بأسمائهم و كان عمر يسأله عن نفسه هل يعلم به شيئاً من النفاق و كان إذا دعي إلى جنازة نظر فإن حضر حذيفة صلّى عليها و إلّا ترك وكان يسمّى صاحب السرّ» [٣] .

أقول : وليتأمّل العاقل المنصف في نقل مثل هذه الأخبار عن المتسمّين بأهل السنّة و ليعتبر ، إنّ في ذلك لعبرة لاُولي الأبصار .

قال : « فالعناية بمقامات القلب وأحواله هو دأب علماء الآخرة لأنّ القلب هو الساعي إلى قرب الربّ عزّ وجلّ و قد صار هذا الفنّ غريباً مندرساً و إذا تعرّض العالم لشيء منه استغرب و استبعد و قيل : هذا تزويق المذكّرين فأين التحقيق و يرون التحقيق في دقائق المجادلات ولقد صدق القائل حيث يقول :

الطرق شتّى وطرق الحقّ مفردة * و السالكون طريق الحقّ أفراد .
لا يعرفون و لا يدرون مقصدهم * فهم على مهل يمشون قصّاد
و الخلق في غفلة عمّا يراد بهم * فجلّهم عن سبيل الحقّ رقّاد

وعلى الجملة لا يميل أكثر الخلق إلّا إلى الأسهل و الأوفق لطباعهم ، فإنّ

(١) في الاحياء « من ربح العاملين » .

(٢) أورده البخاري في الصحيح ج ٩ ص ٦٥ بلفظ آخر .

(٣) راجع مسند أحمد ج ٥ ص ٣٨٦ و ٣٨٨ و ٣٩٠ ، وصحيح مسلم ج ٨ ص ١٧٣ .

الحقّ مرّ، و الوقوف عليه صعب و إدراكه شديد، و طريقه مستوعر (١)، لاسيّما معرفة صفات القلب و تطهيره عن الأخلاق المذمومة فإنّ ذلك نزع للروح على الدوام، و صاحبه ينزل منزلة شارب الدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء، و ينزل منزلة من جعل مدّة العمر صومه فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت، و متى تكثر الرغبة في مثل هذا الطريق، و لذلك قيل: إنّه كان بالبصرة مائة و عشرون متكلّماً في الوعظ و التذكير ولم يكن من يتكلّم في علم اليقين و أحوال القلوب و صفات الباطن إلّا ستّة و كان يجلس إلى اُولئك الخلق الكثير الّذي لا يحصى و يجلس إلى هؤلاء عدد يسير قلّما يجاوز العشرة لأنّ النفيس العزيز لا يصلح إلّا لأهل الخصوص، و ما يبتذل للعموم فأمره قريب.

ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته و إدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف و الكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره و إنّما المقلّد صاحب الشرع صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما أمر به و قاله، وإنّما يقلّد الصحابة من حيث أنّ فعلهم يدلّ على سماعهم من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

أقول: و أمّا نحن معاشر الشيعة فلا نقلّد الصحابة كلّهم بل من وصّانا به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم منهم باتّباعه و إنّما هو أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين الّذين هم أحد الثقلين كيف و قد علمت أنّ في الصحابة منافقين؟ و أنّه كان يخفى نفاقهم على أنفسهم فضلاً عن غيرهم كما مرّ آنفاً، و إنّما نقلّد أهل البيت عليهم السلام لعصمتهم و أنّهم أخذوا علمهم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خلفاً عن سلف من غير اجتهاد من رأيهم ولا تقليد لغيره صلّى الله عليه وآله وسلّم.

قال أبو حامد: «ثمّ إذا قلّد صاحب الشرع صلّى الله عليه وآله وسلّم في تلقّي أقواله و أفعاله بالقبول فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره، فإنّ المقلّد إنّما يفعل ذلك الفعل لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فعله، و فعله صلّى الله عليه وآله وسلّم لا بدّ و أن يكون لسرّ فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال و الأقوال فإنّه إن اكتفى بحفظ ما يقال له كان وعاءً للعلم ولم يكن عالماً و لذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم، و كان لا يسمّى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطّلاع على الحكم و الأسرار، و من انكشف عن قلبه الغطاء

(١) اى المكان المخوف.

و استنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعاً مقلّداً فلا ينبغي أن يقلّد غيره ، و لذلك قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ : ما من أحد إلّا و يؤخذ من علمه ويترك إلّا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قد كان تعلّم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على اُبيّ بن كعب ثمّ خالفهما في الفقه و القراءة جميعاً ، و قال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قبلناه على الرأس والعين ، وما جاءنا عن الصحابة فنأخذ و نترك ، و ما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال ، و إذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضيّ فالاعتماد على الكتب و التصانيف أبعد بل الكتب و التصانيف محدثة ، لم يكن شيء منها في زمن الصحابة و الصدر التابعين و إنّما حدثت بعد سنة مائة و عشرين بعد الهجرة و بعد وفاة جميع الصحابة و جلّة التابعين بل كان الأوّلون يكرهون كتب الأحاديث و تصنيف الكتب لئلّا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبّر و التفكّر و التذكّر وقالوا : احفظوا كما كنّا نحفظ .

و كان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيفه الموطّأ و يقول : لا تبدع مالم يفعله الصحابة ، و قيل : أوّل كتاب صنّف في الاسلام كتاب ابن جريج في الآثار(١) و حروف التفسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عبّاس بمكّة ، ثمّ كتاب معمر بن راشد الصنعاني

(١) هذا مخالف لما نص عليه الاعلام لانهم ذكروا الجماعة من الصحابة مدونات حديثية ذكروا لسلمان الفارسي الصحابي كتاب حديث جاثليق الرومي الذى بعثه ملك الروم بعد النبى صلى الله عليه و آله . راجع فهرست الشيخ الطوسي . و ذكروا لابى ذر الغفارى كتاب الخطبة يشرح فيها الامور بعد النبى صلى الله عليه و آله . وذكروا لابى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه و آله كتاب السنن والاحكام و القضايا ولعلى بن أبى طالب امير المؤمنين عليه السلام كتاباً أملاه رسول الله (ص) و خطه على عليه السلام على صحيفة فيها كل حلال و حرام و ذكروا أيضاً له صحيفة فى الديات كان يعلقها بقراب سيفه و قد نقل البخارى منها و أيضاً كتاب الفرائض راجع رجال النجاشي ص ٥ و ص ٢٥٥ فى ترجمة محمد بن عذافر وصحيفة الرضا ص ١١٨ تحت رقم ١٣٥ و صحيح البخارى باب «كتابة العلم» الحديث الاول ج ١ ص ٣٨ و باب «اثم من تبرأ من مواليه» ج ٨ ص ١٩٢ ومسند احمد ج ١ ص ١٥١ . و قال ابن شهر آشوب اول من صنف فى الحديث امير المؤمنين على ابن أبى طالب عليه السلام و يؤيده ما جاء كثيراً فى روايات الفريقين الايماء اليه . راجع الكافى ج ٧ ص ٣٣٠ . و بصائر الدرجات الجزء الرابع الباب الاول .

باليمن جمع فيه سنناً مأثورة منثورة مبوّبة ثمّ كتاب الموطّأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثمّ جامع سفيان الثوريّ ، ثمّ في القرن الرابع حدثت مصنّفات الكلام ، و كثر الخوض في الجدال والخوض في إبطال المقالات ، ثمّ مال الناس إلى ذلك و إلى القصص و الوعظ بها ، فأخذ علم اليقين في الاندراس من ذلك الزمان ، فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب و التفتيش عن صفات النفس و مكائد الشيطان و أعرض عن ذلك جميع الناس إلّا الأقلّون فصار يسمّى المجادل المتكلّم عالماً و القاصّ المزخرف كلامه بالعبارات المسجّعة عالماً و هذا لأنّ العوام هم المستمعون إليهم فكان لا يتميّز لهم حقيقة العلم عن غيره و لم تكن سيرة الصحابة و علومهم ظاهرة عندهم حتّى كانوا يعرفون بذلك مباينة هؤلاء لهم فاستمرّ عليهم اسم العلماء ، و توارث اللّقب خلفاً عن سلف ، و أصبح علم الآخرة مطويّاً ، و غاب عنهم الفرق بين العلم و الكلام إلّا عن الخواصّ منهم حتّى كان إذا قيل لأحدهم : فلان أعلم أم فلان ؟ فكان يقال : فلان أكثر علماً وفلانٌ أكثر كلاماً ، فكان الخواصّ يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام ، هكذا ضعف الدين في قرون سالفة فكيف الظنّ بزمانك هذا و قد انتهى الأمر إلى أنّ مظهر الإنكار يستهدف للنسبة إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت .

ومنها أن يكون شديد التوقّي عن محدثات الأمور و إن اتّفق عليها الجمهور فلا يغرنّه إطباق الخلق على ما اُحدث بعد الصحابة و ليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة و سيرتهم وأعمالهم و ما كان فيه أكثر همّهم أكان في التدريس والتصنيف و المناظرة و القضاء و الولاية و تولّي الأوقاف والوصايا و مال الأيتام و مخالطة السلاطين و مجاملتهم في العشرة ؟ أو في الخوف و الحزن و التفكّر و المجاهدة و مراقبة الظاهر و الباطن و اجتناب دقيق الاسم و جليله و الحرص على إدراك خفايا شهوات النفس و مكائد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن .

وليعلم تحقيقاً أنّ أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحقّ أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم اُخذ الدين فلذلك قال عليٌّ عليه السلام : « خيرنا أتبعنا لهذا الدّين » لمّا قيل له خالفت فلاناً .

اقول : و ينبغي أن يبدّل لفظ الصحابة في كلامه بأهل البيت في الموضعين كما أشرنا إليه آنفاً وسيأتي تحقيقه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قال : « فلا ينبغي أن يكترث بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّ الناس رأوا رأياً فيما هم فيه لميل طباعهم إليه و لم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأنّ ذلك سبب الحرمان من الجنّة فادّعوا أنّه لا سبيل إلى الجنّة سواه .

و قد روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً و مسنداً أنّه قال : « إنّما هما إثنان الكلام و الهدى فأحسن الكلام كلام الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمّد صلى الله عليه وآله ، ألا و إيّاكم ومحدثات الاُمور ، فإنّ شرّ الاُمور محدثاتها و إنّ كلّ محدثة بدعة ، و كلّ بدعة ضلالة ، ألا لا يطولنّ عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم ، ألا كلّ ما هو آت قريب ، ألا إنّ البعيد ما ليس بآت» [1] .

و في خطبة النبيّ صلى الله عليه وآله « طوبى لمن شغله عيوبه عن عيوب الناس ، و أنفق من مال اكتسبه من غير معصية ، وخالط أهل الفقه و الحكمة ، وجانب أهل الذلّ والمعصية ؛ طوبى لمن ذلّ في نفسه ، و حسنت خليقته ، و صلحت سريرته ، و عزل عن الناس شرّه ؛ و طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله و أمسك الفضل من قوله ، و وسعته السنّة ولم يدعها إلى البدعة » [2] و كان ابن مسعود يقول : حسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير من العمل ؛ و قال : أنتم في زمان يكون خيركم فيه المتسارع في الاُمور ، و سيأتي بعدكم زمان يكون خيرهم المتثبّت المتوقّف لكثرة الشبهات . وقد صدق فمن لم يتثبّت في هذا الزّمان و وافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا هلك كما هلكوا . وقال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ : أعجب من هذا أنّ معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأنّ منكركم معروف زمان قد أتى ، و أنّكم لن تزالوا بخير ما عرفتم الحقّ ، و كان العالم فيكم غير مستخفّ به . و لقد صدق ـ رضي الله عنه ـ فإنّ أكثر معروفات هذه الأعصار

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٦ . و رواه الشيخ فى أماليه مسنداً عن ابى عبدالله، عن أبيه عن جابر بن عبدالله عن النبى صلى الله عليه وآله كما فى البحار ج٢ ص ٣٠١ وهكذا أخرجه أحمد فى المسند ج٣ ص٣١٠ و ٣١٩ و ٣٧١ .

(٢) راجع تحف العقول ص٣٠ ، والجامع الصغير باب الطاء ، والكافى ج٢ ص ١٤٤ .

منكرات في عصر الصحابة إذ من غرر المعروف في زماننا تزيين المساجد و تنجيدها و إنفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها و بسط الفرش الرفيعة فيها و قد كان يعدّ فرش البواري في المسجد بدعة ، و قيل : إنّه من محدثات الحجّاج ، فقد كان الأوّلون قلّما يجعلون بينهم و بين التراب حاجزاً و كذا الاشتغال بدقائق الجدل ، و المناظرة من أجلّ علوم هذا الزمان ، و يزعمون أنّه من أعظم القربات و قد كان ذلك من المنكرات ، و من ذلك التلحين في الأذان و القرآن ، و من ذلك التقشّف في النظافة و الوسوسة في الطهارة ، و تقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب مع التساهل في حلّ أكل الأطعمة و تحريمها إلى نظائر ذلك ، ولقد صدق ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ حيث قال : أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعاً للهوى . و قيل : تركوا العلم و أقبلوا على الغرائب ما أقلّ الفقه فيهم . و الله المستعان .

و قيل : لم يكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم و لم يكن العلماء يقولون : حلال ولا حرام ، بل يقولون : مكروهٌ و مستحبٌّ ، معناه أنّهم ينظرون في دقائق الكراهية والاستحباب ، فأمّا الحرام فكان تجنّبه ظاهراً . وقيل: لا تسألوهم اليوم عمّا أحدثوا فإنّهم قد أعدّوا له جواباً و لكن سلوهم عن السنّة فإنّهم لا يعرفونها ، و في الحديث المشهور « من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو ردٌّ » (١) و في حديث آخر « من غش اُمّتي فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين ، قيل : يا رسول الله و ما غشّ اُمّتك ؟ قال : أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها » (٢) . و قال صلّى الله عليه وآله : « إنّ لله ملكاً ينادي كلّ يوم : من خالف سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله لم تنله شفاعته » (٣) .

ومثال الجاني على الدين بإبداع ما يخالف السنّة بالنسبة إلى من يذنب ذنباً مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معيّنة و ذلك قد يغفر

(١) متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « في أمرنا » راجع الجامع الصغير باب الميم ، و مسند أحمد ج٦ ص ٢٧٠ .

(٢) قال العراقي : رواه الدار قطني في الافراد من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) ماعثرت على أصل له .

فأمّا قلب الدولة فلا ، و قال بعض العلماء : ما تكلّم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء و ما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلّف ، و قال آخر : الحقّ ثقيل من جاوزه ظلم ، و من قصر عنه عجز ، و من وقف عليه اكتفى . وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « عليكم بالنمط الأوسط الّذي يرجع إليه الغالي و يرتفع إليه التالي » (١) و قال ابن عبّاس - رضي الله عنه - إنّ الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها ، قال الله عزّ وجلّ : « و ذر الّذين اتّخذوا دينهم لعباً و لهواً » (٢) و قال تعالى : «أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً» (٣) فكلّما اُحدث بعد الصحابة ممّا جاوز قدر الضرورة و الحاجة فهو اللّعب و اللّهو . و قال بعض العارفين : إنّما انقطع الأبدال في أطراف الأرض و استتروا عن أعين الجمهور لأنّهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنّهم عندهم جهّال بالله تعالى و هم عند أنفسهم و عند الجاهلين علماء .

قال سهل التستري (٤) إنّ من أعظم المعاصي الجهل بالجهل و النظر إلى العامّة و استماع كلام أهل الغفلة و كلّ عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصغى إلى قوله بل ينبغي أن يتّهم في كلّ ما يقول لأنّ كلّ إنسان يخوض فيما أحبّه و يدفع ما لا يوافق محبوبه و لذلك قال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا و اتّبع هواه و كان أمره فرطاً » (٥) و العوام العصاة أسعد حالاً من الجهّال بطريق الدين المعتقدين أنّهم من العلماء لأنّ العاميّ العاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب وهذا الجاهل الظانّ أنّه عالم و أنّ ما هو مشتغل به من العلوم الّتي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الآخرة

---

(١) ما عثرت عليه الا فى النهاية الاثيرية هكذا قال فى حديث على « خير هذه الامة النمط الاوسط». و فى معناه روايات عن اهل البيت منها «كونوا النمرقة الوسطى اليكم يفيىء الغالى و بكم يلحق التالى» الكافى ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) الانعام : ٧٠ . (٣) الفاطر : ٨ .

(٤) هو أبو محمد سهل بن عبدالله التسترى من كبار الصوفية لقى ذا النون المصرى و سكن البصرة زماناً و عبادان مدة ، و لدسنة ٢٠٠ و توفى بالبصرة سنة ٢٨٣ أو ٢٧٣ . (الكنى و الالقاب للمحدث القمى) .

(٥) الكهف : ٢٨ .

و الدين فلا يتوب ولا يستغفر بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت ، و إذا غلب هذا على أكثر الناس إلّا من عصمه الله تعالى و انقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم للمحتاط العزلة و الانفراد عنهم كما سيأتي في كتاب العزلة إن شاء الله تعالى بيانه و لذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي : ما ظنّك بمن بقي لا يجد أحداً يذكر الله تعالى معه إلّا كان آثماً و كانت مذاكرته معصية و ذلك أنّه لا يجد أهله . و لقد صدق فإنّ مخالط الناس لا ينفكّ عن غيبة أو سماع غيبة أو عن سكوت على منكر ، و أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيده ولو تأمّل علم أنّ المستفيد إنّما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا و شبكة و وسيلة إلى الشرّ فيكون هو معيناً له و ردءاً و ظهيراً و مهيّئاً لأسبابه كالّذي يبيع سيفاً من قاطع طريق فالعلم كالسيف و صلاحه للخير كصلاح السيف للغزو و ذلك لا يرخّص في البيع ممّن يعلم بقرائن أحواله أنّه يريد به الاستعانة على قطع الطريق . فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة يجمع كلّ واحدة منها جملاً من أخلاق علماء السلف ، فكن أحد رجلين إمّا متّصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به ، وإيّاك أن تكون الثالث فتلبّس على نفسك بأن بدّ ات آلة الدنيا بالدين و سيرة البطّالين بسيرة العلماء الراسخين فتلحق بجهلك و إنكارك بزمرة الهالكين الآيسين ، نعوذ بالله من خدع الشيطان ، فبها هلك الجمهور ، فنسأل الله سبحانه أن يجعلنا ممّن لا تغرّه الحياة الدنيا و لا يغرّه بالله الغرور .

﴿ الباب السابع ﴾

(في العقل و شرفه و حقيقته وأقسامه)

بيان شرف العقل : إعلم أنّ هذا ممّا لا يحتاج إلى تكلّف في إظهاره لا سيّما و قد ظهر شرف العلم من قبل ، والعقل منبع العلم و مطلعه و أساسه و العلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والنور من الشمس ، والرؤية من العين ، و كيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا و الآخرة أو كيف يستراب فيه ، والبهيمة مع قصور تمييزها

تحتشم العقل حتّى أنّ أعظم البهائم بدناً و أشدّها ضراوة و أقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه بما خصّ به إدراك الحيل و لذلك قال النبيّ ﷺ : «الشيخ في قومه كالنبيّ في اُمّته»[1] وليس ذلك لكثرة ماله ولكبر شخصه ولا زيادة قوّته ، بل لزيادة تجربته الّتي هي ثمرة عقله و لذلك ترى الأكراد و الأتراك و أجلاف العرب و سائر الخلق مع قرب رتبتهم من البهائم توقّرون المشايخ بالطبع ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل النبيّ ﷺ فلمّا وقعت أعينهم عليه و اكتحلوا بغرّته الكريمة هابوه و تراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوّة و إن كان ذلك باطناً في نفسه بطون العقل ، و شرف العقل مدرك بالضرورة ، و إنّما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار و الآيات في ذكر شرفه و قد سمّاه الله تعالى نوراً في قوله عزّ و جلّ : « الله نور السموات و الأرض »[2] و سمّي العلم المستفاد منه روحاً و حياة . فقال عزّ و جلّ : « و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا »[3] و قال عزّ و جلّ : « أو من كان ميتاً فأحييناه »[4] و حيث ذكر النور و الظلمة أراد به العلم و الجهل[5] كقوله « يخرجهم من الظلمات إلى النور »[6] .

و قد قال النبيّ ﷺ : « يا أيّها الناس اعقلوا عن ربّكم وتواصوا بالعقل تعرفوا به ما اُمرتم به و نهيتم عنه ، و اعلموا أنّه مجدكم عند ربّكم ، و اعلموا أنّ العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر ، حقير الخطر ، دنيّ المنزلة ، رثّ الهيئة ، وأنّ الجاهل من عصى الله و إن كان جميل المنظر ، عظيم الخطر ، شريف المنزلة ، حسن الهيئة ، فصوحاً

(١) أخرجه الخليلي في مشيخته و ابن النجار عن أبي رافع كما في الجامع الصغير باب الشين ، و قال العراقي : أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر، وابومنصور الديلمي من حديث ابي رافع . (٢) النور : ٣٥ .
(٣) الشورى : ٥٢ .
(٤) الانعام : ١٢٢ .
(٥) تعميمه ليس بصحيح و فيه موارد من النقض منها قوله تعالى : «الحمد لله الذى خلق السموات و الارض وجعل الظلمات و النور » الانعام : ٢٠ .
(٦) البقرة : ٢٥٧ .

تطوقاً ، فالقرد والخنازير أعقل عندالله عزّوجلّ ممّن عصاه ، ولا تغترّوا بتعظيم أهل الدنيا إيّاكم فإنّكم من الخاسرين» [1] .

و قال ﷺ : « أوّل ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثمّ قال له : أدبر فأدبر ، ثمّ قال : وعزّتي وجلالي ، ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك ، بك آخذ ، وبك أعطي و بك اُثيب وبك اُعاقب » [2] .

فإن قلت : فهذا العقل إن كان عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام و إن كان جوهراً فكيف يكون جوهراً قائماً بنفسه لايتحيّز؟ فاعلم أنّ هذا من علم المكاشفة و لا يليق ذكره بعلم المعاملة و غرضنا علم المعاملة .

أقول : و قد شرحت هذا الحديث شرحاً بليغاً في كتابي المسمّى بعين اليقين المتضمّن لأنوار الحكم وأسرار الكلم الّذي صنّفته في علم المكاشفة .

قال : « و قال النبيّ ﷺ : « إنّ الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتمّ لرجل حسن خلقه حتّى يتمّ عقله فعند ذلك تمّ إيمانه و أطاع ربّه تعالى وعصى عدوّه إبليس » [3] .

و روى أبو سعيد الخدريّ ـ رضي الله عنه ـ : « أنّ النبيّ ﷺ قال : لكلّ شيء دعامة و دعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته [4] ، أما سمعتم قول الفجّار :

---

(١) أخرج شطراً منه الكراجكي في كنز الفوائد كما في البحار ج ١ ص ١٦٠ . و قال العراقي : أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل من حديث ابي هريرة و هو في مسند الحرث بن ابي اسامة عن داود .

(٢) رواه البرقي في المحاسن ص١٩٢ ، و الكليني في الكافي ج ١ ص ٢٦ تحت رقم ٢٦ ، و المفيد صدره في الاختصاص ص ٢٤٤، و قال العراقي أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث عائشة باسنادين ضعيفين .

(٣) قال العراقي : اخرجه داود بن المحبر في العقل من حديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده انتهى ، أقول : والى قوله : «ولايتم» رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص١٠٣ تحت رقم ١٨ .

(٤) أخرجه الكراجكي في كنز الفوائد كما في البحار ج١ ص ٩٦ .

« لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » (١) .

و عن البراء بن عازب « قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : جدّ الملائكة و اجتهدوا في طاعة الله بالعقل و جدّ المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله أوفرهم عقلاً » (٢) .

وعن ابن عبّاس - رضي الله عنه - « قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : لكلّ شيء آلة وعدّة و إنّ آلة المؤمن وعدّته العقل ، و لكلّ شيء مطيّة و مطيّة المرء العقل ، ولكلّ شيء دعامة و دعامة الدين العقل ، و لكلّ قوم غاية و غاية العبّاد العقل ، و لكلّ قوم راع وراعي العابدين العقل ، ولكلّ تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ، ولكلّ أهل بيت قيّم وقيّم بيوت الصدّيقين العقل ، و لكلّ خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل ، ولكلّ امرء عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصدّيقين الّذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل ، ولكلّ سفر فسطاط و فسطاط المؤمنين العقل » (٣) .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ أحبّ المؤمنين إلى الله تعالى من نصب نفسه في طاعة الله و نصح لعباده و كمل عقله ونصح نفسه فأبصر و عمل به أيّام حياته فأفلح وأنجح » (٤) .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « أتمّكم عقلاً أشدّكم لله تعالى خوفاً ، و أحسنكم فيما أمر به و نهى عنه نظراً و إن كان أقلّكم تطوّعاً » (٥) .

﴿ فصل ﴾

أقول : من طريق الخاصّة ما رواه ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكلينيّ - رحمه الله -

(١) الملك : ١٠ .

(٢) قال العراقي : أخرجه داود بن المحبر و رواه البغوى فى معجم الصحابة من ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذى رواه ابن المحبر .

(٣) أخرجه الكراجكى فى كنز الفوائد كما فى البحار ج١ ص ٩٥ .

(٤) رواه ابن المحبر من حديث ابن عمر كما فى المغنى .

(٥) أخرجه ابن المحبر من حديث أبى قتادة (المغنى) .

في الكافي باسناده [۱] «عن بعض أصحابنا رفعه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل ، و إقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ، ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتّى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول اُمّته ، وما يضمر النبيّ صلى الله عليه وآله في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين ، وما أدّى العبد فرائض الله حتّى عقل عنه ، و ما بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل والعقلاء هم اُولوا الألباب الّذين قال الله تعالى : «وما يذّكّر إلّا اُولوا الألباب» [۲] .

و باسناده «عن أصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام قال : هبط جبرئيل عليه السلام على آدم عليه السلام فقال : يا آدم إنّي اُمرت أن اُخيّرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين فقال له آدم : يا جبرئيل وما الثلاث ؟ فقال : العقل والحياء والدين فقال آدم : قد اخترت العقل ، فقال جبرئيل للحياء و الدّين : انصرفا و دعاه فقالا : يا جبرئيل إنّا اُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان ، قال : فشأنكما وعرج » [۳] .

و باسناده «عن سهل بن زياد رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : العقل غطاء ستير ، و الفضل جمال ظاهر ، فاستر خلل خلقك بفضلك ، و قاتل هواك بعقلك تسلم لك المودّة و تظهر لك المحبّة » [٤] .

و باسناده الصحيح «عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لمّا خلق الله العقل استنطقه ثمّ قال له : أقبل فأقبل ، ثمّ قال له : أدبر فأدبر ، ثمّ قال : و عزّتي و جلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك ولا أكملتك إلّا فيمن اُحبّ ، أما إنّي إيّاك آمر ، و إيّاك أنهي ، و إيّاك اُعاقب و إيّاك اُثيب » [٥] .

و باسناده «عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّما يداقّ الله العباد في

---

(۱) المجلد الاول ص۱۳ تحت رقم ۱۱ .

(۲) آل عمران : ۷ .

(۳) المجلد الاول ص۱۰ تحت رقم ۲ .

(٤) المجلد الاول ص۲۰ تحت رقم ۱۳ .

(٥) المجلد الاول ص۱۰ تحت رقم ۱ .

الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا » [١] .

و بإسناده « عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : حجّة الله على العباد النبيّ صلى الله عليه وآله و الحجّة فيما بين العباد و بين الله العقل » [٢] .

و بإسناده « عن أحمد بن محمّد مرسلاً قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : دعامة الإنسان العقل ، و العقل منه الفطنة و الفهم و الحفظ و العلم ، و بالعقل يكمل و هو دليله و مبصره و مفتاح أمره ، فإذا كان تأييد عقله عن النور كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً فهماً ، فعلم بذلك كيف ولم وحيث ، وعرف من نصحه و من غشّه ، فإذا عرف ذلك عرف مجراه و موصوله و مفصوله و أخلص الوحدانيّة لله و الإقرار بالطاعة ، فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات ، و وارداً على ما هو آت ، يعرف ما هو فيه و لأيّ شيء هو ههنا ومن أين يأتيه و إلى ما هو صاير ، و ذلك كلّه من تأييد العقل » [٣] .

و بإسناده « عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ليس بين الإيمان و الكفر إلّا قلّة العقل [٤] . قيل : و كيف ذلك يا ابن رسول الله ؟ قال : إنّ العبد يرفع رغبته [٥] إلى مخلوق فلو أخلص نيّته لله لأتاه الّذي يريد في أسرع من ذلك» .

و بإسناده [٦] « عن سماعة بن مهران قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام و عنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل و الجهل ، فقال أبو عبدالله عليه السلام : « اعرفوا العقل

(١) المجلد الاول ص ١١ تحت رقم ٧ والمداقة : المناقشة في الحساب .

(٢) المجلد الاول ص ٢٥ تحت رقم ٢٢ .

(٣) المجلد الاول ص ٢٥ تحت رقم ٢٣ .

(٤) يعني قليل العقل متوسط بين المؤمن والكافر ، ليس مؤمناً حقيقياً كاملا بما فيه من قصور العقل الموجب لبعده عنه تعالى في الجملة ولا كافراً حقيقياً محضاً لما فيه شيء من نور العقل الموجب لقربه في الجملة .

(٥) اى مرغوبه و مراده من حوائجه الى مخلوق لقلة عقله واعتقاده بأن الحصول لايكون الا بالرفع اليه فيعظمه ويذلل له و يتخذه رباً معطياً ولو كان عاقلا كامل العقل لعرف أن اخلاص النية لله والرفع اليه دون غيره سرعة الوصول الى المطلوب ، و الخبر في المجلد الاول من الكافي ص٢٨ تحت رقم٣٣ .

(٦) المجلد الاول ص٢٠ تحت رقم ١٤ .

و جنده والجهل وجنده تهتدوا ، قال سماعة : فقلت : جعلت فداك لا نعرف إلّا ماعرّفتنا ، فقال أبو عبد الله عليه السلام : إنّ الله عزّ وجلّ خلق العقل و هو أوّل خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له : أدبر فأدبر ، ثمّ قال له : أقبل فأقبل ، فقال الله تعالى: خلقتك خلقاً عظيماً و كرّمتك على جميع خلقي ، قال : ثمّ خلق الجهل من البحر الأُجاج ظلمانيّاً ، فقال له : أدبر فأدبر ، ثم قال له : أقبل فلم يقبل ، فقال له : استكبرت فلعنه ثمّ جعل للعقل خمسة و سبعين جنداً فلمّا رأي الجهل ما أكرم الله به العقل و ما أعطاه أضمر له العداوة فقال الجهل : يا ربّ هذا خلق مثلي خلقته و كرّمته و قوّيته وأناضدّه ولا قوّة لي به فأعطني من الجند مثل ما أعطيته ، فقال : نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك و جندك من رحمتي قال : قد رضيت فأعطاه خمسة و سبعين جنداً فكان ممّا أعطى العقل من الخمسة و سبعين الجند :

الخير هو وزير العقل و جعل ضدّه الشرّ و هو وزيرالجهل ، و الإيمان و ضدّه الكفر ؛ و التصديق وضدّه الجحود ؛ و الرجاء و ضدّه القنوط ؛ و العدل و ضدّه الجور ، و الرضا و ضدّه السخط ، و الشكر و ضدّه الكفران ؛ و الطمع و ضدّه اليأس ، والتوكّل و ضدّه الحرص ، و الرأفة و ضدّها القسوة ؛ و الرحمة و ضدّها الغضب ، و العلم و ضدّه الجهل ، و الفهم و ضدّه الحمق ، و العفّة و ضدّها التهتّك ؛ و الزهد و ضدّه الرغبة ، و الرفق و ضدّه الخرق ، و الرّهبة و ضدّها الجرأة ، و التواضع و ضدّه الكبر ، و التؤدة [١] و ضدّها التسرّع ، و الحلم و ضدّه السفه ، و الصمت و ضدّه الهذر ، و الاستسلام و ضدّه الاستكبار ، و التسليم و ضدّه الشكّ ، و الصبر و ضدّه الجزع ، والصفح وضدّه الانتقام ، و الغناء و ضدّه الفقر ، و التفكّر وضدّه السهو ، و الحفظ وضدّه النسيان ، و التعطّف و ضدّه القطيعة ، و القنوع و ضدّه الحرص ، و المؤاساة و ضدّها المنع ، و المودّة و ضدّها العداوة ، و الوفاء و ضدّها الغدر ، و الطاعة و ضدّها المعصية ، و الخضوع و ضدّها التطاول [٢] ، و السلامة و ضدّها البلاء ، و الحبّ و ضدّه البغض ،

(١) بضم التاء و فتح الهمزة و سكونها : الرزانة و التأنى أى عدم المبادرة الى الامور بلاتفكر فانها توجب الوقوع فى المهالك .

(٢) التطاول : التكبر و الترفع .

و الصدق و ضدّه الكذب، و الحقّ و ضدّه الباطل ، و الأمانة و ضدّها الخيانة ، والإخلاص وضدّه الشوب ، والشهامة و ضدّها البلادة ، و الفهم وضدّه الغباوة ، و المعرفة و ضدّها الإنكار ، و المداراة و ضدّها المكاشفة ، و سلامة الغيب و ضدّها المماكرة ، و الكتمان و ضدّه الإفشاء ، والصلاة وضدّها الاضاعة ؛ والصوم و ضدّه الافطار ، والجهاد و ضدّه النكول ؛ و الحجّ و ضده نبذ الميثاق، و صون الحديث و ضدّه النميمة ، و برّ الوالدين و ضدّه العقوق ، و الحقيقة و ضدّها الرياء ،و المعروف و ضدّه المنكر . و الستر و ضدّه التبرّج [١] ، و التقيّة و ضدّها الاذاعة ، و الانصاف و ضدّه الحميّة ، والتهيئة و ضدّها البغي [٢] ، و النظافة و ضدّها القذر ، و الحياء و ضدّه الجلع [٣] ، و القصد و ضدّه العدوان ، و الراحة و ضدّها التعب ، و السهولة و ضدّها الصعوبة ، و البركة و ضدّها المحق [٤] ، و العافية و ضدّها البلاء ، و القوام و ضدّه المكاثرة [٥] ؛ و الحكمة و ضدّها الهوى ؛ و الوقار و ضدّه الخفّة ، و السعادة و ضدّها الشقاوة ، و التوبة وضدّها الاصرار ، و الاستغفار و ضدّه الاغترار ، و المحافظة و ضدّها التهاون ، و الدعاء و ضدّه الاستنكاف ، و النشاط و ضدّه الكسل ، و الفرح و ضدّه الحزن ، و الألفة و ضدّها العصبيّة[٦] ، و السخاء وضدّه البخل .

ولا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلّا في نبيّ أو وصيّ نبيّ أو مؤمن

---

(١) التبرج : اظهار الزينة .

(٢) التهيئة : الموافقة والمصالحة بين الجماعة و امامهم .

(٣) الجلع ـ باسكان اللام ـ : قلة الحياء قال الجوهرى : قال الاصمعى : جلع ثوبه بمعنى خلعه . والاجلع الذى لاتنضم شفتاه على اسنانه انتهى ؛ وقال ابن فارس فى المقاييس: يقال للمرأه القليلة الحياء : جلعة ، كأنها كشفت قناع الحياء ، و يقال : جلع فم فلان اذا تقلصت شفته و ظهرت اسنانه .

(٤) المحق : النقص والمحو والابطال .

(٥) القوام ـ بفتح القاف ـ كسحاب ـ : العدل ومايعاش به ، والمكاثرة المغالبة فى الكثرة اى تحصل متاع الدنيا زائداً على قدر الحاجة للمباهات والمغالبة .

(٦) فى الكافى «الفرقة» موضع «العصبية» .

قد امتحن الله قلبه للايمان، و أمّا سائر ذلك من موالينا فإنّ أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتّى يستكمل و ينقي من جنود الجهل فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء، وإنّما يدرك ذلك بمعرفة العقل وجنوده ومجانبة الجهل و جنوده، وفّقنا الله و إيّاكم لطاعته ومرضاته».

و بإسناده[1] «عن الحسن بن الجهم قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: صديق كلّ امرء عقله و عدوّه جهله».

(بيان حقيقة العقل واقسامه)

اعلم أنّ الناس اختلفوا في حدّ العقل و أقسامه و حقيقته و ذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم، و الحقّ الكاشف للغطاء فيه أنّ العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدّة و ما يجري هذا المجرى، فلا ينبغي أن يُطلب لجميع أقسامه حدّ واحد بل يفرد كلّ قسم بالكشف عنه.

الاول الوصف الّذي به يفارق الإنسان سائر البهائم و هو الّذي به استعدّ لقبول العلوم النظريّة و تدبير الصناعات الخفيّة الفكريّة و هو الّذي أراده الحارث المحاسبيّ حيث قال في حدّ العقل: إنّه غريزة يتهيّأ بها إدراك العلوم النظريّة و تدبير الصناعات وكأنّه نور يُقذف في القلب، به يستعدّ لإدراك الأشياء، و لم ينصف من أنكر هذا وردّ العقل إلى مجرّد العلوم الضروريّة، فإنّ الغافل عن العلوم و النائم يسمّيان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة مع فقد العلوم وكما أنّ الحياة غريزة بها يتهيّأ الجسم للحركات الاختياريّة و الإدراكات الحسيّة فكذلك العقل غريزة بها يتهيّأ بعض الحيوانات للعلوم النظريّة و لو جاز أن يسوّى بين الإنسان و الحمار في الغريزة ويقال لا فرق بينهما إلّا أنّ الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الانسان علوماً و ليس يخلقها في الحمار و سائر البهائم لجاز أن يسوّى بين الجماد والحمار في الحياة و يقال: أيضاً: لا فرق إلّا أنّ الله تعالى يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة فانّه

(١) المجلد الاول ص ١١ تحت رقم ٤.

لو قدّر الحمار جماداً ميتاً لوجب القول بأنّ كلّ حركة تشاهد منه فالله تعالى قادرٌ على خلقها فيه على الترتيب المشاهد ، وكما وجب أن يقال : لم تكن مفارقته للجماد في الحركة إلّا لغريزة اختصّت به عبّر عنها بالحياة فكذلك مفارقة الانسان للبهيمة في إدراك العلوم النظريّة بغريزة يعبّر عنها بالعقل و ذلك كالمرآة الّتي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور و الألوان لصفة اختصّت بها و هي الصقالة وكذلك العين تفارق الجبهة في هيئات و صفات استعدّت بها للرؤية ، فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم نسبة العين إلى الرؤية و نسبة القرآن و الشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر ، فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة .

الثاني عبارة عن العلوم الّتي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميّز بجواز الجايزات و استحالة المستحيلات كالعلم بأنّ الاثنين أكثر من الواحد ، و أنّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين وهو الّذي عناه بعض المتكلّمين حيث قال في حدّ العقل : إنّه بعض العلوم الضروريّة بجواز الجايزات واستحالة المستحيلات .وهذا أيضاً صحيح في نفسه لأنّ هذه العلوم موجودة و تسميتها عقلاً ظاهر و إنّما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة و يقال : لا موجود إلّا هذه العلوم .

الثالث علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإنّ من حنكته التجارب و هذّبته المذاهب يقال : إنّه عاقل في العادة .و من لا يتّصف بذلك يقال : إنّه غبيٌّ غمرٌ جاهلٌ فهذا نوع آخر من العلوم يسمّى عقلاً .

الرابع أن ينتهي قوّة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور فيقمع الشهوة الداعية إلى اللّذّة العاجلة و يقهرها فإذا حصلت هذه القوّة سمّي صاحبها عاقلاً بحيث أنّ إقدامه و إحجامه[1] بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة و هذه أيضاً من خواصّ الانسان الّتي يتميّز بها عن سائر الحيوانات .

فالأوّل هو الأسّ و السنخ و المنبع ؛ و الثاني هو الفرع الأقرب إليه ، والثالث فرع الأوّل و الثاني إذ بقوّة الغريزة و العلوم الضروريّة يستفاد علوم التجارب ، والرابع

(١) حجمه عن الشيء منعه وأحجم عنه كف أو نكس هيبة .

هي الثمرة الأخيرة و هي الغاية القصوى ، فالأوّلان بالطبع و الأخيران بالاكتساب ولذلك قال علي عليه السلام :

رأيت العقل عقلين * فمطبوع و مسموع * و لا ينفع مسموع
إذا لم يك مطبوع * كما لاتنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

و الأوّل هوالمراد بقوله صلى الله عليه وآله : « ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل » (١)
و الأخيرهو المراد بقوله صلى الله عليه وآله : « إذا تقرّب الناس بأبواب البرّ فتقرّب أنت بعقلك» (٢)
و هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله لأبي الدرداء : « ازدد عقلاً تزددمن ربّك قرباً ، فقال : بأبي أنت و اُمّي وكيف لي بذلك ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله : اجتنب محارم الله و أدّ فرائض الله تكن عاقلاً ، و اعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة و تنل بها من ربّك القرب و العزّ» (٣) .

و عن سعيد بن المسيّب أنّه قال : « إنّ جماعة دخلوا على النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس ؟ فقال : العاقل ، فقالوا : فمن أعبد الناس ؟ قال صلى الله عليه وآله : العاقل ، فقالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال : العاقل ، قالوا : أليس العاقل من تمّت مروّته و ظهرت فصاحته وجادت كفّه وعظمت منزلته ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله : « و إنّ كلُّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربّك للمتّقين » و إنّ العاقل هو المتّقي و إن كان في الدنيا خسيساً دنيّاً » (٤) .

و قال صلى الله عليه وآله : « إنّما العاقل من آمن بالله و صدّق رسله وعمل بطاعته » .

---

(١) قال العراقى : أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة .

(٢) أخرجه أبونعيم فى الحلية من حديث على عليه السلام وتمامه «اذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها الى ربنا عزوجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب » و رواه أبو على سينا فى الرسالة المعراجية ص ١٥ و نقله المحقق الجليل السيد الداماد فى كتاب الصراط المستقيم بهذا اللفظ « يا على اذا عنى الناس أنفسهم فى تكثير العبادات والخيرات فانت عن نفسك فى ادراك المعقولات حتى تسبقهم » .

(٣) رواه داود بن المحبر فى العقل والحكيم الترمذى فى النوادر . (المغنى)

(٤) رواه والذى بعده أيضاً داود بن المحبر فى العقل كما فى المغنى .

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي [١] باسناده «عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت له : ما العقل ؟ قال عليه السلام : ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان ، قال : قلت : فالّذي كان في معاوية؟ فقال : تلك النكراء ، و تلك الشيطنة و هي شبيهة بالعقل و ليست بالعقل ».

و باسناده الصحيح [٢] «عن عبد الله بن سنان قال : ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء و الصلاة و قلت : هو رجل عاقل ، فقال أبو عبد الله عليه السلام : و أيّ عقل له و هو يطيع الشيطان ؟ فقلت له : و كيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله هذا الّذي يأتيه أيّ شيء هو فإنّه يقول لك : من عمل الشيطان » .

قال أبو حامد : « و يشبه أن يكون الاسم في أصل اللّغة لتلك الغريزة و كذا في الاستعمال و إنّما اُطلق على العلوم من حيث أنّها ثمرتها كما يعرف الشجر بثمرته فيقال : العلم هو الخشية ، والعالم من يخشى الله تعالى ، فإنّ الخشية ثمرة العلم فيكون كالمجاز لغير تلك الغريزة ولكن ليس الغرض البحث عن اللّغة و المقصود أنّ هذه الأقسام الأربعة موجودة و الاسم يطلق على جميعها ولا خلاف في وجود جميعها إلّا في القسم الأوّل و الصحيح وجوده بل هو الأصل و هذه العلوم كأنّها مضمّنة في تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر للوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود حتّى كان هذه العلوم ليست شيئاً وارداً عليها من خارج و كأنّها كانت مستكنّة فيها فظهرت ، و مثال ذلك الماء في الأرض فإنّه يظهر بحفر القناة ويجتمع و يتميّز بالحسّ لا بأن يساق إليه شيءٌ جديدٌ و كذلك الدّهن في اللّوز و ماء الورد في الورد و لذلك قال الله تعالى : « وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى » [٣] فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة فإنّهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة و الأشخاص و لذلك قال تعالى : « و لئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله » [٤]

(١) المجلد الاول ص ١١ تحت رقم ٣ .
(٢) المجلد الاول ص ١٢ تحت رقم ١٠ .
(٣) الاعراف : ١٧٢ .
(٤) الزخرف : ٨٧ .

معناه إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم و بواطنهم « فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» أي كلّ آدميّ فطر على الإيمان بالله تعالى بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه أعني أنّها كالمضمّنة فيها لقرب استعدادها للإدراك ، ثمّ لمّا كان الإيمان مركوزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى من أعرض فنسي و هم الكفّار و إلى من أجال خاطره فتذكّر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثمّ تذكّرها و لذلك قال تعالى : « لعلّهم يتذكّرون » [١] « و ليتذكّر اُولوا الألباب » [٢] « و اذكروا نعمة الله عليكم و ميثاقه الّذي واثقكم به » [٣] « و لقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر » [٤] و تسمية هذا تذكّراً ليس ببعيد و كأنّ التذكّر ضربان : أحدهما أن يذكّر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود ، و الآخر أن يكون عن صورة كانت مضمّنة فيه بالفطرة و هذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من مستروحه السماع والتقليد دون الكشف و العيان و لذلك تراه يتخبّط في مثل هذه الآيات و يتشعّب و يتعسّف في تأويل التذكّر و إقرار النفوس أنواعاً من التعسّفات و يتخايل إليه في الأخبار و الآيات ضروبٌ من المناقضات و ربّما يغلب ذلك عليه حتّى ينظر إليها بعين الاستحقار و يعتقد فيها التهافت و مثاله مثال الأعمى الّذي يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة في الدار فيقول : ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق و تردّ إلى مواضعها ؟ فيقال له : إنّها في مواضعها و إنّما الخلل في بصرك ، فكذلك خلل البصيرة يجري هذا المجرى و أعظم منه و أطمّ إذا النفس كالفارس و البدن كالفرس و عمى الفارس أشدّ من عمى الفرس و لمشابهة بصيرة الباطن بالبصر الظاهر قال الله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » [٥] وقال تعالى : « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض » [٦] و سمّي ضدّه عمى وقال تعالى : « فإنّها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب الّتي في الصدور» [٧] وقال تعالى :

(١) البقرة : ٢٢١ ، ابراهيم : ٢٥ ، القصص : ٤٣ ، ٤٦ ، ٥١ .
(٢) سورة (ص) : ٢٩ . (٣) المائدة : ٧ .
(٤) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .
(٥) النجم : ١١ . (٦) الانعام : ٧٥ .
(٧) الحج : ٤٦ .

« و من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ سبيلاً » (١) و هذه الأمور الّتي كشفت للأنبياء صلوات الله عليهم بعضها كان بالبصر و بعضها كان بالبصيرة و سمّي جميعها رؤية .

وبالجملة من لم يكن بصيرته الباطنة ثاقبة لم يعلّق به من الدّين إلّا قشوره وأمثلته دون لبابه وحقائقه .

فهذه أقسام ما يطلق عليه اسم العقل .

❊(بيان تفاوت الناس في العقل)❊

قد اختلف النّاس في معنى تفاوت العقل و لا معنى للاشتغال بنقل كلام من قلّ تحصيله بل الأولى المبادرة إلى التصريح بالحقّ ، و الحقّ الصّريح فيه أنّ التفاوت يتطرّق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني و هو العلم الضروريّ بجواز الجايزات و استحالة المستحيلات ، فإنّ من عرف أنّ الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الشخص الواحد في مكانين و كون الشيء الواحد قديماً حادثاً فكذلك سائر النظائر وكلّ من يدركه فإنّه يدركه إدراكاً محقّقاً من غير شكّ ، و أمّا الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرّق إليها ، أمّا القسم الرابع وهواستيلاء القوّة على قمع الشهوات فلايخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد و هذا التفاوت تارة يكون لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه فإنّ الشابّ قد يعجز عن ترك الزّنى فإذا كبر وتمّ عقله قدر عليه ، وشهوة الرياء و الرئاسة تزداد قوّة بالكبر لاضعفاً ، و قد يكون سببه التفاوت في العلم المعرّف لغائلة تلك الشهوة ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرّة و قد لايقدر من يساويه في العقل إذا لم يكن طبيباً و إن كان يعتقد في الجملة فيها مضرّة ولكن إذا كان علم الطبيب أتمّ كان خوفه أشدّ فيكون الخوف جنداً للعقل و عدّة في قمع الشهوة وكسرها ، و كذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من العاميّ لقوّة علمه بضرر المعاصي ، و أعني به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالسة و أصحاب الهذيان فإن كان

(١) الاسراء : ٧٢ .

التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل و إن كان من جهة العلم فقد سمّينا هذا الضرب من العلم عقلاً فإنّه يقوي غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه و قد يكون بمجرّد التفاوت في غريزة العقل فإنّها إذا قويت كان قمعها للشهوة لامحالة أشدّ؛ و أمّا القسم الثالث و هو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لاينكر فإنّهم يتفاوتون بكثرة الاصابة و بسرعة الإدراك و يكون السبب في ذلك إمّا تفاوت في الغريزة و إمّا تفاوت في الممارسة، أمّا الأوّل فهو الأصل أعني الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده فإنّه مثل نور يشرق على النفس و يطلع صبحه و مبادي إشراقه عند سنّ التمييز ثمّ لايزال ينمو و يزداد نموّاً خفي التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، و مثاله نور الصبح فإنّ أوائله تخفى خفاء يشقّ إدراكه، ثمّ يتدرّج إلى الزيادة إلى أن يتكامل بطلوع قرص الشمس، و تفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر، فالفرق يدرك بين الأعمش و بين الحادّ البصر، بل سنّة الله جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد حتّى أنّ غريزة الشهوة لا ترتكز في الصبيّ عند البلوغ دفعة و بغتة واحدة بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج و كذا جميع القوى و الصفات و من أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنّه منخلع عن ربقة العقل، و من ظنّ أنّ عقل النبيّ ﷺ مثل عقل آحاد السوادية و أجلاف البواديّ فهو أخسّ في نفسه من آحاد السوادية و كيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم هذه العلوم و لما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلّا بعد تعب طويل من المعلّم و إلى ذكيّ يفهم بأدنى رمز و إشارة و إلى كامل ينبعث من نفسه حقائق الأمور دون التعليم «يكاد زيتها يضيىء و لولم تمسسه نار [نور على نور]» و ذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتّضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تعلّم و سماع و يعبّر عن ذلك بالإلهام و عن مثله عبّر نبيّنا ﷺ حيث قال: «إنّ روح القدس نفث في روعي احبب ما أحببت فانّك مفارقه، و عش ما شئت فانّك ميّت، و اعمل ما شئت فانّك تلاقيه»[1] وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء عليهم السلام يخالف

(۱) أخرج الشيرازى فى الالقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى مسنده الاوسط والاصغر من حديث على عليه السلام. (المغنى) وفى بعض النسخ «فانك مجزى به».

الوحي الصريح الّذي هو سماع للصوت بحاسّة الاُذن و مشاهدة الملك بحاسّة البصر و لذلك أخبر عن هذا بالنفث في الروع ، و درجات الوحي كثيرة و الخوض فيها لايليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة ولا تظنّنّ أنّ معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لايبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحّة و يعلم الفاسق درجات العدالة و إن كان خالياً عنها فالعلم شيء و وجود المعلوم شيء آخر فما كلّ من عرف النبوّة و الولاية كان نبيّاً ولا كلّ من عرف الورع و التّقى و دقائقه كان تقيّاً ، وانقسام الناس إلى من يتنبّه من نفسه ويفهم وإلى من لايفهم إلّا بتنبيه و تعليم و إلى من لاينفعه التعليم أيضاً ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء و يقوي فينفجر بنفسه عيوناً و إلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات و إلى ما لاينفع فيه الحفر و هو اليابس و ذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل ؛ و يدلّ على تفاوت العقل من جهة النقل ما روي :

« أنّ ابن سلام سأل النبيّ ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأنّ الملائكة قالت : يا ربّنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ؟ قال : نعم العقل ، قالوا : و ما بلغ من قدره ؟ قال : هيهات لا يحاط بعلمه ، هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا : لا ، قال : فإنّي خلقت العقل أصنافاً شتّى كعدد الرّمل فمن الناس من اُعطي حبّة و منهم من اُعطي حبّتين و منهم الثلاث و الأربع و منهم من اُعطي فرقاً و منهم من اُعطي وسقاً و منهم أكثر من ذلك » [1] .

فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوّفة يذمّون العقل و المعقول ؟ فاعلم أنّ السبب في ذلك أنّ الناس نقلوا اسم العقل و المعقول إلى المجادلة و المناظرة بالمناقضات و الالزامات و هي صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرّروا عندهم أنّكم أخطأتم في

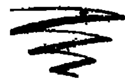
(١) الخبر مفصل أورد المجلسي ـ رحمه‌الله ـ في المجلد الرابع عشر من البحار (طبع الكمباني) ص ٣٤٦ نبذاً منه من كتاب ذكر الاقاليم والبلدان والجبال والانهار والاشجار ، وروى المفيد في الاختصاص ص٤٢ شطراً منه وقال العراقي : أخرجه ابن المحبر من حديث أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً .والفرق و الوسق : مكيال .

التسمية إذ كان ذلك لاينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة فذمّوا العقل و المعقول وهو المسمّى به عندهم ، فأمّا نور البصيرة الباطنة الّتي بها يعرف الله تعالى و يعرف صدق رسله فكيف يتصوّر ذمّه !؟ و قد أثنى الله عليه ، فإن ذمّ ذلك فما الّذي يحمد؟ فان كان المحمود هو الشرع فبم علم صحّة الشرع ؟ فان علم بالعقل المذموم الّذي لايوثق به فيكون الشرع أيضاً مذموماً ؟.

ولا يلتفت إلى قول من يقول : إنّه يدرك بعين اليقين و نور الايمان لا بالعقل فإنّا نريد بالعقل ما يريده هو بعين اليقين و نور الايمان و هي الصفة الباطنة الّتي يتميّز بها الآدميّ عن البهائم حتّى أدرك بها حقائق الاُمور .

و أكثر هذه التخبّطات إنّما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبّطوا تخبّط اصطلاحات الناس في الألفاظ . و هذا القدر كاف في بيان العقل و الله أعلم بالصواب .

هذا آخر كتاب العلم من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه كتاب قواعد العقائد ، و الحمد لله أوّلاً و آخراً وظاهراً وباطناً والصّلاة على خير خلقه محمّد وأهل بيته الطيبين الطاهرين .



﴿ كتاب قواعد العقائد ﴾

و هو الكتاب الثاني من ربع العبادات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المبدئ المعيد ، الفعّال لما يريد ، ذي العرش المجيد ، و البطش الشديد ، الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد ، المنعم عليهم بعد شهادة التّوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك و الترديد ، السائق لهم إلى اتّباع رسوله المصطفى و اقتفاء أئمّة الهدى من أهل بيته المعصومين بالتأييد و التسديد صلوات الله عليهم على الدوام و التأبيد .

أما بعد فأقول : لمّا سلك أبو حامد في هذا الكتاب الّذي هو أصل الإسلام ومحض الإيمان مسلك أهل الأهواء العاميّة ، و بنى أكثر كلامه على الاُصول الفاسدة الرديّة صرفنا عنان القلم عن متابعته في تقرير الكلام إلّا قليلاً ممّا أورده في صفة علم الكلام و وجه التدرّج إلى إرشاد الخواصّ و العوام ، فإنّه جعله على أربعة فصول : الأوّل في ترجمة عقيدة أهل السنّة في كلمتي الشهادة الّتي هي أحد مباني الإسلام ، الثاني في وجه التدرّج إلى الإرشاد و ترتيب درجات الإعتقاد ، الثالث في لوامع الأدلّة للعقيدة الّتي ترجمها و جعل هذا الفصل رسالة عليحدة سمّاها الرسالة القدسيّة لأنّه صنّفه لأهل القدس في المسجد الأقصى ، الرابع في الإيمان و الإسلام و ما بينهما من الاتّصال و الانفصال و ما يتطرّق إليه من الزيادة و النقصان و نحن رتّبناه على سبعة أبواب الأوّل في طريق التخلّص عن مضائق بدع أهل الأهواء بمتابعة الكتاب و السنّة و اقتفاء أئمّة الهدى صلوات الله عليهم وليس في هذا الباب من كلام أبي حامد شيء . والخمسة الأخرى في الأركان

الخمسة الّتي هي أُصول الدين بمذهب أهل البيت عليهم السلام وهي التوحيد و العدل والنبوّة و الإمامة و المعاد و هذه الخمسة تشتمل على ما ذكره في الفصل الأوّل و الثالث جامعة بين ترجمة العقيدة و لوامع الأدلّة لكن على منهاج أهل الحقّ المتمسّكين بحبل القرآن و سفينة أهل البيت عليهم السلام ، و السابع فيما ذكره في الفصل الثاني و زبدة ما قصده من الفصل الرابع مع تهذيب و تنوير و زيادة و نقصان و الله الموفّق و عليه التكلان .

﴿الباب الاول﴾

في طريق التخلّص عن مضايق بدع أهل الأهواء بمتابعة الكتاب والسنّة و اقتفاء الأئمّة الهدى صلوات الله عليهم .

قال بعض الفضلاء : اعلم أنّ العقل لن يهتدي إلّا بالشرع ، والشرع لن يتبيّن إلّا بالعقل ، و العقل كالأُسّ و الشرع كالبناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أُسّ ولن يغني أُسّ ما لم يكن بناء ، و أيضاً العقل كالبصر و الشرع كالشعاع ، و لن ينفع البصر ما لم يكن شعاع من خارج ، و لن يغني شعاع ما لم يكن بصر ، فلهذا قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين * يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه » [(١)] و أيضاً فالعقل كالسراج و الشرع كالزيت الّذي يمدّه فما لم يكن زيت لم يشعل السراج و ما لم يكن سراج لم يضيء الزيت و على هذا نبّه بقوله تعالى : « الله نور السموات و الأرض مثل نوره - إلى قوله - نور على نور » [(٢)] و أيضاً فالشرع عقل من خارج و العقل شرع من داخل ، وهما يتعاضدان بل يتّحدان ، و لكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو « صمّ بكم عمي فهم لايعقلون » [(٣)] و لكون العقل شرعاً من داخل قال تعالى في صفة العقل : « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » [(٤)] فسمّى العقل ديناً ، و لكونهما متّحدين قال : « نور على نور » أي نور

(١) المائدة : ١٥ و١٦ .
(٢) النور : ٣٥ .
(٣) البقرة : ١٧١
(٤) الروم : ٣٠ .

العقل و نور الشرع ، ثمّ قال : « يهدي الله لنوره من يشاء » فجعلهما نوراً واحداً فالعقل إذا فقد الشرع عجز عن أكثر الأمور كما عجز العين عند فقد النور .

و اعلم أنّ العقل بنفسه قليل الغنى لا يكاد يتوصّل إلّا إلى معرفة كلّيات الشيء دون جزئيّاته نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحقّ ، و قول الصدق ، و تعاطي الجميل ، و حسن استعمال المعدلة ، و ملازمة العفّة ، و نحو ذلك من غير أن يعرف ذلك في شيء شيء ، و الشرع يعرف كلّيات الشيء وجزئيّاته و يبيّن ما الّذي يجب أن يعتقد في شيء شيء ، وما الّذي هو معدلة في شيء شيء ، ولا يعرف العقل مثلاً أنّ لحم الخنزير والدّم و الخمر محرّمة ، و أنّه يجب أن يتحاشي من تناول الطعام في وقت معلوم ، و أن لاينكح ذوات المحارم ، و أن لا يجامع المرأة في حال الحيض ، فإنّ أشباه ذلك لا سبيل إليها إلّا بالشرع ، فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة و الأفعال المستقيمة و الدالّ على مصالح الدنيا و الآخرة من عدل عنه فقد ضلّ سواء السبيل ، و لأجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك قال تعالى : «و ما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً»(١) وقال : « ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا لو لا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ و نخزى » (٢) و إلى العقل و الشرع أشار بالفضل و الرحمة بقوله عزّ وجلّ : «ولولا فضل الله عليكم و رحمته لا اتّبعتم الشيطان إلّا قليلاً » (٣) و عنى بالقليل المصطفين الأخيار . انتهى كلامه . و يصدّقه ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام :

العقل عقلان * مطبوع و مسموع * ولاينفع مسموع
إذالم يك مطبوع * كمالاتنفع الشمس * ونورالعين ممنوع

و ليعلم أنّ أصحاب العقل قليل جدّاً كما قال الله عزّ وجلّ : « و لكنّ أكثرهم لا يعقلون » (٤) « ولكنّ أكثرهم لا يفقهون » (٥) « أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو

---

(١) الاسراء : ١٥ . (٢) طه : ١٣٤ . (٣) النساء : ٨٣ .

(٤) ليست هكذا فى المصحف وفى سورة المائدة : ١٠٣ « وأكثرهم لا يعقلون » وفى العنكبوت : ٦٣ « بل أكثرهم لا يعقلون ».

(٥) ليست فى المصحف و ينبغى أن يكون موضعها هذه الاية « بل كانوا لايفقهون الا قليلا » الفتح : ١٥ . ولعل ذلك من اشتباه النساخ .

يعقلون إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً »[1] و إنّ من لم يهتد لنور الشرع و لم يطابقه عقله فليس من ذوي العقول في شيء و إنّ العقل فضلٌ من الله و نور كما أنّ الشرع رحمة منه وهدى و « إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء »[2] و « يهدي الله لنوره من يشاء »[3] « و من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »[4] « و الله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل »[5] .

﴿ فصل ﴾

اعلم أنّ أعقل العقلاء نبيّنا صلّى الله عليه و آله و خير الشرائع شرعه ، و إنّما أرسله الله و أنزل معه الكتاب ليقوم الناس بالقسط فصدع بأمر الله وهدى الخلق إلى الصراط المستقيم ، وأرشدهم إلى معرفة صانعهم و يوم آخرهم ببيانات و براهين ناسبت عقولهم ، و نبّههم على أدلّة و حجج بلغت إليها أفهامهم ، و أكمل لهم أُمور دينهم ، و إنّما أتى كلّ طائفة من ذلك بما يصلح لعقله و فهمه من بيّنة و برهان و خطابة و جدال بالّتي هي أحسن و معجزة إلى غير ذلك و إنّما أتى مع كلّ دعوى بحجّة و برهان ليكونوا على بصيرة من أمرهم و « ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عن بيّنة » و لئلاّ يحتاج أُمّته إلى آثار السالفين فيما يهمّهم و يعنيهم من أمر الدّين ؛ فليس لقائل أن يقول : إنّ ثبوت الأنبياء عليهم السلام و الشرائع يتوقّف على ثبوت الصانع و صفاته الكماليّة فكيف يعرف الصانع و صفاته بالشرع ؟ و ذلك لأنّه لو لم يكن صاحب هذه الكلم و التبيانات مقبول القول و معصوم الفعال لكان فيها الحجّة من حيث مطابقتها لمقتضي العقول السليمة فإنّ براهينه هي المتّبعة ، و بيّناته و حججه هي الملزمة ، على أنّ ما يتوقّف عليه الشرع من معرفة الصانع و صفاته يجري مجرى الضروريّات الّتي يحكم بها كلّ من له أدنى مسكة كما سيأتي بيانه ، فثبت أنّ ما ورد في الشرع كاف في الاهتداء إلى طريق الحقّ مع ما جبل عليه أهل السلامة من العقل المطبوع فلا حاجة إلى تكلّفات المتكلّفين على اختلاف طبقاتهم

(١) الفرقان : ٤٤ . (٢) آل عمران : ٧٣ .
(٣) النور : ٣٥ . (٤) النور : ٤٠ .
(٥) الاحزاب : ٤ .

و تشعّب آرائهم وتناقض أهوائهم في إبداء الأدلّة و إنهاض الحجج على أمور الدّين فإنّهم جمعوا بين الجهل و سوء الأدب ، أمّا الجهل فلكونهم ما عرفوا موضع الدّلالة فيما نصبه الحقّ دليلاً ، و أمّا سوء الأدب فمعارضتهم له سبحانه بما دخلوا فيه ممّا يزعمونه دليلاً فجعلوا نظرهم في الدّين أتمّ في الدّلالة بما دلّ عليه الحقّ تعالى عن ذلك ، أفأنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه ؟ أم أنزل الله ديناً تامّاً فقصّر الرسول عن تبليغه و أدائه ، و الله سبحانه يقول : « ما فرّطنا في الكتاب من شيء » [1] و فيه تبيان كلّ شيء[2] ، قال أميرالمؤمنين عليه السلام : «إنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولاتكشف الظلمات إلّا به » [3] .

« فصل »

قال السيّد رضي الدّين عليّ بن طاووس ـ رحمه الله ـ في وصاياه لابنه[4]: اعرف يا ولدي أنّ المبتدي إذا قال له الأستاد : لاطريق لك إلى معرفة الله إلّا بنظرك في الجسم و الجوهر و العرض و حدوثها ، و إنّ حدوث الجسم لا يثبت إلّا بالحركة و السكون فإنّ المبتدي ما يفهم بفطرته زيادة هذه الأعراض على الأجسام إلّا بأن يتعب في إنفاق كثير من الأوقات في تصوّر حدّ الجسم وتصوّر العرض و تحقيق زيادتها على الأجسام و حفظ ما يتعلّق بذلك كلّه من معنى و كلام و ربّما وجدت الأستاد عاجزاً في حدود هذه المعاني غير أن يعبّر ألفاظها المعهودة المأخوذة حتّى يكاد أن يقلّد قائلها و ناقلها و يحتجّ بأنّها قول فلان و فلان و قولهم كالحجّة في معانيها ثمّ إذا فهم من إستاده زيادة الحركة على الأجسام فإنّه ما يكاد يفهم زيادة السكون على الجسم في ظاهر أوائل الأفهام ولا يدرك على التعجيل لزوم حدوث الجسم من حدوث الحركة والسكون

(١) الانعام : ٣٨ .

(٢) ان أراد به القرآن فالاية هكذا « و نزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » النحل : ٨٩ .

(٣) النهج خطبة : ١٨ . (٤) راجع كشف المحجة من تأليفه .

بل لا يزال غالب حاله يخبط خبط عشواء في أدلّتهم و معارضتها بشبهات احتمالات الأهواء حتّى يتمحّض اجتهاده عن رجحان ظنّ أو اعتقاد ضعيف و متى عرض له طعن قويّ أعاد ذلك الطعن إلى الاستدلال و التكشّف فتراه متردّداً في العقائد بين ساكن و عائد ، فإلى أن يموت لعلّه يجوّز حدوث القوادح وقد كان له قبل ذلك التعليم لسكونه إلى المعرفة بجملة اعتقاد قويّ زاجح و كان آمناً من تجدّد المطاعن و المعارضات و القوادح ، ثمّ قال : إنّني وجدت مثال شيوخ المعتزلة و مثال الأنبياء عليهم السلام مثل رجل أراد أن يعرّف غيره أنّ في الدنيا ناراً موجودة و ذلك الرجل الّذي يريد أن يعرف وجودها قد رأي النّار في داره و في البلاد ظاهرة كثيرة بين العباد ما يحتاج في معرفتها إلى نظر و اجتهاد ، فقال له : إنّك تحتاج في معرفتها إلى إحضار حجر النّار وهو في طريق مكّة لأنّه ليس كلّ حجر يكون في باطنه نار و تحتاج إلى مقدحة و إلى حراق و أن تكون في موضع سليم من شدّة الهواء لئلاّ يذهب بالحراق و يطفىء ما يخرج من الحجر من النّار ، فاحتاج هذا المسكين إلى تحصيل هذه الآلات من عدّة جهات و بعدّة توصّلات و لو كان قد قال له من مبدء الأمر : هذه النّار الظاهرة بين العباد هي النّار الكامنة في الحجر و الشجر كان قد عرف وجود النيران على العيان و الوجدان و استغنى عن ترتيب الدلالة و تحصيل البرهان ، و كلّ من عدل في التعريف عن الأمر المكشوف إلى الأمر الخفيّ اللّطيف فهو حقيق أن يقال له : قد أضلّ ولا يقال : قد هدى ولا قد أحسن فيما استدلّ ، قال : و كلّ عاقل يعلم فيما عاينه من زيادات الأجسام في الانسان و الشجر و كلّ ما يزداد عظماً و كبراً بين الأنام مثل النطفة الّتي يصير منها إنسان و مثل النواة الّتي سيكون منها نخلة عظيمة الشأن أنّ هذه الزيادات حادثات بالضرورة فكيف يعدل عن تعريف حدوثها بمثل هذا التحقيق إلى الحركة و السكون وهما عرضان غير مشاهدين و لايعرف حقائقهما و ما يلزم من حدوثهما إلاّ بنظر دقيق و قطع عقبات قليلة التوفيق - إلى أن قال - : فأشار الأنبياء صلوات الله عليهم و الكتب المنزلة عليهم إلى نحو هذه التنبيهات على هذه الدّلالات الظاهرة ، فعدلوا المعتزلة بالخلائق إلى غير تلك الطرائق ، و ضيّقوا عليهم سبيل الحقائق كما عدل من أراد تعريف حقيقة النّار المعلومة بالاضطرار

إلى استخراجها من الشجر و الحراق و الأحجار ، و هذا مثال يعرف أهل الإنصاف أنّه حقّ و صحيح و ما يحتاج إلى زيادة استكشاف و كان مثالهم مع المتعلّم منهم و مثاله معهم أيضاً كمثل إنسان كان بين يديه شمعة مضيئة إضاءة باهرة فأخذها استاده من بين يديه وأبعدها عنه مسافة بعيدة كثيرة الحوائل والموانع من النظر إلى تلك الشمعة الّتي كانت حاضرة و قال له : تجهّز للسفر بالزّاد و الرفقاء و العدّة والأدلّاء حتّى تصل إلى معرفة تلك الشمعة و تنظر حقيقة ما هي عليه من الضّياء فقبل ذلك الغرّ المتعرّف من ذلك الأستاد المتكلّف و سافر مدّة من الأوقات فتارة يرى جبالاً أو عقبات فلا يظهر له من حديث الشمعة كثير ولا قليل و تارة يرى ضوءاً فيقول : لعلّه ضوء تلك الشمعة و يستنجد بمساعدة الرفيق و الدّليل فان عجز من تمام المسافة و قطع الطريق بما يرى فيها من العقبات و التطويل و التضييق هلك المسكين و رجع خاسراً للدّنيا و الدّين .

فأوصيك يا ولدي و من بلغه كتابي هذا ممّن يعلّم المسترشدين إلى معرفة ربّ العالمين أن يقوّي ما عندهم في الفطرة الأوّليّة بالتنبيهات العقليّة و القرآنيّة و الهدايات الالهيّة و النبويّة و يقول للمسترشد : إنّما تحتاج إلى معرفة صفات هذا المؤثّر و الصانع و يثبت صفاته عنده بأسهل ما يريد منه مولاه جلّ جلاله من تكليفه بتدبير صاحب الشرائع السليم من القواطع ، ثمّ سلك به سبيل معرفة النبوّة و الامامة على قاعدة تعريف النبيّ والأئمّة عليهم السلام و من سلك سبيلهم من أهل الاستقامة فهذا كان كافياً لمن يريد تحصيل السلامة و السعادة يوم القيامة .

و أمّا حفظ الألفاظ الحادثة بين المتكلّمين و ما ذكروه من صفات المتجادلين فهو شغل من فرغ من فروض الله جلّ جلاله المتعيّنة المتضيّقة عليه و يريد أن يخدم الله جلّ جلاله خالصاً لوجهه بالردّ على أهل الضلال من الأمم الحائلة بين العباد وبين المعرفة و الوصول إليه و يكون حامل هذا العلم العريض العميق لازماً سبيل التوفيق و يناظر مخالفيه مناظرة الرحيم الشفيق حتّى يسلم من خطر الطريق و إلّا فهو هالك على التحقيق .

أقول : و تمام الكلام في مضرّة علم الكلام و منفعته و تحقيق الأمر فيه يأتي في الباب السابع إن شاء الله تعالى .

فصل

لمّا ثبت أنّ خيرهاد إلى الله سبحانه نبيّنا صلى الله عليه وآله فنقول : إنّه قد ثبت أنّه صلى الله عليه وآله إنّما ترك من بعده لخلافته الثقلين كتاب الله و عترته ، و ما أوصى اُمّته إلّا بالتمسّك بهما كما استفاض به الأخبار من طريقي العامّة و الخاصّة جميعاً على اختلاف في اللّفظ و اتّفاق في المعنى ففي رواية « إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي كتاب الله و عترتي أهل بيتي فانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض »[1] و معنى عدم افتراقهما أنّ علم الكتاب إنّما هو عند العترة فمن تمسّك بهم فقد تمسّك بهما و في رواية « ثمّ قال : اللّهمّ اشهد ثلاثاً » و في اُخرى « إنّي تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله و عترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض »[2] و في اُخرى « إنّي امرء مقبوض و أوشك أن اُدعى فاُجيب و قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أفضل من الآخر - الحديث »[3] و في اُخرى « أمرين أحدهما أطول من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض طرف بيدالله ، وعترتي - الحديث » ، وفي اُخرى «وهما الخليفتان من بعدي» وفي اُخرى «الأكبر منهما كتاب الله سبب طرف بيد الله و طرف بأيديكم فتمسّكوا به لا تزلّوا و لاتضلّوا ، و الأصغر منهما عترتي لاتقتلوهم و لاتقهروهم فإنّي سألت اللّطيف الخبير أن يردا عليّ الحوض فأعطاني فقاهرهما قاهري و خاذلهما خاذلي و وليّهما وليّي و عدوّهما عدوّي - الحديث -»[4] وفي رواية أنّه صلى الله عليه وآله قال في حجّة الوداع في مسجد الخيف : «إنّي فرطكم

---

(١) قدمر الحديث سابقاً عن مصادر عدة عامية وراجع عبقات الانوار حديث الثقلين يوقفك على مصادر الحديث بمختلف ألفاظه .

(٢) رواه الصدوق فى كمال الدين ص ١٣٦ .

(٣) رواه الصدوق فى كمال الدين ص ١٣٧ .

(٤) راجع بصائر الدرجات الجزء الثامن الباب السابع عشر أيضاً . وبحار الانوار ج ٧ من طبع الكمبانى ص ٢٢ الى ٣٤ .

و إنّكم واردون عليّ الحوض حوض عرضه مابين بُصرى و صنعاء[١] فيه قدحان[٢] من فضّة عدد النجوم ألا وإنّي سائلكم عن الثقلين قالوا : يا رسول الله و ما الثقلان ؟ قال : كتاب الله الثقل الأكبر طرف بيدالله وطرف بأيديكم فتمسّكوا به لن تضلّوا و لن تزلّوا و عترتي أهل بيتي فإنّه قد نبّأني اللّطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض كاصبعي هاتين ـ و جمع بين سبّابتيه ـ ولا أقول : كهاتين ـ وجمع بين سبّابته ـ و الوسطى فتفضل هذه على هذه[٣]» .

و سئل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى الحديث « من العترة ؟ قال : أنا والحسن و الحسين و الأئمّة التسعة من ولد الحسين تاسعهم مهديّهم وقائمهم لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم حتّى يردوا على رسول الله صلّى الله عليه وآله حوضه[٤]» .

وفي رواية «من جعلهما أمامه قاداه إلى الجنّة ، ومن جعلهما خلفه ساقاه إلى النار» .

و في الخبر المستفيض «أنّ مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلّف عنها غرق[٥]» .

و روى في الكافي بإسناده « عن مولينا الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : أنا أوّل وافد على العزيز الجبّار يوم القيامة و كتابه وأهل بيتي ، ثمّ اُمّتي ثمّ أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وأهل بيتي[٦]» .

---

(١) بصرى بالضم والقصر : في موضعين : احداهما بالشام ، وهي التي وصل اليها النبي صلى الله عليه وآله للتجارة . و هي المشهورة عند العرب : قال : هي قصبة كورة حوران ، والاخرى من قرى بغداد قرب عكبراء ذكرها ابن الحجاج في شعره مع اوانا . والصنعاء : وهي في موضعين احداهما باليمن ، وهي العظمى . والاخرى قرية بغوطة دمشق . فاما اليمانية فقيل : كان اسمها قديماً ازال ، فلما وافتها الحبشة ورأوها حصينة ، قالوا : صنعاء معناه حصينة ؛ فسميت صنعاء بذلك ، و هي قصبة اليمن و أحسن بلادها تشبه بدمشق لكثرة فواكهها فيما قيل . واما التي بدمشق فقد نسب اليها جماعة (مراصد الأطلاع) . (٢) كذا .

(٣) رواه علي بن ابراهيم في تفسيره ص٤ ، وفي البحار ج٧ ص٢٧ من الطبع الحجري .

(٤) رواه الصدوق في معاني الاخبار ص ٩٠ تحت رقم ٤ .

(٥) رواه الشيخ في اماليه كما في البحار ج٧ ص ٢٥ من الطبع الحجري .

(٦) المجلد الثاني ص ٦٠٠ .

و بإسناده ، عن مولينا الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله :
« أيـّها النـّاس إنـّكم في دار هدنة ، و أنتم على ظهر سفر ، والسير بكم سريع ، و قد رأيتم اللّيل و النهار و الشمس و القمر يبليان كلّ جديد ، و يقرّبان كلّ بعيد ، و يأتيان بكلّ موعود ، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز ، قال : فقام المقداد بن الأسود فقال : يارسول الله فما دار الهدنة [1] ؟ فقال : دار بلاغ و انقطاع ، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع اللّيل المظلم فعليكم بالقرآن فإنـّه شافعٌ مشفـّع ، و ماحلٌ مصدّق [2] من جعله أمامه قاده إلى الجنـّة ، و من جعله خلفه ساقه إلى النـّار ، و هو الدليل يدلّ على خير سبيل ، و هو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل ، و هو الفصل ليس بالهزل ، و له ظهر و بطن ، فظاهره حكم و باطنه علم ، ظاهره أنيق و باطنه عميق ، له تخوم و على تخومه تخوم [3] لا تحصى عجائبه ، ولاتبلى غرائبه ، فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة ، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة [4] ، فليجل جال بصره و ليبلغ الصفة نظره ، ينج من عطب و يتخلّص من نشب [5] ، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور ، فعليكم بحسن التخلّص وقلّة التربّص [6] » .

(۱) الهدنة : السكون والصلح والموادعة بين المسلمين والكفار و بين كل متحاربين .

(۲) « شافع مشفع » أى مقبول الشفاعة ، وقوله : « ماحل مصدق » يقال : محل به اذا سعى به الى السلطان و هو ماحل و محول وفى الدعاء «فلا تجعله ماحلا مصدقا » ولعله من هنا قيل في معناه ، يمحل بصاحبه أى يسعى به اذا لم يتبع ما فيه الى الله تعالى .

(۳) الانق : الفرح والسرور ، قدأنق ـ بالكسر ـ يأنق الشيء أعجبه وأنيق أى حسن معجب . وقوله : «له تخوم و على تخومه تخوم » التخوم على ماقيل ـ : جمع تخم بمعنى منتهى الشيء . و فى بعض النسخ الحديث « له نجوم و على نجومه نجوم » أى آيات تدل على هذه الايات و توضيحها ، أو المراد بالنجوم الثالث السنة فان السنة توضيح القرآن أو الائمة عليهم السلام العالمون بالقرآن .

(٤) أى لمن عرف كيفية التعرف واشارات القرآن و نكات بيانه ويعلم معاريضه ، وفى بعض النسخ الحديث « دليل على المغفرة » .

(٥) العطب : الهلاك . ونشب فى الشيء اذا وقع فى مالا مخلص له منه .

(٦) التربص الانتظار . والخبر رواه الكلينى ـ رحمه الله ـ فى الكافى ج ۲ ص ٥٩٨ تحت رقم ۲ . والعياشى أيضاً فى تفسيره .

و بإسناده « عنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : القرآن هدى من الضلالة ، و تبيان من العمى ، واستقالة من العثرة ، و نور من الظلمة ، و ضياء من الأحداث ، وعصمة من الهلكة ، ورشد من الغواية ، وبيان من الفتن ، و بلاغ من الدنيا إلى الآخرة ، و فيه كمال دينكم ، وما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النّار »[1].

و فيه عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام « من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتنكّب الفتن[2] » .

و فيه عنهم عليهم السلام « من أخذ دينه من كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله زالت الجبال قبل أن يزول و من أخذ دينه من أفواه الرجال ردّته الرجال[3] » . قال محمّد بن يعقوب - رحمه الله - بعد نقل هذا الحديث : و لهذه العلّة انبثقت[4] على أهل دهرنا بثوق هذه الأديان الفاسدة والمذاهب المتشنّعة[5] الّتي قد استوفت شرائط الكفر و الشرك كلّها ، و ذلك بتوفيق الله عزّ و جلّ و خذلانه ، فمن أراد الله توفيقه و أن يكون إيمانه ثابتاً مستقرّاً سبّب له الأسباب الّتي تؤدّيه إلى أن يأخذ دينه من كتاب الله و سنّة نبيّه صلى الله عليه وآله بعلم و يقين وبصيرة فذاك أثبت في دينه من الجبال الرواسي ، و من أراد الله خذلانه و أن يكون دينه معاراً مستودعاً - نعوذ بالله منه - سبّب له أسباب الاستحسان و التقليد و التأويل من غير علم و بصيرة ، فذاك في المشيئة إن شاء الله تبارك و تعالى أتمّ إيمانه وإن شاء سلبه إيّاه ، و لا يؤمن عليه أن يصبح مؤمناً و يمسي كافراً ، و يمسي مؤمناً و يصبح كافراً ، لأنّه كلّما رأى كبيراً من الكبراء مال معه وكلّما رأى شيئاً استحسن ظاهره قبله ، و قد قال العالم عليه السلام : « إنّ الله تعالى خلق النبيّين على النبوّة فلا يكونون إلّا

---

(١) رواه الكليني - رحمه الله - في الكافي ج٢ ص ٦٠٠ تحت رقم ٨ .

(٢) أورده الكليني في مقدمة كتابه الكبير الكافي ج١ ص٧ ، وفي القاموس نكب عنه - كنصر وفرح - نكباً ونكوباً : عدل ، كنكب و تنكب .

(٣) مقدمة الكافي ص ٧ .

(٤) في المغرب بثق الماء بثوقاً فتحه بأن خرق الشط : وانبثق هو اذا جرى بنفسه من غير فجر .

(٥) التشنيع : التقبيح ، والمتشنعة : المستقبحة . و في بعض النسخ المستشنعة .

أنبياء، و خلق الأوصياء على الوصيّة، فلا يكونون إلّا أوصياء، و أعار قوماً إيماناً، فإن شاء تمّمه لهم وإن شاء سلبهم إيّاه» قال: وفيهم جرى قوله: «فمستقرّ ومستودع»[1].

«فصل»

قد ظهر ممّا ذكرنا و تبيّن أنّ بيان أمر أهل البيت عليهم السلام إنّما هو في كتاب الله عزّ و جلّ، و أنّ علم الكتاب عندهم، و أنّ كلّ واحد منهما مع الآخر صاحبين مؤتلفين يشهد كلّ واحد منهما لصاحبه بالتصديق ينطق الإمام منهم عن الله في الكتاب بما أوجب الله فيه على العباد، و ينطق الكتاب بوجوب اتّباعهم، و أنّ الرشد إنّما هو في إطاعتهم، و هذا معنى عدم افتراقهما المذكور في الحديث النبويّ صلّى الله عليه وآله كما مرّت الاشارة إليه.

و روى شيخنا الصدوق - رحمه الله - في كتاب كمال الدّين[2] «باسناده إلى جابر ابن يزيدالجعفيّ قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاريّ يقول: لمّا أنزل الله عزّوجلّ على نبيّه صلّى الله عليه وآله «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و اُولي الأمر منكم»[3] قلت: يا رسول الله عرفنا الله و رسوله فمن اُولوا الأمر الّذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال صلّى الله عليه وآله: هم خلفائي يا جابر و أئمّة المسلمين من بعدي، أوّلهم عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمّد بن عليّ - المعروف في التوراة بالباقر و ستدركه يا جابر فاذا لقيته فأقرئه منّي السّلام - ثمّ الصادق جعفر ابن محمّد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ عليّ بن موسى، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ عليّ بن محمّد، ثمّ الحسن بن عليّ، ثمّ سميّي و كنيّي، حجّة الله في أرضه، و بقيّته في عباده،

(١) الى ههنا من كلام الكلينى - رحمه الله - والرواية نقلها مرسلا و رواها أيضاً فى ج ٢ ص ٤١٨ من الكافى مسنداً. والاية فى سورة الانعام: ٩٨ هكذا «هوالذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر و مستودع قد فصلنا الايات لقوم يفقهون».

(٢) ص ١٤٦ باب نص الله تبارك و تعالى على القائم وأنه الثانى عشر من الائمة.

(٣) النساء: ٥٩.

ابن الحسن بن عليّ ، ذاك الّذي يفتح الله - تعالى ذكره - على يديه مشارق الأرض ومغاربها ، ذاك الّذي يغيب عن شيعته و أوليائه غيبة ، لا يثبت فيها على القول بإمامته إلّا من امتحن الله قلبه للإيمان ، قال جابر : فقلت له : يا رسول الله فهل ينتفع الشيعة به في غيبته ؟ فقال : إي و الّذي بعثني بالنبوّة إنّهم يستضيئون بنوره و ينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس ، و إن تجلّلها سحاب ، يا جابر هذا من مكنون سرّ الله ، و مخزون علم الله ، فاكتمه إلّا عن أهله ، قال جابر بن يزيد : فدخل جابر بن عبد الله على عليّ بن الحسين عليهما السلام فبينما هو يحدّثه إذ خرج محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام من عند نسائه و على رأسه ذؤابة و هو غلام فلمّا بصر به جابر ارتعدت فرائصه ، وقامت كلّ شعرة على بدنه ، و نظر إليه مليّاً ، ثمّ قال له : يا غلام أقبل فأقبل ، ثمّ قال له : أدبر فأدبر ، فقال جابر : شمائل رسول الله وربّ الكعبة ، ثمّ قام فدنا منه ، و قال له : ما اسمك يا غلام ؟ فقال : محمّد ، قال : ابن من ؟ قال : ابن عليّ بن الحسين ، قال : يا بنيّ فدتك نفسي فأنت إذن الباقر ؟ قال : نعم ، قال عليه السلام : فأبلغني ما حمّلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال جابر : يا مولاي إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشّرني بالبقاء إلى أن ألقاك ، و قال لي : إذا لقيته فأقرئه منّي السلام ، فرسول الله يا مولاي يقرء عليك السلام ، فقال أبو جعفر عليه السلام : يا جابر على رسول الله السلام ما قامت السماوات و الأرض ، و عليك يا جابر كما بلّغت السلام ، فكان جابر بعد ذلك يختلف إليه و يتعلّم منه فسأله محمّد بن عليّ عليهما السلام عن شيء ، فقال له جابر : و الله ما دخلت في نهي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد أخبرني أنّكم الأئمّة الهداة من أهل بيته من بعده ، أحلم الناس صغاراً وأعلم الناس كباراً ، و قال : لا تعلّموهم فهم أعلم منكم ، فقال أبو جعفر عليه السلام : صدق جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و الله إنّي لأعلم منك بما سألتك عنه و لقد أُوتيت الحكم صبيّاً ، كلّ ذلك بفضل الله علينا و رحمته لنا أهل البيت » .

و الأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى و قد أوردنا نبذاً منها في كتابنا المسمّى بعلم اليقين .

قيل : وجد بخطّ مولانا أبي محمّد العسكريّ عليه السلام ما صورته « قد صعدنا ذُرى الحقائق بأقدام النبوّة و الولاية ، ونوّرنا سبع طبقات أعلام الفتوى بالهداية ، فنحن ليوث

الوغى ، و غيوث الندى ، و طعناء العدى ، و فينا السيف و القلم في العاجل ، ولواء الحمد و العلم في الآجل ، و أسباطنا حلفاء الدين و خلفاء النبيّين ، و مصابيح الأمم ، و مفاتيح الكرم ، فالكليم لبس حلّة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء ، وروح القدس في جنان الصاغورة ذاق من حدائقنا الباكورة ، و شيعتنا الفئة الناجية ، و الفرقة الزاكية ، صاروا لنا ردءاً ، و صوناً و على الظلمة إلباً و عوناً [1] ، و ستنفجر لهم ينابيع الحيوان بعد لظى النيران لتمام الم وطه والطواسين ، وهذا الكتاب ذرّة من جبل الرحمة ، و قطرة من بحر الحكمة ، و كتب الحسن بن عليّ العسكريّ في سنة أربع وخمسين و مائتين » .

و وجد أيضاً بخطّ يده عليه السلام « أعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب ، و نسوا الله ربّ الأرباب ، و النبيّ و ساقي الكوثر في مواقف الحساب ، و لظى الطامّة الكبرى ، و نعيم دار الثواب ، فنحن السنام الأعظم ، و فينا النبوّة و الولاية و الكرم ، و نحن منار الهدى ، و العروة الوثقى ، و الأنبياء كانوا يقتبسون من أنوارنا ، و يقتفون آثارنا ، و سيظهر حجّة الله على الخلق ، و السيف المسلول لإظهار الحقّ ، و هذا خطّ الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ أمير المؤمنين » عليهم السلام .

قوله عليه السلام : « و شيعتنا الفرقة الناجية » إشارة إلى ما رواه الخاصّة و العامّة بطرق شتّى وألفاظ مختلفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : «ستفترق اُمّتي على نيّف وسبعين فرقة ، فالناجية منها واحدة »[2].

و في رواية « أنّه قال : « افترقت اُمّة موسى على إحدى و سبعين فرقة ، كلّها في النّار إلّا واحدة و هي الّتي اتّبعت وصيّه يوشع ، و افترقت اُمّة عيسى على اثنتين و سبعين فرقة كلّها في النّار إلّا واحدة و هي الّتي اتّبعت وصيّه شمعون ، و ستفترق اُمّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النّار إلّا واحدة وهي الّتي تتّبع وصيّي عليّاً» .

و في رواية هكذا «ستفترق اُمّتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، كلّها في النّار إلّا واحدة ،

---

(١) الالب ـ بكسر الهمزة ـ القوم تجمعهم عداوة واحد يقال : «هو على الب واحد» .

(٢) راجع سنن ابن ماجه تحت رقم ٣٩٩١ و ٣٩٩٢ و ٣٩٩٣ . والخصال للصدوق ص ١٤١ ابواب الثلاث والسبعين .

قيل : و من هم ؟ قال : الّذين هم على ما أنا عليه و أصحابي » أراد صلّى الله عليه وآله بأصحابه أهل بيته عليهم السلام .

يدلّ على ذلك ما رواه محمّد بن الحسن الصفّار ـ رحمه الله ـ في كتاب بصائر الدرجات [1] بإسناده « عن مولينا الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : ما وجدتم في كتاب الله عزّ و جلّ فالعمل به لازم لاعذر لكم في تركه ، و ما لم يكن في كتاب الله و كانت فيه سنّة منّي لا عذر لكم في ترك سنّتي ، و ما لم يكن فيه سنّة منّي فماقال أصحابي فخذوه ، فإنّما مثل أصحابي فيكم كمثل النّجوم ، بأيّها اُخذ اهتدى فبأيّ أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم ، و اختلاف أصحابي لكم رحمة ، قيل : يا رسول الله من أصحابك ؟ قال : أهل بيتي » .

و أيضاً فإنّ أهل بيته صلوات الله عليهم كانوا على منهاجه صلّى الله عليه وآله و طريقته دون سائر الصحابة ، إلّا قليلاً منهم كما يظهر من التتبّع لأحوالهم و سيرهم ، و سنذكر نبذاً من ذلك في كتاب آداب الشيعة وأخلاق الإمامة من ربع العادات إن شاء الله تعالى .

و قوله صلّى الله عليه وآله : « و اختلاف أصحابي لكم رحمة» يعني به اختلافهم عليهم السلام في أجوبة أسولة الناس على حسب درجاتهم و مراتبهم و اختلاف عقولهم و تفاوت أفهامهم ، فإنّهم عليهم السلام كانوا مكلّفين أن يكلّموا الناس على قدر عقولهم ، و هذا رحمة من الله سبحانه لعباده [2] ، وليس المراد اختلافهم عليهم السلام فيما بين أنفسهم فإنّ أقوالهم و أفعالهم جميعاً واحدة ، فقد ظهر أنّ الفرقة الناجية من هذه الاُمّة ليست إلّا من تمسّك بحبل القرآن و سفينة أهل البيت عليهم السلام و تابعهم و شايعهم و والا هم و سلك طريقتهم في العلم والعمل ، و أخذ اعتقاداته الدينيّة ، و أعماله الشرعيّة منهم عليهم السلام لأنّ الحقّ معهم و فيهم وأهل البيت أدرى بما في البيت ، و أمّا ما ورد في اختلاف الاُمّة فله معنى آخر كما يدلّ

(١) الجزء الاول الباب السادس .

(٢) لعل المراد بالاختلاف الاياب والذهاب كما فى قوله تعالى « ان فى اختلاف الليل والنهار » أى فى مجيىء كل واحدمنهما خلف الاخر وفى الزيارة الجامعة «ومختلف الملائكة » أى موضع نزولهم وترددهم وايابهم وذهابهم وهذاما يقال له بالفارسية (آمد و شد ، رفت وآمد) كمافى الخبر الذى يأتى عن الاحتجاج .

عليه ما رواه الشيخ الطبرسي - رحمه الله - في كتابه الاحتجاج [1] « عن عبد المؤمن الأنصاري قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إنّ قوماً رووا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « اختلاف أمّتي رحمة » فقال : صدقوا ، قلت : إن كان اختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب ؟ قال : ليس حيث تذهب و ذهبوا ، إنّما أراد قول الله عزّ و جلّ : « فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون » أمرهم أن ينفروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويختلفوا إليه و يتعلّموا ثمّ يرجعوا إلى قومهم فيعلّموهم إنّما أراد اختلافهم في البلدان ، لا اختلافاً في الدّين إنّما الدين واحد » .

قال مولانا الصادق عليه السلام : « كلّ علم لايخرج من هذا البيت فهو باطل ، و أشار بيده إلى بيته ، و قال عليه السلام لبعض أصحابه : إذا أردت العلم الصحيح فخذ عن أهل البيت فإنّا رويناه و اوتينا شرح الحكمة و فصل الخطاب ، إنّ الله اصطفانا و آتانا مالم يؤت أحداً من العالمين» [2] .

و قال عليه السلام : «أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بالأسباب فجعل لكلّ شيء سبباً ، و جعل لكلّ سبب شرحاً ، و جعل لكلّ شرح مفتاحاً ، و جعل لكلّ مفتاح علماً ، و جعل لكلّ علم باباً ناطقاً من عرفه عرف الله ، و من أنكره أنكر الله ، ذلك رسول الله و نحن [3] » .

و قال عليه السلام : « إنّ العلماء ورثة الأنبياء و ذلك أنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولادرهماً ، و إنّما ورّثوا أحاديث من أحاديثهم ، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظّاً وافراً ، فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه ، فإنّ فينا أهل البيت في كلّ خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين ، و انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » [4] .

« و قال رجل من أهل البصرة لمولينا الباقر عليه السلام : إنّ الحسن البصريّ يزعم أنّ

---

(١) ص ١٩٤ من طبع النجف و ص ١٨٦ من طبع طهران و رواه أيضاً الصدوق فى معانى الاخبار ص ١٥٧ .

(٢) مروى فى البصائر عن أبى جعفر عليه السلام راجع الباب الثامن عشر من الجزء العاشر .

(٣) بصائر الدرجات الجزء الاول الباب الثالث .

(٤) البصائر الجزء الاول الباب السادس .

الّذين يكتمون العلم يؤذي ريح بطونهم أهل النّار ، فقال عليه السلام : فهلك إذاً مؤمن آل فرعون ، و ما زال العلم مكتوماً منذ بعث الله نوحاً عليه السلام فليذهب الحسن يميناً و شمالاً فوالله لايوجد العلم إلّا ههنا » .

كلّ ذلك مرويّ في بصائر الدّرجات بأسانيد متعدّدة [1] ، و الأخبار في هذه المعاني كثيرة .

﴿ فصل ﴾

قال صاحب كشف الغمّة عليّ بن عيسى الإربلي [2] : إنّ الله سبحانه و له الحمد لمّا هداني إلى الصراط المستقيم ، و سلك بي سبيل المنهج القويم ، و جعل هواي في آل نبيّه ، لمّا اختلفت الأهواء ، و رأيي فيهم حين اضطربت الآراء و ولائي لهم إذ تشعّب الولاء ، و دعائي بهم إذ تفرّق الدعاء ، تلقّيت نعمته تعالى بشكر دائم الأمداد ، و حمد متّصل اتّصال الآباد ، و اتّخذت هديهم شريعة و منهاجاً ، و مذهبهم سلّماً إلى نيل المطالب و معراجاً ، و حبّهم علاجاً لداء هفواتي إذا اختار كلّ قوم علاجاً ، و صرّحت بموالاتهم إذا ورّى غيري أوداجي ، فهم عليهم السلام عدّتي وعتادي ، وذخيرتي الباقية في معادي ، و اُنسي إذا أسلمني طبيبي ، و انقضى تردّد عوّادي ، وهداتي إذا جار الدليل و حار الهادي ، اُحد السببين اللّذين من اعتلق بهما فقد فازت قداحه ، وثاني الثقلين اللّذين من تمسّك بهما أسفر عن حمد السرى صباحه [3] ، محبّتهم عصمة في الاُولى و العقبى ، و مودّتهم واجبة بدليل « قل لاأسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى » من أطاعهم فقد أطاع الله و راقبه ، و من عصاهم فقد جاهره بالعناد و حاربه ، و نصب نفسه دريئة [4] لعقابه و عذابه ، حين ناصبه

(١) راجع ص ٣ و ٤ و ص ١٣٤ و ١٣٦ من البصائر .
(٢) في مقدمة كتابه .
(٣) مر معناه في ص ٥٠ .
(٤) الدريئة : ما يستتر به الصائد ليخدع الصيد .

جبال العلوم الراسخة ، و قلل الفخار الشامخة ، و غرر الشرف الباذخة [1] ، إذا انتسبوا عدّوا المصطفى و المرتضى ، و إذا فخروا على الأملاك انقادت وأعطت الرضى ، و إن جادوا بخّلوا السحاب الماطر ، و أخجلوا العباب الزاخر ، و إن شجعوا أرضوا الأسمر الذابل ، و الأبيض الناضر ، و إن قالوا نطقوا بالصواب وأتوا بالحكمة وفصل الخطاب ، و عرّفوا كيف تؤتى البيوت من الأبواب و طبّقوا المفصل في الابتداء و الجواب ، و ما عسى أن تبلغ المدائح و إلى أين تنتهي الأفكار والقرائح ، و كيف تنال الصفات قدر قوم أثنى عليهم القرآن و مدحهم الرحمن ، فهم خيرته من العباد ، وصفوته من الحاضر والباد ، بهم تقبل الأعمال ، وتصلح الأحوال ، وتحصل السعادة والكمال .

هم القوم من أصفاهم الودّ مخلصاً * تمسّك في أخراه بالسبب الأقوى
هم القوم فاقوا العالمين مآثراً * محاسنها تجلى و آياتها تروى
بهم عرف الناس الهدى فهداهم * يضلّ الّذي يقلي ويهدي الّذي يهوى
موالاتهم فرض و حبّهم هدى * و طاعتهم قربى و ودّهم تقوى

« انتهى كلامه » و نعم ما قيل :

إذا شئت أن ترضى لنفسك مذهباً * يقيك غداً حرّ الجحيم عن النّار
فخلّ حديث الشافعيّ و مالك * و أحمد والنعمان عن كعب أحبار
و وال أناسا قولهم وحديثهم * روى جدّنا عن جبرئيل عن الباري

و قد أتى أئمّتنا عليهم السلام من علوم الدين و تفسير الكتاب و السنّة و معالم الحلال و الحرام بأمر كثير ، و من إزاحة الشبه و إزالة البدع بجمّ غفير ، كلّ ذلك ببيان و برهان ، و حجّة يبلغ إليها أفهامنا ، و يقبلها عقولنا بحيث لا نشكّ فيها ولا نستريب ، و قد ضبط أصحابنا ـ شكر الله سعيهم ـ أحاديثهم عليهم السلام و نقلوها رجلاً عن رجل إلى أن وصلت إلينا فالحمد لله الّذي أوضح بهم عن دينه و أبلج بهم عن سبيل مناهجه ، و فتح بهم عن باطن ينابيع علمه وجعلهم مسالك لمعرفته ، و معالم لدينه ، و حجاباً بينه و بين خلقه ، و الباب المؤدّي إلى معرفة حقّه ، أطلعهم على المكنون من غيب سرّه ، كلّما مضى منهم

(١) الباذخ : الفاخر ، العظيم ، المرتفع . وفي بعض النسخ [الشادخة] وهي غرة الفرس اذا انتشرت من الناصية الى الانف فالفرس أشدخ و لعلها انسب .

إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً بيّناً و هادياً نيّراً و إماماً قيّماً يهدون بالحقّ و به يعدلون، حجج الله و دعاته و رعاته على خلقه، يدين بهداهم العباد و يستهلّ بنورهم البلاد [1]، جعلهم الله حياة للأنام، و مصابيح للظلام، و مفاتيح للكلام و دعائم للإسلام، و جعل نظام طاعته و تمام فرضه التسليم لهم فيما علم، و الردّ إليهم فيما جهل، وحظر على غيرهم التهجّم على القول بما يجهلون و منعهم جحد ما لايعلمون لما أراد تبارك وتعالى استنقاذ من شاء من خلقه من ملمّات الظّلم، ومغشيّات البهم كلّ ذلك من فضل الله علينا و على الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون .

﴿ فصل ﴾

كلّ ما ليس له بيان في كتاب الله عزّ وجلّ ولا في سنّة رسوله صلى الله عليه وآله ولا في كلام أهل بيته - صلوات الله عليهم - من أمر الدّين فينبغي السكوت عنه، و عدم الخوض فيه، و ردّ علمه إلى الله و رسوله و اُولي الأمر من أهل بيته عليهم السلام فإنّ من حقّ الله سبحانه على العباد أن يقولوا مايعلمون ويقفوا عند ما لايعلمون كذا قال مولانا الباقر عليه السلام [2] .

و قال مولانا الصادق عليه السلام : « إيّاك أن تفتي النّاس برأيك أوتدين بمالا تعلم ففيها هلاك من هلك» [3].

و في وصايا أمير المؤمنين لابنه الحسن عليهما السلام : « ودع القول فيما لاتعرف والخطاب فيما لم تكلّف، و أمسك عن طريق إذا خفت ضلالته فإنّ الكفّ عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال » .

و فيها أيضاً « و اعلم يا بنيّ إنّ أحبّ ما أنت آخذ به إليّ من وصيّتي تقوى الله و الاقتصار على ما فرض الله عليك، و الأخذ بما مضى عليه الأوّلون من آبائك،

(١) أى يتنور بنورهم .
(٢) الكافى ج ١ ص ٤٣ .
(٣) الكافى ج١ ص ٤٢ بتقديم وتأخير.

و الصالحون من أهل بيتك ، فإنّهم لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر ، وفكّروا كما أنت مفكّر ، ثمّ ردّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا والإمساك عمّا لم يكلّفوا . فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهّم و تعلّم لا بتورّط الشبهات و علوّ الخصومات ، و ابدء قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك ، و الرغبة إليه في توفيقك ، وترك كلّ شائبة أولجتك في شبهة[1] ، أو أسلمتك إلى ضلالة ، فإذا أيقنت أن قد صفى قلبك فخشع و تمّ رأيك و اجتمع و كان همّك في ذلك همّاً واحداً فانظر فيما فسّرت لك . و إن لم يجتمع لك ما تحبّ من نفسك و فراغ نظرك و فكرك فاعلم أنّك إنّما تخبط العشواء ، و تتورّط الظلماء[2] ، و ليس طالب الدين من خبط و خلط ، و الإمساك عن ذلك أمثل .

فتفهّم يا بنيّ وصيّتي و اعلم أنّ مالك الموت هو مالك الحياة ، و أنّ الخالق هو المميت ، وأنّ المفني هو المعيد ، وأنّ المبتلي هو المعافي ، و أنّ الدنيا لم تكن لتستقرّ إلّا على ما جعله الله عليه من النعماء ، و الابتلاء ، و الجزاء في المعاد ، وما شاء ممّا لا تعلم ، فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك به ، فإنّك أوّل ما خلقت كنت جاهلاً ثمّ علمت ، و ما أكثر ما تجهل من الأمر و يتحيّر فيه رأيك ، و يضلّ فيه بصرك ، ثمّ تبصره بعد ذلك ، فاعتصم بالّذي خلقك و رزقك وسوّاك ، وليكن له تعبّدك و إليه رغبتك و منه شفقتك .

و اعلم يا بنيّ أنّ أحداً لم ينبىء عن الله تعالى كما أنبأ عنه نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم فارض به رائداً[3] ، و إلى النجاة قائداً ، فإنّي لم آلك نصيحة ، و إنّك لم تبلغ في النظر لنفسك و إن اجتهدت مبلغ نظري لك ـ الحديث »[4] .

و لنقتصر في هذا الباب على ما ذكر ، و الله الموفّق .

---

(١) الشائبة هي مايشوب الامر من شك وحيرة . والايلاج : الادخال .

(٢) العشواء : الضعيفة البصر ونصب على المصدر أى تخبط خبط العشواء فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه . وتورط الرجل فى الامر : دخل فيه على صعوبة ليس له التخلص منه .

(٣) الرائد من ترسله فى طلب الكلاء ليتعرف موقعه .

(٤) نهج البلاغة ابواب الكتب تحت رقم ٣١ .

﴿الباب الثانى﴾

(فى التوحيد)

اعلم أنّ في الآفاق و الأنفس و ما خلق الله من شيء لآيات مبيّنات ، و دلائل واضحات على وجوده سبحانه و وحدانيّته و الهيّته و سائر صفاته من وجوه مختلفة وطرق شتّى ، و قد وقعت الاشارة إلى نبذ منها في القرآن المجيد للتنبيه و الإرشاد ، و أولى ما يستضاء به من الأنوار ، و يسلك من طريق الاعتبار هو ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله بيان ، قال الله عزّ و جلّ حكاية عن الرسل صلوات الله عليهم : « أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض » (١) .

و قال عزّ وجلّ : « إنّ في خلق السماوات و الأرض و اختلاف اللّيل و النّهار و الفلك الّتي تجري في البحر بما ينفع الناس و ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بثّ فيها من كلّ دابّة و تصريف الرياح و السحاب المسخّر بين السماء و الأرض لآيات لقوم يعقلون » (٢) .

و قال الله سبحانه : « إنّ الله فالق الحبّ و النوى يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ذلكم الله فأنّى تؤفكون * فالق الإصباح و جعل اللّيل سكناً و الشمس و القمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم * و هو الّذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ و البحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون * و هو الّذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ و مستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون * و هو الّذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كلّ شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً و من النخل من طلعها قنوان دانية و جنّات من أعناب والزيتون و الرمّان مشتبهاً وغير

---

(١) ابراهيم : ١٠ .

(٢) البقرة : ١٦٤ .

متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر و ينعه إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » [1] .

و قال عزّ و جلّ : « هو الّذي جعل الشمس ضياءً و القمر نوراً و قدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلّا بالحقّ يفصّل الآيات لقوم يعلمون* إنّ في اختلاف اللّيل و النهار و ما خلق الله في السماوات و الأرض لآيات لقوم يتّقون » [2] .

و قال جلّ جلاله : « و هو الّذي مدّ الأرض و جعل فيها رواسي و أنهاراً و من كلّ الثمرات .... إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» [3] « و في الأرض قطع متجاورات و جنّات من أعناب و زرعٌ ونخيل صنوان و غير صنوان يسقى بماء واحد و نفضّل بعضها على بعض في الأكل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون » [4] .

و قال عزّ اسمه : « و إنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونه من بين فرث و دم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين * و من ثمرات النخيل و الأعناب تتّخذون منه سكراً و رزقاً حسناً إنّ في ذلك لآية لقوم يعقلون * و أوحى ربّك إلى النحل أن اتّخذي من الجبال بيوتاً و من الشجر و ممّا يعرشون * ثمّ كلي من كلّ الثمرات فاسلكي سبل ربّك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للنّاس إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون » [5] .

و قال جلّ ثناؤه : « ألم يروا إلى الطير مسخّرات في جوّ السماء مايمسكهنّ إلّا الله إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » [6] .

و قال جلّ ذكره : «و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشرٌ تنتشرون * و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودّةً ورحمةً

---

(١) الانعام : ٩٥ الى ٩٩ . (٢) يونس : ٥ و ٦ .

(٣) الرعد : ٣ ، وتمام الاية : « وهو الذى مدالارض وجعل فيها رواسى وانهاراً و من كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون » .

(٤) الرعد : ٤ . (٥) النحل : ٦٦ الى ٦٩ .

(٦) النحل : ٧٩ .

إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون * و من آياته خلق السموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين * و من آياته منامكم باللّيل و النّهار و ابتغاؤكم من فضله إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون * و من آياته يريكم البرق خوفاً و طمعاً و ينزّل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء و الأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » (١) .

و قال عزّ وجلّ : « و الله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثمّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً » (٢) .

و قال سبحانه : « أفرأيتم ما تمنون * أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * - إلى قوله - نحن جعلناها تذكرة و متاعاً للمقوين » (٣) .

و قال تعالى شأنه : « ألم نجعل الأرض مهاداً * و الجبال أوتاداً * و خلقناكم أزواجاً * و جعلنا نومكم سباتاً * و جعلنا اللّيل لباساً * و جعلنا النهار معاشاً * و بنينا فوقكم سبعاً شداداً * و جعلنا سراجاً وهّاجاً * و أنزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجاً * لنخرج به حبّاً و نباتاً * و جنّات ألفافاً » (٤) .

إلى غير ذلك من التنبيهات لأولي الألباب و هي أكثر من أن تحصى ، و لا يخفى على من له أدنى مسكة إذا تأمّل في مضمون هذه الآيات ، و أدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماوات ، علم أنّ هذا الأمر العجيب و الترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبّره و فاعل يحكمه .

﴿ فصل ﴾

سئل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام « بما ذا عرفت ربّك ؟ قال : عليه السلام بفسخ العزائم و نقض الهمم لمّا هممت فحيل بيني و بين همّي ، و عزمت فخالف القضاء و القدر عزمي ،

(١) الروم : ٢٠ الى ٢٥ . (٢) نوح : ١٧ و ١٨ .
(٣) الواقعة : ٥٨ و ٥٩ و ٧٣ . (٤) النبأ : ٦ الى ١٦ .

علمت أنّ المدبّر غيري[1] » و مثله عن مولينا الصادق عليه السلام [2] .

و سئل مولانا الرضا عليه السلام « ما الدليل على حدث العالم ؟ قال : إنّك لم تكن ثمّ كنت ، و قد علمت أنّك لم تكوّن نفسك ولا كوّنك من هو مثلك » [3] .

و سئل عارف بم عرفت ربّك ؟ فقال : بواردات ترد على القلوب فتعجز النفس عن تكذيبها .

و سئل أعرابيّ عن مثل ذلك فقال : البعرة تدلّ على البعير ، و أثر الأقدام تدلّ على المسير ، فالسماء ذات أبراج ، و الأرض ذات فجاج ، أما تدلّان على الصانع اللّطيف الخبير ؟ .

وقال السيّد الجليل عليّ بن موسى بن طاووس - رحمه الله - في وصاياه لابنه : إنّني وجدت كثيراً ممّن رأيته و سمعت به من علماء الإسلام قد ضيّقوا على الأنام ما كان سهّله الله جلّ جلاله و رسوله صلى الله عليه وآله من معرفة مولاهم و مالك دنياهم و أُخراهم ، فإنّك تجد كتب الله - جلّ جلاله - السالفة والقرآن الشريف مملوّاً من التنبيهات على الدلالات على معرفة محدث الحادثات و مغيّر المتغيّرات و مقلّب الأوقات ؛ و ترى علوم سيّدنا خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله و علوم من سلف من الأنبياء - صلوات الله عليهم - على سبيل كتب الله جلّ جلاله المنزلة عليهم في التنبيه اللّطيف و التشريف بالتكليف ؛ و مضى على ذلك الصدر الأوّل من علماء المسلمين إلى أواخر أيّام من كان ظاهراً من الأئمّة المعصومين عليهم السلام فإنّك تجد من نفسك بغير إشكال أنّك لم تخلق جسدك و لا روحك و لا حياتك ولا عقلك و لا ما خرج من اختيارك من الآمال و الأحوال و الآجال ، ولا خلق ذلك أبوك ولا أُمّك ولا من تقلّبت بينهم من الآباء و الأُمّهات لأنّك تعلم يقيناً أنّهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات ، و لو كان لهم قدرة على تلك المهمّات ما كان قد حيل بينهم و بين المرادات ، و صاروا من الأموات ، فلم يبق مندوحة أبداً عن واحد منزّه عن إمكان المتجدّدات خلق

(١) رواه الصدوق - رحمه الله - في التوحيد ص ٢٩٨ .

(٢) التوحيد ص ٢٩٩ .

(٣) التوحيد ص ٣٠٤ .

هذه الموجودات و إنّما يحتاج أن يعلم ما هو عليه جلّ جلاله من الصفات ، و لأجل شهادة العقول الصريحة و الأفهام الصحيحة بالتصديق بالصانع أطبقوا جميعاً على فاطر و خالق ، و إنّما اختلفوا في ماهيّته و حقيقة ذاته و في صفاته بحسب اختلاف الطرائق .

قال : و إنّي وجدت قدجعل‌الله‌جلّ جلاله في جملتي حكماً أدركته عقول‌العقلاء ، فجعلني من جواهر و أعراض ، وعقل روحانيّ ، ونفس و روح ، فلو سألت بلسان الحال الجواهر الّتي في صورتي هل كان لها نصيب في خلقي و فطرتي لوجدتها تشهد بالعجز و الافتقار و أنّها لو كانت قادرة على هذا المقدار ما اختلفت عليها الحادثات و التغيّرات و التقلّبات ، و وجدتها معترفة أنّها ماكان لها حديث في تلك التدبيرات ، و أنّها ما تعلم كيفيّة ما فيها من التركيبات و لا عدد و لا وزن ما جمع فيها من المفردات ، و لو سألت بلسان الحال الأعراض لقالت : أنا أضعف من الجواهر لأنّني فرع عليها فأنا أفقر منها لحاجتي إليها ، ولو سألت بلسان الحال عقلي وروحي و نفسي لقالوا جميعاً : أنت تعلم أنّ الضعف يدخل على بعضنا بالنسيان و بعضنا بالموت و بعضنا بالذلّ و الهوان ، و أنّنا تحت حكم غيرنا ممّن يقلّبنا كما يريد من نقص إلى تمام ومن تمام إلى نقصان ، ويقلّبنا كما يشاء مع تقلّبات الأزمان ، فإذا رأيت تحقيق هذا من لسان الحال و عرفت تساوي الجواهر و الأعراض ، و تساوي معنى العقول و الأرواح و النفوس في سائر الموجودات و الأشكال تحقّقت أنّ لنا جميعاً فاطراً و خالقاً منزّهاً عن عجزنا و افتقارنا و تغيّراتنا و انتقالاتنا و تقلّباتنا ، و لو دخل‌عليه نقصان في كمال أو زوال كان محتاجاً و مفتقراً مثلنا إلى غيره بغيرإشكال ، و قد تضمّن ـ كما ذكرت لك ـ كتاب الله جلّ جلاله و كتبه الّتي وصلت إلينا و كلام رسول الله ربّ العالمين و كلام أبيك أمير المؤمنين و كلام عترتهما الطاهرين عليهم السلام من التنبيه على دلائل معرفة الله جلّ جلاله بما في بعضها كفاية لذوي الألباب و هداية إلى أبواب الصواب ، فانظر في كتاب نهج البلاغة و ما فيه من‌الأسرار و انظر كتاب المفضّل بن عمر الّذي أملاه عليه مولانا الصادق عليه السلام فيما خلق الله جلّ جلاله من الآثار ، و انظر كتاب الإهليلجة وما فيه من الاعتبار .

﴿ فصل ﴾

و ربّما يقال : إنّ التصديق بوجوده تعالى أمر فطريّ ولذا ترى الناس عند الوقوع في الأهوال و صعاب الأحوال يتوكّلون بحسب الجبلّة على الله و يتوجّهون توجّهاً غريزيّاً إلى مسبّب الأسباب و مسهّل الأمور الصعاب ، وإن لم يتفطّنوا لذلك ويشهد لهذا قول الله عزّ وجلّ : « و لئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقولنّ الله » [١] « قل أرأيتكم إن أتيكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون »[٢] .

وفي تفسير مولانا العسكريّ عليه السلام « أنّه سئل مولانا الصادق عليه السلام عن الله فقال للسائل : ياعبدالله هل ركبت سفينة قطّ ؟ قال : بلى ، قال : فهل كسرت بك حيث لاسفينة تنجيك و لاسباحة تغنيك ؟ قال : بلى ، قال : فهل تعلّق قلبك هناك أنّ شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يخلّصك من ورطك ؟ قال : بلى ، قال الصادق عليه السلام : فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حين لامنجي و على الإغاثة حين لامغيث »[٣].

قيل : و في قوله سبحانه : « ألست بربّكم » [٤] إشارة لطيفة إلى ذلك فإنّه سبحانه استفهم منهم الإقرار بربوبيّته لابوجوده تنبيهاً على أنّهم كانوا مقرّين بوجوده في بداية عقولهم و فطرة نفوسهم ، و لهذا أيضاً بعث الأنبياء كلّهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا : لا إله إلّا الله و ما أُمروا أن يقولوا : لنا إله ، فإنّ ذلك كانت مجبولة في فطرة عقولهم و مبدء نشوءهم .

و روى الشيخ الصدوق ـ رحمه الله ـ بإسناده الصحيح « عن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن قول الله عزّ وجلّ : «حنفاء لله غيرمشركين به» [٥] و عن الحنيفيّة ،

---

(١) لقمان : ٢٥ .

(٢) الانعام : ٤٠ و ٤١ .

(٣) ورواه الصدوق ـ رحمه الله ـ أيضاً في المعاني ص٤ .

(٤) الاعراف : ١٧٢ .

(٥) الحج : ٣١ . والخبر في التوحيد ص٣٤٣ . وصدره في المحاسن ص ٢٤١ .

فقال : هي الفطرة الّتي فطر الله الناس عليها « لا تبديل لخلق الله »؟ قال : فطرهم الله على المعرفة ، قال زرارة : و سألته عن قول الله عزّ وجلّ : « و إذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم - الآية - »[1] قال : أخرج من ظهر آدم ذرّيّته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذرّ ، فعرفهم و أراهم صنعه ، و لو لا ذلك لم يعرف أحد ربّه ؛ و قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : كلّ مولود يولد على الفطرة ، يعني على المعرفة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه ، فذلك قوله : «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله» .

و في روايات اُخر بأسانيد مستفيضة « الفطرة هي التوحيد» [2] .

و بإسناده عن ابن عمر « قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تضربوا أطفالكم على بكائهم فإنّ بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلّا الله ، وأربعة أشهر الصّلاة على النبيّ وآله صلى الله عليه وآله وأربعة أشهر الدعاء لوالديه» [3] . و في الكافي ما يقرب منه .

أقول : و لعلّ السرّ في ذلك أنّ الطفل أربعة أشهر لا يعرف سوى الله عزّ و جلّ الّذي فطر على معرفته و توحيده فبكاؤه توسّل إليه و التجاء به سبحانه خاصّة دون غيره فهو شهادة له بالتوحيد ، و أربعة أشهراً اُخرى يعرف اُمّه من حيث أنّها وسيلة لاغتذائه فقط لا من حيث أنّها اُمّه ، و لهذا يأخذ اللّبن من غيرها أيضاً في هذه المدّة غالباً فلا يعرف فيها بعد الله إلّا من هو وسيلة بين الله وبينه في ارتزاقه الّذي هو مكلّف به تكليفاً طبيعيّاً من حيث كونها وسيلة لا غير ، و هذا معنى الرسالة ، فبكاؤه في هذه المدّة بالحقيقة شهادة بالرسالة ، و أربعة أشهراً اُخرى يعرف أبويه و كونه محتاجاً إليهما في الرزق فبكاؤه فيها دعاء لهما بالسلامة والبقاء في الحقيقة فافهم .

و في الحديث المشهور « كلّ مولود يولد على الفطرة و أبواه يهوّدانه وينصّرانه

(١) الاعراف : ١٧٢ .

(٢) راجع كتاب التوحيد للصدوق - رحمه الله - ص ٣٤١ باب فطرة الله عزوجل الخلق على التوحيد .

(٣) في التوحيد ص ٣٤٣ . ونحوه في الكافي ج٦ ص ٥٣ .

و يمجّسانه »[١].

و سئل بعض أهل المعرفة و التوحيد عن الدليل على إثبات الصانع فقال : لقد أغنى الصباح عن المصباح.

و سيأتي كلام في هذا الباب لأبي حامد في كتاب المحبّة و الأنس من ربع المنجيات إن شاء الله تعالى.

﴿ فصل ﴾

و هو الله سبحانه واحد لا شريك له إذ «لو كان معه إلهٌ لذهب كلُّ إله بما خلق و لعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمّا يصفون» كذا قال الله عزّ وجلّ[٢] يعني لو تعدّد لتميّز صنع بعضهم عن بعض فيستبدّ كلٌّ بملكه، ووقع بينهما التحارب و التغالب كما هو حال ملوك الدنيا.

وسئل مولانا الصادق عليه السلام «ما الدليل على أنّ الله واحد؟ قال: اتّصال التدبير وتمام الصنع كما قال عزّ وجلّ: «لوكان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا»[٣] أراد عليه السلام بذلك أنّه لو تعدّد لم يرتبط الموجودات بعضها ببعض بل اختلّ النظام و فسدت السماوات والأرضون.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصاياه لابنه الحسن: «و اعلم يا بنيّ أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله و لرأيت آثار ملكه وسلطانه و لعرفت أفعاله و صفاته ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه أحد ولا يزال أبداً»[٤].

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده والبيهقى فى شعب الايمان و الطبرانى فى الكبير كما فى الجامع الصغير باب الكاف، والصدوق صدره فى التوحيد ص٣٤١.

(٢) أشارة الى آية ٩١ من سورة المؤمنون.

(٣) الانبياء: ٢٢. والخبر فى التوحيد ص ٢٥٤.

(٤) نهج البلاغة كتاب ٣١.

وروى الصدوق[1] بإسناده عن شريح بن هاني «قال: إنّ أعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إنّ الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه و قالوا: يا أعرابيّ أما ترى ما فيه أمير المؤمنين عليه السلام من تقسيم القلب؟ فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: دعوه فإنّ الّذي يريده الاعرابيّ هوالّذي نريده من القوم، ثمّ قال: يا أعرابيّ إنّ القول في أنّ الله واحدٌ على أربعة أقسام، فوجهان منها لايجوزان على الله عزّوجلّ، و وجهان يثبتان فيه، فأمّا اللّذان لا يجوزان عليه فقول القائل: «واحد» يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز لأنّ مالا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة. و قول القائل: «هو واحد من الناس» يريد به النوع من الجنس فهذا مالايجوز عليه لأنّه تشبيه، وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك. وأمّا الوجهان اللّذان يثبتان فيه فقول القائل: «هو واحد ليس له في الأشياء شبه» كذلك ربّنا. وقول القائل: «إنّه ربّنا عزّوجلّ أحديّ المعنى» يعني به أنّه لاينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا عزّوجلّ».

قوله عليه السلام: «ليس له في الأشياء شبه» قدمرّ ما يدلّ عليه وسيأتي أيضاً مايؤكّده، و أمّا قوله عليه السلام: «إنّه لا ينقسم في وجود ولاعقل ولاوهم» فالدليل عليه أنّه لو انقسم لكان محتاجاً فإنّ كلّ ذي جزء فإنّما هو بجزئه يتقوّم و بتحقّقه يتحقّق وإليه يفتقر وهوالله عزّوجلّ غنيٌّ عن العالمين، و أيضاً لوكان ذاجزء لكان جزؤه متقدّماً عليه و أوّلاً له فيكون الجزء أولى بأن يكون إلهاً منه تعالى عن ذلك.

فصل

وهو الله عزّوجلّ فردٌ لاندّ له ولا نظير، صمدٌ لا شبه له ولا وزير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لأنّ المساواة في الرتبة نقصان في الكمال، والاستعانة بالغير مع استلزامها العجز معرضة للزوال و بهذا يتبيّن أنّ له سبحانه سائر صفات الكمال

(١) في التوحيد ص ٦٦.

من دون استفادة ولا آلة و كلال ، لأنّ النقص والعجز والفاقة لا يليق بالربّ المتعال ، فهو جلّ اسمه سميعٌ بغير أصمخة وآذان ، بصيرٌ لا بحدقة وأجفان كما أنّه سبحانه يفعل بغير جارحة ، و يتكلّم بغير لسان ، كيف لا يكون سميعاً بصيراً ؟ والسمع والبصر كمال ، فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أشرف و أتمّ من الصانع ؟ و كيف يعتدل القسمة مهما وقع النقص في جنبه والكمال في خلقه و صنعته ؟ أو كيف يستقيم حجّة إبراهيم عليه السلام على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلاً وعيّاً فقال له : « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر و لا يغني عنك شيئاً » [١] ولو انقلب عليه ذلك في معبوده لأصبحت حجّته داحضة ، ودلالته ساقطة ، ولم يصدق قوله تعالى : « وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه » [٢] تعالى ربّنا وتقدّس ، بل لا يحجب سمعه بُعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، لا يعزب عن علمه مسموع و إن خفي ، ولا مبصر و إن دقّ ، فيسمع السرّ والنجوى ، و يشاهد ما تحت الثرى ؛ و يعلم حركة الذرّ في جوّ الهواء ، و دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في اللّيلة الظلماء ، بل ما هو أدقّ من ذلك و أخفى ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ، يعلم ما يلج في الأرض و ما يخرج منها وما ينزّل من السماء و ما يعرج فيها ، و يعلم ما في البرّ والبحر ، و ما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ، و ما تخرج من ثمرة من أكمامها و ما تحمل من اُنثى ولا تضع إلّا بعلمه ، يعلم ما تحمل من اُنثى و ما تغيض الأرحام و ما تزداد وكلّ شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسرّ القول و من جهر به و من هو مستخف باللّيل وسارب بالنهار ، [٣] يطّلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، لا يجري في الملك ولا في الملكوت شيءٌ إلّا عنده خبره ، يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم ، ألا يعلم من خلق وهو اللّطيف الخبير ، أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم لأنّك لا تستريب في دلالة الخلق اللّطيف والصنع المزيّن بالترتيب ولو في الشيء الحقير اللّطيف على علم الصانع بكيفيّة الترتيب و الترصيف ، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف .

---

(١) مريم : ٤٢ . (٢) الانعام : ٨٣ .

(٣) من قوله : « ولا يعزب عن علمه مثقال » الى هنا اقتباس من القرآن بتصرف ما .

﴿فصل﴾

وهو جلّ اسمه متكلّم مع من يشاء بما يشاء كيف يشاء، فعّال لما يشاء كما يشاء، قدير على ما يشاء كيف يشاء، مريد للكائنات كما يشاء، مدبّر للحادثات على ما يشاء، هو المبدء المعيد، والفعّال لما يريد، لا رادّ لحكمه، ولا معقّب لقضائه، ولا حول عن معصيته إلّا بتوفيقه، ولا قوّة على طاعته إلّا بمعونته و إرادته، و مايشاؤون إلّا أن يشاء الله، مع كلّ شيء لا بمقارنة، و غير كلّ شيء لا بمزايلة، ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم، ولا خمسة إلّا هوسادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هومعهم وهو معكم أينما كنتم.

قال عزّ و جلّ: «و إذا سئلك عبادي عنّي فإنّي قريب» [1] «و نحن أقرب إليه من حبل الوريد» [2] «ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم ألا إنّه بكلّ شيء محيط» [3] «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله» [4].

و في الحديث «ولوأنّكم أدليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله» وليست معيّته بممازجة ولا مداخلة ولا حلول ولا اتّحاد و لا معيّة في درجة الوجود، و لا في الزمان، و لا في المكان، و لا في الإشارة، و لا ما يشبه هذه، تعالى الله عن ذلك كلّه علوّاً كبيراً.

روى الشيخ الصدوق [5] بإسناده الصحيح «عن مولينا الصادق عليه السلام أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ: «الرّحمن على العرش استوى» [6] قال: استوى من كلّ شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء، لم يبعد منه بعيد ولم يقرب منه قريب، استوى من كلّ شيء».
و في الكافي بإسناده مثله.

(١) البقرة: ١٨٦.　(٢) ق: ١٦.　(٣) فصلت: ٥٤.
(٤) البقرة: ١١٥.
(٥) في كتاب التوحيد ص ٣٣١. والكليني - رحمه الله - في الكافي ج١ ص ١٢٨.
(٦) طه: ٥.

و فيه باسناده[١] «عن الهادي النقي عليه السلام قال : الأشياء كلّها له سواء علماً وقدرة و ملكاً و إحاطة » .

و عن أمير المؤمنين عليه السلام « لم يسبق له حالٌ حالاً فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً ، و يكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً » [٢] .

و قال عليه السلام : « علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين ، و علمه بما في السماوات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى »[٣] .

و عن الباقر عليه السلام « كان الله ولا شيء غيره ولم يزل عالماً بما يكون فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه » [٤] .

و عن الصادق عليه السلام «لم يزل الله جلّ وعزّ ربّنا و العلم ذاته ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، و البصر ذاته و لا مبصر ، و القدرة ذاته ولا مقدور ، فلمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم ، و السمع على المسموع ، و البصر على المبصر ، و القدرة على المقدور » [٥] .

وعن الرضا عليه السلام « له معنى الربوبيّة إذ لا مربوب ، وحقيقة الإلهيّة إذ لا مألوه ، و معنى العالم ولا معلوم ، و معنى الخالق و لا مخلوق ، وتأويل السمع ولا مسموع ، ليس

(١) الكافي ج١ ص ١٢٦ تحت رقم ٤ . ونظيره مروى عن أبي عبدالله عليه السلام في التوحيد ص ١٢٢ .

(٢) نهج البلاغة صدر الخطبة الرابعة والستين .

(٣) نهج البلاغة قطعة من خطبة له عليه السلام تحت رقم ١٦١ .

(٤) رواه الكليني في الكافي ج١ ص ١٠٧ تحت رقم ٢ .

(٥) الكافي ج ١ ص ١٠٧ تحت رقم١ ؛ والتوحيد ص١٢٩ . وقوله «كان المعلوم» أي وجد . وقوله : « وقع العلم على المعلوم » أي وقع على ما كان معلوماً في الازل وانطبق عليه وتحقق مصداقه ، وليس المقصود تعلقه به تعلقاً لم يكن قبل الايجاد ، والمراد بوقوع العلم على المعلوم العلم به على انه حاضر موجود وقد كان قد تعلق العلم به قبل ذلك على وجه الغيبة وانه سيوجد والتغيير يرجع الى المعلوم لا الى العلم . (قاله العلامة المجلسي) .

منذ خلق استحقّ معنى الخالق ولا بإحداثه البرايا استفاد معنى البارئيّة[١] كيف ولا تغيبه « مذ » و لا تدنيه « قد » و لا يحجبه « لعلّ » و لا يوقّته « متى » و لا يشمله « حين » ولا يقارنه « مع » ـ الحديث ـ »[٢].

فصل

« و هو الله سبحانه أحديّ المعنى ، ليس بمعاني كثيرة مختلفة ، يسمع بما يبصر ، و يبصر بما يسمع » كذا عن الباقر عليه السلام[٣].

و قيل للصادق عليه السلام : « إنّ رجلاً ينتحل موالاتكم أهل البيت يقول : إنّ الله تبارك و تعالى لم يزل سميعاً بسمع ، و بصيراً ببصر ، و عليماً بعلم ، و قادراً بقدرة . فغضب عليه السلام ثمّ قال : من قال بذلك و دان به فهو مشرك و ليس من ولايتنا على شيء ، إنّ الله تبارك و تعالى ذات علاّمة سميعة بصيرة قادرة »[٤].

و عن الرضا عليه السلام « من قال ذلك و دان به فقد اتّخذ مع الله آلهة أخرى وليس من ولايتنا على شيء ، ثمّ قال عليه السلام : لم يزل الله عزّ و جلّ عليماً قادراً حيّاً قديماً سميعاً بصيراً لذاته ، تعالى عمّا يقول المشركون و المشبّهون علوّاً كبيراً »[٥].

و عنه عليه السلام « أنّه سئل خلق الله تعالى الأشياء بقدرة أم بغير قدرة ؟ فقال : لا يجوز أن يكون خلق الأشياء بالقدرة لأنّك إذا قلت : خلق الأشياء بالقدرة . فكأنّك قد جعلت

(١) في بعض النسخ من الحديث « معنى البرائية » .

(٢) الخبر مروى في عيون أخبار الرضا عليه السلام ص٨٦ من طبع نجم الدولة و ص١٥٢ من الطبع الحروفي الحديث تحت رقم ٥١ . وفي بعض النسخ « ولا تغيبه مذ » وفي بعضها « ولا يقاربه مع » .

(٣) التوحيد : ص ١٣٤ .

(٤) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في التوحيد ص ١٣٣ .

(٥) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في العيون الباب الحادي عشر تحت رقم ١٠ و التوحيد ص ١٣٠ .

القدرة شيئاً غيره و جعلتها آلة له بها خلق الأشياء وهذا شرك » [1] .

و عن أمير المؤمنين عليه السلام « كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف ، و شهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، و من قرنه فقد ثنّاه ، و من ثنّاه فقد جزّاه ، و من جزّاه فقد جهله ، و من أشار إليه فقد حدّه ، و من حدّه فقد عدّه ، و من قال : فيم فقد ضمّنه ، و من قال : على م فقد أخلى منه ـ الحديث ـ » [2] .

و كلماته عليه السلام في نعته سبحانه وتنزيهه كثيرة و قد أوردنا طرفاً منها في كتاب علم اليقين .

فصل

و هو الله عزّ اسمه قديمٌ لم يزل ، وباق لايزال ، وحيّ لا يموت ، و قيّومٌ لا يفوته شيءٌ ، لا تأخذه سنةٌ و لانومٌ ، لم يلد و لم يولد ولم يكن كفواً أحدٌ ، لاتبلغه العقول و الأفكار ، ولا تدركه البصائر و الأبصار ، تنزّه ذاته عن الأمكنة و الجهات ، و تقدّس وجوده عن الأزمنة و الحركات ، و تعالى عن الاتّحاد والحلول ، و تبارك عن التغيّر و الأفول ، سرمديٌّ ليس له مضادٌّ . و حقٌّ بحت لا يتطرّق إليه بطلان ولافساد ، كذلك الله ربّنا إذ من كان بخلاف ذلك فهو إمّا ناقصٌ أو عاجزٌ أو محتاج ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

و عن النبيّ صلّى الله عليه وآله « إنّ الله لا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شيءٌ ، وكلّ ما وقع في الوهم فهو بخلافه » [3] .

و عن الباقر عليه السلام « هل سمّي عالماً و قادراً إلّا لأنّه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين و كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوقٌ مصنوعٌ مثلكم ، مردودٌ

(١) العيون الباب السابق تحت رقم ٧ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة الاولى.

(٣) رواه الصدوق في التوحيد ص ٦٣ عن ابي عبدالله عليه السلام .

إليكم ، و الباري، تعالى واهب الحياة ، و مقدّر الموت ، و لعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ لله زبانيتين فإنّهما كمالها ، و تتصوّر أنّ عدمهما نقصان لمن لا يكونان له ، هكذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به فيما أحسب وإلى الله المفزع» .

﴿ الباب الثالث ﴾

(في العدل)

إنّ الله عزّ و جلّ لا يفعل القبيح لأنّه سبحانه تعالى عالمٌ بقبحه ، قادرٌ على تركه ، غير محتاج إلى فعله ، كيف و لو فعل القبيح لارتفع الوثوق بوعده و وعيده و أنبيائه و رسله ، تعالى و تقدّس عن ذلك « فما ربّك بظلّام للعبيد » ، « ولا يرضى لعباده الكفر » ، « و لن يخلف الله وعده» ، و كلّ ما يفعله فإنّما يفعله لحكمة ومصلحة ، و إن كان جلّ اسمه غنيّاً عن العالمين ، و إذ لا يفعل الظلم و القبيح فما حجب علمه عن العباد فهو موضوعٌ عنهم فلا يحتجّ عليهم إلا بما آتاهم و عرّفهم كما قال عزّ و جلّ : « و ما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً » [1] « لئلّا يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرسل » [2] فيقولوا : « لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك » [3] « و ماكان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتّى يبيّن لهم ما يتّقون » [4] قال الصادق عليه السلام : « يعني حتّى يعرّفهم ما يرضيه و ما يسخطه ، وقال في قوله عزّ وجلّ : فألهمها فجورها و تقويها» [5] : بيّن لها ما تأتي و ما تترك . و في قوله عزّ و جلّ : « إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً و إمّا كفوراً » [6] : عرّفناه إمّا آخذاً و إمّا تاركاً . « و هديناه النجدين » نجدي الخير والشرّ» [7]

(١) الاسراء : ١٥ .
(٢) النساء : ١٦٥ .
(٣) طه : ١٣٤ .
(٤) التوبة : ١١٥ .
(٥) الشمس : ٨ .
(٦) الدهر : ٣ .
(٧) رواه الكليني - رحمه الله - في الكافي ج ١ ص ١٦٣ تحت رقم ٣ و ٤ و ٥ . وفي التوحيد للصدوق ص ٤٢٢ .

﴿ فصل ﴾

إنّ الله عزّ و جلّ أرحم بخلقه من أن يجبرهم على الذنوب ثمّ يعذّبهم عليها كما قال سبحانه : « ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلاّم للعبيد » (١) و هو جلّ جلاله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون كما قال جلّ وعزّ : « وما تشاؤن إلّا أن يشاء الله» (٢) فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين كما قال مولانا الصادق عليه السلام ، (٣) قال : « و مثل ذلك مثل رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته فتركته ففعل تلك المعصية ، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الّذي أمرته بالمعصية » .

و قال الرضا عليه السلام : « إنّ الله عزّ و جلّ لم يطع بالإكراه ، و لم يعص بغلبة ، و لم يهمل العباد في ملكه ، و هو المالك لما ملّكهم ، و القادر على ما أقدرهم عليه ، فإن ائتمر العباد بطاعة لم يكن الله عنها صادّاً و لا منها مانعاً ، و إن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينه و بين ذلك لفعل و إن لم يحل و فعلوه فليس هو الّذي أدخلهم فيه »(٤) .

و قال الباقر عليه السلام : «في التوراة مكتوب ياموسى إنّي خلقتك واصطفيتك وقوّيتك و أمرتك بطاعتي و نهيتك عن معصيتي فإن أطعتني أعنتك على طاعتي و إن عصيتني لم أعنك على معصيتي ، ولي المنّة عليك في طاعتك ولي الحجّة عليك في معصيتك لي»(٥) .

و قال الصادق عليه السلام : « إنّ الناس في القدر على ثلاثة أوجه : رجلٌ يزعم أنّ الله أجبر الناس على المعاصي فهذا قد أظلم الله في حكمه فهو كافر ؛ و رجلٌ يزعم أنّ الأمر مفوّض إليهم فهذا قدوهن الله في سلطانه فهو كافر ؛ و رجلٌ يقول : إنّ الله كلّف العباد ما يطيقون ، و لم يكلّفهم مالايطيقون ، و إذا أحسن حمد الله ، و إذا أساء استغفرالله فهو مسلم بالغ » (٦) .

---

(١) آل عمران : ١٨٢ . (٢) الانسان : ٣٠ .
(٣) الكافي ج١ ص ١٦٠ تحت رقم ١٣ . (٤) التوحيد ص ٣٧٠ .
(٥) رواه الصدوق - رحمه الله - في الامالي ص١٨٥ . وفي اعتقاداته الباب التاسع .
(٦) التوحيد ص٣٧٠ .

و الكلام في القدر منهيٌّ عنه وهو سرٌّ من أسرار الله. قال الصادق عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ إذا جمع العباد يوم القيامة سألهم عمّا عهد إليهم ولم يسألهم عمّا قضى عليهم»[1].

و سئل عليه السلام عن الرقى هل يدفع من القدر شيئاً؟ فقال: هي من القدر»[2].

﴿فصل﴾

إنّ الله سبحانه لايفعل بعباده إلّا ما هو أصلح لهم لأنّه عزّ وجلّ لطيفٌ بعباده، رؤوف بهم، و هو العزيز الحكيم، قال الله تعالى: «يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر»[3] و في الحديث القدسي «و إنّ من عبادي المؤمنين لمن يريد الباب من العبادة فأكفّه عنه لئلّا يدخله عجب فيفسده؟ و إنّ من عبادي المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلّا بالفقر ولو أغنيته لأفسده، و إنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالغنى و لو أفقرته لأفسده ذلك، و إنّ من عبادي المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلّا بالسقم و لو صحّحت جسمه لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلّا بالصحّة و لو أسقمته لأفسده ذلك، و إنّي اُدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم فإنّي عليم خبير»[4].

و فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام «أن يا موسى ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن وإنّما أبتليه لما هو خيرٌ له واُعافيه لما هو خير له، و أنا أعلم بما يصلح عليه أمر عبدي فليصبر على بلائي، و ليشكر نعمائي، و ليرض بقضائي أكتبه في الصدّيقين عندي إذا عمل برضواني وأطاع أمري»[5].

و ليعلم أنّ الله جلّ جلاله لم يكلّف عباده إلّا دون ما يطيقون كما قال: «لايكلّف

---

(١) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في كتاب اعتقاداته وأيضاً في كتاب التوحيد ص ٣٧٣. والكراجكي في كنز الفوائد ص ١٧١.

(٢) رواه الحميري في قرب الاسناد ص ٤٥. (٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في التوحيد ص ٤٠٩.

(٥) التوحيد ص ٤١٦.

الله نفساً إلّا وسعها »[1] «و الوسع دون الطاقة ألا ترى أنّه كلّفهم في كلّ يوم و ليلة خمس صلوات و كلّفهم في كلّ مائتي درهم خمسة دراهم و كلّفهم حجّة واحدة وهم يطيقون أكثر من ذلك »[2] كذا قال مولانا الصادق عليه السلام .

﴿ فصل ﴾

إنّ الله عزّ وجلّ لم يفرغ من الأمر كما زعمته اليهود[3] بل هو كلّ يوم في شأن ، يخلق و يرزق و يفعل ما يشاء « يمحو الله ما يشاء ويثبت و عنده أُمّ الكتاب » ولا يمحو إلّا ما كان ، ولا يثبت إلّا مالم يكن ، و إلّا لبطل الدعاء و الدواء و الصدقة و غيرها و ليس له بداء ندامة تعالى الله عن ذلك .

قال الصادق عليه السلام : «ما بعث الله نبيّاً قطّ حتّى يأخذ عليه الاقرار بالعبوديّة وخلع الأنداد ، و إنّ الله عزّ وجلّ يؤخّر ما يشاء ويقدّم ما يشاء »[4].

و قال أيضاً : « إنّ الله لم يبد له من جهل و قال : ما بدا لله في شيء إلّا كان في علمه قبل أن يبدو له »[5] .

و قال مولانا الباقر عليه السلام : « العلم علمان فعلم عندالله مخزون لم يطّلع عليه أحداً من خلقه و علم علّمه ملائكته و رسله فما علّمه ملائكته ورسله فإنّه سيكون ، لايكذّب نفسه ولاملائكته و لا رسله و علم عنده مخزون يقدّم منه ما يشاء و يؤخّر ما يشاء ويثبت ما يشاء »[6] .

---

(١) البقرة :٢٨٦ .

(٢) رواه البرقي - رحمه الله - في المحاسن ص٢٩٦ .

(٣) اشارة الى قوله تعالى : قالت اليهود يدالله مغلولة غلت أيديهم و لعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان - الاية - > المائدة : ٦٤ .

(٤) التوحيد : ٣٤٤ ، والكافى ج١ص ١٤٧ تحت رقم ٣ .

(٥) الكافى ج١ ص ١٤٨ تحت رقم ٩ .

(٦) الكافى ج١ ص ١٤٧ تحت رقم ٦ . والمحاسن للبرقى ص٢٤٣ .

﴿ الباب الرابع ﴾

(في النبوة)

لمّا ثبت أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا و عن جميع ما خلق ولم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه ثبت أنّ له سفراء في خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده ، وهم وسائط بينه و بينهم ، أسماع من جانب وألسنة إلى آخر ، يأخذون من الله ويعطون الخلق ، يتعلّمون من لدنه ويعلّمون الناس ، ويدلّونهم من عنده إلى مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم فثبت الآمرون و النّاهون عن الحكيم العليم في خلقه و هم الأنبياء و صفوته من خلقه حكماءٌ مؤدّبين بالحكمة ، مبعوثين بها ، غير مشاركين للناس في شيء من أحوالهم وإن شاركوهم في الخلق و التركيب لئلّا يبعدوا عنهم كلّ البعد ، بل يناسبوهم بعض المناسبة و يأنسون بهم بعض الأنس كما قال الله عزّ وجلّ : « و لو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً و للبسنا عليهم ما يلبسون »[١] و لابدّ من تخصّصهم بآيات من الله سبحانه دالّة على أنّ شريعتهم من عند ربّهم العالم القادر الغافر[٢] المنتقم ليخضع الناس لهم ويلزم لمن وقف لها أن يقرّ بتقدّمهم و رئاستهم وهي المعجزة ، و كما لابدّ في العناية الإلهيّة لنظام العالم من المطر ، و رحمة الله لم تقصر عن إرسال السماء مدراراً لحاجة الخلق فنظام العالم لا يستغني عمّن يعرّفهم موجب صلاح الدّنيا والآخرة ، نعم من لم يترك الجوارح والحواسّ حتّى جعل لها رئيساً يصحّح لها الصحيح و يتيقّن به ما شكّت فيه وهو الرّوح كيف يترك الخلائق كلّهم في حيرتهم وشكّهم وضلالتهم ؟ لا يقيم لهم هادياً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات و أنزلنا معهم الكتاب و الميزان ليقوم الناس بالقسط »[٣] و قال عزّ و جلّ : « هو الّذي بعث في الأمّيّين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته و يزكّيهم و يعلّمهم الكتاب و الحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[٤] .

(١) الانعام : ٩.
(٢) كذا ولعل المناسب «القاهر» .
(٣) الحديد : ٢٥ .
(٤) الجمعة : ٣ .

﴿ فصل ﴾

يجب أن يكون النبيّ منزّهاً عن كلّ ما يدنّسه و يشينه من الغلظة و الفظاظة و سوء الخلق و الحسد و البخل و دناءة الآباء و عهر الاُمّهات [(١)] و الاُنوثة و الخنوثة و العمى والعرج[(٢)] و ما شابه ذلك ، وأن يكون معصوماً عن الذنوب كبائرها وصغائرها ، كلّ ذلك لئلاّ يتنفّر عنه الطباع ، بل تطيعه طوعاً و رغبة و كيف يذنب النبيّ واُصول الذّنوب منحصرة في أربعة : الحرص ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ، ولايجوز أن يكون حريصاً على الدّنيا و هي تحت خاتمه لأنّه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص ، و لايجوز أن يكون حسوداً لأنّ الإنسان إنّما يحسد من فوقه و ليس فوقه أحد ، و لايجوز أن يغضب لشيء من اُمور الدّنيا إلّا بأن يكون غضبه لله تعالى في إقامة الحدود و نحوها ، و لا أن يتّبع الشهوات ويؤثر الدّنيا على الآخرة لأنّ الله عزّوجلّ حبّب إليه الآخرة كما حبّب إلينا الدّنيا [(٣)] فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدّنيا فهل رأيت أحداً يوخّر وجهاً حسناً لوجه قبيح ، و طعاماً طيّباً لطعام مرّ ، وثوباً ليناً لثوب خشن ، ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية ـ كذا قال هشام بن الحكم من أصحابنا في عصمة الإمام[(٤)] .

و قال بعض العلماء : العارف شجاع و كيف لا ؟ و هو بمعزل عن تقيّة الموت ، و جوادٌ و كيف لا و هو بمعزل عن محبّة الباطل ؟ و صفّاح و كيف لا ؟ و نفسه أكبر من أن يخرجها زلّة بشر ، ونسّاء للأحقاد و كيف لا ؟ و ذكره مشغول بالحقّ . انتهى

فكلّ ما ورد في القرآن والحديث من نسبة الذّنوب إلى الأنبياء و الأوصياء عليهم السلام

---

(١) العهر : الفجور ، و العاهر الزاني .

(٢) العرج ـ محركة ـ : أن تطول احدى الرجلين على الاخرى أو أن يصيب شيء فيغمع صاحبها .

(٣) في بعض النسخ [كما حبب اليه الدنيا] .

(٤) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في العيون والعلل والمعاني والامالي كما في البحار ج ٧ ص ٢٢٨ (طبع الكمباني) .

فهو مأوّل كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في نصوص مستفيضة، و أنّهم عليهم السلام لمّا كانوا مستغرقين في طاعة الله عزّ و جلّ فإذا اشتغلوا أحياناً عن ذلك ببعض المباحات زيادة على الضرورة عدّ ذلك ذنباً في حقّهم عليهم السلام هكذا ينبغي أن يعتقد في المصطفين الأخيار سلام الله عليهم.

و في مصباح الشريعة [1] «عن الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ الله عزّ و جلّ مكّن أنبياءه من خزائن لطفه و كرمه و رحمته، و علّمهم من مخزون علمه، و أفردهم من جميع الخلائق لنفسه، فلا يشبه أخلاقهم و أحوالهم أحداً من الخلائق أجمعين إذ جعلهم وسائل سائر الخلق إليه، و جعل حبّهم و طاعتهم سبب رضاه، و خلافهم و إنكارهم سبب سخطه و أمر كلّ قوم باتّباع ملّة رسولهم، ثمّ أبى أن يقبل طاعة أحد إلّا بطاعتهم و تبجيلهم، و معرفة حبّهم و حرمتهم و وقارهم و تعظيمهم و جاههم عندالله، فعظّم جميع أنبياء الله تعالى و لا تنزّلهم منزلة أحد من دونهم، و لا تتصرّف بعقلك في مقاماتهم و أحوالهم و أخلاقهم إلّا ببيان محكم من عند الله و إجماع أهل البصائر بدلائل تتحقّق بها فضائلهم و مراتبهم، وأنّى بالوصول إلى حقيقة ما لهم عندالله تعالى وإن قابلت أقوالهم وأحوالهم [2] بمن دونهم من الناس أجمعين فقد أسأت صحبتهم، وأنكرت معرفتهم، وجهلت خصوصيّتهم بالله و سقطت عن درجة حقائق الإيمان و المعرفة فإيّاك ثمّ إيّاك».

«فصل»

الأنبياء أفضل من الملائكة و لهذا أمر الله عزّ وجلّ الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام قال الله عزّ و جلّ: «إنّ الله اصطفى آدم و نوحاً و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين» [3] و قال نبيّنا صلّى الله عليه و آله لعليّ عليه السلام: «يا عليّ إنّ الله تبارك و تعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين و فضّلني على جميع النبيّين و المرسلين، و الفضل بعدي لك يا عليّ وللأئمّة من بعدك، و إنّ الملائكة لخدّامنا و خدّام محبّينا-

(١) الباب الثامن والستون ص ٤٥.

(٢) في بعض النسخ [أقوالهم و أفعالهم].　(٣) آل عمران: ٣٣.

الحديث - » [1].

و قد ورد أنّ عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف و أربعة و عشرون ألفاً و عدد أوصيائهم كذلك [2] إذ لكلّ نبيّ وصيّ أوصى إليه بأمر الله عزّ و جلّ و كلّهم جاؤوا بالحقّ من عند الحقّ فإنّ قولهم قول الله و أمرهم أمر الله و طاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله، و أنّهم لن ينطقوا إلّا عن الله و وحيه، وسادتهم خمسة و هم الّذين عليهم دارت الرحا وهم أصحاب الشرائع و أولوا العزم: نوح وإبراهيم و موسى وعيسى ونبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله و هو سيّدهم و أفضلهم و خاتمهم، لا نبيّ بعده، ولا تبديل لملّته، و لاتغيير لشريعته، كما قال الله عزّ و جلّ: « ولكن رسول الله وخاتم النبيّين » [3] «جاء بالحقّ و صدّق المرسلين » [4] و إنّ الّذين كذّبوا به لذائقوا العذاب الأليم، و إنّ الّذين آمنوا به و عزّروه و نصروه و اتّبعوا النور الّذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون الفائزون، و الله عزّ و جلّ لم يخلق خلقاً أفضل من محمّد و أوصيائه الأئمّة عليهم السلام، و إنّهم أحبّ الخلق إليه، و أكرمهم عليه، و أوّلهم إقراراً به لمّا أخذ الله ميثاق النبيّين وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى وأنّ الله بعثه إلى الأنبياء عليهم السلام في الذرّ كما قال عزّ وجلّ: « هذا نذير من النذر الأولى» [5] فسائر الأنبياء أُمّته وإنّما أعطى الله كلّ نبيّ ما أعطى على قدر معرفته بنبيّنا صلى الله عليه وآله و سبقه إلى الإقرار به، و إنّما خلق الله جميع ما خلق له و لأهل بيته صلوات الله عليهم ولولاهم لمّا خلق الله آدم ولا حوّاء ولا الملائكة ولا شيئاً ممّا خلق.

﴿ فصل ﴾

قال أبو حامد في كتاب آداب المعيشة و أخلاق النبوّة من ربع العادات: « اعلم

(١) رواه الصدوق - رحمه الله - في العيون و العلل و كمال الدين كما في البحار ج٧ ص ٣٥٣ (طبع الكمباني).
(٢) رواه الصدوق في الخصال ج٢ ص١٧٢ وأيضاً في الامالي ص ١٤٢.
(٣) الاحزاب: ٤١.
(٤) الصافات: ٣٧.
(٥) النجم: ٥٦.

أنّ مَن شاهد أحوال نبيّنا ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره الدّالة على أخلاقه و أفعاله و أحواله و آدابه و عاداته و سجاياه و سياسته لأصناف الخلق و هدايته إلى ضبطهم و التألّف بينهم و قوده إيّاهم إلى طاعته مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضائق الأسولة و بدائع تدبيراته في مصالح الخلق و محاسن إشاراته في تفصيل مسائل الشرع الّذي يعجز الفقهاء و الفضلاء عن إدراك دقائقها في طول أعمارهم لم يبق له ريب و لا شكّ في أنّ ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوّة البشريّة بل لا يتصوّر ذلك إلّا بالاستمداد من تأييد سماويّ وقوّة إلهيّة و أنّ ذلك كلّه لا يتصوّر لكذّاب ولا لملبّس، بل كانت شمائله و أحواله شواهد قاطعة بصدقه حتّى أنّ العرب القحّ كان يراه فيقول: و الله ما هذا وجه كذّاب فكان يشهد له بالصدق بمجرّد شمائله فكيف بمن يشاهد أخلاقه و يمارس في جميع مصادره و موارده، وقد آتاه الله جميع ذلك و هو لم يمارس العلم، و لم يطالع الكتب، و لم يسافر قطّ في طلب العلم، ولم يزل بين أظهر الجهّال من الأعراب يتيماً ضعيفاً مستضعفاً فمن أين حصل له ما حصل من محاسن الأخلاق و الآداب و معرفة مصالح الفقه مثلاً فقطّ دون غيره من العلوم فضلاً عن معرفته بالله و ملائكته و كتبه و رسله و غير ذلك من خواصّ النبوّة؟ لولا صريح الوحي و من أين لبشر الاستقلال لذلك، فلولم يكن له إلّا هذه الاُمور الظاهرة لكان فيه كفاية، و قد ظهر من معجزاته و آياته مالا يستريب فيه محصّل كانشقاق القمر، و نبوع الماء من بين أصابعه، و إطعام الكثيرمن الطعام القليل، و غير ذلك ممّا لا يحصى كثرة، و منها القرآن العزيز الباقي إلى آخر الدهر الّذي تحدّى به بلغاء الخلق و فصحاء العرب، و كان ينادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة مثله إن شكّوا، و قال لهم: «لئن اجتمعت الإنس و الجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[1] و قال ذلك تعجيزاً لهم، فعجزوا عن ذلك و صرفوا عنه حتّى عرضوا أنفسهم للقتل و نساءهم و ذراريهم للسبي و ما استطاعوا أن يعارضوا و لا أن يقدحوا في جزالته وحسنه إلّا أن قالوا: «إن هذا إلّا سحرٌ يؤثر» و «سحرٌ مستمرٌّ» و نحوذلك.

(١) الاسراء: ٨٨.

أقول : و قد اشتمل القرآن على وجوه كثيرة من الإعجاز غير البلاغة و قد ذكرناها في كتابنا المسمّى بعلم اليقين مع تفاصيل سائر المعجزات .

«فصل»

القرآن كلام الله و وحيه و قوله و كتابه « لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » و انّه القصص الحقّ و أنّه قول فصل و ما هو بالهزل ، و إنّ الله تبارك و تعالى محدثه و منزله و ربّه و حافظه و هو المهيمن على الكتب كلّها ، و أنّه حقّ من فاتحته إلى خاتمته ، نؤمن بمحكمه ومتشابهه ، وخاصّه و عامّه ، و وعده ووعيده و ناسخه و منسوخه ، وقصصه وأخباره ، لايقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله .

وجميع ماجاء به نبيّنا صلّى الله عليه وآله هو الحقّ المبين الّذي لامرية فيه ، ومن أنكر شيئاً منه بعد إقراره بأنّه ممّا جاء به فقد كفر ، ومنه حكاية المعراج كما ذكره الله عزّ وجلّ بقوله : «سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذي باركنا حوله »[1] و بقوله عزّ وجلّ « ثمّ دنا فتدلّى * فكان قاب قوسين أو أدنى - الآيات - » [2] وقد أخبر النبيّ صلّى الله عليه وآله بعد رجوعه منه بما ظهر منه صدقه و حقيقته ، و نبوّة نبيّنا صلّى الله عليه وآله عامّة لجميع الناس كما قال الله عزّ و جلّ : « و ما أرسلناك إلّا كافّة للناس بشيراً و نذيراً » [3] بل للجنّ و الإنس كما قال عزّ وجلّ : « أجيبوا داعي الله وآمنوا به»[4] حكاية عنهم ، و كما أنّه صلّى الله عليه وآله سيّد الأنبياء فكذلك أوصياؤه خير الأوصياء ، و كتابه خير الكتب و المهيمن عليها كلّها ، و دينه خير الأديان و ناسخها ، و اُمّته خير الاُمم و أوسطها كما قال عزّوجلّ : « كنتم خير اُمّة اُخرجت للنّاس» [5] « و كذلك جعلناكم اُمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرّسول عليكم شهيداً » [6] .

---

(١) الاسراء : ٢ .
(٢) النجم : ٩ و ١٠ .
(٣) سبأ : ٢٨ .
(٤) الاحقاف : ٣٠ .
(٥) آل عمران : ١١٠ .
(٦) البقرة : ١٤٣ .

﴿ الباب الخامس ﴾

✿ (في الامامة) ✿

أنّ ما ذكرناه في بيان الاضطرار إلى النبيّ فهو بعينه جار في الاضطرار إلى وصيّه وخليفته من بعده إلى ظهور نبيّ آخر لأنّ الاحتياج إليهم غير مختصّ بوقت دون آخر، و في حالة دون اُخرى، ولا يكفي بقاء الكتب و الشرائع من دون قيّم لها، عالم بها، ألا ترى إلى الفرق المختلفة كيف يستندون في مذاهبهم كلّها إلى كتاب الله لجهلهم بمعانيه وزيغ قلوبهم و تشتّت أهوائهم، فظهر أنّه لابدّ لكلّ نبيّ مرسل بكتاب من عند الله عزّ و جلّ أن ينصب وصيّاً يودع فيه أسرار نبوّته و أسرار الكتاب المنزل عليه ويكشف له مبهمه ليكون ذلك الوصيّ هو حجّة ذلك النبيّ على قومه، و لئلاّ يتصرّف الاُمّة في ذلك الكتاب بآرائها و عقولها فتختلف و تزيغ قلوبها كما أخبر الله عزّ و جلّ به فقال: «هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ اُمّ الكتاب و اُخر متشابهات فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله إلّا الله و الراسخون في العلم»[1] فالرسول و الوصيّ و الكتاب هو الحجّة على الاُمّة ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عن بيّنة، و هذا كما فعل آدم بشيث، و نوح بسام، و إبراهيم بإسحاق، و موسى بيوشع، و عيسى بشمعون، و نبيّنا صلى الله عليه وآله بعليّ عليه السلام.

و أيضاً وجود الإمام لطف من الله سبحانه بعبيده إذ بوجوده يجتمع شملهم، و يتّصل حبلهم، و ينتصف الضعيف من القويّ، و الفقير من الغنيّ، و يرتدع الجاهل، و يتيقّظ الغافل، قال الله تعالى: «و إن من اُمّة إلّا خلا فيها نذير»[2] و قال عزّ و جلّ: «ولكلّ قوم هاد»[3] و قال: «و يوم نبعث من كلّ اُمّة شهيداً عليهم من

(١) آل عمران: ٦. (٢) الفاطر: ٢٣.
(٣) الرعد: ٧.

أنفسهم و جئنا بك شهيداً على هؤلاء » [1] .

و قال النبيّ ﷺ : « في كلّ خلف من اُمّتي عدول من أهل بيتي ينفون عن الدين تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين » [2] فإذا عدم الإمام تعطّل أكثر أحكام الدّين فينتفي الفائدة المقصودة منها ، و من أجل ذلك أوصى نبيّنا ﷺ إلى معصوم عدل من أهل بيته طهّره الله من الرجس تطهيراً ، و نزّهه عن الخطأ ، آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، و علّمه من لدنه علم ما يحتاج إليه الاُمّة في كلّ باب ، وعلّمه رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح له من كلّ باب ألف باب ، فخلّفه في اُمّته بعد رحلته بأمر من الله سبحانه و اختيار منه تعالى إيّاه لئلاّ يضلّوا بعده .

ثمّ أكّد تلك الوصيّة بالنصّ عليها مرّة بعد اُولى بمشهد من الناس حتّى لم يخف ذلك على أحد في زمانه و لا على اُولي البصائر من بعده ، و حديث يوم الغدير في ذلك مشهور و أخبار اُخر فيه في كثير من الكتب مسطورة ، وأمّا التمسّك بالإجماع على خلافة أبي بكر بعد هذه النصوص فمثله كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت و كيف صحّ ذلك و الله سبحانه يقول : « و ربّك يخلق ما يشاء و يختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله و تعالى عمّا يشركون » [3] و قال عزّ وجلّ : « و ربّك يعلم ما تكنّ صدورهم و ما يعلنون » [4] و معلوم عند أهل البصيرة أنّ الناس لا يتّفق آراؤهم في أمر يسير إلّا بنحو من الغلبة أو التقليد فكيف يجوز اتّفاقهم جميعاً في هذا الأمر الخطير مع تباينهم الشديد قال الله تعالى : «ولا يزالون مختلفين» [5] و هب أنّهم اتّفقوا

---

(١) النحل : ٨٩ .

(٢) رواه الحميري في قرب الاسناد عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة . وأخرجه البيهقي في المدخل كما في مشكاة المصابيح ص ٣٦ . وابن قتيبة الدينوري في عيون الاخبار كتاب العلم ص ٥ بادنى اختلاف ، و روى الكليني في الكافي ج ١ ص ٣٢ « عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ان لنا أهل البيت في كل خلف عدولا ـ الحديث ـ » . و روى الصدوق في المعاني ص ٣٤ عن النبي (ص) قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ـ الحديث ـ .

(٣) القصص : ٦٩ . (٤) القصص : ٧٠ .

(٥) هود : ١١٧ .

فكيف لهم باختيار الأصلح و ليس لهم سبيل إلى الإطّلاع على الباطن و مكنون السريرة ، هذا كليم الله عليه السلام مع نبوته و رسالته و كلامه مع الله اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربّه فرفع اختياره على الأفسد دون الأصلح ، و هذا نبيّنا صلى الله عليه وآله كان ممّن حوله «منافقون و من أهل المدينة مردوا على النفاق لا يعلمهم» هو بالنفاق فخاطبه الله تعالى بقوله : «لا تعلمهم نحن نعلمهم» (١) فكيف يجوز لآحاد الناس معرفة الأصلح فلعلّهم يختارون منافقاً مضلاًّ لا يعرفون نفاقه ومكره فيفسد الأمّة بفساد ضميره ، كلاّ بل لا يجوز الاختيار إلّا لمن يعلم ما تخفي الصدور وتكنّ الضمائر وليس إلّا الله عزّ و جلّ ، « و ما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله » .

و عن السجّاد عليه السلام « الإمام منّا لا يكون إلّا معصوماً و ليست العصمة في ظاهر الخلقة فتعرف ، و لذلك لا يكون إلّا منصوصاً » (٢) .

و أمّا غيبة بعض الأئمّة في بعض الأحيان و عدم تمكّنه من إجراء الأحكام فإنّما ذلك من جهة الرعيّة دون الإمام ، فليس ذلك نقضاً على لطف الله تعالى ، فإنّما على الله إيجاد الإمام للرعيّة ليجمع به شملهم ، فإن لم يمكّنوه من فعله لعدم قابليّتهم و سوء استعدادهم فما على الله من ذلك حجّة « فما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون » مع أنّ ما في غيبته من الخيرات و الحكم من تضاعيف مثوبات المؤمنين بها المصدّقين بوجود الإمام في أعمالهم الصالحات ما يسهل معها فوات إقامة الحدود ونحوها .

﴿ فصل ﴾

و بعبارة أخرى نقول : يجب أن يكون الإمام أفضل أهل زمانه و أقربهم إلى الله عزّ و جلّ ، وأن يجمع فيه خصال الخير المتفرّقة في غيره ، مثل العلم بكتاب الله تعالى و سنّة رسوله صلى الله عليه وآله ، و الفقه في دين الله تعالى ، والجهاد في سبيل الله ، و الرغبة فيما عند

(١) التوبة : ١٠١ .

(٢) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في المعاني ص ١٣٢ .

الله ، و الزهد فيما بيد خلق الله إلى غير ذلك من الخيرات ، و أن يكون معصوماً من الزيغ و الزلل و الخطأ في القول و العمل ، منزّهاً عن أن يحكم بالهوى ، أو يميل إلى الدنيا لما ذكرناه في النبيّ صلى الله عليه وآله بعينه ، و بالجملة كلّ ما اشترط في النبيّ صلى الله عليه وآله من الصفات فهو شرط في الإمام ما خلا النبوّة ؛ و قال الصادق عليه السلام : « كلّ ماكان لرسول الله صلى الله عليه وآله فلنا مثله إلّا النبوّة و الأزواج » (١) و لا يوصل إلى معرفة هذه الخصال المحمودة ، و الخلال المعدودة إلّا بوحي من الله سبحانه إلى رسوله لامتناع الإطّلاع على البواطن ، و لذلك أوحى الله تعالى إلى نبيّنا صلى الله عليه وآله في عليّ عليه السلام بآية « إنّما وليّكم الله » (٢) وآية « بلّغ ما اُنزل إليك » (٣) و غيرهما فإذا ظهر الوحي وجب على الرسول أن ينصّ على من يخلفه بعد وفاته ، إمّا قولاً كقول نبيّنا صلى الله عليه وآله : « من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه » (٤) و قوله : « معاشر أصحابي إنّ عليّ بن أبي طالب وصيّي و خليفتي عليكم في حياتي و بعد مماتي ، و هو الصدّيق الأكبر ، و الفاروق الأعظم ، الّذي يفرّق بين الحقّ و الباطل ، و هو باب الله الّذي يؤتى منه ، و هو السبيل إليه و الدليل عليه ، من عرفه فقد عرفني ، ومن أنكره فقد أنكرني ، ومن تبعه فقد تبعني» (٥) و إمّا فعلاً كفعل نبيّنا صلى الله عليه وآله بعليّ عليه السلام حيث ولّاه سراياه و جيوشه ، و سيّرهم تحت رايته ولم يولّ عليه أحداً قطّ ، ولم يكن كمن سار تحت راية عمرو بن العاص و اُسامة بن زيد و غيرهما ، و قد علم أصحابه أنّه كان أميراً في جيوشه غير مؤمّر عليه و كيف لا يوصي النبيّ صلى الله عليه وآله بمثل هذا الأمر العظيم ؟ و قد أمر عامّة الناس بالوصيّة فيما هو أهون من ذلك ، وحثّوا عليها و اُكّدلهم أمرها في الشرائع .

و اما اختلاف أصحاب نبيّنا صلى الله عليه وآله في أمر الخلافة من بعده فلا دلالة فيه على عدم وقوع النصّ منه صلى الله عليه وآله ، بل إنّما كان ذلك لغلبة حبّ الرئاسة و الحسد على بعضهم ، فاحتالوا لذلك حيلاً و خدائع فلبّسوا الأمر على أكثر الناس من بعد وقوع

---

(١) ما عثرت على أصل له .

(٢) المائدة : ٥٥ . (٣) المائدة : ٦٧ .

(٤) راجع معاني الاخبار للصدوق ـ رحمه الله ـ ص ٦٥ الى ٧٤ .

(٥) راجع بحار الانوار ج ٩ (طبع الكمباني) باب النص على اميرالمؤمنين عليه السلام .

النصّ الصريح مرّة بعد اُخرى ، و سماعهم ذلك كرّة بعد اُولى ، فجحدوا ما علموه ، و بدّلوا ما سمعوه ، و أنكروا ما ثبت في أعناقهم من حقّ أمير المؤمنين عليه السلام و ادّعوا التأمّر على الناس ، و تسمّوا زوراً و بهتاناً بخلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله بغير قدم راسخ في علم و لا سبق في فضل ، بل بالحيل والخدائع والممالات من أرباب الدخول و الأحقاد[١] ، الّذين قالوا : آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، و من الشواهد على ذلك عقدهم للبيعة في السقيفة ، و ما أدراك ما السقيفة !!! أعرضوا عن تغسيل رسول الله صلى الله عليه وآله وتكفينه و دفنه و الفجيعة به ، و اشتغلوا بتهيئة أسباب الإمارة ، و تهييج ذوي الأحقاد على أمير المؤمنين عليه السلام ، الّذين إنّما أسلموا خوفاً من سيفه بعد أن قتل آباءهم و أبناءهم بيده في مواقف النزال إلى غير ذلك من الاُمور المنكرة الشنيعة الفاضحة ، و من تتبّع أخبار العامّة أنفسهم حقّ التتبّع ، يظهر له عدم تحقّق الإجماع على خلافة أبي بكر كما أنّه لم يقع نصّ من الله و رسوله عليها ، و ذلك لأنّه لم يشهد حلقة البيعة ذات الغرور ، ولم يحضر ما سمّي إجماعاً بالزور أجلّة الأصحاب ولا مشاهيرهم الكبار ، الّذين لا يعبؤ إلّا بهم ولا تعويل إلّا عليهم كما اعترف به ثقات المخالفين و رواتهم كصاحب الحقّ و أهله[٢] ، و عمّه العبّاس و أبنائه ، و سلمان ، و أبي ذرّ ، و المقداد ، و عمّار ، و حذيفة ، و أبي بريدة الأسلميّ ، و اُبيّ بن كعب ، و خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ، و أبي الهيثم بن التيّهان ، وسهل بن حنيف ، و عثمان بن حنيف ، و أبي أيّوب الانصاريّ ، ولا طائفة من المعتبرين عندهم كالزبير المبشّر له بالجنّة بزعمهم [٣] و اُسامة صاحب الجيش الّذي كان أميراً عليهم يومئذ ، و سعد بن عبادة رأس الأنصار ، و ابنه قيس ، و خالد بن سعيد ، و زيد بن أرقم ، و سعد بن سعيد ، و بني حنيفة و غيرهم ، و إنّما أخذوا البيعة عن بعض هؤلاء بالوعيد و التهديد ولو بعد حين ، و منهم من أصرّ على الإنكار إلى يوم الدّين ،

(١) مالاته على الامر ممالاة ساعدته عليه. والدخل - محركة - العيب والغش والفساد .

(٢) يعني به علياً عليه السلام و أهل بيته صلوات الله عليهم .

(٣) لانهم عدوا الزبير قاطبة من العشرة المبشرة كما في رياض النضرة لمحب الدين الطبري ص ٧ و غيره .

و قد ذكر قتيبة [١] من علمائهم في كتابه ثمانية عشر رجلاً ممّن ذكرنا قال : و كانوا رافضة . و يشهد لذلك تخالفهم و تنازعهم واستحلال بعضهم دماء بعض و وقوع قتل بعضهم على أيدي بعض كما تواترت به الأخبار ولم يخف على ذوي الأبصار .

قال أبو حامد في كتابه المسمّى بسرّ العالمين وكشف الدّارين [٢] في مقالته الرابعة الّتي وضعها لتحقيق أمر الخلافة بعد الأبحاث و ذكر الاختلافات فيها ما هذه عبارته : « لكن أسفرت الحجّة وجهها ، وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته يوم غدير خمّ و هو صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فقال عمر بخّ بخّ لك يا أبا الحسن لقد أصبحت مولاي و مولى كلّ مؤمن و مؤمنة . فهذا تسليم ورضى وتحكيم ، ثمّ بعد هذا غلب الهوى و حبّ الرئاسة و حمل عمود الخلافة و نبوذ العقود في خفقان الهواء في قعقعة الرايات ، و اشتباك ازدحام الخيول ، و فتح الأمصار ، و الأمر و النهي ، فعادوا إلى الخلاف الأوّل فنبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما يشترون ، و لمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وقت وفاته : ايتوني بدواة و بياض لأزيل عنكم مشكل الأمر و أذكر لكم من المستحقّ لها بعدي . قال عمر : دعوا الرجل فإنّه ليهجر وقيل : يهذي » .

ثمّ قال : « فإذا بطل تعلّقكم بتأويل النصوص فعدتم إلى الإجماع و هذا منقوض أيضاً فإنّ العبّاس و أولاده و عليّاً و زوجته لم يحضروا حلقة البيعة و خالفكم [٣] أصحاب السقيفة في مبايعة الخزرجيّ ، و دخل محمّد بن أبي بكر على أبيه في مرض موته فقال : يا بنيّ ايت بعمّك عمر لأوصي له فقال : يا أبت كنت على حقّ أو باطل ؟ فقال على حقّ ، فقال : أوص بها لأولادك إن كان حقّاً [٤] ، ثمّ خرج إلى عليّ فجرى ما جرى و قوله على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أقيلوني أقيلوني فلست بخيركم و عليّ فيكم . أفقاله هزلاً ، أو جدّاً ، أو امتحاناً ؟ فإن كان هزلاً فالخلفاء منزّهون عن الهزل ، و إن قاله جدّاً فهو نقض للخلافة و إن قاله امتحاناً فالصحابة لا يليق بهم الامتحان » انتهى كلامه .

---

(١) كذا فى جميع النسخ التى عندنا و لعل المراد « ابن قتيبة الدينورى » و لكن مايوجد فى « الامامة و السياسة » ولا فى « المعارف » هذا الكلام .

(٢) سر العالمين ص ١٥ من طبع طهران .

(٣) كذا و هكذا فى الاصل أيضاً و فى نسخة من الكتاب « خالفهم » .

(٤) هذا لايلائم سن محمد .

أقول : و قد صنّف بعض أصحابنا ـ رحمه الله ـ كتاباً في بيان وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و ما تقدّم منه من النصّ المتواتر على أهل بيته في وصايته و ماجرى بين الصحابة من التشاجر و الاختلاف في الخلافة بعد وفاته بترتيب حسن و سياق لطيف سمّاه (التهاب نيران الأحزان) أوردنا شطراً صالحاً منه في كتابنا الموسوم بعلم اليقين[1] من أراد الإطّلاع عليه فيرجع إليه .

ثمّ أقول : و مطاعن الثلاثة أكثر من أن تحصى و أشهر من أن تخفى و كفاك منها تخلّفهم عن جيش اُسامة مع علمهم بقصد التنفيذ و تأكيده صلّى الله عليه وآله وسلّم ذلك باللّعن[2]، ومنع أبي بكر فاطمة عليها السلام فدك مع ادّعائها النحلة لها و شهادة عليّ عليه السلام و اُمّ أيمن بذلك[3] وعدم تصديقه لهم و تصديقه الأزواج في إدّعاء الحجرة لهنّ من غير شاهد و لهذا ردّها عمر بن عبد العزيز ، و أوصت فاطمة عليها السلام أن لا يصلّي عليها فدفنت ليلاً[4] ، و قوله : إنّ له شيطاناً يعتريه[5] ، و قول عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرّها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه[6]، و شكّه عند موته في استحقاقه للإمامة[7] ، وعدم معرفته بالأحكام حتّى قطع يسار سارق[8] ، و أحرق رجلاً بالنّار[9] ، و لم يعرف الكلالة

(١) ص ١٤٢ من طبعه الملحق بعين اليقين .

(٢) راجع طبقات ابن سعد طبع ليدن ج٢ القسم الثاني ص١٣٦ وج٤ القسم الاول ص ٤٦ أيضاً تهذيب ابن عساكر ج ٢ ص ٣٩١ ، و أيضاً كنز العمال ج ٥ ص ٣١٢ .

(٣) راجع شرح النهج لابن ابي الحديد ج ٤ ص ٧٨ الى ١٠٦ نقلها من كتاب السقيفة لابى بكر احمد بن عبدالعزيز الجوهرى .

(٤) حلية الاولياء ج٢ ص ٤٣ ، اسدالغابة ج ٥ ص٢٥٤ ، ارشادالسارى للقسطلانى ج ٦ ص ٣٦٢ .

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧١ . نقله عن ابن سعد . وشرح التجريد للقوشجى ص ٤٠٦ طبع طهران .

(٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٥٧ ط ١٣٧٥ ، صحيح البخارى كتاب الحدود باب رجم الحبلى من الزنى ، كنزالعمال ج ٣ ص ١٣٩ ، الصواعق المحرقة ص ٢١ .

(٧) الغدير ج ٧ ص ١٧١ نقله عن كتاب الاموال لابى عبيدة و تاريخ الطبرى ومروج الذهب والامامة والسياسة و العقد الفريد . (٨) سنن البيهقى ج ٨ ص ٢٧٣ .

(٩) الامامة و السياسة ج ١ ص١٨ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٨ .

و لا ميراث الجدّة ، و اضطرب في كثير منها [١] ، و لم يحدّ خالداً ولا اقتصّ منه [٢] ، و بعثه إلى بيت أمير المؤمنين عليه السلام لمّا امتنع من البيعة فأضرم فيه النّار و فيه فاطمة عليها السلام و جماعة من بني هاشم [٣] ، و ندمه على كشف بيت فاطمة [٤] ، وأمر عمر برجم امرأة حاملة و اُخرى مجنونة و اُخري ولدت لستّة أشهر [٥] ، فنهاه عليّ عليه السلام بعد الحجة والإلزام فقال عمر : لولا عليّ لهلك عمر كما قاله في وقائع اُخر ، وشكّه في موت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى تلا عليه أبوبكر : « إنّك ميّت و إنّهم ميّتون » فقال : كأنّي لم أسمع بهذه الآية [٦] ، و قوله : كلّ الناس أفقه من عمر حتّى المخدّرات في الحجال [٧] ، و تغييره كثيراً من حدود الله المذكورة في القرآن بالآي الصراح و سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثابتة بالنصوص المرويّة عندهم في الصحاح و ذلك كما مرّ في الوضوء بغسل الرجلين ، و مسح الاُذنين ، و المسح على العمامة و الخفّين [٨] ، و إيجابه الوضوء مع غسل الجنابة ، و نهيه عن « حيّ على خير العمل » في الأذان و زيادته « الصلاة خير من

(١) سنن الدارمى ج ٢ ص٣٥٢ ، صحيح البخارى باب ميراث الجد .

(٢) راجع قصة مالك بن نويرة الاصابة ج١ ص ٣١٤ . اسدالغابة ج ٤ ص ٢٩٥ .

(٣) الامامة والسياسة ج١ ص ١٢ ، شرح التجريد للقوشجى ص ٤٠٧ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٩ .

(٥) الدر المنثور ج ١ ص ٢٨٨ ، شرح النهج لابن أبي‌الحديد ج ٣ ص ١٥١ ، الاختصاص ص ١١١ ، تذكرة السبط ص ٨٧ .

(٦) كنزالعمال على متقى ج ٤ ص ٥٣ ، تاريخ الذهبى ج١ ص ٣١٧ ، طبقات ابن سعد ج ٢ القسم الثانى ص ٥٣ .

(٧) مجمع الزوائد ج ٤ ص ٢٨٣ ، الدر المنثور ج ١ ص ١٣٣ ، و أورده ابن كثيرفي تفسيره ج ١ ص ٤٦٧ ، وشرح ابن ابي‌الحديد ج١ ص ١٥٣ .

(٨) راجع كتاب الاستغاثة لابى‌القاسم احمدبن موسى المتوفى ٣٥٢ ص٣٠ و٣١ .

و لا يقال : انه ورد فى كل ذلك أخبار عن النبى‌صلى‌الله عليه وآله لان تلك الاخبار مع ضعف أكثرها وتعارضها مخالفة للقرآن و قدأمرنا أن‌نضرب‌بها بالجدار .

النوم» في أذان الفجر [١]، و تقديمه التسليم الّذي للتحليل على التشهّد الأوّل في الصلاة [٢]، و حمله الناس على الجماعة في النوافل و على صلاة الضحى [٣] و جعله التكبير على الجنائز أربعاً [٤]، و ردّه مقام إبراهيم إلى ما كان في الجاهليّة [٥] و وضعه الخراج على غير الأرضين [٦] و إعطائه غير المستحقّين بالدواوين [٧] و تغييره صاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٨] و حكمه بالعول و التعصيب في الميراث [٩]، وقضاؤه في قطع السارق من معصم الكفّ و مفصل الساق خلافاً لما أمر به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من ترك الكفّ والعقب [١٠] و إنفاذه في الطلاق الثلاث المرسلة [١١]، و منعه عن بيع أمّهات الأولاد و إن مات الولد و قال: هذا رأي رأيته [١٢]، و عن تزويج غير قريش في قريش و العجم في العرب [١٣]،

---

(١) شرح التجريد للقوشجي الاشعرى ص ٤٠٧ من طبع ايران، كتاب الموطأ لابن مالك باب ما جاء فى النداء للصلاة، شرح الزرقانى للموطأ حيث قال عند بلوغه الى هذا الحديث: أخرجه الدار قطنى فى السنن من طريق وكيع فى مصنفه عن العمرى عن نافع عن ابن عمر عن عمر. قال وأخرج عن سفيان عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر عن عمر أنه قال لمؤذنه: اذا بلغت «حى على الفلاح» فى الفجر فقل: «الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم». (٢) الاستغاثة ص ٣٣.

(٣) شرح ابن ابى الحديد للنهج ج ٣ ص ١٧٨.

(٤) راجع الغدير ج ٦ ص ٢٤٤ نقله عن سنن البيهقى ج ٤ ص ٣٧. وفتح البارى ج ٣ ص ١٥٧ وارشاد السارى ج ٢ ص ٤١٧.

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٣٧ ذكره فى أوليات الخليفة.

(٦) شرح النهج لابن أبى الحديد ج ٣ ص ١٧٨.

(٧) شرح النهج ج ٣ ص ١٥٣، تاريخ الخلفاء ص ١٣٧.

(٨) راجع روضة الكافى ص ٥٩.

(٩) تاريخ الخلفاء ص ١٣٧، أحكام القرآن للجصاص ج ٢ ص ١٠٩.

(١٠) الاستغاثة ص ٤٧.

(١١) الدر المنثور ج ١ ص ٢٧٩، مسند أحمد ج ١ ص ٣١٤.

(١٢) تاريخ الخلفاء ص ١٣٧، الاستغاثة ص ٥١ و ٥٢.

(١٣) الاستغاثة ص ٥٣.

و منعه المتعتين مع اعترافه بأنّهما كانتا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله [١] ، و منعه أهل البيت عليهم السلام من خمسهم [٢] ، و خرقه كتاب فاطمة عليها السلام [٣] ، و جعله الخلافة شورى بين ستّة شهد لهم بأنّهم من أهل الجنّة و أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راض ، ثمّ أمر بضرب أعناقهم جميعاً إن لم يبايعوا واحداً منهم إلى غير ذلك [٤] .

و تولية عثمان من ظهر فسقه حتّى أحدثوا في أمر المسلمين ما أحدثوا ، و ردّه طلقاء الرسول و إيثاره أهله بالأموال العظيمة [٥] و ضربه ابن مسعود حتّى مات [٦] ، و إحراقه مصحفه [٧] ، و ضربه عمّار حتّى أصابه فتق [٨] ، وضربه أبا ذرّ ، و نفيه إيّاه إلى الرّبذة [٩] ، و إسقاط الحدّ عن الوليد [١٠] ، و القود عن ابن عمر [١١] ، و خذلان الصحابة له حتّى قتل وقال أمير المؤمنين عليه السلام : قتله الله [١٢] و لم يدفن إلى ثلاث . إلى غير ذلك من المناكير الّتي يحصل بها الجزم بنفاقهم و شقاقهم ، هذا مع ما ورد من طريق أهل البيت عليهم السلام من النصوص و التصريحات بسبّهم و لعنهم و كفرهم ما يكاد يخرج عن حدّ التواتر و لا سيّما شكايات أمير المؤمنين عليه السلام عنهم تصريحاً و تلويحاً في خطبه

---

(١) شرح التجريد للقوشجي ص ٤٠٨ ، الدر المنثور ج ٣ ص١٨٥ ، تفسير الكبير عند قوله تعالى : «فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن » ، مسند احمد ج ١ ص ٥٠ .

(٢) الكافي ج٨ ص ٦١ و ٦٣ ، الاستغاثة ص ٤٠ والدر المنثور ج ٣ ص ١٨٥ .

(٣) الاختصاص للمفيد ص ١٨٥ .

(٤) راجع قصة الشورى الامامة والسياسة ص ٢٣ و شرح النهج الحديدى ج ٣ص ١٦٩ و الصواعق ص ١٠٢ .

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٥٧ .

(٦) راجع الغدير ج ٩ ص ٣ الى ١٤ .

(٧) شرح ابن أبى الحديد ج١ ص ٢٣٦ ، الاستغاثة ص ٦١ .

(٨) الانساب للبلاذرى ج ٥ ص ٤٨ ، مروج الذهب ج٢ ص ٣٥١ .

(٩) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٨ ، و شرح النهج الحديدى ج ١ ص ٢٤٠ .

(١٠) الانساب للبلاذرى ج ٥ ص ٣٣ .

(١١) الشافى للسيد المرتضى ص ٢٨١ ، شرح النهج الحديدى ج ١ ص ٢٤٢ .

(١٢) روضة الكافى ص ٦٧ .

و كلماته في هذا الأمر خاصّة .

هذا مع كثرة فضائل أمير المؤمنين عليه السلام و شدّة جهاده و عظيم بلائه في وقائع النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم و عدم بلوغ أحد درجته في غزاة بدر و الأحزاب و خيبر و حنين و غيرها في شجاعته البالغة و قوّة حدسه و شدّة ملازمته للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و تربيته إيّاه مذ حين الصبا إلى أن خلّفه بعده ، و رجوع الصحابة إليه في أكثر الوقائع بعد غلطهم ، و استناد الفضلاء في جميع العلوم إليه ، و كونه أسخاهم و أزهدهم و أعبدهم و أحلمهم ، و أحسنهم خلقاً ، و أطلقهم وجهاً ، و أقدمهم إيماناً ، و أفصحهم لساناً ، و أصدقهم قولاً ، و أقلّهم كلاماً ، و أصوبهم منطقاً ، و أشجعهم قلباً ، و أشدّهم يقيناً ، و أحسنهم عملاً ، و أعظمهم عناء ، وأرفعهم نسباً ، و أشرفهم منزلة ، وأقضاهم قضاء ، و أسدّهم رأياً ، و أكثرهم حرصاً على إقامة حدود الله ، و أحفظهم لكتاب الله ، و إخباره بالغيب مراراً ، و استجابة دعائه كثيراً ، و ظهور المعجزات عنه ، و اختصاصه بالقرابة و الأخوّة ، و وجوب المحبّة و النصرة و مساواة الأنبياء عليهم السلام ، و مواساة النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم ، و خبر الطائر ، و المنزلة ، والغدير [1] ، و حديث الكساء في آية المباهلةو التطهير [2] ، و غيرها و لانتفاء سبق كفره ، و كثرة الانتفاع به ، و تميّزه بالكمالات النفسانيّة و البدنيّة و الخارجيّة .

واعلم أنّ ابتلاء الله سبحانه أنبياءه و أولياءه سنّة ماضية في الأمم الخالية ، لم تزل جرت على منوال واحد ولن تجد لسنّة الله تبديلاً و هذا ممّا يزيل بعض التعجّب من ضلال أكثر هذه الأمّة عن الصواب و غلبة الباطل على الحقّ في ظاهر الأسباب فإنّ آدم كان له ولدان فغلب مبطلهما على محقّهما ، و بقيت أمّة شيث و من بعده في تقيّة مغلوبين إلى أن جاءت نبوّة نوح عليه السلام فلم يزالوا عليه مستظهرين و له معاندين إلى أن أهلكهم الله بالغرق الشامل و الهلاك الهائل ، وكذا جرى لصالح و هود و لوط عليهم السلام مع أممهم و لإبراهيم عليه السلام مع نمرود و لموسى عليه السلام مع فرعون و لعيسى عليه السلام

(١) راجع خصائص النسائي طبع النجف ص ١٩ والتمهيد للباقلاني ، و راجع الغدير أيضاً المجلد الاول والثاني والثالث و الصواعق لابن حجر .

(٢) راجع تفسير الكشاف ذيل آية المباهلة ج١ص٢٨٣ و قال الحافظ العسقلاني : أخرجه مسلم من طريق صفية بنت شيبة عنها و غفل الحاكم فاستدركه .

مع اليهود و ما انقادوا لأحد من الأنبياء عليهم السلام إلّا بالآيات و القهر و المثلات ، فأيّ أُمّة استقامت بالسلامة و العافية حتّى يستقيم هذه الأُمّة بطاعة الله و طاعة الأئمّة و إن شئت أن تسمع شيئاً ممّا فعله طائفة من الصحابة و التابعين ليكون أُنموذجاً لأفعالهم الشنيعة فاصغ إلى حديث سليم بن قيس الهلالي على ما أورده الشيخ الطبرسي في كتاب الاحتجاج (١) « قال : سليم إنّ منادي معاوية نادى أن برئت الذّمة ممّن روى حديثاً من مناقب علي وفضل أهل بيته ، وكان أشدّ الناس بليّة أهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة ، فاستعمل زياد بن أبيه و ضمّ إليه العراقين ـ الكوفة و البصرة ـ فجعل يتتبّع الشيعة ، و هو بهم عارف ، يقتلهم تحت كلّ حجر ومدر و أخافهم وقطع الأيدي والأرجل و صلبهم في جذوع النخل ، و سمل أعينهم ، و طردهم حتّى نفوا عن العراق فلم يبق بها أحدٌ معروفٌ مشهورٌ .

ثمّ أخذ الناس في الروايات في فضل عثمان و معاوية زوراً على المنبر في كلّ كورة و مسجد ، و ألقوا ذلك على معلّمي الكتاتيب فعلّموا ذلك صبيانهم كما يعلّمونهم القرآن و نشأ عليه الصبيان ، فاجتمعت على ذلك جماعتهم و صارت في أيدي المتنسّكين و المتديّنين منهم الّذين لايستحلّون الافتعال بمثلها ، فقبلوها وهم يرون أنّها حقٌ ولو علموا بطلانها وتيقّنوا أنّها مفتعلة لأعرضوا عن روايتها ولم يدينوا بها ولم يبغضوا من خالفها فصار الحقّ في ذلك الزّمان عندهم باطلاً و الباطل حقّاً و الكذب صدقاً و الصدق كذباً ، و بالجملة تشبثوا (٢) بعد ما تقرّر الأمر في فضائل أئمّتهم بما لا يدلّ أكثره على فضيلة مع روايتهم فيهم كلّ رذيلة بما يلوح من فحاويه مخايل الاختلاق ويفوح من مطاويه رائحة النفاق ، ثمّ بعد التتبّع يظهر أنّ ما هو أمثاله إنّما وضع في زمن بني اميّة طمعاً في الانتفاع بجاه أحدهم و ماله ، قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له : « و قد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله في عهده حتّى قام خطيباً فقال : أيّها الناس قد كثر عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّء مقعده من النّار ، ثمّ كذب عليه بعده ثمّ قال ـ بعد كلام ـ :

---

(١) ص ١٥٣ من طبع طهران و ص ١٥٩ من طبع النجف .

(٢) في بعض النسخ [تبشوا] .

ثمّ بقوا بعده فتقرّبوا إلى أئمّة الضلال والدعاة إلى النّار بالزور و الكذب و البهتان فولّوهم الأعمال ، وحملوهم على رقاب الناس ، وأكلوا بهم الدنيا ، و إنّما الناس مع الملوك و الدنيا إلّا من عصم الله » .

و قد روت طائفة من العامّة (١) أنّ معاوية كان يبذل الأموال لمن كان موثوقاً به عند النّاس من الصحابة ليضع حديثاً في فضل الخلفاء الثلاثة أو في منقصة أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله على المنبر بمشهد الناس أو يروي ما ورد في فضل عليّ عليه السلام في فضلهم ، و قد روى ابن أبي الحديد الحنفي المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة (٢) عن أبي جعفر الإسكافي أنّ معاوية بذل لِسَمُرة بن جُندَب مائة ألف درهم حتّى يروي أنّ هذه الآية نزلت في عليّ عليه السلام : « و من النّاس من يعجبك قوله في الحيوة الدنيا (٣) ـ الآية ـ » . و أنّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم « و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله (٤) » فلم يقبل ، فبذل مائتي ألف درهم فلم يقبل ، فبذل له ثلاث مائة ألف فقبل .

و روى الكشّي بسند معتبر (٥) عن مولينا الباقر عليه السلام أنّه قال : « ارتدّ الناس إلّا ثلاثة نفر : سلمان ، و أبو ذرّ ، و المقداد ، قال الرّاوي فعمّار ؟ فقال : كان جاض جيضة (٦) ، ثمّ رجع » و في رواية « ثمّ ألحق الناس بعد ، كان أوّل من أناب أبو ساسان الأنصاريّ ، و عمّار ، وأبو عمرة ، و شتير[ة] و كانوا سبعة فلم يعرف حقّ أمير المؤمنين عليه السلام إلّا هؤلاء السبعة » .

أقول : المستفاد من الأخبار الّتي تكاد تبلغ حدّ التواتر أنّ الناس بعد رسول الله

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٣٦١ .
(٢) ج١ ص ٣٦١ . (٣) البقرة : ٢٠٤ .
(٤) البقرة :٢٠٧ . (٥) رجال الكشي ص ٨ .
(٦) جاض ـ بالجيم والضاد المعجمتين ـ و قد يقرء بالمهملتين وكلاهما بمعنى الحيود والزيغ . كذا ذكره السيد الداماد ـ قدس سره ـ في الرواشح السماوية . وقال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ بعد نقل الخبر عن الكشي : جاض عنه : حاد ومال وفي بعض النسخ بالمهملتين بمعناه وحاصوا عن العدو : انهزموا .

صلى الله عليه وآله صاروا صنفين : صنفاً من أهل التدليس و التلبيس من جنود إبليس و هم الّذين شيّدوا أركان هذه الضلالة ، و صنفاً من أهل العمى و التقليد ، قد شبّه لهم الأمر فدخلوا فيه على غير بصيرة تعصّباً لمن تولّى و كفر ، و تقليداً لشياطين البشر ممّن كان في الجاهليّة لا يفرّق بين الله عزّ و جلّ و بين الخشب و الحجر ، فكيف بين عليّ و أبي بكر و عمر و كان معهم تلك العقول السقيمة فلا غرو أن يعدلوا عن الطريقة القويمة .

قال أبو حامد : « لو تعذّر وجود الورع و العلم فيمن تصدّى للإمامة و كان في صرفه أثارة فتنة لاتطاق حكمنا بانعقاد إمامته لأنّا بين أن نحرّك فتنة لاتطاق بالاستبدال بما يلقى المسلمون منه من الضرر ما يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط الّتي أثبتت لمزيد المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفاً بمزاياها كالّذي يبني قصراً و هدم مصراً و بين أن نحكم بخلوّ البلاد عن الإمام و بفساد الأقضية و ذلك محال و نحن نقضي بنفوذ قضاء أهل البغي في بلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضي بصحّة الإمامة عند الحاجة و الضرورة » .

أقول : هذا إنّما يصحّ لو اُريد بانعقاد الإمامة و صحّتها لمثل هذا الرجل عدم وجوب التعرّض له بقطع يده عنها خوفاً من الفتنة كما لا يتعرّض لسلاطين الوقت وإن كانوا جائرين طاغين ، لا أنّه يعتقد صحّة إمامته في نفس الأمر و أنّه على الحقّ بل هو من الأئمّة الّذين يدعون إلى النّار و يوم القيامة هم من المقبوحين و من الّذين قال نبيّنا صلى الله عليه وآله في حقّهم : « إنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرجل الفاجر » (1) اُولئك لاخلاق لهم ، و هكذا كان الخلفاء الثلاثة بعد نبيّنا صلى الله عليه وآله .

(فصل)

قد تواتر لنا عن نبيّنا صلى الله عليه وآله أنّ حجج الله تعالى على خلقه بعده صلى الله عليه وآله الأئمّة الاثنا عشر أوّلهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، ثمّ الحسن الزكيّ ، ثمّ الحسين

(1) أخرجه أحمد فى مسنده ج ۲ ص ۳۰۹ . و فى مسند أبى عوانة ج ۱ ص ٤٦ .

الشهيد، ثمّ عليّ بن الحسين زين العابدين، ثمّ محمّد بن عليّ الباقر، ثمّ جعفر بن محمّد الصادق، ثمّ موسى بن جعفر الكاظم، ثمّ عليّ بن موسى الرضا، ثمّ محمّد بن عليّ الجواد، ثمّ عليّ بن محمّد الهادي، ثمّ الحسن بن عليّ الزكيّ، ثمّ ابنه القائم سميّ النبيّ وكنيّه صاحب الزمان وخليفة الله في أرضه في أواننا، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «اثنا عشر من أهل بيتي أعطاهم الله فهمي و علمي و حكمتي، و خلقهم من طينتي، فويل للمتكبّرين عليهم بعدي القاطعين فيهم صلتي، مالهم لا أنالهم الله شفاعتي» (١) و قال أيضاً: «بعدي اثنا عشر أوّلهم أنت يا عليّ وآخرهم القائم الّذي يفتح الله على يديه مشارق الأرض و مغاربها(٢)».

و قد استفاض أمثال ذلك من الروايات في كتب العامّة فضلاً عن الخاصّة و قد نصّ كلّ منهم صلوات الله عليهم على من بعده بالإمامة وأخبر أصحابه باسمه ونعته و عصمته و قد ثبت طهارتهم و صدقهم جميعاً عند معتبري أهل الإسلام كافّة مع اختلافهم و افتراقهم إلى فرق كثيرة، و هذا من أوضح الدلائل على حجّيّتهم دون غيرهم ممّن اختلف في فضله وحاله مع أنّ ذلك معلوم من التتبّع لآثارهم ومعارفهم بحيث لا يبقى للشكّ فيه مجال.

قال شيخنا الصدوق أبو جعفر محمّد بن عليّ بن بابويه - رحمه الله - (٣): و من أوضح الدلائل على إمامتهم أنّ الله عزّ و جلّ جعل آية النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه أتى بقصص الأنبياء الماضين عليهم السلام و بكلّ علم توراة و إنجيل و زبور من غير أن يكون تعلّم الكتابة ظاهراً أو لقي نصرانيّاً أو يهوديّاً فكان ذلك أعظم آياته، و قتل الحسين بن عليّ عليهما السلام وخلّف عليّ ابن الحسين عليهما السلام متقارب السنّ كانت سنّه أقلّ من عشرين سنة ثمّ انقبض عن الناس فلم يلق أحداً ولا كان يلقاه إلّا خواصّ أصحابه، و كان في نهاية العبادة و لم يخرج عنه من العلم إلّا يسير لصعوبة الزمان و جور بني أُميّة، ثمّ ظهر ابنه محمّد بن عليّ المسمّى بالباقر لفتقه العلم فأتى من علوم الدين والكتاب و السنّة و السير و المغازي بأمر عظيم، و أتى جعفر بن محمّد من بعده من ذلك بما كثر و ظهر فلم يبق فنّ من فنون العلم إلّا أتى

(١) الاختصاص للمفيد - رحمه الله - ص ٢٠٨، و كمال الدين ١٦٤، والعيون الباب السادس.

(٢) راجع كمال الدين للصدوق - رحمه الله - ص ١٤٩ باب ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله فى النص على القائم، واعلام الورى ص ٣٦١ من طبع ١٣٣٨، وغيبة النعمانى ص ٥٧.

(٣) كمال الدين ص ٥٤.

فيه بأشياء كثيرة و فسّر القرآن و السنن و رويت عنه المغازي و أخبار الأنبياء عليهم السلام من غير أن يرى هو و أبوه محمّد بن عليّ أو عليّ بن الحسين عليهم السلام عند أحد من رواة حديث العامّة و فقهائهم يتعلّمون منهم شيئاً في ذلك أدلّ دليل على أنّهم إنّما أخذوا ذلك العلم عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و عن عليّ عليه السلام ثمّ عن واحدواحد من الأئمّة و كذلك جماعة الأئمّة عليهم السلام هذه سنّتهم في العلم ، يُسألون عن الحلال والحرام فيجيبون جوابات متّفقة من غير أن يتعلّموا ذلك من أحد من الناس فأيّ دليل أدلّ من هذا على إمامتهم ، و أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم نصبهم و علّمهم و أودعهم علمه وعلوم الأنبياء قبله ، وهل رأينا في العادات من ظهر عنه مثل ما ظهر عن محمّد بن عليّ و جعفر بن محمّد من غير أن يتعلّموا ذلك من أحد من الناس انتهى كلامه ـ رحمه الله ـ .

و النصوص الواردة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في فضائلهم و مناقبهم أكثر من أن تحصى و أشهر من أن تخفى سيّما في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام فقد روى ابن عبّاس عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « لو أنّ الرياض أقلام والبحر مداد و الجنّ حسّاب والإنس كتّاب ما أحصوا فضائل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب » [١].

و سئل بعض أهل العلم عن فضل عليّ بن أبي طالب فقال : ما أقول في رجل كتم أعداؤه فضائله حسداً وعداوة و كتم أولياؤه فضائله خوفاً وتقيّة ثمّ ظهر من بين الكتمانين فضائل طبّقت الخافقين » [٢] .

و يجب أن يعلم أنّهم عليهم السلام أُولوا الأمر الّذين أمر الله بطاعتهم ، و أنّهم الشهداء على الناس ، وأنّهم أبواب الله والسبل إليه ، و الأدلّاء عليه ، وأنّهم عيبة علمه ، وأركان توحيده ، و أنّهم معصومون من الخطأ و الزّلل ، و أنّهم الّذين أذهب الله عنهم الرجس ـ يعني الشكّ ـ و طهّرهم تطهيراً ، و أنّ لهم الدّلائل و المعجزات ، وأنّهم أمان لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء ، و أنّ مثلهم في هذه الأُمّة كمثل سفينة نوح من ركبها نجى و من تخلّف عنها غرق ، و أنّهم عباد الله المكرمون لا يسبقونه بالقول

---

(١) الطرائف لابن طاووس ص ٣٣ . والعلامة في كشف اليقين كما في البحار ج ٩ باب فضائله عليه السلام .

(٢) هذا الكلام للشافعي على ماهو المشهور راجع الكنى والالقاب للمحدث القمي .

وهم بأمره يعملون ، و أنّ حبّهم إيمان و بغضهم كفر ، و أنّ أمرهم أمر الله و نهيم نهي الله ، و طاعتهم طاعة الله و معصيتهم معصية الله ، و وليّهم وليّ الله و عدوّهم عدوّ الله ، و أنّ الأرض لايخلو من حجّة لله على خلقه إمّا ظاهر مشهور و إمّا خائف مغمور و إلّا لساخت بأهلها ، وأنّ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة ، وأنّ حجّة الله في أرضه و خليفته على عباده في زماننا هذا هو القائم المنتظر محمّد بن الحسن العسكريّ عليه السلام ، وأنّه هوالّذي أخبر به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عزّ و جلّ باسمه و نعته و نسبه و كذا أخبر به سائر أهل البيت عليهم السلام و أنّه هو الّذي يملأ الأرض قسطاً و عدلاً كما ملئت جوراً و ظلماً ، و أنّه هو الّذي يظهر الله به دينه ليظهره على الدين كلّه و لو كره المشركون ، وأنّه هوالّذي يفتح الله على يديه مشارق الأرض ومغاربها حتّى لا يبقى في الأرض مكان إلّا نودي فيه بالأذان ويكون الدّين كلّه لله ، وأنّه هو المهديّ الّذي أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه إذا خرج نزل عيسى ابن مريم عليه السلام يصلّي خلفه ، و من جحد إمامة أحدهم فهو بمنزلة من جحد نبوّة جميع الأنبياء عليهم السلام . و قال الصادق عليه السلام : «المنكر لآخرنا كالمنكر لأوّلنا » (١) .

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « من جحد عليّاً إمامته بعدي فقد جحد نبوّتي و من جحد نبوّتي فقد جحد الله ربوبيّته » (٢) و الغالي فيهم كالمقصّر بل هو أشرّ و عنهم عليهم السلام «هلك فينا رجلان محبّ مفرط و مبغض مفرّط» (٣) .

﴿ فصل ﴾

و من فضل الله عزّ وجلّ علينا و لطفه بنا و له الحمد أضعاف ما حمده الحامدون أن جعل لنا إماماً بعد إمام ظاهراً فينا و إن كان مستوراً على أعدائنا إلى أن انقضى من

(١) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في كتاب اعتقاداته باب ٣٨ .

(٢) روى نحوه الصدوق في المعاني ص٣٧٢ وراجع أيضاً كمال الدين ص٢٢٨ وغيبة النعماني ص ٦٢ والكافي ج ١ ص٣٧٢.

(٣) راجع المجلد السابع من البحار (طبع الكمباني) ص ٢٤٤ .

الهجرة النبويّة مائتان و ستّون سنة ثمّ جعل للأخير سفراء بعد غيبته إلى قريب من تمام ثلاثمائة و ثلاثين سنة و كان أصحابنا في هذه المدّة المديدة يأخذون العلوم الدّينيّة ظاهرها و باطنها من معدنها بقدر قابليّتهم و رتبتهم و منزلتهم على اطمينان من قلوبهم و انشراح من صدورهم فأغناهم الله بذلك من حيرة الحيران ، و بعد انقضاء هذه المدّة كانوا يرجعون إلى الاُصول المأخوذة عنهم المشتملة على أكثر ما يحتاج إليه الناس حتّى شذّ مسألة لايكون فيها حكم جزئيّ أو كلّيّ عنهم عليهم السلام ، وفّق له من وفّق وله الحمد .

﴿ فصل ﴾

حبّ أولياء الله واجب و كذا بغض أعداء الله و البراءة منهم و من أئمّتهم سيّما من الّذين ظلموا آل محمّد حقّهم و غصبوا ميراثهم و غيّروا سنّة نبيّهم صلّى الله عليه وآله و من الّذين نكثوا بيعة إمامهم وأخرجوا المرأة[1] وحاربوا أميرالمؤمنين عليه السلام وقتلوا الشيعة ومن الّذي نفى الأخيار وشردهم ، وآوى الطرداء اللّعناء ، وجعل الأموال دولة بين الأغنياء ، واستعمل السفهاء ؛ والّذي قتل الأنصار والمهاجرين وأهل الفضل والصلاح من السابقين ، و من أهل الاستيشار ، و أبي موسى الأشعريّ وأهل ولايته الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا اُولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم بولاية أميرالمؤمنين عليه السلام و لقائه بأن لقوا الله بغير إمامته فحبطت أعمالهم فلانقيم لهم يوم القيامة وزناً ، فهم كلاب أهل النّار .

والولاء لأولياء أميرالمؤمنين عليه السلام الّذين مضوا على منهاج نبيّهم صلّى الله عليه وآله ولم يغيّروا ولم يبدّلوا مثل سلمان الفارسيّ ، و أبي ذرّ الغفّاري ، والمقداد بن الأسود ، و عمّار بن ياسر ، و حذيفة بن اليمان ، و أبي الهيثم بن التيّهان ، و سهل بن حنيف و عبادة بن الصامت ، و أبي أيّوب الأنصاري ، و خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ، وأبي سعيد الخدري و أمثالهم ؛ ولأتباعهم وأشياعهم ، المهتدين بهداهم ، السالكين منهاجهم - رضي الله عنهم -

---

(١) يعنى بها عائشة ام المؤمنين .

وأرضاهم هذا كلّه مرويٌّ عن مولينا الرضا عليه وعلى آبائه السلام [١] .

﴿ الباب السادس ﴾

✿ (في المعاد) ✿

الموت حقٌّ و كلُّ نفس ذائقة الموت إلّا أنّ الإنسان خلق للأبد والبقاء لاللعدم و الفناء فلايعدم بالموت بل يفرّق بين روحه و جسده و ينتقل من دار إلى دار كذا في الحديث النبويّ صلّى الله عليه وآله [٢] و قال الله عزّ وجلّ : « لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء » [٣] و نادى النبيّ صلّى الله عليه وآله الأشقياء المقتولين يوم بدر « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربّي حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً ، ثمّ قال و الّذي نفسي بيده إنّهم لأسمع بهذا الكلام منكم إلّا أنّهم لايقدرون على الجواب » [٤] .

﴿ فصل ﴾

المساءلة في القبر حقٌّ قال الصادق عليه السلام : « من أنكر ثلاثة أشياء فليس من شيعتنا : المعراج ، و المساءلة في القبر ، و الشفاعة » [٥] و لا يسأل إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً و الباقون يلهون عنهم و مايعبؤبهم فمن أجاب بالصّواب فاز بروح و ريحان في قبره و بجنّة نعيم في الآخرة ، و يسأل و هو مضغوط و ما أقلّ من يفلت من ضغطة القبر ، وأكثر ما يكون عذاب القبر من سوء الخلق والنميمة و الإستخفاف بالبول

---

(١) عيون اخبار الرضا عليه السلام باب ما كتب الرضا عليه السلام للمأمون من محض الاسلام . و فى الخصال نحوه عن الصادق عليه السلام كما فى ج ٧ ص ٣٦٨ من البحار (طبع الكمبانى) .

(٢) راجع اعتقادات الصدوق ـ رحمه الله ـ الباب السادس عشر .

(٣) البقرة : ١٥٤ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٣٩ ، صحيح البخارى باب قتل أبى جهل ج ٥ ص ٩٧ .

(٥) رواه الصدوق فى الامالى ص ١٧٧.

و هو للمؤمنين كفّارة لمابقي عليهم من الذّنوب الّتي يكفّرها الهموم و الغموم والأمراض و شدّة النزع عند الموت . كذا عن أهل البيت عليهم السلام .(١)

﴿فصل﴾

البعث بعد الموت حقّ لاقتضاء عدل الله وحكمته إيصال جزاء التكاليف إلى العبيد و الوفاء بالوعد والوعيد ومؤاخذة الظالم للمظلوم إلى غيرذلك قال الله سبحانه : «أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً و أنّكم إلينا لاترجعون » (٢) و قال عزّ وجلّ : « إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب - إلى قوله عزّ وجلّ : - ذلك بأنّ الله هو الحقّ و أنّه يحيي الموتى و أنّه على كلّ شيء قدير * و أنّ الساعة آتية لاريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور » (٣) و قال عزّ اسمه : « و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين - إلى قوله : - ثمّ إنّكم بعد ذلك لميّتون * ثمّ إنّكم يوم القيمة تبعثون » (٤) و قال تعالى : « كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين »(٥) .

و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « يا بني عبد المطلب إنّ الرائد لا يكذب أهله ، و الّذي بعثني بالحقّ لتموتنّ كما تنامون و لتبعثنّ كما تستيقظون ، و ما بعد الموت دار إلّا جنّة أو نار » (٦) .

﴿ فصل ﴾

الصراط حقّ و هو جسر ممدود على متن جهنّم ينتهي إلى الجنّة و عليه ممرّ جميع الخلائق قال الله عزّ وجلّ : « و إن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً »(٧) .

(١) راجع المجلد الثاني من الكافي ص ٤٤٦ و اعتقادات الصدوق باب ١٦ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ . (٣) الحج : ٥ الى ٧ .

(٤) المؤمنون ١٢ الى ١٦ . (٥) الانبياء : ١٠٤ .

(٦) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٧٢ ، الكامل لابن الاثير ج٢ ص ٢٧ .

(٧) مريم : ٧١ .

و عن الصادق عليه السلام : « الصراط أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف ، فمنهم من يمرّ مثل البرق ، ومنهم من يمرّ مثل عدو الفرس ، و منهم من يمرّ حبواً ، و منهم من يمرّ مشياً و منهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النار منه شيئاً و تترك شيئاً » (١) .

و قال أيضاً : « الصراط هو الطريق إلى معرفة الله و هما صراطان صراط في الدّنيا و صراط في الآخرة ، فأمّا الصّراط الّذي في الدّنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدّنيا و اقتدى بهداه مرّ على الصراط الّذي هو جسر جهنّم في الآخرة ومن لم يعرفه في الدّنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة و تردى في نار جهنّم » (٢) يعني أنّ الإمام هو الطريق إلى معرفة الله و الهادي إلى سبيله قولاً وفعلاً ، فمن عرفه في الدنيا و اقتدى بهداه واستنّ بسنّته و مرّ على الصراط المستقيم الّذي مرّ هو عليه في الدّنيا أي طريقته الّتي هو عليها في الأعمال و الأخلاق كما قال الله عزّ و جلّ حكاية عن نبيّنا صلّى الله عليه و آله « و أنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه » (٣) فهو الناجي الّذي يمرّ على صراط الآخرة و من لم يعرفه و لم يهتد إلى طريقته و لم يعمل بها فهو الهالك الّذي تزلّ قدمه عن صراط الآخرة .

و في حديث آخر عن العسكريّ عليه السلام « أنّ الصراط [المستقيم] في الدّنيا ما قصر عن الغلوّ و ارتفع عن التقصير و استقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل » (٤) .

و هذا أيضاً قريب من ذلك في المعنى بل هما واحد عند التحقيق فإنّ الاستقامة الّتي لاعدول عنها إلى شيء من طرفي الإفراط و التفريط هي طريقة الإمام عليه السلام .

و على الصراط عقبات تسمّى بأسماء الأوامر والنواهي كالصلاة والزكاة ، والرحم و الأمانة و ولاية الإمام و غيرها فمن قصّر في شيء منها حبس عند تلك العقبة و طولب بحقّ الله تعالى فيها فإن خرج منه بعمل صالح قدّمه أو برحمة تداركته نجى منها إلى عقبة اُخرى فلايزال يدفع من عقبة إلى عقبة و يحبس فيسأل حتّى إذا سلم من جميعها انتهى إلى

(١) امالى الصدوق ـ رحمه الله ـ ص ١٠٧ .
(٢) معانى الاخبار ص ٣٢ تحت رقم ١ .
(٣) الانعام : ١٥٣ .
(٤) معانى الاخبار ص ٣٣ تحت رقم ٤ .

دار البقاء فيحيى حياة لاموت فيها أبداً ، و يسعد سعادة لاشقاوة معها أبداً ، و إن لم يسلم زلّت به قدمه عن العقبة فتردى في نار جهنّم - نعوذ بالله منها - .

﴿فصل﴾

الميزان حقّ والحساب حقّ ، قال الله عزّ وجلّ : « والوزن يومئذ الحقّ فمن ثقلت موازينه فاُولئك هم المفلحون»[1] و من خفّت موازينه فاُولئك الّذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون [2] » و قال تعالى : « و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً و إن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين » [3] . قال الصادق عليه السلام : « الموازين القسط هم الأنبياء و الأوصياء عليهم السلام » [4] .

أقول : و شرح ذلك أنّ الميزان هو المعيار الّذي به يعرف قدر الشيء و ارتفاع قدر العباد و قبول أعمالهم إنّما هو بقدر إيمانهم بالأنبياء و الأوصياء عليهم السلام و محبّتهم لهم و طاعتهم إيّاهم في أقوالهم و أفعالهم و أخلاقهم والاقتفاء لآثارهم فالمقبول الراجح الثقيل من الأعمال ما وافق أعمالهم ، و المرضي الحسن الجميل من الأخلاق و الأقوال ما طابق أقوالهم و أخلاقهم ، والحقّ الصائب السديد من الاعتقادات ما اُخذ منهم ، و المردود منها ما خالف ذلك ، و كلّما قرب من ذلك قريب من القبول و كلّما بَعُد بَعُد ، فهم إذن موازين الأعمال و العلوم بهذا المعنى ، و الحساب هو جمع تفاريق المقادير و الأعداد و تعريف مبلغها و في قدرة الله عزّ وجلّ يكشف في لحظة واحدة للخلائق حاصل حسناتهم و سيّئاتهم و هو أسرع الحاسبين ، ويأبى الله إلّا أن يعرّفهم حقيقة ذلك ليبيّن فضله عند العفو و عدله عند العقاب فيخاطب عباده جميعاً من الأوّلين و الآخرين بمجمل حساب أعمالهم مخاطبة واحدة يسمع منها كلّ واحد قضيّته دون غيره و يظنّ أنّه المخاطب دون غيره ، لايشغله عزّ و جلّ مخاطبة عن مخاطبة ، و يفرغ من حسابهم جميعاً في مقدار ساعة

---

(١) الاعراف : ٩ . (٢) المؤمنون : ١٠٣ .

(٣) الانبياء : ٤٧ . (٤) معاني الاخبار ص ٣١ .

من ساعات الدّنيا ، ويخرج لكلّ إنسان كتاباً يلقاه منشوراً ، ينطق عليه بجميع أعماله لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها ، فيجعله الله محاسب نفسه و الحاكم عليها بأن يقال له : « اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» ويختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم و أرجلهم و جميع جوارحهم بما كانوا يكسبون ، و قالوا : لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء ، فتطاير الكتب وتشخّص الأبصار إليها أتقع في اليمين أوفي الشمال فأمّا من اُوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرؤوا كتابيه وأمّا من اُوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم اُوت كتابيه ، ثمّ ينظر إلى الميزان أيميل إلى جانب السيّئات أم الحسنات و هل الحسنات ثقيلة أم خفيفة فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، و من خفّت موازينه فاُمّه هاوية - نعوذ بالله منها - .

« فصل »

كلّ ما ورد في الشرع من أهوال يوم القيامة و طوله و حرّه و عرق الناس فيه ، و ازدحامهم ، و اختصامهم ، و براءة بعضهم من بعض ، وفرار المرء من أخيه ، واُمّه وأبيه و صاحبته و بنيه ، والسياق ، و إحضار الشهداء ، و المساءلة ، و غير ذلك كما أخبر الله عزّ وجلّ عنه في القرآن وأئمّة الهدى عليهم السلام في الأخبار المرويّة عنهم حقّ وصدقّ لاريب فيه ، قال الصادق عليه السلام : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإنّ للقيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مقام ألف سنة ، ثمّ تلا « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»[1] .

و عن زين العابدين عليه السلام « أنّ من كان له عند غيره مظلمة يؤخذ له من حسنات الظالم بقدر حقّه فتزاد على حسناته فإن لم يكن للظّالم حسنات يؤخذ من سيّئات المظلوم فتزاد على سيّئات الظالم »[2] .

و عن النبيّ صلّى الله عليه وآله : « هل تدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا يا رسول الله

(١) رواه الكليني - رحمه الله - في الروضة ص١٤٣ وابن الشيخ - رحمه الله - في اماليه ص ٢٢ و الاية في المعارج : ٤ .

(٢) رواه الكليني - رحمه الله - في حديث طويل في الروضة ص ١٠٦ .

من لا درهم له و لا متاع ، فقال : المفلس من أُمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة و زكاة و صيام ويأتي قدشتم هذا ، و قذف هذا ، وأكل مال‌هذا ، وسفك دم هذا ، و ضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته و هذا من حسناته ، و إن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثمّ يطرح في النّار »[1] .

(فصل)

الشفاعة حقّ والحوض حقّ ، قال‌النبيّ صلّى الله عليه وآله : « من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ، ثمّ قال : إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي ، فأمّا المحسنون فما عليهم‌من سبيل »[2] وفي رواية أخرى « شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي ما خلا الشرك و الظلم »[3] .

و قال صلّى الله عليه وآله : « إنّ من أُمّتي من يدخل الجنّة بشفاعته أكثر من مضر »[4]
وقيل : أقلّ المؤمنين شفاعة من‌يشفع لثلاثين إنساناً »[5] .

و قال صلّى الله عليه وآله : « إنّ حوضي‌ما بين‌عدن إلى‌عمّان البلقاء ، ماؤه أشدّ بياضاً‌من‌اللّبن وأحلى من‌العسل ، وأكوابه عدد نجوم‌السماء ، من‌شرب منه شربة لم‌يظمأ‌بعدها‌أبداً »[6].

و في‌الخبر «أنّ الوالي عليه يوم‌القيامة أمير المؤمنين عليه السلام يسقي منه أولياءه ويردّ عنه أعداءه »[7] .

---

(١) كذا في علم‌اليقين ص ٢٠٥ ، والمصدر مسند أحمد ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٢) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في‌العيون ص ١٣٦ والامالى ص ٥ .

(٣) الخصال أبواب السبعة ج٢ ص ٩ .

(٤) أخرجه أحمد في‌المسند ج ٤ ص ٢١٢ من‌حديث‌الحارث بن أقيس وفي‌الاصابة بترجمة اويس القرني مثله وفيه «أكثر من تميم» .

(٥) قال الطبرسي ـ رحمه‌الله ـ في‌ذيل‌آية ٤٨ من سورة‌البقرة : جاء في روايات اصحابنا ـ رضي الله عنهم ـ عن‌النبي‌صلى‌الله عليه وآله «ان أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع في‌أربعين من اخوانه كل قد استوجبوا النار » .

(٦) أخرجه‌أحمد في‌المسند ج٢ ص١٣٣ ، وروى‌نحوه ابن‌الشيخ في‌أماليه‌ص١٤٢.

(٧) روى الصدوق ـ رحمه الله ـ في‌كتاب اعتقاداته ص ٨٥ بعض أخباره .

﴿ فصل ﴾

الجنّة حقّ و النّار حقّ، و هما مخلوقتان اليوم بل لا تخرج نفس من الدّنيا حتّى ترى مكانها من إحديهما . كذا عن أئمّة الهدى صلوات الله عليهم[1] ، و الجنّة دار البقاء و دار السلامة ، لا موت فيها و لا هرم ، و لا مرض ، و لا سقم ، ولا آفة ، و لا زمانة ، و لاغمّ ، و لاهمّ ، و لاحاجة ، ولافقر ، و هي دار الغناء والسعادة ، و دار المقامة والكرامة لا يمسّ أهلها فيها نصب و لالغوب ، لهم فيها ما تشتهي الأنفس و تلذّ الأعين و هم فيها خالدون [2].

و لذّاتهم على أنواع منهم المتنعّمون بتقديس الله و تسبيحه في جملة ملائكته ، ومنهم المتنعّمون بأنواع المآكل والمشارب والفواكه و الأرائك والحورالعين ، واستخدام الولدان المخلّدين ، و الجلوس على النمارق والزرابي ، و لباس السندس و الحرير ، كلّ منهم إنّما يتلذّذ بما يشتهي و يريد على حسب ما تعلّقت عليه همّته ، لا يتغوّطون ولا يبولون ، و إنّما هو جشأ و رشح كالمسك ، يلهمون الحمد و التسبيح كما يلهمون النفس ، و يزدادون جمالاً و حسناً كما يزدادون في الدنيا قباحة و هرماً ، لها ثمانية أبواب عرض كلّ باب منها مسيرة أربعمائة سنة [3].

و النّار دار الهوان و دار الانتقام من أهل الكفر و العصيان لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها ، لا يذوقون فيها برداً و لا شراباً إلّا حميماً و غسّاقاً ، وإن استطعموا اُطعموا من الزقّوم ، و إن استغاثوا اُغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب و ساءت مرتفقاً ، ينادون من مكان بعيد : ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون فيمسك الجواب عنهم أحياناً ثمّ قيل لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلّمون » ، ونادوا يا مالك ليقض علينا ربّك قال إنّكم ماكثون «لها سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم»[4] .

(١) راجع امالى الصدوق ص ٢٧٦ ، التوحيد ص ١٠٥ .
(٢) راجع الامالى ص ١٧٥ ، و سورة الفاطر : ٣٥ ، و الزخرف : ٧١ .
(٣) راجع الخصال ج ٢ ص ٣٩ . (٤) الحجر: ٤٤ .

﴿ فصل ﴾

الجنّة لأهل الإيمان الّذين لم يذنبوا كبيرة أوتابوا منها أو أدركتهم الشفاعة أو نالتهم الرحمة ، والنّار لأهل الشرك والكفر والجحود خلوداً ، ولأهل الكبائر من المؤمنين الّذين ما توا من غير توبة وروداً من غير خلود لاستحقاقهم الثواب بالإيمان فيخرجون منها بعد استيفاء عذابهم الّذي استحقّوه بالذنوب الّتي اكتسبوها بالرحمة الّتي تدركهم و الشفاعة الّتي تنالهم ، ومن وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه البتة ولن يخلف الله وعده و من أو عده الله على عمل عقاباً فهو بالخيار إن عذّبه فبعدله و إن عفا عنه فبفضله ، وقد قال الله عزّ و جلّ : « إنّ الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء » [1] .

و في الخبر « أنّ قسيم الجنّة و النّار أميرالمؤمنين عليه السلام » [2] و ذلك لأنّ بحبّه و بغضه يمتاز أهلوهما فإنّ حبّه إيمان وبغضه كفر ، وإنّما خلقت الجنّة لأهل الإيمان و خلقت النّار لأهل الكفر كذا عن الصادق عليه السلام [3] ، رزقنا الله متابعتهم كما رزقنا محبّتهم بمنّه وجوده .

﴿ الباب السابع ﴾

(في وجه التدرج الى الارشاد و ترتيب درجات الاعتقاد)

قال أبو حامد : « ما ذكرناه من ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدّم إلى الصبيّ في أوّل نشوئه ليحفظه حفظاً ، ثمّ لايزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً ، فابتداؤه الحفظ ،

(١) النساء : ٤٨ .

(٢) راجع بصائر الدرجات الجزء الثامن الباب الثانى عشر .

(٣) رواه الصدوق - رحمه الله - فى العلل كما فى المجلد التاسع من البحار (طبع الكمبانى) باب انه عليه السلام قسيم الجنة و النار .

ثمّ الفهم، ثمّ الاعتقاد و الإيقان و التصديق به، و ذلك ممّا يحصل في الصبيّ بغير برهان فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان شرحه في أوّل نشوئه للإيمان من غير حاجة إلى حجّة و برهان و كيف ينكر ذلك و جميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرّد و التعليم المحض، نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرّد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنّه يقبل الإزالة بنقيضه لو أُلقي إليه، ولابدّ من تقويته و إثباته في نفس الصبيّ و العاميّ حتّى يترسّخ به ولا يتزلزل، و ليس الطريق في تقويته و إثباته أن يعلّم صنعة الجدل والكلام بل يشغل بتلاوة القرآن و تفسيره و قراءة الحديث ومعانيه و يشغل بوظائف العبادات، فلا يزال يقوي اعتقاده و يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلّة القرآن و حججه، و بما يرد عليه من شواهد الأحاديث و فوائدها، و بما يسطع عليه من أنوار العبادات و وظائفها و ما يسري إليه من مشاهدة الصالحين و مجالستهم و رؤية سيما هم و سيرتهم و هيئاتهم في الخضوع لله و الخوف منه و الاستكانة له، فيكون أوّل التلقين كإلقاء بذر في الصدر و يكون هذه الأسباب كالسقي و التربية له حتّى ينموا ذلك البذر و يقوي و يرتفع شجرة طيّبة راسخة أصلها ثابت و فرعها في السماء، و ينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإنّ ما يشوّشه الجدل أكثر ممّا يمهّده، و ما يفسده أكثر ممّا يصلحه، بل تقويته بالجدل يضاهي ضرب الشجرة بالمدقّة من الحديد رجاء تقويتها بأن يكثر أجزاؤها، و ربما يفتتها ذلك و يفسدها و هو الأغلب، و المشاهدة تكفيك في هذا بياناً، و ناهيك بالعيان برهاناً، فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلّمين والمتجادلين فترى إعتقاد العاميّ في الثبات كالطود الشامخ لاتحرّكه الدواهي والصواعق، وعقيدة المتكلّم الحارس واعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرّة هكذا ومرّة هكذا إلّا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقّفه تقليداً كما تلقّف نفس الاعتقاد تقليداً، ولا فرق بين التقليد في تعلّم الدليل أو تعلّم المدلول، فتلقّن الدليل شيء والاستقلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه، ثمّ الصبيّ إذا وقع نشوؤه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها و لكنّه سلم في الآخرة باعتقاد الحقّ إذ لم يكلّف الشرع أجلاف العرف أكثر من التصديق الجزم

بظاهر هذه العقائد، فأمّا البحث و التفتيش و تكلّف نظم الأدلّة فلم يكلّفوا أصلاً، وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة و ساعده التوفيق حتّى اشتغل بالعمل و لازم التقوى، و نهى النفس عن الهوى، و اشتغل بالرياضة و المجاهدة انفتح له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهيّ يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده تعالى إذ قال عزّ و جلّ: « و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » (١) و هو الجوهر النفيس الّذي هو غاية مقصد الصدّيقين و المقرّبين، و له درجات بحسب درجات المجاهدة و درجات الباطن في النظافة و الطهارة ممّا سوى الله تعالى و في الاستضاءة بنور اليقين و ذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطبّ و الفقه و سائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد و اختلاف الفطر في الذكاء و الفطنة، فكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذا هذه ».

فصل

أقول: و ممّن ذهب من علمائنا - رحمهم الله - إلى ما ذكره أبو حامد من اكتفاء العوام بمجملات العقائد و تقليدهم للشرائع أفضل المحقّقين، حجّة الفرقة الناجية، نصير الملّة و الدّين، محمّد بن الحسن الطوسي - طاب ثراه - فإنّه قال في بعض رسائله: « اعلم أيّدك الله - أيّها الأخ العزيز إنّ أقلّ مايجب اعتقاده على المكلّف هو ما ترجمه قول « لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله » ثمّ إذا صدّق الرسول فينبغي أن يصدّقه في صفات الله و اليوم الآخر و تعيين الإمام المعصوم، كلّ ذلك ممّا يشتمل عليه القرآن من غير مزيد و برهان، أمّا في الآخرة فبالإيمان بالجنّة و النّار و الحساب [و غيره]، و أمّا في صفات الله فبأنّه تعالى حيّ، قادرٌ، عالمٌ، مريدٌ، كارهٌ، متكلّمٌ، ليس كمثله شيءٌ، و هو السميع البصير؛ ولا يجب عليه أن يبحث عن حقيقة هذه الصفات، و أنّ الكلام والعلم وغيرهما حادثٌ أو قديمٌ بل لولم يخطر بباله حقيقة هذه المسألة حتّى مات مات

(١) العنكبوت: ٦٩.

مؤمناً ولا يجب عليه تعلّم الأدلّة الّتي حرّرها المتكلّمون ، بل مهما خطر في قلبه تصديق الحقّ بمجرّد الإيمان من غير دليل و برهان فهو مؤمن ، و لم يكلّف رسول الله ﷺ العرب بأكثر من ذلك ، وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرار العرب وأكثر الناس إلّا من وقع في بلدة يقرع سمعه فيها هذه المسائل كقدم الكلام و حدوثه و معنى الاستواء والنزول و غيره فهو إن لم يأخذ ذلك بقلبه و بقي مشغولاً بعبادته و عمله فلا حرج عليه ، و إن أخذ ذلك بقلبه فإنّما الواجب عليه ما اعتقده السلف يعتقد في القرآن الحدوث كما قال السلف : القرآن كلام الله مخلوقٌ ، ويعتقد أنّ الاستواء حقٌّ و الإيمان به واجب و السؤال عنه مع الاستغناء عنه بدعة ، والكيفيّة غير معلومة ، و يؤمن بجميع ماجاء به الشرع إيماناً مجملاً من غير بحث عن الحقيقة والكيفيّة ، وإن لم يعتقد ذلك وغلب على قلبه الشكّ والإشكال فإن أمكن ازالة الشك والإشكال بكلام قريب من الأفهام ازيل و إن لم يكن قويّاً عند المتكلّمين ولامرضيّاً ، فذلك كاف ولا حاجة إلى تحقيق الدليل فإنّ الدليل لايتمّ إلّا بذكر الشبهة و الجواب ، و مهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن يتشبّث بالخاطر و انطبع فيظنّها حقّة لقصوره عن إدراك جوابها إذ الشبهة قد تكون جليّة والجواب دقيقاً لا يحمل عقله ، و لهذا زجر السلف عن البحث و التفتيش و عن الكلام ، و إنّما زجروا ضعفاء العوامّ و أمّا أئمّة الدّين فلهم الخوض في غمرة الاشكالات و منع العوام عن الكلام يجري مجرى منع الصبيان عن شاطىء الدجلة خوفاً عن الغرق ، و رخصة الأقوياء فيه يضاهي رخصة الماهر في صنعة السباحة ، إلّا أنّ ههنا موضع غرور و مزلّة قدم ، و هو أنّ كلّ ضعيف في عقله يظنّ أنّه يقدر على إدراك الحقائق كلّها و أنّه من جملة الأقوياء ، فربما يخوضون و يغرقون في بحر الجهالات من حيث لا يشعرون ، و الصواب منع الخلق كلّهم إلّا الشاذّ النادر الّذي لا تسمح الأعصار إلّا بواحد منهم أو اثنين من تجاوز سلوك مسلك السلف في الإيمان المرسل و التصديق المجمل بكلّ ما أنزل الله تعالى و أخبر به رسوله ﷺ فمن اشتغل في الخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل إذ قال رسول الله ﷺ حيث رأى أصحابه يخوضون بعد أن غضب حتّى احمرّت وجنتاه : « أفبهذا اُمرتم تضربون

كتاب الله بعضه ببعض ؟ انظروا فما أمركم الله به فافعلوا و ما نهاكم عنه فانتهوا »[١] فهذا تنبيه على منهج الحقّ واستيفاء ذلك شرحناه في كتاب قواعد العقائد فاطلبه منه » . انتهى كلامه - طاب ثراه -

و من كلام أهل البيت عليهم السلام في هذا الباب ما روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال في كلام له : « فالزم ما أجمع عليه أهل الصفاء و التقى من أُصول الدّين و حقائق اليقين و الرضا و التسليم ولا تدخل في اختلاف الخلق و مقالاتهم فيصعب عليك ، و قد أجمعت الأُمّة المختارة بأنّ الله واحد ليس كمثله شيءٌ ، و أنّه عدل في حكمه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ، ولا يقال له في شيء من صنعته : لِمَ ، و لا كان و لا يكون شيء إلّا بمشيّته ، و أنّه قادرعلى ما يشاء ، وصادق في وعده ووعيده ، و أنّ القرآن كلامه ، وأنّه كان قبل الكون و المكان والزمان ، و أنّ إحداثه و إفناءه غيره سواء ، ما ازداد باحداثه علماً ولا ينقص بفنائه ملكه ، عزّ سلطانه و جلّ سبحانه ، فمن أورد عليك ما ينقض هذا الأصل فلا تقبله ، و جرّد باطنك لذلك ترى بركاته عن قريب و تفوز مع الفائزين[٢]» .

« فصل »

قال أبو حامد : « فان قلت : فعلم الجدل و الكلام مذمومٌ كعلم النجوم أو هو مباحٌ أو مندوبٌ إليه ؟ فاعلم أنّ للنّاس في هذا غلوّاً و إسرافاً في أطراف ، فمن قائل : إنّه بدعة و حرام ، و أنّ العبد إن لقي الله تعالى بكلّ ذنب سوى الشرك خيرٌ له من أن يلقاه بالكلام ، و من قائل : إنّه واجب و فرض إمّا على الكفاية أو على الأعيان و إنّه أفضل الأعمال و أعلى القربات فانّه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى وإلى التحريم ذهب الشافعيّ ، ومالك ، وأحمدبن حنبل ، و سفيان وجميع أهل الحديث من السلف .

قال : الشافعيّ : حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد و يطاف بهم في

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ج ١ ص ٣٣ تحت رقم ٨٥ بلفظ آخر .
(٢) كشف المحجة في خاتمته .

العشائر و القبائل ، و يقال : هذا جزاء من ترك الكتاب و السنّة وأخذ في الكلام [(١)]

و قال أحمد : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، و لا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلّا وفي قلبه دغلٌ [(٢)] و بالغ فيه حتّى هجر المحاسبي مع زهده و ورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الردّ على المبتدعة ، فقال : ويحك ألست تحكي بدعتهم أوّلاً ثمّ تردّ عليهم ، ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة و التفكّر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي و البحث ؛ و قال أيضاً : علماء الكلام زنادقة .

و قال مالك : أرأيت ان جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كلّ يوم لدين جديد .

يعني أنّ أقوال المجادلين تتفاوت إلى غير ذلك من التشديدات و قالوا : ماسكت عنه الصحابة مع أنّهم أعرف بالحقائق و أفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلّا لعلمهم بما يتولّد منه من الشرّ ولذلك قال النبيّ ﷺ : « هلك المتنطّعون ، هلك المتنطّعون ، هلك المتنطّعون » [(٣)] أي المتعمّقون في البحث و الاستقصاء .

و احتجّوا أيضاً بأنّ ذلك لو كان من الدّين لكان ذلك أهمّ ما يأمر به رسول الله ﷺ و يعلّم طريقه و يثني على أربابه فقد علّمهم الاستنجاء و ندبهم إلى حفظ الفرائض و أثنى عليهم ، و نهاهم عن الكلام في القدر و قال : « أمسكو » [(٤)] و على هذا استمرّ الصحابة ، والزيادة على الاُستاد طغيان و ظلم وهم الاُستادون و نحن الأتباع والتلامذة» .

أقول : و قد أسلفنا أخباراً من أهل البيت عليهم السلام أيضاً في مذمّة الكلام عند ذكر آفات المناظرة من كتاب العلم ، قال الصدوق ـ رحمه الله ـ في اعتقاداته [(٥)]: والجدل في اُمور الدّين منهيٌّ عنه قال أمير المؤمنين عليه السلام : « من طلب الدين بالجدل تزندق » و قال الصادق عليه السلام : «يهلك أصحاب الكلام وينجو المسلّمون ، إنّ المسلّمين هم النجباء ».

(١) نقله ابن عبدالبر فى العلم كما فى المختصر ص ١٥٦ و هكذا القولين اللذين يأتيان بعده .

(٢) الدغل ـ محركة ـ : ما داخل الانسان من فساد أوحقداو ما يخالفه .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه ج ٢ ص ٥٠٦ و قال الجزرى فى النهاية : فى الحديث «هلك المتنطعون» هم المتعمقون المغالون فى الكلام المتكلفون باقصى حلوقهم مأخوذ من النطع وهو الغار الاعلى من الفم ثم استعمل فى كل من تعمق قولا و فعلا .

(٤) أخرجه الطبرانى كمافى مجمع الزوائد ج٧ ص ٢٠٢ . (٥) الباب الحاديعشر .

و قال السيد بن طاووس ـ رحمه الله ـ : وجدت في كتاب عبدالله بن حمّاد الأنصاريّ في النسخة المقروءة على هارون بن موسى التلعكبريّ ـ رحمه الله ـ ما هذا لفظه « عن جميل ابن درّاج قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : متكلّمو هذه العصابة من شرار من هم منهم »[١] .

قال أبو حامد : « و أمّا الفرقة الاُخرى فإنّهم احتجّوا بأنّ المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر و العرض و هذه الاصطلاحات الغريبة الّتي لم يعهدها الصحابة فالأمر فيه قريب إذ ما من علم إلّا و قد اُحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير و الفقه و لو عرض عليهم عبارة النقض و الكسر و التركيب و التعدية و فساد الوضع لما كانوا يفهمونه ، فإحداث عبارة للدّلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح ، و إن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعني به إلّا معرفة الدليل على حدوث العالم و وحدانيّة الخالق و صفاته كما جاء به الشرع فمن أين يحرم معرفة الله بالدّليل ؟ و إن كان المحذور هو الشغب[٢] و التعصّب والعداوة والبغضاء و ما يفضي إليه الكلام فذلك محرّم و يجب الاحتراز عنه كما أنّ الكبر و الرياء و طلب الرئاسة ممّا يفضي إليه علم الحديث و التفسير و الفقه و هو محرّم و يجب الاحتراز عنه و لكن لايمنع من العلم لأجل أدائه إليه ، و كيف يكون ذكر الحجّة و المطالبة بها و البحث عنها محذوراً ؟ و قد قال تعالى : « قل هاتوا برهانكم »[٣] و قال تعالى : «ليهلك من هلك عن بيّنة »[٤] و قال تعالى : «إن عندكم من سلطان»[٥] أي من حجّة وبرهان و قال تعالى : « فللّه الحجّة البالغة »[٦] وقال تعالى : «ألم تر إلى الّذي حاجّ إبراهيم ـ إلى قوله ـ فبهت الّذي كفر »[٧] إذ ذكر احتجاج إبراهيم و مجادلته و إفحامه خصمه في معرض الثناء عليه و قال تعالى : « تلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه »[٨] و قال

(١) كذا في كشف المحجة .
(٢) الشغب : كثرة الجلبة واللغط المؤدى الى الشر . وفي الاحياء «التشعب» .
(٣) الانبياء : ٢٤ . (٤) الانفال : ٤٢ .
(٥) يونس : ٦٨ . (٦) الانعام : ١٤٩ .
(٧) البقرة : ٢٥٨ . (٨) الانعام : ٨٣ .

تعالى : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا »[1] و قال تعالى في قصّة فرعون : « و ما ربّ العالمين - إلى قوله - أو لو جئتك بشيء مبين»[2] و على الجملة فالقرآن من أوّله إلى آخره محاجّة مع الكفّار فعمدة أدلّة المتكلّمين في التوحيد قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا»[3] و في البعث قوله عزّ وجلّ : « قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة» [4] إلى غير ذلك من الأدلّة و لم يزل الرّسل يحاجّون المنكرين و يجادلونهم قال تعالى : « و جادلهم بالّتي هي أحسن » [5] و الصحابة أيضاً كانوا يجادلون ولكن عند الحاجة و كانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم و أوّل من سنّ دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحقّ عليّ عليه السلام إذ بعث ابن عبّاس إلى الخوارج يكلّمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل و لم يسب و لم يغنم ، قال : ذلك في قتال الكفّار أرأيتم لو سبيت عائشة في يوم الجمل فوقعت عائشة في سهم أحدكم أكنتم تستحلّون منها ما تستحلّون من ملككم ؟ و هي أمّكم في نصّ الكتاب ؟ فقالوا : لا ، و رجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان »[6] .

أقول : و محاجّة الأئمّة المعصومين عليهم السلام مع الكفّار و أهل الخلاف مشهورة مستفيضة و قد تضمّن نبذاً منها كتاب الكافي و الاحتجاج للطبرسيّ وغيرهما .

قال : « فينبغي أن يقال : كان خوضهم فيه قليلاً لا كثيراً و قصيراً لا طويلاً و عند الحاجة لا بطريق التصنيف و التدريس و اتّخاذه صناعة ، فيقال : أمّا قلّة خوضهم فكان لقلّة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان و أمّا القصر فكانت الغاية إفحام الخصم و اعترافه و انكشاف الحقّ فلو طال إشكال الخصم أولجاجه لطال لامحالة إلزامهم و ما كانوا يقدّرون قدر الحاجة بميزان ولامكيال بعد الشروع فيها ، و أمّا عدم تصدّيهم للتدريس و التصنيف فهكذا كان في الفقه و التفسير و الحديث أيضاً ، فإن جاز تصنيف

(١) هود : ٣٢ .　(٢) الشعراء : ٣٠ .
(٣) الانبياء : ٢٢ .　(٤) يس : ٧٩ .
(٥) النحل : ١٢٥ .
(٦) أشار اليه ابن عبدالبر في العلم كما في المختصر ص ١٦٢ ، و رواه الطبرسي - رحمه الله - في الاحتجاج ص ١٠٠ من طبع النجف .

الفقه و وضع الصور النادرة الّتي لا تتّفق إلّا على الندور إمّا ادّخاراً ليوم وقوعها و إن كانت نادراً أو تشحيذاً للخاطر فنحن أيضاً نرتّب طريق المحاجّة لتوقّع وقوع الحاجة بثوران شبهة و هيجان مبتدع أولتشحيذ الخاطر أو لادّخار الحجّة حتّى لانعجز عنه عند الحاجة على البديهة و الارتجال كمن يعدّ السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين ».

﴿ فصل ﴾

« فإن قلت : فما المختار فيه عندك ؟ فاعلم أنّ الحقّ فيه أنّ إطلاق القول بذمّه في كلّ حال أو بحمده في كلّ حال خطأ بل لابدّ فيه من تفصيل ، فاعلم أوّلاً أنّ الشيء قد يحرم لذاته كالخمر و الميتة ، و أعني بقولي : « لذاته » أنّ علّة تحريمه وصف في ذاته و هو الإسكار و الموت و هذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنّه حرامٌ ولا نلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار و إباحة تجرّع الخمر إذا غصّ الإنسان بلقمة و لم يجد ما يسيغها به سوى الخمر و ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك في وقت الخيار و البيع في وقت النداء و كأكل الطين فإنّه يحرم لما فيه من الإضرار و هذا ينقسم إلى ما يضرّ قليله و كثيره ، فيطلق القول عليه بأنّه حرامٌ كالسمّ الّذي يقتل قليله و كثيره ، و إلى ما يضرّ عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإنّ كثيره يضرّ بالمحرور ، و كان إطلاق التحريم على الخمر و التحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال فإن تصدّى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصّل فنعود إلى علم الكلام ونقول فيه منفعة و فيه مضرّة فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوبٌ أو واجبٌ كما يقتضيه الحال ، و هو باعتبار مضرّته في وقت الاستضرار و محلّه حرام أمّا مضرّته فأثارة الشبهات و تحريك العقائد و إزالتها عن الجزم والتصميم فذلك ممّا يحصل في الابتداء و رجوعها بالدليل مشكوك فيه و يختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره في الاعتقاد الحقّ ، و له ضررٌ في تأكيد اعتقاد المبتدعة و تثبيته في صدورهم بحيث ينبعث دواعيهم

و يشتدّ حرصهم على الإصرار عليه و لكن هذا الضرر بواسطة التعصّب الّذي يثور من الجدل و لذلك ترى المبتدع العامي يمكن أن يزول اعتقاده باللّطف في أسرع زمان إلّا إذاكان نشوؤه في بلد يظهر فيه الجدل والتعصّب فإنّه لواجتمع عليه الأوّلون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدوره بل الهوى و التعصّب و بغض خصومة المجادلين و فرق المخالفين يستولي على قلبه و يمنعه من إدراك الحقّ حتّى لوقيل له : هل تريدأن يكشف الله لك الغطاء و يعرّفك بالعيان أنّ الحقّ مع خصمك كره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه و هذا هو الداء العظيم الّذي استطار في البلاد و العباد و هو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصّب فهذا ضرره ، و أمّا منفعته فقديظنّ أنّ فائدته كشف الحقائق و معرفتها على ما هي عليها و هيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف و لعلّ التخبيط والتضليل فيه أكثرمن الكشف والتعريف و هذا إذا سمعته من محدّث أوحشويّ ربّما خطر ببالك أنّ الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممّن خبر الكلام ثمّ قلاه بعد حقيقة الخبرة و بعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلّمين و جاوز ذلك إلى التعمّق في علوم آخر يناسب نوع الكلام و تحقّق أنّ الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود و لعمري لا ينفكّ الكلام عن كشف و تعريف و إيضاح لبعض الأُمور ولكن على الندور في أُمور جليّة تكادتفهم قبل التعمّق في صنعة الكلام ، بل منفعته شيء واحد و هو حراسة العقيدة الّتي ترجمناها على العوام و حفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل ، فإنّ العاميّ ضعيف يستفزّه جدل المبتدع و إن كان فاسداً و معارضة الفاسد بالفاسد تدفعه ، والناس متعبّدون بهذه العقائد إذ ورد بها الشرع لما فيها من صلاح دينهم و دنياهم و العلماء متعبّدون بحفظ ذلك على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبّد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجّمات الظلمة و الغصّاب ، و إذا وقعت الإحاطة بضرره و منفعته فينبغي أن تكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء المخطر إذ لا يضعه إلّا في موضعه ، و ذلك في وقت الحاجة و على قدر الحاجة ، و تفصيله أنّ العوام المشغولين بالحرف و الصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم الّتي اعتقدوها مهما تلقّفوا الاعتقاد الحقّ الّذي ذكرناه فإنّ تعليمهم الكلام ضرر محض في حقّهم إذ ربّما يثير لهم شكّاً و يزلزل عليهم

الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح و أمّا العاميّ المعتقد للبدعة فينبغي أن يدعا إلى الحقّ بالتلطّف لا بالتعصّب و بالكلام اللّطيف المقنع للنفس المؤثّر في القلب القريب من سياق أدلّة القرآن و الحديث الممزوج بفنّ الوعظ و التحذير فإنّ ذلك أنفع من الجدل المصوغ (١) على شرط المتكلّمين إذ العاميّ إذا سمع ذلك اعتقد أنّه نوع صنعة تعلّمها المتكلّم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدّر أنّ المجادلين من مذهبه أيضاً يقدرون على دفعه فالجدل مع هذا ومع الأوّل حرام و كذا مع من وقع في شكّ إذ يجب إزالته باللّطف و الوعظ و الأدلّة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمّق الكلام و استقصاء الجدل و إنّما ينفع في موضع واحد و هو أن يفرض عاميّ اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحقّ و ذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ و التحذيرات العاميّة ، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه إلّا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه ، و هذا في بلاد تقلّ فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الّذي ذكرناه و لا يتعرّض للأدلّة و يتربّص وقوع شبهة فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة ، فإن كانت البدعة شائعة و كان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلّموا القدر الّذي أودعناه كتاب الرسالة القدسيّة ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات أهل البدعة إن وقعت إليهم وهذا مقدار مختصر و قد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره » .

أقول : و أمّا على طريقتنا فيبدّل ذلك بما أودعته في الأبواب الخمسة الوسطى من هذا الكتاب و قد أفردتها في رسالة و أضفت إليها ما يجب تعلّمه على الناس عامّة من العلم بالأعمال الظاهرة و الباطنة و الأخلاق الفاضلة و الرديّة و سمّيتها منهاج النجاة (٢) و هو إكسير المتعلّمين .

قال : « فإن كان فيه ذكاء وتنبّه بذكائه لموضع سؤال وثارت في نفسه شبهة فقدبدت العلّة المحذورة وظهر الدّاء فلابدّ أن يرقى منه إلى القدر الّذي ذكرناه في كتاب الاقتصاد

---

(١) في الاحياء « على الجدل الموضوع » .

(٢) طبع غير مرة على الحجر بطهران .

في الاعتقاد و هو قدر خمسين ورقة و ليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلّمين » .

أقول : و على طريقتنا يبدّل ذلك بما أو دعته كتاب علم اليقين فإنّه و إن كان مبسوطاً إلّا أنّه لم يخرج عمّا ورد في القرآن و أحاديث أهل العصمة عليهم السلام إلّا قليلاً ممّا يحتاج إليه في شرحهما .

قال : « فإن أقنعه ذلك كفّ عنه و إن لم يشفه ذلك فقد صارت العلّة مزمنة والداء عضالاً و المرض سارياً فيتلطّف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله فيه إلى أن ينكشف له الحقّ بتنبيه من الله سبحانه أو يستمرّ على الشكّ و الشبهة إلى ما قدّر له ، فالقدر الّذي يحويه ذلك الكتاب و جنسه من المصنّفات هو الّذي يرجى نفعه ، فأمّا الخارج منه فقسمان : أحدهما بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات والأكوان وعن الإدراكات و الخوض في أنّ الرؤية هل لها ضدّ يسمّى المنع و العمى و إن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما يرى أو يثبت لكلّ مرئيّ يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترّهات المضلّة ، و القسم الثاني زيادة تقرير لتلك الأدلّة في غير تلك القواعد و زيادة أسولة و أجوبة و ذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلّا ضلالاً و جهلاً في حقّ من لم يقنعه ذلك القدر ، فربّ كلام يزيده الإطناب و التقرير غموضاً .

و لو قال : قائل : البحث عن حكم الإدراكات و الاعتمادات فيه تشحيذ الخواطر و الخاطر آلة الدّين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحّذ الخاطر فهو من الدّين و ذلك هوس فإنّ الخاطر يتشحّذ بسائر علوم الشرع و لا يخاف منها مضرّة ، فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحالة الّتي تذمّ منها و الحالة الّتي تحمد و الشخص الّذي ينتفع به و الّذي لا ينتفع» .

﴿ فصل ﴾

« فإن قلت : مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدع ؟ والآن فقد ثارت البدع و عمّت البلوى و ارهقت الحاجة فلابدّ و أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات

كالقيام بحراسة الأموال و سائر الحقوق كالقضاء و الولاية و غيرها و ما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك و التدريس فيه والبحث عنه لايدوم و لوترك بالكلّيّة لاندرس و ليس في مجرّد الطباع كفاية لحلّ شبه المبتدعة ما لم يتعلّم فينبغي أن يكون التدريس فيه أيضاً من فروض الكفايات بخلاف زمان الصحابة فإنّ الحاجة ما كانت ماسّة إليه ، فاعلم أنّ الحقّ أنّه لابدّ في كلّ بلد من قائم بهذا العلم مستقلّ بدفع شبه المبتدعة الّتي ثارت في تلك البلدة و ذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه عن العموم كتدريس الفقه والتفسير فإنّ هذا مثل الدواء و الفقه مثل الغذاء و ضرر الغذاء لا يحذر و ضرر الدّواء محذورٌ لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر فالعالم به ينبغي أن يخصّص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال : إحداها التجرّد للعلم و الحرص عليه ، فإنّ المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام و إزالة الشكوك إذا عرضت ، و الثانية الذّكاء و الفطنة و الفصاحة ، فإنّ البليد لاينتفع بفهمه و الفدم (١) لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام و لا يرجى فيه نفعه ، و الثالثة أن يكون في طبعه الصلاح و الديانة و التقوى و لا يكون الشهوات عليه غالبة فإنّ الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عنه الدّين و إنّ ذلك يحلّ عنه الحجر و يرفع السدّ بينه و بين الملاذ ، فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يغتنمها ليتخلّص من أعباء التكليف ، فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلّم أكثر ممّا يصلحه ، و إذا عرفت هذه الانقسامات اتّضح لك أنّ الحجّة المحمودة في الكلام إنّما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللّطيفة المؤثّرة في القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل في التقسيمات و التّدقيقات الّتي لايفهمها أكثر الناس و إذا فهموها اعتقدوا أنّها شعبدة و صنعة تعلّمها صاحبها للتلبيس فإذا قابله مثله في الصنعة قاومه وعرفت أنّ السلف إنّما منعوا عن الخوض فيه و التجرّد له لما فيه من الضرر الّذي نبّهنا عليه و أنّ ما نقل عن ابن عبّاس من مناظرة الخوارج و ما نقل عن علي عليه السلام من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجليّ الظاهر وفي محلّ الحاجة و ذلك محمود في كلّ حال .

نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة و قلّتها و لايبعد أن يختلف الحكم لذلك

---

(١) الفدم : العاجز عن التكلم ، والعي عن الكلام .

فهذا كلّه حكم العقيدة الّتي تعبّد الخلق بها و حكم طريق النضال عنها و حفظها ، و أمّا إزالة الشبه و كشف الحقائق و معرفة الأشياء على ما هي عليها و إدراك الأسرار الّتي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقائد فلا مفتاح لها إلّا المجاهدة وقمع الشهوات ، والإقبال بالكلّيّة على الله ، و ملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات و هي رحمة من الله تعالى تفيض على من يتعرّض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرّض ، وبقدر قبول المحلّ وطهارة القلب ، فذلك البحر الّذي لا يدرك غوره و لا يبلغ ساحله .

فصل

قال : « فإن قلت : هذا الكلام يشير إلى أنّ هذه العلوم لها ظواهر و أسرار و بعضها جليّ يبدو أوّلاً و بعضها خفيّ يتّضح أخيراً بالمجاهدة و الرياضة ، و الطلب الحثيث ، و الفكر الصافي ، و السرّ الخالي عن كلّ شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب و هذا يكاد يكون مخالفاً للشرع إذ ليس للشرع ظاهر و باطن و سرّ و علن بل الظاهر و الباطن و السرّ و العلن واحد ، فاعلم أنّ انقسام هذه العلوم إلى خفيّة وجليّة لا ينكرها ذو بصيرة و إنّما ينكرها القاصرون الّذين تلقّفوا أوّل الصبا شيئاً و جمدوا عليه فلم يكن لهم ترقّ إلى شأو العلى [1] و مقامات العلماء والأولياء و ذلك ظاهر من أدلّة الشرع ، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ للقرآن ظاهراً و باطناً و حدّاً و مطلعاً » [2] .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم » [3] .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما حدّث أحد قوماً بحديث لم يبلغه عقولهم إلّا كان فتنة عليهم » [4] .

---

(١) الشأو ـ مصدر ـ : الامد . الغاية ؛ ويقال : فلان بعيد الشأو اى عالى الهمة .

(٢) راجع المجلد التاسع عشر من البحار باب أن للقرآن ظهراً و بطناً أورده بمختلف ألفاظه .

(٣) رواه الكلينى فى الكافى ج ١ ص٢٣ تحت رقم ١٥ والصدوق فى الامالى ص٢٥١ .

(٤) أخرجه مسلم فى مقدمة صحيحه ص ٩ .

و قال علي عليه السلام - وأشار إلى صدره - : «إنّ ههنا علوماً جمّة لو وجدت لها حملة»[1].

و قال الله تعالى : « و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلّا العالمون »[2].

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً و لبكيتم كثيراً »[3].

فليت شعري إن لم يكن ذلك سرّاً منع من إفشائه لقصور الأفهام عن دركه أو لمعنى آخر فلِم لم يذكره لهم فلاشكّ في أنّهم كانوا يصدّقونه لو ذكره لهم، و قال ابن عبّاس في قوله تعالى : « الله الّذي خلق سبع سموات و من الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ »[4]: لو ذكرت تفسيره لرجمتموني . وفي لفظ آخر لقلتم : إنّه كافر .

و قال سهل التستري : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر ، و علم باطن لايسعه إظهاره إلّا لأهله ، و علم هو بينه و بين الله لايظهره لأحد ، و قال بعض العارفين : إفشاء سرّ الربوبيّة كفر ؛ و قال بعضهم : للربوبيّة سرّ لو أظهر لبطلت النبوّة وللنبوّة سرّ لو كشف لبطل العلم وللعلماء بالله سرّ لوأظهروه لبطلت الأحكام ، و هذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوّة في حقّ الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحقّ بل الصّحيح أنّه لاتناقض وأنّ الكامل من لايطفيء نور معرفته نور ورعه وملاك الورع النبوّة » .

أقول : و قد أسلفنا في الباب الثاني من كتاب العلم عند ذكر تفصيل علم الآخرة أحاديث من أهل البيت عليهم السلام من هذا القبيل .

﴿ فصل ﴾

فإن قلت : هذه الآيات و الأخبار يتطرّق إليها تأويلات فبيّن كيفيّة اختلاف الظاهر و الباطن فإنّ الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع و هو قول من قال : إنّ الحقيقة خلاف الشريعة و هو كفر لأنّ الشريعة عبارة عن الظاهر ، و الحقيقة عن الباطن و إن كان لايناقضه ولايخالفه فهو هو فيزول به الانقسام ولايكون للشرع سرّ

(١) نهج البلاغة ح ١٤٧ . (٢) العنكبوت : ٤٣ .
(٣) أخرجه أحمد في المسند ج٢ ص ٢٥٧ و ٣١٢ و ٤٣٢ .
(٤) الطلاق : ١٢ .

لايفشى بل يكون الخفيّ و الجليّ واحداً ، فاعلم أن هذا السؤال يحرّك خطباً عظيماً و ينجرّ إلى علم المكاشفة و يخرج عن مقصود علم المعاملة و هو غرض هذا الكتاب فإنّ هذه العقائد الّتي ذكرناها من أعمال القلوب و قد تعبّدنا بتلقّيها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لابأن يتوصّل إلى أن ينكشف لنا حقائقها ، فإنّ ذلك لم يكلّف به كافّة الخلق ، و لو لاأنّه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ، و لولا أنّه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في الشطر الأوّل من الكتاب وإنّما الكشف الحقيقي هو صفة سرّ القلب و باطنه و لكن إذاانجرّ الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلابدّ من كلام و جيز في حلّه ، فمن قال : إنّ الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل أسرار الّتي يختصّ المقرّبون بدركها ولايشاركهم الأكثرون في علمها و يمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام :

الأوّل أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً يكلّ أكثر الأفهام عن دركه فيختصّ بدركه الخواصّ ، وعليهم أن لايفشوه إلى غير أهله إذ يصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك و إخفاء سرّ الروح و كفّ رسول الله ﷺ عن بيانه من هذا القسم ، فإنّ حقيقته ممّا يكلّ الأفهام عن دركه ويقصر الأوهام عن تصوّر كنهه ، ولا تظننّ أنّ ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله ﷺ فإنّ من لم يعرف الروح فكأنّه لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربّه ، ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء و العلماء و إن لم يكونوا أنبياء و لكنّهم يتأدّبون بأدب الشرع فيسكتون عمّا سكت عنه بل في صفات الله سبحانه من الخفايا ما يقصر أفهام الجماهير عن دركه و لم يذكر رسول الله ﷺ منها إلّا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتّى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهّموها إلى علمهم و قدرتهم إذا كانت لهم من الأوصاف ما يسمّى علماً و قدرة فيتوهّمون ذلك بنوع مقائسة ولو ذكر من صفاته ماليس للخلق ممّا يناسبه بعض المناسبة بشيء لم يفهموه بل لذّة الجماع إذا ذكرت للصّبيّ أو العنّين لم يفهمه إلّا بمناسبة إلى لذّة المطعوم الّذي يدركه و لا يكون ذلك فهماً على التحقيق ، و المخالفة بين علم الله و قدرته و علم الخلق و قدرتهم أكثر من المخالفة بين لذّة الجماع و الأكل ، و بالجملة فلا يدرك

الإنسان إلّا نفسه و صفات نفسه ممّا هو حاضر له في الحال أو ممّا كان له من قبل ، ثمّ بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره ، ثمّ قد يصدّق بأنّ بينهما تفاوتاً في الشرف و الكمال ، فليس في قوّة البشر إلّا أن يثبت لله ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيره من الصفات مع التصديق بأنّ ذلك أكمل و أشرف ، فيكون معظم تحويمه على صفات نفسه لا على ما اختصّ الربّ تعالى به من الجلال ولذلك قال ﷺ : « لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (۱) و ليس المعنيّ به أنّي أعجز عن التعبير عمّا أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله و لذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله و قال آخر : « الحمد لله الّذي لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلّا بالعجز عن معرفته » و لنقبض عنان الكلام عن هذا النمط و لنرجع إلى الغرض و هو أنّ أحد الأقسام ما يكلّ الأفهام عن دركه و من جملته الروح ، ومن جملته بعض صفات الله تعالى ، و لعلّ الإشارة إلى مثله في قوله ﷺ : « إنّ لله سبعين حجاباً من نور لو كشفها لا حرقت سبحات وجهه كلّ من أدركه بصره » .

القسم الثاني من الخفيّات الّتي يمتنع الأنبياء و الصدّيقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكلّ الفهم عنه و لكنّ ذكره يضرّ بأكثر المستمعين و لا يضرّ بالأنبياء و الصدّيقين و سرّ القدر الّذي منع أهل العلم به عن إفشائه من هذا القسم ولا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرّاً ببعض الخلق كما يضرّ نور الشمس بأبصار الخفافيش و كما يضرّ رياح الورد بالجُعَل .

و لو قال قائل : إنّ القيامة لو ذُكر ميقاتها و أنّها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقلّ لكان مفهوماً ولكن لم يذكره لمصلحة العباد و خوفاً من الضرر و لعلّ المدّة إليها بعيدة فيطول الأمن ، و إذا استبطأت النفوس وقت العقاب قلّ اكتراثها أو لعلّها كانت قريبة في

(۱) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة باب الدعاء فى الركوع والسجود ج ۱ ص ۲۰۳ وقوله : « لا احصى ثناء عليك » ولعل المعنى أنه ليس فى قدرتى شكرك الواجب على لان شكرى لك هو نعمة منك على فكيف بشكرها . و أخرجه مسلم فى صحيحه ج ۲ ص ٥١ .

(۲) راجع كتاب السماء والعالم من بحار الانوار الباب السادس نقله بالفاظ مختلفة عن الفريقين .

علم الله و لو ذكرت لعظم الخوف و أعرض الناس عن الأعمال و خربت الدنيا فهذا المعنى لو اتّجه و صحّ فيكون مثالاً لهذا القسم.

القسم الثالث أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم و لم يكن فيه ضرر و لكن يكنّى عنه على سبيل الاستعارة و الرّمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب و له مصلحة في أن يعظم وقع ذلك الأمر في قلبه كما لو قال قائل: رأيت فلاناً يقلّد الدرّ في أعناق الخنازير، و كنّى به عن إفشاء العلم و بثّ الحكمة إلى غير أهلها، فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهره، والمحقّق إذا نظر وعلم أنّ ذلك الإنسان لم يكن معه درّ ولاكان في موضعه خنزير تفطّن لدرك السرّ والباطن فيتفاوت الناس بذلك، و هذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة الّتي يتضمّن عين المعنى أو مثله و منه قوله عليه السلام: «إنّ المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة في النّار»[1] و أنت ترى أنّ مساحة المسجد لا ينقص بالنخامة و معناه أنّ روح المسجد و معناه كونه معظّماً و رمي النخامة تحقير فيضادّ معنى المسجديّة مضادّة النّار لاتّصال أجزاء الجلدة و كذلك قوله عليه السلام: «أما يخشي الّذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار»[2] و ذاك من حيث الصورة لم يكن قطّ ولا يكون ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته للونه و شكله بل لخاصيّته و هي البلادة و الحمق، و من رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحمق وهوالمقصود دون الشكل الّذي هو قالب المعنى إذمن غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدّم فانّهما متناقضان وإنّما يعرف هذا السرّ على خلاف الظاهر إمّا بدليل عقليّ أو شرعيّ، أمّا العقلي بأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله عليه السلام: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»[3] إذ فتّشنا عن صدور المؤمنين فليست فيها أصابع فعلم أنّها كناية عن القدرة الّتي هي سرّ الأصبع و روحها الخفي و كنّي بالأصبع عن القدرة لأنّ ذلك أعظم وقعاً في تفهيم

---

(١) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ١٣٣.

(٢) الحديث متفق عليه كما في مشكاة المصابيح ص ١٠٢.

(٣) قال العراقي: أخرجه مسلم من حديث عمر و فيه « قلب العبد ».

تمام الاقتدار، و من هذا القبيل كنايته عن الاقتدار بقوله تعالى: « إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » [1] فإنّ ظاهره ممتنع إذ قوله: « كن » إن كان خطاباً مع الشيء قبل وجوده فهو محالٌ إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتّى يمتثل، و إن كان بعد الوجود فهو يستغني عن التكوين و لكن لمّا كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها، وأمّا المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكناً ولكن يروى أنّه اُريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى: « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها» ـ الآية ـ [2] وأنّ معنى الماء هو القرآن، ومعنى الأودية القلوب و أنّ بعضها احتملت شيئاً كثيراً و بعضها قليلاً و بعضها لم يحتمل، و الزبد مثل للكفر فإنّه و إن ظهر وطفا [3] على رأس الماء فإنّه لا يثبت، و الهداية الّتي تنفع الناس تمكث، و في هذا القسم تعمّق جماعة فأوّلوا ما ورد في الآخرة من الميزان و الصراط و غيرهما، و هو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية و إجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر ».

أقول: تأويل الميزان و الصراط ليس ببدعة على طريقتنا لوروده عن أئمّتنا المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين كما أشرنا إليه فيما قبل و قد بيّنّا ذلك بما لا مزيد عليه في رسالة عليحدة.

« القسم الرابع أن يدرك الإنسان الشيء جملة، ثمّ يدركه تفصيلاً بالتحقيق و الذوق بأن يصير حالاً ملابساً له فيتفاوت العلمان فيكون الأوّل كالقشر، و الثاني كاللّبّ، و الأوّل كالظاهر، و الآخر كالباطن، و ذلك كما يتمثّل للإنسان في عينه شخصٌ في الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما و لا يكون الأخير ضدّ الأوّل بل هو استكماله فكذلك في العلم و الإيمان و التصديق إذ قد يصدّق الإنسان بوجود العشق و المرض و الموت قبل وقوعه ولكن تحقّقه به عند الوقوع أكمل من تحقّقه قبل الوقوع، بل للإنسان في الشهوة

(١) النحل: ٤٠. (٢) الرعد: ١٧.

(٣) أي علا فوق الماء ولم يرسب.

و العشق و سائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة ، الأوّل تصديقه بوجوده قبل وقوعه ، والآخر عند وقوعه ، والآخر بعد تصرّمه ، فإن تحقّقك بالجوع بعد الزوال يخالف التحقّق به قبل الزوال ، فكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقاً فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ، ففرق بين علم المريض بالصحّة وبين علم الصحيح بها ، ففي هذه الأقسام الأربعة يتفاوت الخلق و ليس في شيء منه باطن يناقض الظاهر بل يتمّمه و يكمّله كما يتمّم اللّبّ القشر .

القسم الخامس أن يعبّر بلسان المقال عن لسان الحال ، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر و يعتقده نطقاً ، و البصير بالحقائق يدرك السرّ فيه و هذا كقول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقّني ؟ قال : سل من يدقّني فلم يتركني ورائي ، الحجر الّذي ورائي ، فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال ، ومن هذا قوله تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين »[1] فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدّر لهما حياة وعقلاً و فهماً للخطاب وخطاباً هو صوت و حرف تسمعه الأرض وتجيب بصوت وحرف وتقول : أتينا طائعين ، و البصير يعلم أنّ ذلك لسان الحال و أنّه نبأ عن كونها مسخّرة بالضرورة و مضطرّة إلى التسخّر ، و من هذا قوله تعالى : « و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده »[2] فإنّ البليد يفتقر فيه إلى أن يقدّر للجماد حياة و عقلاً و نطقاً بصوت و حرف حتّى يقول : « سبحان الله » ليتحقّق تسبيحه ، والبصير يعلم أنّه ما أُريد به نطق اللّسان بل كونه مسبّحا بوجوده ، و مقدّساً بذاته ، و شاهداً بوحدانيّة الله تعالى كما يقال :

و في كلّ شيء له آية * تدلّ على أنّه واحد

و كما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصاحبها بحسن التدبير و كمال العلم ، لا بمعنى أنّها تقول : « أشهد » و لكن بالذّات و الحال ، فكذلك ما من شيء إلّا و هو محتاج في نفسه إلى موجد يوجده و يبقيه و يديم أوصافه و يردّده في أطواره ، فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس ، يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على

---

(١) فصلت : ١١ . (٢) الاسراء : ٤٤ .

الظواهر و لذلك قال تعالى : « و لكن لاتفقهون تسبيحهم» [١] أمّا القاصرون فلايفهمون أصلاً ، و أمّا المقرّبون و العلماء الراسخون فلا يفهمون كنهه و كماله إذ لكلّ شيء شهادات شتّى على تقديس الله و تسبيحه و يدرك كلّ واحد بقدر رزقه و بصيرته ، و تعداد تلك الشهادات لايليق بعلم المعاملة ، فهذاأيضاً ممّا يتفاوت أرباب الظواهر و أرباب البصائر في علمه و تظهر به مفارقة الباطن للظاهر ، و في هذا المقام لأرباب المقامات إسراف و اقتصادٌ ، فمن مسرف في دفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر أو أكثرها حتّى حملوا قوله تعالى : « تكلّمنا أيديهم و تشهد أرجلهم » [٢] و قوله : « و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء » [٣] و كذلك المخاطبات الّتي تجري من منكر و نكير ، و في الميزان و الحساب ، ومناظرات أهل النار ، و أهل الجنّة في قولهم : « أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله » [٤] زعموا أنّ كلّ ذلك لسان الحال و غلا آخرون في حسم الباب [٥] منهم أحمد بن حنبل حتّى منع من تأويل قوله « كن فيكون » [٦] و زعم أنّ ذلك خطابٌ بحرف و صوت يوجد من الله تعالى في كلّ لحظة بعد د كلّ مكوّن حتّى سمعتُ بعض أصحابه يقول : إنّه حسم باب التأويل إلّا لثلاثة ألفاظ : قوله ﷺ : « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » [٧] و قوله ﷺ : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن [٨] » وقوله ﷺ : «إنّي لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن » [٩] . ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر ، و الظنّ بأحمد بن حنبل أنّه علم أنّ الاستواء ليس هو الاستقرار ، والنزول ليس هو الانتقال ، ولكنّه منع من التأويل حسماً للباب ، ورعاية لصلاح الخلق فإنّه إذا فتح الباب اتّسع الخرق على الراقع وخرج عن الضبط و جاوز الاقتصاد إذحدّ الاقتصاد لاينضبط ، ولابأس بهذا الزجر و يشهد له سيرة

(١) الاسراء : ٤٤ . (٢) يس : ٦٥ .
(٣) فصلت : ٢١ . (٤) الاعراف : ٥٠ .
(٥) الحسم : القطع . (٦) يس : ٨٢ .
(٧) الجامع الصغير باب الحاء عن الخطيب رواه في تاريخه ، ورواه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ٤٥٧ بنحو أبسط . (٨) مر سابقاً .
(٩) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة كما في المغني .

السلف فإنّهم كانوا يقولون : أقرّوها كما جاءت حتّى قال مالك لمّا سئل عن الاستواء قال : الاستواء معلوم و الكيفيّة مجهولة ، و الإيمان به واجبٌ ، و السؤال عنه بدعة ، وذهب طائفة إلى الاقتصاد ففتحوا باب التأويل في كلّ ما يتعلّق بصفات الله تعالى وتركوا ما يتعلّق بالآخرة على ظواهرها و منعوا من التأويل و هم الأشعريّة و زاد المعتزلة عليهم حتّى أوّلوا من صفات الله الرؤية ، و أوّلوا كونه سميعاً بصيراً ، و أوّلوا المعراج و زعموا أنّه لم يكن بالجسد و أوّلوا عذاب القبر والميزان و الصراط و جملة من أحكام الآخرة و لكن أقرّوا بحشر الأجساد و بالجنّة و اشتمالها على المأكولات و المشروبات و المنكوحات و الملاذّ المحسوسة ، وبالنّار و اشتمالها على جسم محسوس محرق يحرق الجلود ، و يذيب الشحوم ، و من ترقّيهم إلى هذا الحدّ زاد الفلاسفة فأوّلوا كلّما ورد في الآخرة وردّوها إلى آلام عقليّة روحانيّة ولذّات عقليّة ، وأنكروا حشر الأجساد ، و قالوا ببقاء النفوس و أنّها تكون إمّا معذّبة و إمّا منعّمة ، بعذاب و نعيم لا يدرك بالحسّ ، و هؤلاء هم المسرفون ، و حدّ الاقتصاد ما بين هذا الانحلال و بين جمود الحنابلة دقيقٌ غامضٌ لا يطّلع عليه إلّا الموفّقون الّذين يدركون الاُمور بنور إلهيّ لا بالسّماع ، ثمّ إذا انكشف لهم أسرار الاُمور على ما هي عليها نظروا إلى السمع و الألفاظ الواردة فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرّروه و ما خالف أوّلوه ، فأمّا من يأخذ معرفة هذه الاُمور من السمع المجرّد فلا يستقرّ له فيه قدم ، و لا يتعيّن له موقف ، و الأليق بالمقتصر على السمع المجرّد مقام أحمد بن حنبل ، و الآن فكشف الغطاء عن حدّ الاقتصاد في هذه الاُمور داخلٌ في علم المكاشفة و القول فيه يطول فلا نخوض فيه و الغرض بيان موافقة الباطن للظاهر ومخالفته له وقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة» .

﴿ فصل ﴾

أقول : و إنّما ينكشف هذه الأسرار على القلوب بقدر قوّة الإيمان واليقين فيها وذلك إنّما يكون بقدر العلم الّذي به حياة القلب و هو نور يحصل في القلب بسبب ارتفاع

الحجاب بينه و بين الله جلّ جلاله . « الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » [١] « أومن كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها »[٢] ليس العلم بكثرة التعلّم إنّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد الله أن يهديه ، و هذا النور قابل للقوّة و الضعف و الاشتداد و النقص كسائر الأنوار « و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » [٣] « و قل ربّ زدني علماً » [٤] .

«الإيمان درجات و طبقات و منازل فمنه التامّ المنتهي تمامه و منه الناقص البيّن نقصانه و منه الراجح الزائد رجحانه » كذا قال مولانا الصادق عليه السلام [٥]. و كلّما ارتفع حجاب ازداد نور فيقوي الإيمان و يتكامل إلى أن ينبسط نوره فينشرح صدره و يطّلع على حقائق الأشياء و يتجلّى له الغيوب و يعرف كلّ شيء في موضعه فيظهر له صدق الأنبياء عليهم السلام في جميع ما أخبروا عنه إجمالاً و تفصيلاً على حسب نوره و بمقدار انشراح صدره ، و ينبعث من قلبه داعية العمل بكلّ مأمور و الاجتناب عن كلّ محظور ، فيضاف إلى نور معرفته أنوار الأخلاق الفاضلة و الملكات الحميدة ، « نور هم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم » « نور على نور » و كلّ عبادة تقع على وجهها تورث في القلب صفاءً يجعله مستعدّاً لحصول نور فيه و انشراح و معرفة و يقين ثمّ ذلك النور و المعرفة و اليقين تحمله على عبادة أُخرى و إخلاص آخر فيها يوجب نوراً آخر و انشراحاً أتمّ و معرفة أُخرى و يقيناً أقوى و هكذا إلى ماشاء الله جلّ جلاله ، و مثل ذلك مثل من يمشي بسراج في ظلمة فكلّما أضاء له من الطريق قطعة مشى فيها فيصير ذلك المشي سبباً لإضاءة قطعة أُخرى منه و هكذا و في الحديث النبويّ صلى الله عليه و آله : « من علم و عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم[٦]» وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام « انّ الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فإذا عمل العبد الصالحات نما و زاد حتّى يبيضّ القلب كلّه وانّ النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات زادت حتّى يسود القلب كلّه فيطبع على قلبه فذلك الختم و تلا « كلاّ بل ران

(١) البقرة : ٢٥٧ .
(٢) الانعام : ١٢٢ .
(٣) الانفال : ٣ .
(٤) طه : ١١٤ .
(٥) رواه الكليني في الكافي ج٢ ص ٣٨ تحت رقم ٧ في حديث طويل عن العالم عليه السلام .
(٦) قد مر في ص ١٤٨ عن أبي نعيم في الحلية .

على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (١) .

قال أبو حامد : « و العمل يؤثّر في نماء تصميم الاعتقاد و زيادته كما يؤثّرسقي الماء في نماءالأشجار ولذلك قال تعالى : « فزادهم إيماناً» (٢) وقال : « زادتهم إيماناً» (٣) و قال : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »(٤) و قد قال صلى الله عليه وآله فيما روي في بعض الأخبار : « الإيمان يزيد و ينقص » (٥) فذلك بتأثير الطاعات في القلب ، و هذا لا يدركه إلّا من راقب أحوال نفسه في أوقاتِ المواظبة على العبادة ، والتجرّد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور و إدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال ، بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه و تلطّف له أدرك من باطنه تأكّد الرحمة و تضاعفها بسبب العمل ، و كذلك معتقدالتواضع إذا عمل بموجبه مقبلاً أو ساجداً لغيره أحسّ من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة و هكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثمّ يعود أثرالأعمال عليها فيؤكّدها و يزيدها . وسيأتي هذا في ربع المنجيات و المهلكات عند بيان وجه تعلّق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد و القلوب » انتهى كلامه .

و لقد طوّل الكلام في الفرق بين الإيمان و الإسلام ومعانيهما و مراتبهما ، وما جاء في ذلك من اختلاف الأنام ، و ما يترتّب عليهما من الأحكام ، وغير ذلك ممّا ليس فيه كثير طائل بعد الاطّلاع على ما حقّقناه و على ما نورده في فصل آخر موجز على منهاج آخر غير ما سلكه ، وبالله التوفيق .

---

(١) المطففين : ١٣ . والخبر روى المفيد نحوه فى الاختصاص ص ٢٤٣ عن أبى عبدالله عليه السلام و أيضاً راجع بحار الانوار ج ١٥ (طبع الكمبانى) باب آثار الذنوب .

(٢) آل عمران : ١٧٣ . (٣) الانفال : ٣ .

(٤) فتح : ٤ .

(٥) راجع صحيح البخارىج١ ص ١٨ باب زيادة الايمان و نقصانه .

«فصل»

إنّ أوائل درجات الإيمان تصديقات مشوبة بالشكوك و الشبه على اختلاف مراتبها و يمكن معها الشرك «وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون»[١] وعنها يعبّر بالإسلام في الأكثر «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبكم»[٢].

و عن الصادق عليه السلام «الإيمان أرفع من الإسلام بدرجة»[٣]،

«إنّ الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر والإسلام لايشارك الإيمان في الباطن و إن اجتمعا في القول والصفة وأواسطها تصديقات لايشوبها شكّ و لاشبهة «الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا[٤]» وأكثر إطلاق الإيمان عليها خاصّة «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكّلون[٥]» و أواخرها تصديقات كذلك مع كشف و شهود و ذوق و عيان و محبّة كاملة لله سبحانه و شوق تامّ إلى حضرته المقدّسة، «يحبّهم و يحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين» «ولا يخافون (في الله) لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٦] و عنها العبارة تارة بالإحسان «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه»[٧] و الأخرى بالإيقان «و بالآخرة هم يوقنون»[٨] و إلى المراتب الثلاث الاشارة بقوله تعالى: «ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتّقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثمّ اتّقوا و آمنوا ثمّ اتّقوا و أحسنوا والله يحبّ المحسنين»[٩] و إلى مقابلاتها الّتي

---

(١) يوسف: ١٠٦. (٢) الحجرات: ١٤.

(٣) راجع الكافي ج ٢ باب فضل الايمان على الاسلام.

(٤) الحجرات: ١٥.

(٥) الانفال: ٢. (٦) المائدة: ٥٤.

(٧) مسند أحمد ج ١ ص ٢٧. (٨) البقرة: ٤.

(٩) المائدة: ٩٣.

هي مراتب الكفر الإشارة بقوله عزّ وجلّ : « إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا»[1] فنسبة الإحسان واليقين إلى الإيمان كنسبة الإيمان إلى الإسلام . قال الصادق عليه السلام : « إنّ الإيمان أفضل من الإسلام ، و إنّ اليقين أفضل من الإيمان ، و ما من شيء أعزّ من اليقين»[2] ولليقين ثلاث مراتب علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين « كلاّ لو تعلمون علم اليقين * لترونّ الجحيم * ثمّ لترونّها عين اليقين »[3] « إنّ هذا لهو حقّ اليقين »[4] و الفرق بينهما إنّما ينكشف بمثال فعلم اليقين بالنار مثلاً مشاهدة المرئيّات بتوسط نورها وعين اليقين بما هو معاينة جرمها ، وحقّ اليقين بها الاحتراق فيها و الصيرورة ناراً و ليس وراء هذا غاية و لا هو قابل للزيادة «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » .

هذا آخر الكلام في كتاب قواعد العقائد من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء و يتلوه كتاب أسرار الطهارة و مهمّاتها والحمدلله أوّلا وآخراً وظاهراً وباطناً .

«كتاب أسرار الطهارة»

✡(ومهماتها)✡

(و هو الكتاب الثالث من ربع العبادات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي تلطّف بعباده ، فتعبّدهم بالنظافة ، وأفاض على قلوبهم ، تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه ، وأعدّ لظواهرهم تطهيراً لها الماء المخصوص بالرقّة واللّطافة ، و الصلاة على محمّد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم و أكنافه ، و على آله الطيّبين

(١) النساء : ١٣٧ .
(٢) رواه الكليني ـ رحمه الله ـ في الكافي ج ١ ص ٥١ تحت رقم ١ .
(٣) التكاثر : ٥ و ٦ و ٧ . (٤) الواقعة : ٩٥ .

الطّاهرين ، تحمينا بركاتها يوم المخافة ، و تنصب جنّة بيننا و بين كلّ آفة .

أمّا بعدفقد قال النبيّ ﷺ : « بني الدين على النظافة » [١] ؛ وقال : «مفتاح الصّلاة الطهور [٢] » و قال الله تعالى : « رجال يحبّون أن يتطهّروا والله يحبّ المطّهّرين » [٣]؛ وقال ﷺ : «الطهور نصف الايمان »[٤] و قال تعالى : « ما يريدالله ليجعل عليكم من حرج و لكن يريد ليطهّركم »[٥] .

فيتفطّن ذوو البصائر بهذه الظواهر أنّ أهمّ الأمور تطهير السرائر ؛ إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ : « الطهور نصف الايمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء ، وتخريب الباطن و إبقائه مشحوناً بالأخباث و الأقذار ، هيهات هيهات .

و الطهارة لها أربع مراتب : الأولى تطهير الظاهر عن الأحداث و الأخباث و الفضلات ؛ الثانية تطهير الجوارح من الجرائم و الآثام ؛ الثالثة تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة و الرذائل الممقوتة ؛ الرابعة تطهير السرّ عمّا سوى الله و هي طهارة الأنبياء عليهم السلام و الصدّيقين .

و الطهارة في كلّ رتبة نصف العمل الّذي فيها ، فإنّ الغاية القصوى في عمل السرّ أن ينكشف له جلال الله وعظمته ، ولن تحلّ له معرفة الله بالحقيقة في السرّ مالم يرتحل ما سوى الله ، ولذلك قال الله تعالى : « قل الله ثمّ ذرهم » [٦] لأنّهما لا يجتمعان في قلب « و ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه » [٧] .

---

(١) قال العراقي : لم أجده هكذا ، وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة « تنظفوا فان الاسلام نظيف » . والطبراني في الاوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود « النظافة تدعوا الى الايمان » انتهى كلامه .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٢ ص ١٥ . و أحمد في المسند ج ١ ص ١٢٣ .

(٣) التوبة : ١٠٨ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ٢٦٠ ، وج ٥ ص٣٤٢ . و صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٠ وسنن الدارمي ج ١ ص ١٦٧ « الطهور شطر الايمان » .

(٥) المائدة : ٦ .

(٦) الانعام : ٩١ . (٧) الاحزاب : ٤ .

و أمّا عمل القلب ، فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة و العقائد المشروعة ولن يتّصف بها مالم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة ، و الرذائل المذمومة ، فتطهيره أحد الشطرين و هو الشطر الأوّل الّذي هو شرط في الثاني . فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى ، و كذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد الشطرين ، و عمارتها بالطاعات الشطر الثاني ، و هذه مقامات الإيمان ، و لكلّ مقام طبقة ، ولن ينال العبد الطبقة العالية إلّا أن يجاوز الطبقة السافلة ، فلايصل إلى طهارة السرّ عن الصفات المذمومة و عمارته بالمحمودة من لم يفرغ عن طهارة القلب عن الخلق المذموم و عمارته بالمحمود ، و لن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي و عمارتها بالطاعات ، و كلّما عزّ المطلوب و شرف صعب مسلكه و طال طريقه و كثرت عقباته ، ولا تظنّنّ أنّ هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينا (١) .

نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلّا الدرجة الأخيرة الّتي هي كالقشر الأخير بالإضافة إلى اللّبّ المطلوب ، فصار يمعن فيه و يستقصي في مجاريه ، و يستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء و غسل الثياب و تنظيف الظاهر و طلب المياه الجارية الكثيرة ، ظنّاً منه بحكم الوسوسة و خبل العقل أنّ الطهارة المطلوبة المشرفة هي هذه فقط و جهلاً بسيرة الأوّلين و استغراقهم جميع الهمّ والفكر في تطهير القلوب ، و تساهلهم في أمر الظاهر حتّى أنّهم ما كانوا يغسلون اليد عن الدسومات و الأطعمة ، بل كانوا يتمسّحون أصابعهم بأخمص أقدامهم ، و عدّوا الأشنان من البدع المحدثة ، ولقد كانوا يصلّون على الأرض في المساجد و يمشون حفاة في الطرقات ، و من كان لا يجعل بينه وبين التراب حاجزاً في مضجعه كان من أكابرهم ، وكانوا يجعلون الصلاة في النعلين أفضل ، وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء ، وكانوا يأكلون من دقيق البرّ و الشعير و هو يداس بالدوابّ و تبول عليه ، و لا يحترزون من عرق الإبل و الفرس مع كثرة تمرّغها في النجاسات و لم ينقل قطّ

(١) الهوينا تصغير الهونى تأنيث الاهون وهو من الهون : الرفق واللين والمراد هنا التهاون فى امرالدين و ترك الاهتمام فيه .

من واحد منهم سؤال في دقائق النجاسات ، فهكذا كان تساهلهم فيها .

وقد انتهت النوبة الآن إلى طائفة يسمّون الرعونة نظافة ، ويقولون : هي مبنى الدين فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر كفعل الماشطة بعروسها ، و الباطن خراب مشحون بخبائث الكبر و العجب و الجهل والرياء والنفاق ، و لايستنكرون ذلك و لايتعجّبون منه ، ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أومشى على الأرض حافياً أوصلّى على الأرض أو على بواري المساجد من غير سجّادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من ادم أوتوضّأ من آنية عجوز ، أو رجل غير متقشّف أقاموا فيه القيامة و شدّدوا عليه النكير ولقّبوه بالقذر وأخرجوه من زمرتهم ، واستنكفوا من مؤاكلته ومخالطته ، فسمّوا البذاذة الّتي هي من الإيمان قذارة ، و الرعونة نظافة ، فانظر كيف صار المنكر معروفاً و المعروف منكراً ، و كيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس تحقيقه و علمه .

﴿ فصل ﴾

فإن قلت : فتقول : إنّ هذه العادات الّتي أحدثها الصوفيّة في هيئاتهم و نظافتهم من المحذورات والمنكرات ، فأقول : حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ، ولكنّي أقول : هذا التكلف و التنظيف بإعداد الأواني و الآلات و استعمال غلاف القدم و الإزار المتقنّع به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرّد ، فهي من المباحات و قد يقترن بها أحوال و نيّات ، تلحقها تارة بالمعروف و تارة بالمنكرات ، وأمّا كونه مباحاً في نفسه فلا يخفى إذ صاحبه متصرّف به في ماله و بدنه و ثيابه فليفعل به ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة و إسراف ، وأمّا مصيره منكراً فبأن يجعل ذلك أصل الدين و تفسير قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « بني الدين على النظافة » حتّى ينكر به على من يتساهل فيه تساهل الأوّلين أو أن يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق ، و تحسين موقع نظرهم ، فإنّ ذلك هو الرياء المحظور ، فيصير منكراً بهذين الاعتبارين ، وأمّا كونه معروفاً فبأن يكون القصد منه الخير دون التزيّن ، وأن لاينكر على من ترك

ذلك ، ولا يؤخّر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ، و لايشتغل به عن عمل هو أفضل منه ، أو عن تربية علم أو غيره ، فإذا لم يقترن به شيء من ذلك فهو مباح ، يمكن أن يجعل قربة بالنيّة ، ولكن لا يتيسّر ذلك إلّا للبطّالين ، الّذين لولم يشتغلوا بصرف الأوقات إليه ، اشتغلوا بنوم أوحديث فيما لا يعني ، فيصير شغلهم به أولى لأنّ التشاغل بالطهارات يجدّد ذكر الله وذكر العبادات ، فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر و إسراف و أمّا أهل العلم والعمل فلا ينبغي أن يصرفوا من أوقاتهم إليه إلّا قدر الحاجة والزيادة عليه منكر في حقّهم و تضييع للعمر الّذي هو أنفس الجواهر و أعزّها في حقّ من قدر على الانتفاع به، ولا تتعجّب من ذلك فإنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين ، فلاينبغي للبطّال أن يترك النظافة و ينكر على المتصوّفة ، و يزعم أنّه يتشبّه بالصحابة إذا التشبّه بهم في أن لا يتفرّغ له عمّا هو أهمّ منه ، فلهذا لاأرى للعالم ولا للعامل أن يضيّع وقته في غسل الثياب احترازاً من أن يلبس الثياب المقصورة ، وتوهّماً بالقصار تقصيراً في الغسل ، فقد كانوا في العصر الأوّل يصلّون في الفرا المدبوغة ، وكم من الفرق بين المدبوغة و المقصورة في الطهارة و النجاسة ، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ، ولايدقّقون نظرهم في استنباط الاحتمالات الدقيقة ، بل كانوا يتأمّلون في دقائق الرياء و الظلم ، و كانوا يعدّون جمام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا في احتمال النجاسات ، ولو وجد العالم عاميّاً يتعاطى له غسل الثياب محتاطاً فهو أفضل ، فإنّه بالإضافة إلى التساهل خير ، وذلك العاميّ ينتفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمّارة بالسوء بعمل مباح في نفسه فيمتنع عليه المعاصي في تلك الحال ، والنفس إن لم تشغل شغلت صاحبها ؛ و إذا قصد به التقرّب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات فوقت العالم أشرف من أن يصرف إلي مثله فيبقى محفوظاً عليه ، وأشرف وقت العاميّ أن يشتغل بمثله ، فيتوفّر الخير من الجوانب وليفطّن بهذه الأمثال لنظائره من الأعمال ، وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على البعض فتدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهمّ من التدقيق في أموال الدنيا بحذا فيرها ، وإذا عرفت هذه المقدّمة و استثبتّ أنّ الطهارة لها أربع مراتب فاعلم أنّ في هذا الكتاب لسنا نتكلّم إلّا في المرتبة الرابعة وهي نظافة الظاهر

لأنّا في الشطر الأوّل من الكتاب لا نتعرّض قصداً إلّا للظواهر ، فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام: طهارة عن الخبث ، و طهارة عن الحدث ، و طهارة عن فضلات البدن ، و هي الّتي تحصل بالقلم و الاستحداد [1] و استعمال النورة والختان وغيره .

القسم الاول : في طهارة الخبث ، و النظر فيه يتعلّق بالمزال ، و المزال به ، و الإزالة . الطرف الأوّل في المزال وهي النجاسات» .

أقول : و لندع الآن ما أفتاه أبو حامد على مذاهب العامّة وأصحاب الرأي إلّا مالا بأس به منه و لنتكلّم على طريقة أهل البيت عليهم السلام و شيعتهم ، فنقول : و بالله التوفيق :

النجاسات الّتي تجب إزالتها عن الثوب و البدن للصلاة والطواف وعن المساجد والمصاحف وجلودها و أكياسها ولفائفها ، والضرائح المقدّسة ، و كسوتها ، وما يلقي عليها و عن المأكول و المشروب ، والأواني المتوقّف استعمالها فيهما ، أو في الطهارة عليها هي « الدّم » و « المني » من ذي النفس سوى الدّم المتخلّف في المذبوح بعد القذف المعتاد فإنّه طاهر حلال ، و « البول » و « الغائط » من غير المأكول أصالة أولعارض كالجلّال و موطوء الإنسان و شارب لبن الخنزير حتّى ينبت اللّحم سوى الطير فإنّ فيه خلافاً قويّاً لقول الصادق عليه السلام : « كلّ شيء يطير لابأس بخرئه وبوله » [2]. و « الميتة » إلّا العشرة الفقيدة الحياة ، و « المسكر » المائع أصالة من الخمر و غيرها على المشهور الأقوى ، و اُلحق به « الفقّاع » و إن لم يسكر لإطلاق الخمر عليه ، و ربّما يلحق به العصير العنبيّ إذا غلا ولو بالشمس حتّى يذهب ثلثاه و لم يثبت ، و « الكلب » و « الخنزير » غير المائيين ، و تعميم ابن إدريس ضعيف . و « الكافر » و إن أقرّ بالشهادتين كالخارج والناصب والمجسّم و الغالي على المشهور .

و حكم جماعة بطهارة أسئار أهل الكتاب لورود الأخبار الصحيحة بذلك ، وحملت على التقيّة ، و حكم الشيخ أبو جعفر : بنجاسة المجبّرة ، و السيّد المرتضى : بنجاسة

(۱) الاستحداد استعمال الحديدة فی العانة .

(۲) رواه الكلينی ـ رحمه الله ـ فی الكافی ج ۳ ص ٥۸ تحت رقم ۹ . والخرء ـ بضم الخاء المعجمة ـ : العذرة جمع خروء ، والخبر أيضاً فی التهذيب ج۱ ص ۷٥ .

المخالفين، و ابن الجنيد: بنجاسة المذي عن شهوة، ولبن الجارية، و المفيد: بنجاسة عرق الجنب من الحرام، وعرق الإبل الجلّالة، و بنجاسة الفارة، والوزغة: وأبوالصلاح بنجاسة الثعلب والأرنب، وسلّار: بنجاسة المسوخ، والكلّ شاذّ.

و كلّ شيء غير ما ذكر فهو طاهر مالم يلاق شيئاً من النجاسات برطوبة، وإن كان من الفضلات كالعرق، والبصاق، و المخاط، والقيىء، و القيح، و الودي، والوذي، و غيرها، وكذا الدّم، والمنيّ من غير ذي النفس كالبعوض، والبقّ، وكذا البول، و الروث، من مأكول اللّحم، و يكرهان من البغال، و الحمير، و الدوابّ، وكذا زرق الدجاج، و سؤر آكل الجيف، و من لا يتوقّى النجاسة، و ما اختلف في نجاسته و الحشرات، والحديد، والدم المتخلّف في اللّحم، والقيىء، والقيح، والمذي - و إن لم يكن من شهوة - والودي، و طين الطريق بعد ثلاثة أيّام من انقطاع المطر، و يعفى في الصلاة عمّالا يمكن تطهيره، و عن نجاسة مالايتمّ الصلاة فيه منفردة، و عمّادون الدرهم من الدّم، و عن دم القروح و الجروح الّتي لاترقى و إن لم تعصب قلّ أم كثر، ويشترط في وجوب الإزالة في الجميع العلم بالنجاسة فعن الصادق عليه السلام: «كلّ شيء نظيف حتّى تعلم أنّه قذر»[1].

و الأحوط غسل المظنون، و يستفاد من ظاهر الأخبار الاكتفاء فيه بالنضح و لو شكّ في الملاقات أولا في مكروهاً رشّه بالماء استحباباً، و كذا ملاقي الكلب يابساً، و بول البعير و الشاة، والأحوط في أبوال البغال، والحمير و الدوابّ إزالته و لو جهل موضع الملاقات غسل كلّما وقع فيه الاشتباه وجوباً، و إن لم يحكم بنجاسة كلّ جزء جزء.

الطرف الثاني في المزال به و هو إمّا ماء أو غيره، أمّا الماء فهو طهور كلّه، قال الله عزّ وجلّ: «و أنزلنا من السماء ماء طهوراً»[2]؛ و قال جلّ وعزّ: «وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به»[3] و في الحديث النبويّ المستفيض «خلق الله

(١) أورده الصدوق في المقنع بلفظ «كل شيء طاهر حتى تعلم أنه قذر» مستدرك النوري ج ١ ص ١٦٤.

(٢) الفرقان: ٤٨.

(٣) الانفال: ١١.

الماء طهوراً لا ينجّسه شيء إلّا ما غيّر لونه أو طعمه أو ريحه » [١] و في الخبر الصحيح عن الصادق عليه السلام : « كلّما غلب الماء على ريح الجيفة فتوضأمن الماء واشرب ، فإذا تغيّر الماء و تغيّر الطعم فلا تتوضّأ ولاتشرب » [٢] و عنه عليه السلام « الماء يطهّرولايطهّر » [٣] و المستفاد منها و من كثير من الأخبار عن الأئمّة الأطهار صلوات الله عليهم و من شهادة الاعتبار و من إجماع المسلمين على جواز إزالة النجاسة بالماء القليل أنّ الماء لايخرج عن الطهارة و التطهير إلّا إذا استولت عليه النجاسة ، و حيث تغلبه على أحد أوصافه الثلاثة و لكنّ أكثر أصحابنا و طائفة من العامّة ذهبوا إلى أنّه إذا كان أقلّ من قدر كرّ أو قلّتين ينجّس بمجرّد ملاقاته لها ويروون في ذلك حديثاً ، أمّا أصحابنا فعن الصادق عليه السلام أنّه قال : « إذا كان الماء قدر كرّ لم ينجّسه شيء » [٤] ، و أمّا العامّة فعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « إذا بلغ الماء قلّتين لم يحمل خبثاً » [٥] و هو الأحوط في العمل .

قال أبو حامد : « هذا مذهب الشافعيّ وكنت أودّ أن يكون مذهبه كمذهب مالك في أنّ الماء و إن قلّ فلا ينجّس إلّا بالتغير إذ الحاجة ماسّة إليه و مثارالوسواس اشتراط القلّتين ، ولأجله شقّ على النّاس ذلك و هو لعمري سبب المشقّة ويعرفه من يجرّبه و يتأمّله ، وممّالاأشكّ فيه أنّ ذلك لوكان مشروطاً لكان أولى المواضع بتعسّر الطهارة مكّة و المدينة إذلايكثر فيهما المياه الجارية ولاالرّاكدة الكثيرة ، ومن أوّل عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخر عصر الصحابة لم ينقل واقعة في الطهارة و لاسؤال عن كيفيّة حفظ الماء عن النجاسات ، و كانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان و الإماء و الّذين لايحترزون عن النجاسات ، ثمّ استدلّ على ذلك بوجوه ، ثمّ قال : فهذه الأمور مع الحاجة

---

(١) المعتبر للمحقق أبواب الطهارة وابن ادريس فى أول السرائر مرسلا وقال : قول الرسول صلى الله عليه و آله المتفق على روايته .

(٢) رواه الكلينى ـ رحمه الله ـ فى الكافى ج ٣ ص ٤ تحت رقم ٣ .

(٣) الحديث الاول من فروع الكافى .

(٤) رواه الكلينى ـ رحمه الله ـ فى الكافى ج ٣ ص ٢ تحت رقم ١ و ٢ .

(٥) أخرجه الشافعى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والدار قطني والبيهقى وابن ماجه كما فى نيل الاوطار ج ١ ص ٤١ .

الشديدة تقوي في النفس أنّهم كانوا ينظرون إلى عدم التغيّر معوّلين على قوله ﷺ : « خلق الماء طهوراً لا ينجّسه شيءٌ إلّا ماغيّرلونه أوطعمه أوريحه » و هذا فيه تحقيق ، و هو أنّ طبع كلّ مايع أن يقلّب إلى صفة نفسه كلّما يقع فيه و كان مغلوباً من جهته و كما ترى الكلب يقع في المملحة فيستحيل ملحاً و يحكم بطهارته لصيرورته ملحاً و زوال صفة الكلبيّة عنه ، فكذلك الخلّ يقع في الماء و اللّبن يقع فيه و هو قليل فيبطل صفته و يتّصف بصفة الماء و ينطبع بطبعه إلّا إذا كثر وغلب ويعرف غلبته بغلبة طعمه أولونه أو ريحهفهذا هو المعيار ، و قد أشار الشرع إليه في الماء القويّ على إزالة النجاسة فهو جدير بأن يعوّل عليه فيندفع به الحرج فيظهر معنى كونه طهوراً إذ يغلب غيره فيطهّره كما صار كذلك فيما بعد القلّتين و في الغسالة و في الماء الجاريّ .

قال : «وأمّاقوله ﷺ : « لايحمل خبثاً» فهو في نفسه مبهمفإنّه يحمل إذاتغيّر ، فإن قيل : أراد به إذالم يتغيّرفيمكن أن يقال : أرادبه أنّه في الغالب لايتغيّربالنجاسات المعتادة و هو تمسّك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلّتين وترك المفهوم بأقلّ من الأدلّة الّتي ذكرناها ممكن ، وقوله : « لا يحمل خبثاً » ظاهره نفي الحمل أي يقلّبه إلى صفة نفسه كما يقال : المملحة لاتحمل كلباً ولاغيره ، أي ينقلب إلى صفته وذلك لأنّ الناس قديستنجون في المياه القليلة في الغدران [١] و يغمسون الأواني النجسة فيها ثمّ يتردّدون في أنّها تغيّرت تغيّراً مؤثّراً أم لا فبيّن أنّه إذاكان قلّتين لايتغيّر بهذه النجاسات فإن قلت : فقد قال : « لا يحمل خبثاً » ومهما كثرت حملها فهذا ينقلب عليك فإنّها مهما كثرت حملها حكماً كما حملها حسّاً فلا بدّ من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعاً » .

أقول : المستفاد من أخبارنا أنّ الماء المستعمل في الطهارة من الحدث و الشرب اختياراً لابدّ له من مزيد اختصاص ولاسيّما المستعمل في الطهارة و أقلّه أن لا يلاقي شيئاً من النجاسات إن قلّ و على هذاجاز حمل ما يدلّ على انفعال الماء القليل بدون التغيّر على المنع من استعماله اختياراً في أحد الأمرين خاصّة دون سائر الاستعمالات ،

(١) الغدران جمع غدير وهي القطعة من الماء يغادرها السيل .

ويشهد لهذا ورود أكثرهفيهماوقد استوفيناالكلام فيهذهالمسألةوفيحكم ماء البئر في كتاب معتصم الشيعة في أحكام الشريعة فليرجع إليه من أراد الاطّلاع عليه ، وأمّا غير الماء فآلة الاستنجاء مطهّرة لمحلّه بشرط أن تكون طاهرة جافة قالعة منشفة ، والأرض تطهّر باطن الخفّ و النعل و أسفل القدم كما وردت به الروايات المستفيضة ، وعن الصادق عليه السلام « الأرض يطهّر بعضها بعضاً » [1] فذلك لاستحالة النجاسة و اضمحلالها بالوطيء عليها مرّة بعد اُخرى و انتقال بعضها إلى بعض و الاستحالة تطهّر الأعيان النجسةكأن تصير العذرة و الميتات تراباً أودوداً أورماداً أودخاناً أوفحماً و الكلب ملحاً وكذا الانقلاب كصيرورة الخمر خلاًّ سواء كان بعلاج أومن قبل نفسه ، و سواءكان ما يعالج به عيناً باقية أو مستهلكة على خلاف في الباقية و إن كره العلاج كماورد في الخبر ، و في حكمهما انتقال دم الإنسان إلى البعوض و البقّ ، و صيرورة الكافر مسلماً و لو باللّحوق كمسبيّ المسلم ، والشمس تطهّر الأرض البورية والحصير من البول بالتجفيف على المشهور وقيل : بل إنّما تجوز الصلاة عليها فحسب فلولاقت شيئاً برطوبة نجّسته ، ولايخفىمن قوّة و ربّما يلحق بالبول كلّ نجاسة مايعة و بالأرض و أخويها كلّ مالا يمكن نقلهكالأشجار و الأبنية .

الطرف الثالث في كيفيّة الإزالة : فالنجاسة إن كانت حكميّة وهي الّتي ليس لها جرم محسوس فيكفي إجراء الماء على جميع مواردها و إن كانت عينيّة فلابدّ من إزالة العين ، ولابأس ببقاء الرائحة فيماله رائحة فائحة تعسّر إزالتها بعد الدلك و العصر مرّات متوالية و لااللّون فيما يلتصق به بعدالحتّ و القرص [2] و قدورد في الحديث في دم الحيض الّذي لم يذهب أثره بالغسل أن اصبغيه بمشق [3] و ورد الأمر بتثنية

(١) رواه الكليني ـ رحمه الله ـ فيالكافي ج ٣ ص ٣٨ و٣٩ باسانيد مختلفة .

(٢) حت الشيء عن الثوب : ازاله و حكه . و قرص الثوب بالماء : غسله باطراف الاصابع .

(٣) راجع الكافيج ٣ص١١٠. والمشق ـ علىمايقال لهاليومفيالعراق ـ : الطين الارمني .

الغسل من البول في الثوب و البدن إن غسل بالقليل [١] و ربّما يلحق به المنيّ لأنّ له قواماً و ثخناً فهو أولى بالتعدّد ، و منهم من ألحق بهما سائر النجاسات ، و منهم من اكتفى في الكلّ بالمرّة المزيلة ، أمّا بول الصبيّ فلا خلاف في الاكتفاء فيه بصبّ الماء . و اعتبر السيّد المرتضى و جماعة في الإزالة و رود الماء على النجاسة فلوعكس نجس الماء ولم يفد المحلّ طهارة بناء على تنجّس القليل بورود النجاسة عليه و أبطله الشهيد ـ رحمه الله ـ لحصول امتزاج الماء بها على التقديرين و الورود لا يخرجه عن التلاقي فالتزم نجاسة الماء في الحالين مع طهارة المحلّ . والحقّ أن القائل بانفعال القليل بمجرّد الملاقات لابدّ له من ارتكاب أحد أمرين أمّا تخصيص ذلك بالملاقي للنجاسة العينيّة دون المتنجّس أعني ما أُزيلت نجاسته بغيرالتطهير الشرعي أو عدم جواز الإزالة بالقليل مطلقاً و الثاني خلاف الإجماع بل الضرورة من الدين فتعيّن الأوّل ويؤيّده أنّه لا يستفاد من الدّليل الدالّ عليه أزيد من ذلك، وعلى هذا فيجب التزام وجوب المرّتين في كلّ نجاسة ليزال بالأُولى بالعين ويكون الغسالة و المحلّ متنجّسين و يحصل بالثانية التطهير و يكونان طاهرين من غير فرق بين الورودين وله شواهد من الأخبار بل نقول : لادليل على تنجّس غيرالماء أيضاً بملاقاته للمتنجّس و إنّما الدليل دلّ على تنجّس الأشياء بملاقاتها للنجاسات العينيّة فحسب كما يظهر من التتبّع بل ربّما يستفاد من بعض الأخبار الحكم بطهارته وبه يرتفع الوسواس عن وجه الأرض بالكلّيّة إلّا أنّ هذا الفتوى لكبيرة إلّا على الّذين هداهم الله تعالى فإنّ أصحاب الوسواس الّذين غلب عليهم التقليد يعظّمونها يكفرون بنعمة الله ولا يشكرون سعة رحمة الله و في الحديث أنّ الخوارج « ضيّقوا على أنفسهم بجهالتهم و إنّ الدين أوسع من ذلك » [٢] ولا يجوز إزالة النجاسة بغير الماء من المايعات على المشهور خلافاً للمفيد والسيّد المرتضى فجوّزا بالماء المضاف و جوّز السيّد تطهير الأجسام الصقيلة بالمسح بحيث

(١) راجع الكافي ج ٣ ص ٥٥ .

(٢) رواه الشيخ ـ رحمه الله ـ في التهذيب ج ١ ص ٢٤١ ، والصدوق في الفقيه ص ٧٠ تحت رقم ٣٩ .

يزول العين لزوال العلّة و يمكن الاستيناس له ببعض الأخبار ، أمّا البواطن فلا ريب في طهارتها بزوال عين النجاسة عنها و كذا أعضاء الحيوان المتنجّسة غير الآدميّ و يستحبّ الاستظهار في الإزالة بتثنية الغسل و تثليثه و أن يباشرها بنفسه إذا كانت في ثوب صلاته . و العصر في بول الرضيع و إزالة ما دون الدرهم من الدم للصلاة و صبغ لونه بمشق ونحوه ، و غسل ذي القروح ثوبه في كلّ يوم مرّة و إزالة المكروهات للصلاة .

قال أبو حامد : و « ينبغي أن يتذكّر بإزالة النجاسة تطهير قلبه من نجاسة الأخلاق و مساويها فإنّه إذا اُمر بتطهير ظاهر الجلد وهو القشر و بتطهير الثياب و هي أبعد عن ذاته و هو قلبه فليجتهد له تطهيراً بالتوبة و الندم على ما فرط و تصميم العزم على ترك العود في المستقبل و يطهّر بها باطنه الّذي هو موقع نظر المعبود » .

القسم الثاني في طهارة الحدث و هي وضوء ، و غسل ، وتيمّم .

المطلب الأوّل في الوضوء وأسبابه الموجبة له : البول ، و الغائط ، والريح والنوم ، و كلّ ما يزيل العقل ، و الاستحاضة القليلة ، وزيد في المشهور غير القليلةِ منها ، والحيض و النفاس ، و مسّ الميّت بعد البرد و قبل الغسل ويأتي الكلام فيه ، كلّ ذلك ممّن عليه فريضة مشروطة بالطهارة و أراد فعلها و ما سوى ذلك من الوضوء فمسنون ، و لنورد أوّلاً آداب قضاء الحاجة و كيفيّة الاستنجاء و آدابه و سننه ، ثمّ فضيلة السواك و آدابه إذ هو من مقدّمات الوضوء ، ثمّ كيفيّة الوضوء و آدابه و فضيلته .

✿ (آداب قضاء الحاجة) ✿

ينبغي أن يعمد إلى الخلاء و يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء ، و أن يتستّر بشيء إن وجده ، وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس وأن يغطّي رأسه لئلاّ يصل الرائحة إلى دماغه بل يقنّع فوق العمامة أيضاً كما كان يفعله الصادق عليه السلام (۱) إقراراً بأنّه غير مبرّء نفسه عن العيوب و أن يقدّم في الدّخول رجله اليسرى و يقول : « بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم » ويقول عند الكشف : « بسم الله » ليغضّ الشيطان بصره كذا في الحديث (۲)، و أن لا يجلس في موارد المياه ،

(۱) راجع التهذيب ج ۱ ص ۸ ، والفقيه ص ۷ تحت رقم ۲ .
(۲) راجع الفقيه ص ۷ تحت رقم ٤ و ٥ . والكافي ج ۳ ص ۱٦ .

و الطرق النافذة ، و مساقط الثمار ، و مواطن النزال ، و مواضع اللّعن كأبواب الدور ، و على القبر ، ولا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها خصوصاً في الصحراء ؛ و عن الرضا عليه السلام « من بال حذاء القبلة ثمّ ذكر فانحرف عنها إجلالاً للقبلة و تعظيماً لها لم يقم من مقعده ذلك حتّى يغفر له »(١) ولا يستقبل النيّرين بالفرج و لا الريح بالبول ، و لا يبول في الصلبة ، ولا قائماً ، ولا مطمّحا (٢) ، ولا في الحجر ، ولا في الماء و يتأكّد في الراكد ، ولا يأكل عليه ، ولا يشرب ، ولا يستاك ولا يتكلّم إلّا لضرورة ، ولا بأس بذكر الله فإنّ موسى عليه السلام قال : يا ربّ إنّي أكون في أحوال اُجلّك أن أذكرك فيها ، فقال : يا موسى اُذكرني على كلّ حال » (٣) ولا يدخل معه الخلاء خاتماً عليه اسم الله أو مصحفاً فيه القرآن ، فإن دخل و عليه خاتم عليه اسم الله فليحوّله عن يده اليسرى إذا أراد الاستنجاء ويقول عند الفعل : « الحمد لله الّذي أطعمني طيّباً في عافية و أخرجه منّي خبيثاً في عافية » و في الحديث النبوي صلى الله عليه وآله « ما من عبد إلّا و به ملك موكّل يلوي عنقه حتّى ينظر إلى حدثه ثمّ يقول له الملك : يا ابن آدم هذا رزقك فانظر من أين أخذته و إلى ما صار ، فعند ذلك ينبغي للعبد أن يقول : « اللّهمّ ارزقني الحلال وجنّبني الحرام »(٤).

قال بعض علمائنا ـ رحمهم الله ـ(٥) تذكر بتخلّيك لقضاء الحاجة نقصك وحاجتك وما تشتمل عليه من الأقذار و ما في باطنك و أنت تزيّن ظاهرك للناس والله تعالى مطّلع على خبث باطنك و خسّة حالك ، فاشتغل بإخراج نجاسات الباطن و الأخلاق الداخلة في الأعماق المفسدة لك على الإطلاق لتريح نفسك عند إخراجها وتسكن قلبك من دنسها

(١) الفقيه ص ٨ تحت رقم ٨ .

(٢) طمح الفرس ـ من باب التفعيل ـ رفع يديه ، وبالشيء : رماه في الهواء . وفي الفقيه ص ٨ نهى الرسول صلى الله عليه وآله أن يطمح ببوله في الهواء من السطح أو من الشيء المرتفع .

(٣) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في التوحيد ص ١٧٤ و في العيون والفقيه أيضاً .

(٤) رواه الصدوق في علل الشرائع ج ١ باب ١٨٤ عن أمير المؤمنين عليه السلام .

(٥) يعني الشهيد الثاني ـ رحمه الله ـ ذكره في كتابه المسمى بأسرار الصلاة ص ١٨٢ من طبعه الملحق بكشف الفوائد .

و تخفّف لبّك من ثقلها و تصلح للوقوف على بساط الخدمة و التأهّل للمناجات ولاتستر ما ظهر منك ، فلابدّ أن يظهر عليك ما بطن لأنّ الطبيعة تظهر ما كمن فيها و تفتضح حينئذ بما سترته عن الناس كما يفعله الله بكلّ مدلّس ، قال الصادق عليه السلام : سمّي المستراح مستراحاً لاستراحة النفوس من أثقال النجاسات و استفراغ الكثافات و القذر فيها ، و المؤمن يعتبر عندها أنّ الخالص من حطام الدّنيا كذلك تصير عاقبته فيستريح بالعدول عنها و بتركها ، و يفرغ نفسه و قلبه عن شغلها ، و يستنكف عن جمعها و أخذها استنكافه عن النجاسة و الغائط و القذر ، و يتفكّر في نفسه المكرّمة في حال كيف تصير ذليلة في حال ، و يعلم أنّ التمسّك بالقناعة و التقوى تورث له راحة الدارين ، و أنّ الراحة في هوان الدنيا و الفراغ من التمتّع بها و في إزالة النجاسة من الحرام و الشبهة فينغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إيّاها و يفرّ من الذنوب و يفتح باب التواضع و الندم و الحياء و يجتهد في أداء أوامره و اجتناب نواهيه طلباً لحسن المآب و طيب الزلفى ، و يسجن نفسه في سجن الخوف و الصبر و الكفّ عن الشهوات إلى أن يتّصل بأمان الله في دار القرار و يذوق طعم رضاه فإنّ المعوّل ذلك و ما عداه لا شيء [(١)]» .

✿ (كيفية الاستنجاء و آدابه) ✿

إذا فرغ من قضاء الحاجة يستنجي لمقعدته بثلاثة أحجار طاهرات منشّفات أو خرق أو مدر أو نحوها ، ويحرم العظم والروث والمطعوم و المحترم فإن لم يحصل الإنقاء بثلاثة فليتمّم خمسة أو سبعة إلى أن تنقي فالايتار نفل و الإنقاء فرض و في الحديث « من استجمر فليوتر» [(٢)] هذا إن أراد الاقتصار على الحجر والأفضل أن يستنجي بالماء

---

(١) انتهى كلام الشهيد ـ رحمه الله ـ في أسرار الصلاة و نقل من خبر الصادق عليه السلام وما بعده الى هنا من مصباح الشريعة الباب التاسع .

(٢) أخرجه البزاز والطبراني في الاوسط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله كما في مجمع الزوائد ج١ ص ٢١١ ، ورواه الشيخ ـ رحمه الله ـ في التهذيب ج١ ص ١٣ والاستبصار طبع النجف ج١ ص٥٢ هكذا « اذا استنجى أحدكم فليوتر » .

ففي الحديث النبوي ﷺ : « أنّه مطهّرة للحواشي و مذهبة للبواسير » [1] و الأكمل أن يجمع بينهما فقد روي أنّه لما نزل قوله تعالى : « فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا و الله يحبّ المطّهّرين » [2] قال رسول الله ﷺ لأهل قبا : « ما هذه الطهارة الّتي أثنى الله بها عليكم ؟ قالوا : إنّا نجمع بين الماء و الحجر» [3] .

و في كتاب من لا يحضره الفقيه [4]« كان الناس يستنجون بالأحجار فأكل رجل من الأنصار طعاماً فلان بطنه فاستنجى بالماء فأنزل الله تبارك و تعالى فيه « إنّ الله يحبّ التوّابين و يحبّ المتطهّرين» [5] فدعاه رسول الله ﷺ فخشي الرجل أن يكون قد نزل فيه أمر يسوؤه فلمّا دخل قال له رسول الله ﷺ : هل عملت في يومك هذا شيئاً ؟ قال : نعم يارسول الله أكلت طعاماً فلان بطني فاستنجيت بالماء فقال له : أبشر فإنّ الله تبارك و تعالى قد أنزل فيك « إنّ الله يحبّ التوّابين و يحبّ المتطهّرين » .

وينبغي أن ينتقل من موضع الحاجة إلى موضع آخر ويستنجي بالماء بأن يفيضه باليمنى على محلّ النجوويدلكه باليسرى حتّى لايبقى أثر يدركه الكفّ بحسّ اللّمس ويطمئنّ نفسه ، ولايستقصي فيه بالتعرّض للباطن فإنّ ذلك منبع الوسواس ، وليعلم أنّ كلّما لايصل إليه الماء فهو باطن ولايثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة مالم يبرزو كلّ ماهوظاهروثبت له حكم النجاسة فحدّ طهوره أن يصل الماء إليه فيزيله فلامعنى للوسواس وليقل أوّل ماصبّ الماء على يده للاستنجاء : «الحمدلله الّذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً » وعند الاستنجاء « اللّهمّ حصّن فرجي وأعفّه ، واسترعورتي ، وحرّمني على النّار» وعندالفراغ منه « الحمد لله الّذي أماط عنّي الأذى وهنّأني طعامي و شرابي و عافاني

---

(١) المراد بالحواشي جوانب المخرج والخبر فيالتهذيب ج ١ ص ١٣ . والكافي ج ٣ ص ١٢ تحت رقم ١٢ .

(٢) التوبة : ١٠٨ .

(٣) راجع مجمع الزوائد ج١ ص ٢١٢ ، ونيل الاوطار ج ١ص١٢٥ منقول فيهما عن البزاز والترمذى و أبى داود وابن ماجه .

(٤) ص ٨ تحت رقم ٢١ . (٥) البقرة : ٢٢٢ .

البلوى »[1] ويبتدىء في الاستنجاء بالمقعدة ثمّ بالإحليل ، ويستبرىء من البول بالتنحنح والنتر ثلاثاً[2] بعد إمرار اليد على أسفل القضيب ثلاثاً ثمّ يغسل ذكره ، و يكره مسّ الذكر باليمين .

قال أبوحامد : « ولا يكثر التفكّر في الاستبراء فيوسوس ويشقّ عليه الأمر ومايحسّ به من بلل فليقدّر أنّه بقيّة الماء ، فإن كان يؤذيه ذلك فليرشّ الماء عليه حتّى يقوى في نفسه ذلك ، ولا يتسلّط عليه الشيطان بالوسواس ، و في الخبر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله فعل ذلك أعني رشّ الماء و قدكان أخفّهم استبراء أفقههم فتدلّ الوسوسة فيه على قلّة الفقه» .

أقول : و في كتاب من لايحضره الفقيه «سأل حنان بن سدير أباعبدالله عليه السلام فقال : إنّي ربّما بلت فلا أقدر على الماء ويشتدّ ذلك عليّ فقال : إذا بلت و تمسّحت فامسح ذكرك بريقك فإن وجدت شيئاً فقل : هذا من ذاك »[3] ولعلّ المراد بالذّكر غير محلّ النجاسة منه .

و في الصحيح « عن الصادق عليه السلام في الرجل يبول قال : ينتره ثلاثاً ثمّ إن سال حتّى يبلغ الساق فلايبالي»[4] .

و في الحسن « عن الباقر عليه السلام في رجل بال ولم يكن معه ماء قال : يعصر أصل ذكره إلى طرفه ثلاث عصرات و ينتر طرفه فإن خرج بعد ذلك شيء فليس من البول ولكنّه من الحبائل »[5] والحبائل عروق الظهر .

---

(۱) الفقيه ص ۸ تحت رقم ۱۹ وراجع الكافي ج ۳ ص ۱٦ والتهذيب ج۱ ص ۱۰۰ .

(۲) النتر : الجذب ، والاستنتار من البول : استخراج بقية ما في الذكر بالاجتذاب والاهتمام به .

(۳) الفقيه ص ۱٦ تحت رقم ۱۲ ، والكافي ج ۳ ص ۲۰ . و لعله شكا عن البلل الذي ربما يجده الانسان في ثوبه أو بدنه بعد البول بزمان و هو قد يكون من العرق و قد يكون خارجاً من مخرج البول و هو موجب للوسواس فعلمه عليه السلام حيلة شرعية ليتخلص بها عن تلك المضيقة .

(٤) التهذيب ج ۱ ص ۹ وفي الاستبصار ج ۱ ص ۹٤ نحوه .

(٥) الكافي ج ۳ ص ۱۹ تحت رقم ۱ و قد مر معنى النتر .

ولا يجري في تطهير مخرج البول غير الماء عند أصحابنا كافّة كذلك ورد عن أهل البيت عليهم السلام و إذا خرج من الخلاء فليقدّم رجله اليمنى وليقل ماسحاً بطنه : « الحمد لله الّذي أخرج عنّي أذاه وأبقى في جسدي قوّته فيالها من نعمة لايقدرالقادرون قدرها » .

قال أبوحامد « فيحديث سلمان : علّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ شيء حتّى الخراءة أمرنا أن لا نستجمر بعظم ولاروث ونهاناأن نستقبل القبلة لغائط أوبول »[1] وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : لا أحسبك تحسن الخراءة فقال : بلى و أبيك و إنّي بهالحاذق أبعد الأثر، وأعدّ المدر ، واستقبل الشيح ، وأستدبرالريح ، وأقعى إقعاء الظبي ، وأجفل جفال النعام .

الشيح نبت طيب الرائحة يكون بالبادية ، و الإقعاء ههنا أن يستوفز علىصدور قدميه ، والأجفال أن يرفع عجزه » .

قال : « و من الرخصة أن يبول الإنسان قريباً من صاحبه مستتراً عنه فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله مع شدّة حيائه ليستنّ للنّاس » .

فصل

(فضيلة السواك و آدابه)

إذا فرغ من الاستنجاء يشتغل بالوضوء ، فقد قيل : لم ير رسول الله صلى الله عليه وآله قطّ خارجاً من الغائط إلّا توضّأ ويبتدىء بالسواك .

فعن النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ أفواهكم طرق القرآن فطيّبوها بالسواك »[2] فينبغي أن ينوي عندالسواك تطهير فمه لقراءة الفاتحة وذكرالله في الصلاة .

---

(١) أخرجه أحمد فيالمسند ج ٥ ص ٤٣٧ .

(٢) رواه البرقي في المحاسن ص٥٥٨ . وأخرجه ابن ماجه عن علي بن أبي طالب عليه السلام تحت رقم ٢٩١ .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم «صلاة على أثر السواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير السواك»[1]

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: لولا أن أشق على اُمّتي لأمرتهم بالسواك عند وضوء كلّ صلاة»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مالي أراكم تدخلون عليّ قلحاً استاكوا»[3] أي صفر الأسنان.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يستاك في اللّيلة مراراً[4].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مازال جبرئيل عليه السلام يوصيني بالسواك حتّى خشيت أن اُحفي أو اُدرد»[5] وهما على صيغة التكلّم أي استقصي على أسناني فاُذهبها بالتسوّك، والدرد: سقوط الأسنان.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «السواك شطر الوضوء»[6].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لكلّ شيء طهور وطهور الفم السواك»[7].

وروي «لو علم الناس ما في السواك لأباتوه معهم في لحافهم»[8].

وقال الباقر والصادق عليهما السلام: «صلاة ركعتين بسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك»[9].

وقال الباقر عليه السلام في السواك: «لاتدعه في كلّ ثلاثة أيّام ولو أن تمرّه مرّة واحدة»[10].

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية فى كتاب السواك من حديث ابن عمر. كما فى المغنى و نقله المجلسى ـ ره ـ فى البحار ج ١٦ باب السواك عن اعلام الدين للديلمى.

(٢) الكافى ج ٣ ص ٢٢. وسنن ابن ماجه تحت رقم ٢٨٧.

(٣) الكافى ج٦ ص ٤٩٦. والقلح صفرة تعلو الاسنان ووسخ يركبها.

(٤) راجع سنن ابن ماجه ج ١ ص ١٠٦. وأبى داود ج ١ ص ١٤.

(٥) الكافى ج ٣ ص ٢٣، وج ٦ ص ٤٩٥.

(٦) البحار ج ١٦ باب السواك عن كتاب الامامة والتبصرة.

(٧) رواه الصدوق فى العلل ج١ باب ٢٢٧. والفقيه ص ١٣ تحت رقم ٩.

(٨) الفقيه ص ١٣ تحت رقم ١٦.

(٩) الكافى ج ٣ ص ٢٢ تحت رقم ١، والفقيه ص ١٣ تحت رقم ١١.

(١٠) الكافى ج ٣ ص ٢٣ تحت رقم ٤. والفقيه ص ١٣ تحت رقم ١٢.

وقال الصادق عليه السلام : « في السواك اثنتا عشرة خصلة : هو من السنّة ، و مطهرة للفم ، و مجلاة للبصر ، و يرضي الرحمن ، ويبيّض الأسنان ، و يذهب بالحفر ، و يشدّ اللّثة ، و يشهّي الطعام ، ويذهب بالبلغم ، ويزيد في الحفظ ، ويضاعف الحسنات ، وتفرح به الملائكة »[1] .

و**كيفيته** أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار ممّا يخشن ويزيل القلح بالعرض ففي الحديث النبوي صلى الله عليه وآله « اكتحلوا وتراً ، واستاكوا عرضاً »[2] .

و**وقته** عند كلّ صلاة ، وعند كلّ وضوء و إن لم يصلّ عقيبه ، وعند تغيّر النكهة بالنوم ، أوطول الازم[3] أوأكل ما يكره رائحته .

و عن الصادق عليه السلام « إذا قمت باللّيل فاستك فإنّ الملك يأتيك فيضع فاه على فيك وليس من حرف تتلوه إلّا صعدبه إلى السماء ، فليكن فوك طيّب الرّيح »[4] و يجوز الاعتياض عنه بالمسبّحة والإبهام عند عدمه أوضيق الوقت كمايستفاد من الأخبار .

و روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : « و كما تزيل ما تلوّث من أسنانك من مطعمك و مأكلك بالسواك كذلك فأزل نجاسة ذنوبك بالتضرّع و الخشوع و التهجّد و الاستغفار بالأسحار و طهّر باطنك و ظاهرك من كدورات المخالفات و ركوب المناهي كلّها خالصاً لله فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أراد باستعماله مثلاً لأهل اليقظة ، وهو أنّ المسواك نبات لطيف نظيف و غصن شجر عذب مبارك ، و الأسنان خلق خلقه الله تعالى في الفم آلة و أداة للمضغ و سبباً لاشتهاء الطعام وإصلاح المعدة ، و هي جوهرة صافية تتلوّث بصحبة تمضيغ الطعام و تتغيّر بها رائحة الفم و يتولّد منها الفساد في الدماغ فإذا استاك المؤمن الفطن بالنبات اللّطيف ومسحها على الجوهرة الصافية أزال عنها الفساد و التغيّر

---

(١) الفقيه ص ١٣ تحت رقم ١٨ ، وفى المحاسن ص ٥٦٢ والكافى ج ٦ ص ٤٩٥ تحت رقم ٦ . والحفر ـ بالتحريك ـ : سلاق فىاصول الاسنان أو صفرة تعلوها ويسكن.

(٢) الفقيه ص ١٣ تحت رقم ١٣ . (٣) الازم : الصمت والامساك .

(٤) رواه الكلينى ـ رحمه الله ـ فى الكافى ج ٣ ص ٢٣ . و روى نحوه البرقى فى المحاسن ص ٥٥٩ .

وعادت إلى أصلها كذلك خلق الله القلب طاهراً صافياً وجعل غذاءه الذكر و الفكر والهيبة و التعظيم و إذا شيب القلب الصافي معدلته بالغفلة والكدر صقل بمصقلة التوبة و نظّف بماء الإنابة ليعود إلى حالته الاُولى و جوهرته الأصليّة الصافيّة ، قال الله عزّوجلّ : « إنّ الله يحبّ التوّابين و يحبّ المتطهّرين » ، و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « عليكم باستواك ظاهر الأسنان » و أراد هذا المعنى ، و من أناخ تفكّره على عتبة باب العبرة في استخراج مثل هذه الأمثال في الأصل والفرع فتح الله له عيون الحكمة والمزيد من فضل الله والله لايضيع أجر المحسنين »(١).

❁ (كيفية الوضوء وآدابه و سننه) ❁

إذا فرغ من السواك يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول : « بسم الله الرّحمن الرّحيم » ، فعن النبيّ صلّى الله عليه وآله « لاوضوء لمن لم يسمّ الله » (٢) أي لاوضوء كاملاً .

و عنه صلّى الله عليه وآله « من توضّأ فذكر اسم الله طهر جميع جسده وكان الوضوء إلى الوضوء كفّارة لما بينهما من الذنوب ومن لم يسمّ لم يطهر من جسده إلّا ما أصابه الماء » .

و عن الصادق عليه السلام « من ذكر اسم الله على وضوئه فكأنّما اغتسل » رواهما في الفقيه (٣) .

ويقول عندالنظر إلى الماء : « الحمد لله الّذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً» ثم يغسل يديه من الزندين مرّة للنوم أوالبول ، و مرّتين للغائط قبل إدخالهما الإناء إن اغترف من إناء ويقول : « بسم الله وبالله اللّهمّ اجعلني من التوّابين و اجعلني من المتطهّرين » و تجزىء هذه التسمية عن الاُولى ، ثمّ يمضمض ثلاثاً بثلاث أكفّ ويقول : « اللّهمّ لقنّي حجّتي يوم ألقاك و أطلق لساني بذكراك » ثمّ يستنشق كذلك ويقول : « اللّهمّ لاتحرمني ريح الجنّة واجعلني ممّن يشمّ ريحها وروحها وطيبها » .

قال أبوحامد : « ثمّ يستنثر ما فيه و يقول : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من روائح النار و من سوء الدّار » لأنّ الاستنشاق إيصال والاستنثار إزالة » . انتهى .

---

(١) مصباح الشريعة الباب الثامن .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ١٤٦ عن أبى هريرة .

(٣) ص ١٢ تحت رقم ١٧ و ١٨ . ورواهما الدار قطنى من حديث أبى هريرة .

ثمّ يغترف بيمناه غرفة و ينوي نفسه أنّه يتوضّأ تقرّباً إلى الله تعالى و يغسل بها وجهه ضارباً بها عليه صيفاً و شتاء فإنّه إن كان ناعساً فزع و استيقظ و إن كان البرد فزع فلم يجد البرد (كذا عن الصادق عليه السلام) [(١)] و يبتدىء بأعلى الوجه قائلاً : « اللّهمّ بيّض وجهي يوم تسودّ الوجوه ولا تسوّد وجهي يوم تبيّض الوجوه » و يمرّ يده عليه و يخلّل الشعر و يفتح عينيه . وحدّ الوجه طولاً و عرضاً مادارت عليه الإبهام والوسطى ثمّ يأخذ غرفة بيده اليسرى و يغسل بها اليمنى مبتدئاً بالمرفق و بظاهر الذراع والمرأة بباطنها ، ممرّاً يده عليها ، مخلّلاً للشعور والمساتر ، محرّكاً للخاتم ونحوه ، قائلاً : « اللّهمّ أعطني كتابي بيميني ، و الخلد في الجنان بيساري ، و حاسبني حساباً يسيراً » ثمّ يأخذ غرفة اُخرى بيده اليمنى و يغسل بها اليسرى كاختها قائلاً : « اللّهمّ لا تعطني كتابي بشمالي ، و لا تجعلها مغلولة إلى عنقي ، و أعوذ بك من مقطّعات النيران » ثمّ يمسح بالبلل الّذي على يمينه بشرة مقدّم رأسه أوشعره الّذي لايخرج بمدّه عن حدّه بمقدار ثلاث أصابع مضمومة أو أكثر قائلاً : « اللّهمّ غشّني رحمتك وبركاتك » ثمّ ببقيّة ذلك البلل ظهر قدمه اليمنى من رؤوس الأصابع إلى الكعب ـ أعني مفصل الساق والقدم بكلّ الكفّ ـ ثمّ ببلل يساره قدمه اليسرى كذلك قائلاً فيهما : « اللّهمّ ثبّتني على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام ، واجعل سعيي فيما يرضيك عنّي » ويقول عند الفراغ : « الحمد لله ربّ العالمين » .

والواجب فيه النيّة و غسل الوجه واليدين إلى المرفقين و مسح شيء من مقدّم الرأس وشيء من ظهر القدمين من رؤوس الأصابع إلى الكعبين ، و الترتيب و الموالات ، والأولى وحدة الغسلات بل الاقتصار على غرفة أو غرفتين و الأصابع بمدّ ، و ماورد أنّ الوضوء مرّتين مرّتين أو أنّ المرّتين إسباغ فمجمل مأوّل ، و في الفقيه [(٢)] قال الصادق عليه السلام : « والله ماكان وضوء رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا مرّة مرّة ، و توضّأ النبيّ صلّى الله عليه وآله مرّة مرّة ، فقال : هذا وضوء لايقبل الله الصلاة إلّا به » .

---

(١) علل الشرائع ج١ باب١٩٣ والتهذيب ج١ ص١٠٢ وفيه « فليصفق وجهه بالماء » وقد نهى النبي (ص) عن ضرب الماء بالوجه وقال : شنوا الماء شناً . التهذيب ج١ ص ١٠٢ .
(٢) ص ١٠ تحت رقم ٣ .

وفيه عن النبيّ صلى الله عليه وآله «الوضوء مدّ والغسل صاع وسيأتي أقوام من بعدي يستقلّون ذلك فأولئك على خلاف سنّتي و الثابت على سنّتي معي في حظيرة القدس» [1] وطعن - رحمه الله - [2] في أخبار المرّتين بانقطاع الإسناد و عدم الدلالة صريحاً و أيّد المرّة بما روي «أنّ الوضوء حدّ من حدود الله ليعلم الله من يطيعه و من يعصيه، وأنّ المؤمن لا ينجّسه شيء، وإنّما يكفيه مثل الدّهن» و قد قال الله تعالى: «ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه» [3].

وقال الصادق عليه السلام: «من تعدّى في وضوئه كان كناقضه» [4] و إلى هذا ذهب ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكلينيّ - رحمه الله - أيضاً [5] ويمكن تنزيل حديث المرّتين على الغرفتين كما يشعر به ما ورد عن الباقر عليه السلام أنّه سئل «الغرفة الواحدة تجزىء للوجه و غرفة للذراع؟ قال: نعم إذا بالغت فيها والثنتان تأتيان على ذلك كلّه» [6].

ويكره الاستعانة، والمشمّس [7] والآجن، وسؤر غير المأمون، والمستعمل في رفع الأكبر.

قال أبوحامد: «و مهما فرغ عن وضوئه وأقبل على الصلاة ينبغي أن يخطر بباله أنّه طهّر ظاهره وهو مطرح نظر الخلق فينبغي أن يستحيي من مناجاة الله من غير تطهير قلبه وهو موقع نظر الربّ وليتحقّق أنّ طهارة القلب بالتوبة و الخلوّ عن الأخلاق الذميمة فإنّ من اقتصر على طهارة الظاهر فهو كمن أراد أن يدعو ملكاً إلى بيته فتركه مشحوناً بالقاذورات و اشتغل بتجصيص ظاهر الباب البراني من الدار وما أجدره بالتعرّض للمقت والبوار» انتهى كلامه.

وسيأتي في هذا الباب كلام آخر عن بعض علمائنا عن قريب.

---

(١) الفقيه ص١٠ تحت رقم ٢. (٢) الفقيه ص١٠ تحت رقم ٤.

(٣) الاية في سورة الطلاق: ٢، والخبر في الفقيه ص١٠ تحت رقم ٥ و٦، والكافي ج ٣ ص ٢١ تحت رقم ٢.

(٤) الفقيه ص ١٠ تحت رقم ٦. و قوله: «كناقضه» نقل عن السيد الداماد قراءته بالصاد. (٥) راجع الكافي ج ٣ ص ٢٧ ذيل الحديث التاسع.

(٦) التهذيب ج ١ ص ١٠٢. (٧) اى الماء المسخن بالشمس.

✿ (بيان فضيلة الوضوء) ✿

عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « من توضّأ فأسبغ الوضوء وصلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته اُمّه » وفي لفظ آخر « ولم يسه فيهما غفر له ما تقدّم من ذنبه »[(١)].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أنبّئكم بما يكفّر الله به الخطايا و يرفع الدرجات ؟ إسباغ الوضوء في المكاره، ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»[(٢)]

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم « الوضوء على الوضوء نور على نور ومن جدّد وضوءه من غير حدث جدّد الله توبته من غير استغفار »[(٣)].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم « من توضّأ على طهر كتب الله له عشر حسنات »[(٤)].

وعن الصادق عليه السلام « الطهر على الطهر عشر حسنات »[(٥)].

وعن الكاظم عليه السلام « من توضّأ للمغرب كان وضوؤه ذلك كفّارة لما مضى من ذنوبه في نهاره ما خلا الكبائر ، و من توضّأ لصلاة الصبح كان وضوؤه ذلك كفّارة لما مضى من ذنوبه في ليلته إلّا الكبائر»[(٦)].

وروي « أنّ تجديد الوضوء لصلاة العشاء يمحو « لا والله » و « بلى والله »[(٧)].

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ج ٤ ص ١١٧ و ص ١١٢ . و ايضاً ابن المبارك فى الزهد و الرقائق . والراوندى فى لب اللباب كما فى مستدرك الوسائل ج ١ ص ٥٢ .

(٢) امالى الصدوق ـ رحمه الله ـ ص١٩٤ بادنى تغيير ، وبلفظه فى دعائم الاسلام كما فى مستدرك الوسائل ج ١ ص ٥١ .

(٣) الفقيه ص ١٠ تحت رقم ٨ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٥١٢ . و أبو داود ج ١ ص١٥ .

(٥) رواه الكلينى ـ رحمه الله ـ فى الكافى ج٣ ص ٧٢ تحت رقم ١٠.

(٦) الكافى ج ٣ ص ٧٢ تحت رقم ٩ .

(٧) ثواب الاعمال للصدوق ـ رحمه الله ـ ص ١٧.

✿ (المطلب الثاني في الغسل) ✿

و أسبابه الموجبة له : إنزال المني ، و إيلاج الحشفة ، والحيض ، والنفاس ، والاستحاضة غير القليلة ، و مس الميّت بعد البرد وقبل الغسل ممّن عليه فريضة مشروطة بالطهارة وأراد فعلها وماسوى ذلك من الأغسال فمسنون .

و كيفيّته أن يستبرىء بالبول إن قدر عليه وإلّا فبما مرّ في الاستبراء من البول إن كان منزلاً ويضع الإناء على يمينه ويزيل ماعلى بدنه من نجاسة و يغسل يديه من الزندين ثلاثاً قبل أن يدخلهما الإناء و إلى المرفقين أفضل ، و يسمّي ، و يمضمض ، ويستنشق آتياً بأدعيتها ثمّ ينوي في نفسه أنّه يغتسل تقرّباً إلى الله عزّ وجلّ ، ويصبّ الماء على رأسه ثلاثاً ممرّاً يده عليه مخلّلاً اُذنيه بأصبعيه ، موصلاً للماء إلى منابت الشعور كلّها ، ثمّ يغسل شقّه الأيمن كذلك ، ثمّ الأيسر كذلك مبالغاً في إيصال الماء وتخليل الموانع والسواتر .

قال الصادق عليه السلام : « من ترك شعرة من الجنابة متعمّداً فهو في النار »[1] و يقول عند غسل الأعضاء : « اللّهمّ طهّر قلبي ، وتقبّل سعيي ، واجعل ما عندك خيراً لي ، اللّهمّ اجعلني من التوّابين ، واجعلني من المتطهّرين » ويسبغ الغسل بصاع ، و إن ارتمس في الماء ارتماسة واحدة اجزأه ، وسقط الترتيب ودلك الجسد ، ويكره الاستعانة ، والمشمّس[2] والآجن ، والراكد ، والمستعمل . فعن الرضا عليه السلام « من اغتسل من الماء الّذي قد اغتسل فيه فأصابه الجذام فلايلومنّ إلّا نفسه »[3] ، ولا موالاة في الغسل إتّفاقاً ، و الواجب فيه النيّة ، واستيعاب البدن بالغسل ، وتقديم الرأس على الجسد ، والأحوط تقديم الشقّ الأيمن على الأيسر أيضاً ، وأوجب جماعة من أصحابنا الوضوء مع الغسل في غير الجنابة قبله أو بعده ، و منهم من أوجب التقديم ومستندهم في ذلك مارواه ابن أبي عمير ، عن رجل ،

---

(١) رواه الصدوق -ره- في الامالي ص٢٩٠ ، والشيخ -ره- في التهذيب ج١ ص٣٨ .

(٢) يعني الماء الذي يحمى بالشمس .

(٣) رواه الكليني - رحمه الله - في الكافي ج ٦ ص ٥٠٣ تحت رقم ٣٨ .

عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « كلّ غسل قبله وضوء إلّا غسل الجنابة »[1] و نفاه السيّد المرتضى ـ رحمه‌الله ـ وشرذمة ، وهو الصحيح للأخبار الصحيحة المستفيضة الراجحة على هذا الخبر بأنواع التراجيح المعتبرة ولاسيّما ماورد الأمر به عنهم عليهم السلام عند اختلاف أخبارهم كملاحظة حال الراوي في الأوثقيّة و الأفقهيّة و غيرهما ، و كمخالفته لفتوى العامّة وغير ذلك .

منها مارواه في التهذيب[2] باسناده الصحيح « عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : الغسل يجزىء عن الوضوء ، و أيّ وضوء أطهر من الغسل » .

و منها مارواه فيه[3] أيضاً باسناده الصحيح « عن حكم بن حكيم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن غسل الجنابة ـ إلى أن قال ـ : قلت : إنّ الناس يقولون : يتوضّأ وضوء الصلاة قبل الغسل ، فضحك وقال : أيّ وضوء أنقى من الغسل وأبلغ » .

ومنها مارواه فيه[4] أيضاً باسناده الموثّق « عن عمّار الساباطيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سئل أبوعبدالله عليه السلام عن الرجل إذا اغتسل من جنابة أو في يوم الجمعة أويوم عيد هل عليه الوضوء قبل ذلك أوبعده ؟ فقال : لا ، ليس عليه قبل ولا بعد قد أجزأه الغسل ، و المرأة مثل ذلك إذا اغتسلت من حيض أو غير ذلك فليس عليها الوضوء لاقبل ولا بعد قد أجزأها الغسل » [5].

و في مكاتبة محمّد بن عبدالرّحمن إلى الهادي عليه السلام « يسأله عن الوضوء للصلاة في غسل الجمعة فكتب لا وضوء للصلاة في غسل يوم الجمعة ولا غيره » [6].

و في مرسلة حمّادبن عثمان « عن الصادق عليه السلام في الرجل يغتسل للجمعة أو غير ذلك أيجزئه عن الوضوء ؟ فقال عليه السلام : و أيّ وضوء أطهرمن الغسل »[7].

و في التهذيب عنهم عليهم السلام بعدّة روايات «أنّ الوضوء بعد الغسل بدعة» وفي بعضها « أنّ الوضوء قبل الغسل و بعده بدعة »[8] .

---

(١) الكافي ج ٣ ص ٤٥ تحت رقم ١٣ .

(٢) و (٣) و (٤) و(٥) في المجلد الاول ص ٣٩ .

(٦) و (٧) و (٨) التهذيب ج ١ ص ٣٩ . والاستبصار ج ١ ص ١٢٦ .

و يدلّ على ذلك أيضاً الأخبار الصحيحة المستفيضة المتضمّنةلوجوب الغسل على ذات شيء من الدماء الثلاثة حيث لا إشعار في شيء منها بالوضوء معه بوجه بل ظواهر ها تنفيه مع أنّها واردة في مقام البيان كما يظهر لمن يقف عليها . والله المستعان .

✿ (المطلب الثالث في التيمم) ✿

و أسبابه أسباب الوضوء و الغسل بعينها مع العجزعنهما ، إمّا لفقد الماء بعد طلبه أو لمانع من الوصول إليه من سبع أوحابس ، أوكون الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أوعطش رفيقه ، أوكونه ملكاً لغيره ولا يبيع إلّا بالثمن المجحف ، أوكان به جراحة أو مرض يخاف منه على نفسه فيصبرحتّى يدخل وقت الفريضة ، ثمّ يقصد صعيداً عليه تراب خالص طاهر لين يثور الغبار منه ، فينزع خاتمه ، ثمّ يضرب عليه بكفيّه مفرجي الأصابع ناوياً في نفسه أنّه يتيمّم تقرّباً إلى الله مسمّياً ، فيمسح بهما جبهته و يدخل الجبينين ، والأحوط إدخال الحاجبين أيضاً ، ثمّ يضرب ثانية فيمسح بباطن اليسرى ظاهر اليمنى من الزند و بالعكس ، و إن اقتصر على الضربة الأولى في المسحات الثلاث أجزأه بشرط بقاء علوق التراب على الأصحّ ، وجوّز بعض أصحابنا استيعاب الوجه و اليدين إلى المرفقين بالمسح لورود الروايات بذلك أيضاً عن أهل البيت عليهم السلام ، ولابأس به و إن كان تركه أحوط لاحتمال التقيّة فيها و الواجب فيه النيّة و الضرب والمسحات الثلاث والترتيب والموالات وطهارة التراب و طهارة المحال مع الإمكان ، فهذه أحكام الطهارات و آدابها ممّا لابدّ منه لسالك طريق الآخرة من علمه و عمله ، و ماعدا ها من المسائل يحتاج إليها في عوارض الأحوال ، فيرجع فيهاإلى كتبالفقه هكذا قال أبوحامد بعد ما ذكر من المسائل نحواً ممّا ذكرناه .

❋ فصل ❋

قال بعض علمائنا [١] - رحمهم الله - : أمّا الطهارة فليستحضر في قلبه أنّ تكليفه

(١) يعني به الشهيد - رحمه الله - قاله في اسرار الصلاة ص ١٨٠ من طبعه الملحق بكشف الفوائد .

فيها بغسل الأطراف الظاهرة و تنظيفها لاطّلاع النّاس عليها ، و لكون تلك الأعضاء مباشرة للأمور الدنيويّة منهمكة في الكدورات الدنيّة ، فلأن يطهّر مع ذلك قلبه الّذي هو موضع نظر الحقّ تعالى - « فإنّه لاينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » و لأنّه الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والمستخدم لها في تلك الأمور المبعّدة عن جنابه تعالى و تقدّس - أولى و أحرى ، بل هذا تنبيه واضح على ذلك و بيان شاف لما هنالك ، و ليعلم من تطهير تلك الأعضاء عند الاشتغال بعبادة الله تعالى و الإقبال عليه و الالتفات عن الدّنيا بالقلب و الحواسّ لتلقّي السعادة في الآخرة أنّ الدّنيا و الآخرة ضرّتان كلّما قربت من إحديهما بعدت عن الأخرى ، فلذلك أمر بالتطهير منها[1] عند الاشتغال و الاقبال على الآخرة ، فأمر في الوضوء بغسل الوجه لأنّ التوجّه و الإقبال بوجه القلب على الله به ، و فيه أكثر الحواسّ الظاهرة الّتي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدّنيا فأمر بغسله ليتوجّه به وهو خال من تلك الأدناس و يترقّى بذلك إلى تطهير ما هو الرّكن الأعظم في القياس ، ثمّ أمر بغسل اليدين لمباشرتهما أكثر أحوال الدّنيا الدنيّة و المشتهيات الطبيعيّة ، ثمّ بمسح الرأس لأنّ فيه القوّة المفكّرة الّتي يحصل بواسطتها القصد إلى تناول المرادات الطبيعيّة ، و تنبعث الحواسّ حينئذ إلى الإقبال على الأمور الدنيويّة ، المانع من الإقبال على الآخرة السنيّة ، ثمّ بمسح الرجلين لأنّ بهما يتوصّل إلى مطالبه و يتوسّل إلى تحصيل مآربه على نحو ما ذكر في باق الأعضاء و حينئذ فيسوغ له الدّخول في العبادة و الإقبال عليها فائزاً بالسعادة ، و أمر في الغسل بغسل جميع البشرة لأنّ أدنى حالات الإنسان و أشدّها تعلّقاً و تملّكاً بالملكات الشهويّة حالة الجماع و موجبات الغسل ، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة و لهذا قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إنّ تحت كلّ شعرة جنابة »[2] فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العليّة ، منغمساً في اللّذات الدنيّة كان غسله أجمع من أهمّ المطالب الشرعيّة ليتأهّل لمقابلة الجهة الشريفة و الدّخول في العبادة المنيفة ، و يبعد عن القوى

---

(١) فى بعض النسخ [من الدنيا] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه ج ١ ص ٥٧ .

الحيوانيّة ، واللّذات الدنيا ويّة ولمّاكان للقلب من ذلك الحظّ الأوفر والنصيب الأكمل كان الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجّهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير تلك الأعضاء الظاهرة عند اللّبيب العاقل ، وأُمر في التيمّم بمسح تلك الأعضاء بالتراب عند تعذّر غسلها بالماء الطهور وضعاً لتلك الأعضاء الرّئيسة ، و هضماً لها بتلقّيها بأثر التربة الخسيسة ، وهكذا يخطر أنّ القلب إذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرّذيلة وتحليته بالأوصاف الجميلة فليقمه في مقام الهضم والإزراء ويسقه بسياط الذلّ و الاغضاء عسى أن يطّلع عليه مولاه الرحيم وسيّده الكريم و هومنكسر متواضع فيهبه نفحة من نفحات نوره اللاّمع ، فإنّه عند القلوب المنكسرة كما ورد في الأثر ، فترقّ من هذه الإشارات ونحوها إلى مايوجب لك الإقبال ، و تلافي سالف الإهمال ، و من الأسرار الواردة في الأثر من نظائر ذلك قول الصادق عليه السلام : « إذا أردت الطهارة و الوضوء فتقدّم إلى الماء تقدّمك إلى رحمة الله ، فإنّ الله تعالى قد جعل الماء مفتاح قربته و مناجاته و دليلاً إلى بساط خدمته »[1] .

وكما أنّ رحمته تطهّر ذنوب العباد كذلك نجاسات الظاهرة يطهّرها الماء لا غيره ، قال الله تعالى : « و هو الّذي أرسل الرّياح بشراً بين يدي رحمته و أنزلنا من السماء ماءً طهوراً »[2] و قال عزّوجلّ : « وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ »[3] فكما أحيا به كلّ شيء من نعيم الدّنيا[4] كذلك بفضله ورحمته جعل حياة القلوب في الطاعات ، وتفكّر في صفاء الماء و رقّته و طهوره و بركته و لطيف امتزاجه بكلّ شيء و في كلّ شيء واستعمله في تطهير الأعضاء الّتي أمرك الله بتطهيرها وآت بآدابها فرائضه و سننه فإنّ تحت كلّ واحدة منها فوائد كثيرة إذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عين فوائده عن قريب ، ثمّ عاشر خلق الله تعالى كامتزاج الماء بالأشياء يؤدّي كلّ شيء حقّه ، ولايتغيّر عن

(١) مصباح الشريعة الباب العاشر .

(٢) الاعراف : ٥٧ . (٣) الانبياء : ٣٠.

(٤) لامناسبة لذكر الاية الاخيرة هنا لان معناها خلقنا كل حيوان من الماء كقوله تعالى : « و الله خلق كل دابة من ماء » فالظاهر المراد من الماء النطفة ، اللهم الا أن يقال : قرء « حيا » بالنصب مفعولا ثانياً لجعلنا .

معناه معتبراً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « مثل المؤمن الخالص كمثل الماء »[١] ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعاتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسمّاه طهوراً ، وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء »[٢] .

و في علل ابن شاذان ، عن الرضا عليه السلام[٣] « إنّما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبّار عند مناجاته إيّاه ، مطيعاً له فيما أمره ، نقيّاً من الأدناس و النجاسة مع مافيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس ، و تزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبّار ، و إنّما وجب على الوجه واليدين والرأس والرجلين لأنّ العبد إذاقام بين يدي الجبّار ، فانّما ينكشف من جوارحه و يظهرما وجب فيه الوضوء و ذلك أنّه بوجهه يسجد و يخضع ، وبيده يسأل و يرغب و يرهب و يتبتّل ، و برأسه يستقبله في ركوعه و سجوده ، و برجليه يقوم و يقعد ، وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء لأنّ الجنابة من نفس الإنسان و هو شيء يخرج من جميع جسده و الخلاء ليس هو من نفس الإنسان إنّما هو غذاء يدخل من باب و يخرج من باب »[٤].

أقول : و في رواية اُخرى عنه عليه السلام : « و علّة التخفيف في البول و الغائط أنّه أكثر و أدوم من الجنابة فرضي فيه بالوضوء لكثرته ومشقّته و مجيئه بغير إرادة منه ولا شهوة والجنابة لاتكون إلّا بالاستلذاذ منهم والإكره لأنفسهم »[٥].

و قد حرم أبوحامد عن أمثال هذه الأسرار في هذا المقام ولم يأت من هذا القبيل إلّا بقليل مع أنّه عنون الكتاب بأسرار الطهارة لأنّه لم يشرب من كأس متابعة أهل البيت عليهم السلام و قتئذ ، و نحن بحمد الله و توفيقه قد آتينا بما رامه ، و إن لم نستوف تمامه .

قال : القسم الثالث من النظافة التنظيف عن الفضلات الطاهرة و هي نوعان : أوساخ ، وأجزاء . النوع الأوّل : الأوساخ و الرطوبات المترشّحة وهي ثمانية :

(١) مصباح الشريعة الباب العاشر . و في بعض نسخه « المؤمن المخلص » .

(٢) من قوله : « اذا أردت الطهارة و الوضوء » الى هنا في مصباح الشريعة الباب العاشر .

(٣) عيون اخبار الرضا عليه السلام باب ٣٤ .

(٤) انتهى كلام الشهيد ـ رحمه الله . (٥) العيون الباب الثالث و الثلاثون .

الأوّل : ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن و القمل ، و التنظيف عنه مستحبّ بالغسل والترجيل والتدهين إزالة للتفث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يدهّن الشعر ويرجّله غبّاً و يأمر به ويقول : « ادّهنوا غبّاً »[1] وقال صلى الله عليه وآله : « من كانت له شعرة فليكرمها»[2] أي ليصنها عن الأوساخ ؛ و دخل عليه رجل ثائر الرأس ، أشعث اللّحية ، فقال : أما كان لهذا دهنٌ يُسكّن به شعره ، ثمّ قال : يدخل أحدكم كأنّه شيطان »[3].

أقول : المستفاد من أخبار أهل البيت عليهم السلام أنّ جزّ الشعر و حلقه أفضل من إطالته و اتّخاذه ، وأنّ شعر رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبلغ الفرق إلّا في عام صدّ عن البيت .

و روى في الكافي[4] عن عمرو بن ثابت ، عن أبي عبدالله عليه السلام « قال : قلت : إنّهم يروون أنّ الفرق من السنّة ؟ قال : من السنّة ، قلت : ويزعمون أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله فرق قال : ما فرق النبيّ صلى الله عليه وآله ولا كانت الأنبياء عليهم السلام تمسك الشعر » .

وفي رواية اُخرى «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا طال شعره كان إلى شحمة اُذنه»[5]

و باسناده ، عن إسحاق بن عمّار ، عن أبي عبدالله عليه السلام « قال : قال لي : استأصل شعرك يقلّ درنه[6] و دوابّه ووسخه و تغلظ رقبتك و يجلو بصرك » . و في رواية اُخرى « ويستريح بدنك »[7] .

---

(۱) مكارم الاخلاق ص ٥١ . و قال ابوالصلاح : حديث «ادهنوا غباً » لم أجد له اصلا . و فى سنن النسائى ج ۸ ص ۱۳۲ عن قتاده عن حسن « أن النبى صلى الله عليه وآله نهى عن الترجل الا غباً ».أى يوم ويوم لا . و فى سنن ابى داود ج ۲ص ۳۹٤ عن عبدالله ابن مغفل مثله . و فى الكافى ج ٦ ص ٥۲۰ عن الصادق عليه السلام « لايدهن الرجل كل يوم » .

(۲) اخرجه أبو داود فى السنن ج۲ ص ۳۹٥ وفيه « من كان له شعر فليكرمه » .

(۳) تيسير الوصول ج ۲ ص ١٤٥ من حديث جابر ـ رضى الله عنه ـ بلفظ آخر. و ص ۱۳۸ عن عطاء بن يسار و قال : أخرجه مالك .

(٤) المجلد السادس ص ٤٨٦ تحت رقم ٤ .

(٥) المجلد السادس ص ٤٨٥ تحت رقم ۳ .

(٦) استأصل شعر رأسك يعنى جزها . و الدرن ـ بالتحريك ـ : الوسخ .

(۷) المجلد السادس ٤٨٤ تحت رقم ۱ .

و بالإسناد الصحيح « عن أبي الحسن عليه السلام ثلاث من عرفهنّ لم يدعهنّ: جزّ الشعر ، وتشمير الثياب ، ونكاح الإماء »(١) .

وقيل للصادق عليه السلام : «إنّ النّاس يقولون : حلق الرّأس مثلة ، فقال عليه السلام : عمرة لنا و مثلة لأعدائنا »(٢) .

وبإسناده عنه عليه السلام «قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من اتّخذ شعراً فليحسن ولايته أوليجزّه »(٣) .

و في الفقيه « قال الصادق عليه السلام : من اتّخذ شعراً فلم يفرقه فرّقه الله بمنشار من نار يوم القيامة »(٤).

وقال رسول الله عليه السلام لرجل : « احلق رأسك فإنّه يزيد في جمالك »(٥) .

قال أبوحامد :

« الثاني : ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن و المسح يزيل ما يظهرمنه ، و ما يجتمع في قعر الصماخ فينبغي أن ينظّف برفق عند الخروج من الحمّام ، فإنّ كثرة ذلك ربّما تضرّ بالسّمع .

الثّالث : ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبها و يزيلها الاستنشاق و الاستنثار .

الرّابع : مايجتمع على الأسنان و أطراف اللّسان من القلح(٦) و يزيله السواك و المضمضة ، و قد ذكرنا هما .

الخامس : مايجتمع في اللّحية من الوسخ والقمّل إذا لم يتعهّد ، ويستحبّ إزالة

---

(١) رواه الصدوق ـ رحمه‌الله ـ في الفقيه ص ٣١ تحت رقم ١١٣ . وقال في الوافي كتاب الطهارة ص ٩٨ : لعل المراد بجز الشعر مايعم سائر انحاء ازالته .

(٢) الكافي ج ٦ ص ٤٨٤ تحت رقم ٤ . (٣) الكافي ج ٦ ص ٤٨٥ تحت رقم ٢ .

(٤) المصدر ص ٣١ تحت رقم ١١٦ دون قوله : « يوم القيامة » و هكذا نقله المحدث النوري في المستدرك ج ١ ص ٥٨ و ٥٩ عن الجعفريات و دعائم الاسلام .

(٥) الفقيه ص ٢٩ تحت رقم ٧٦ .

(٦) القلح ـ بتحريك ـ : الصفرة تعلو الاسنان .

ذلك بالغسل والتسريح بالمشط وفي الخبر المشهور أنّه صلى الله عليه وآله كان لايفارقه المشط والمدرى في سفر ولاحضر[١] وهي سنّة العرب.

و في خبر غريب أنّه صلى الله عليه وآله كان يسرّح لحيته في اليوم مرّتين[٢] فكان صلى الله عليه وآله كثّ اللّحية،[٣] وكان عليّ عليه السلام عريض اللّحية، وقد ملأت مابين منكبيه[٤].

و في حديث أغرب منه قالت عائشة: اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وآله فرأيته يطلع في الحبّ يسوّي من رأسه ولحيته، فقلت له: أوتفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال: «نعم، إنّ الله يحبّ من عبده أن يتجمّل لإخوانه إذا خرج إليهم»[٥] و الجاهل ربّما يظنّ أنّ ذلك من حبّ التزيّن للنّاس قياساً على أخلاق غيره، و تشبيهاً للملائكة بالحدّادين و هيهات فقدكان رسول الله صلى الله عليه وآله مأموراً بالدّعوة وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا يزدريه نفوسهم وتحسين صورته في أعينهم كيلا يستصغره أعينهم فينفّرهم ذلك و يتعلّق المنافقون بذلك في تنفيرهم و هذا القصد واجب على كلّ عالم تصدّى لدعوة الخلق إلى الله تعالى، و هو أن يراعي من ظاهره مالا يوجب نفرة الناس عنه والاعتماد في مثل هذه الأُمورعلى النيّة فإنّها أعمال مباحة في أنفسها تكتسب الأوصاف من القصود، فالتزيين على هذا القصد محبوب، وترك الشعث في اللّحية إظهاراً للزّهد وقلّة المبالاة بالنفس محذور فتركه شغلاً بما هوأهمّ منه محبوب، فهذه أحوال باطنة بين العبد و بين الله تعالى، و النّاقد بصيرٌ والتلبيس غير رائج عليه بحال، و كم من جاهل يتعاطى هذه الأُمور التفاتاً إلى الخلق و هو يلبّس على نفسه و على غيره ويزعم أنّ قصده الخير فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعمون أنّ قصدهم إرغام المبتدعة والمخالفين والتقرّب إلى الله تعالى به وهذا أمر ينكشف يوم تبلى السرائر

(١) راجع مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٤٢ . و مكارم الاخلاق ص ٣٤ و المدرى نوع من المشط.

(٢) مكارم الاخلاق ص ٣٤. وقال العراقى: رواه الطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف.

(٣) فى خبر هند بن أبى هالة راجع معانى الاخبار ص ٨٠.

(٤) راجع المجلد التاسع من البحار ص ٧ و ٨ من طبع الكمبانى.

(٥) مكارم الاخلاق ص ٦٣ . وقال العراقى: أخرجه ابن عدى و قال: حديث منكر.

و يوم يبعثر ما في القبور و يحصّل ما في الصدور ، فعند ذلك يتميّز السبيكة الخالصة من البهرج ، فنعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر » .

أقول : و قد وردعن أهل البيت عليهم السلام في الحثّ على التمشّط أخبار كثيرة و هي مرويّة في الكافي و الفقيه وغيرهما .

وروى في الكافي[١] بسند حسن « عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عزّوجلّ : « خذوا زينتكم عند كلّ مسجد »[٢] قال : من ذلك التمشّط عند كلّ صلاة » .

و عن الكاظم عليه السلام « قال : المشط يذهب بالوباء ، وكان لأبي عبد الله عليه السلام مشط في المسجد يتمشّط به إذا فرغ من صلاته »[٣] .

و عنه عليه السلام « تمشّطوا بالعاج فإنّ العاج يذهب بالوباء » .[٤]

وعنه عليه السلام إذا سرّحت رأسك ولحيتك فأمرّ المشط على صدرك ، فإنه يذهب بالهمّ والوباء » [٤].

وعن الصادق عليه السلام « الثوب النقيّ يكبت العدوّ ، والدّهن يذهب بالبؤس ، والمشط للرأس يذهب بالوباء ، قيل : ومالوباء ؟ قال : الحمّى ، والمشط للّحية يشدّ الأضراس»[٥] و في رواية أخرى « بالوتا »[٦] بالنون وهوالضعف .

و سئل عليه السلام « عن عظام الفيل مداهنها وأمشاطها ، قال : لابأس به »[٧] .

---

(١) المصدر ج ٦ ص ٤٨٩ تحت رقم ٧ . و الفقيه ص ٢٩ تحت رقم ١٠٦ .

(٢) الاعراف :٣١ .

(٣) المصدر ج ٦ ص ٤٨٨ تحت رقم ٢ .

(٤) الفقيه ص ٣١ تحت رقم ١١٠ . الكافي ج ٦ ص ٤٨٩ تحت رقم ٣ .

(٤) الكافي ج ٦ ص ٤٨٩ تحت رقم ٧ .

(٥) الكافي ج ٦ ص ٣٨٨ تحت رقم ١ .

(٦) الفقيه ص ٣١ تحت رقم ١١٢ . وقال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ في المرآة ج ٤ ص ١١٢ : قال في الذكرى : الوباء ـ بالموحدة تحت و الهمزة ـ و روى البرقي «الوتا» بالنون والقصر وهوالضعف .

(٧) الكافي ج ٦ ص ٤٨٩ تحت رقم ١١ .

و ينبغي أن يقول عند التسريح : « اللّهمّ سرّح عنّي الهموم و الغموم ، ووحشة الصدور ، ووسوسة الشيطان » كذا عن الصادق عليه السلام [1] .

و إذا فرغ منه يقول : « سبحان من زيّن الرجال باللّحى ، والنساء بالذوائب » .

و قد ورد في الحثّ على الخضاب أيضاً عن أهل البيت عليهم السلام أخبار كثيرة ، ففي كتاب من لايحضره الفقيه : « دخل الحسن بن الجهم على أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام و قد اختضب بالسواد ، فقال : إنّ في الخضاب أجراً ، والخضاب والتهيئة ممّا يزيد الله عزّوجلّ به في عفّة النساء ، و لقد ترك النساء العفّة بترك أزواجهنّ التهيئة ، فقال له : بلغنا أنّ الحنّاء يزيد في الشيب ؟ فقال : أيّ شيء يزيد في الشيب ؟ الشيب يزيد في كلّ يوم » .

و سأل « محمّد بن مسلم أبا جعفر عليه السلام عن الخضاب فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يختضب و هذا شعره عندنا » .

وروي «أنّه كان في رأسه ولحيته عليه السلام سبع عشرة شيبة » .

و «كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والحسين بن عليّ و أبوجعفر محمّد بن عليّ عليهم السلام يختضبون بالكتم »[2].

و «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يختضب بالحنّاء والكتم » .

وقال الصادق عليه السلام : « الخضاب بالسواد اُنسٌ للنساء ، و مهابةٌ للعدوّ » .

و قال عليه السلام في قول الله عزّوجلّ : « و أعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة »[3] قال : منه الخضاب بالسواد ، و إنّ رجلاً دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قد صفّر لحيته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما أحسن هذا ، ثمّ دخل عليه بعد ذلك وقد أقنى بالحنّاء ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قال : هذا أحسن من ذاك ، ثمّ دخل عليه بعد ذلك وقد خضب بالسواد فضحك إليه ، فقال : هذا أحسن من ذاك و ذاك » .

قال : « و قد خضب الأئمّة عليهم السلام بالوسمة ، و الخضاب بالصفرة خضاب الإيمان

---

(١) مكارم الاخلاق ص ٧٩ .

(٢) الكتم ـ بالفتح والتحريك ـ : نبات يخضب به الشعر ويصنع منه مدادللكتابة .

(٣) الانفال : ٦٠ .

و الإقناء خضاب الإسلام ، و بالسواد إسلامٌ و إيمانٌ ونورٌ » .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام : « يا عليّ درهم في الخضاب أفضل من ألف درهم في غيره في سبيل الله عزّ وجلّ ، و فيه أربع عشرة خصلة : يطرد الريح من الأُذنين ، و يجلو البصر ، ويليّن الخياشيم ، ويطيّب النكهة ، و يشدّ اللّثة ، و يذهب بالضنى[1] ويقلّ وسوسة الشيطان ، وتفرح به الملائكة ، و يستبشر به المؤمن ، و يغيظ به الكافر ، و هو زينة ، وطيب ، ويستحيي منه منكر ونكير ، و هو براءة له في القبر »[2].

و أكثر هذه الأخبار مرويّ في الكافي أيضاً بأسناد معتبرة[3].

و فيه بإسناده الصحيح « عن عمر بن يزيد قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : إيّاك ونصول الخضاب فإنّ ذلك بؤس »[4].

و بإسناده « عن حفص الأعور قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن خضاب اللّحية و الرأس أمن السنّة ؟ فقال : نعم ، قلت : إنّ أميرالمؤمنين صلوات الله عليه لم يختضب ، قال : إنّما منعه قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ هذه ستخضب من هذه »[5].

أقول : فلا تصغ إلى ما ذكره أبوحامد في هذا الباب من المبالغة في الزجر عن الخضاب وخصوصاً بالسواد فإنّ أهل البيت أدرى بما في البيت .

قال : « السادس : وسخ البراجم وهي معاطف ظهور الأنامل ، كانت العرب لاتكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع في تلك الغضون وسخ فأمرهم صلى الله عليه وآله بغسل البراجم .

السابع : تنظيف الرواجب أمر صلى الله عليه وآله به العرب و هي رؤوس الأنامل و ماتحت الأظفار من الوسخ لأنّها كانت لايحضرها المقراض في كلّ وقت يجتمع فيها أوساخ

(١) الضنى : المرض و الهزال و سوء الحال .

(٢) جميع تلك الاخبار فى الفقيه ص ٢٨ و ٢٩ تحت رقم ٦٣ الى ٦٩ .

(٣) راجع المجلد السادس منه ص ٤٨٠ الى ٤٨٤ .

(٤) نصلت اللحية : خرجت عنه الخضاب (القاموس) ، و الخبر فى الكافى ج ٦ ص ٤٨٢ تحت رقم ١١ .

(٥) الكافى ج ٦ ص ٤٨١ تحت رقم ٥ .

فوقّت لهم رسول الله صلى الله عليه وآله قلم الأظفار، ونتف الإبط، و حلق العانة كلّ أربعين يوماً لكنّه أمر بتنظيف ماتحت الأظفار.

وجاء في الأثر «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله استبطأ الوحي فلمّا هبط عليه جبرئيل عليه السلام قال له: كيف ينزل عليكم و أنتم لاتغسلون براجمكم، ولا تنظفون رواجبكم، و قلحاً لاتستاكون، مر اُمّتك بذلك»[1].

أقول: و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي[2]«عن الصادق عليه السلام قال: احتبس الوحي عن النبيّ صلى الله عليه وآله فقيل له: احتبس الوحي عنك، فقال: و كيف لا يحتبس و أنتم لا تقلّمون أظفاركم، ولا تنقون رواجبكم».

الثامن[3]: الدرن الّذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذلك يزيله الحمّام».

أقول: ولنورد كيفيّة دخول الحمّام وسننه وآدابه على طريقة أهل البيت عليهم السلام.

☆(بيان كيفية دخول الحمام وآدابه)☆

روى في الكافي بالإسناد الصحيح عن الصادق عليه السلام و رواه في الفقيه أيضاً «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمّام إلّا بمئزر[4].

قال في الفقيه: وروى يحيى بن سعيد الأهوازيّ، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن محمّد بن حمران قال: قال الصادق عليه السلام: «إذا دخلت الحمّام فقل في الوقت الّذي تنزع فيه ثيابك: «اللّهمّ انزع عنّي ربقة النفاق، وثبّتني على الإيمان»، و إذا دخلت البيت الأوّل فقل: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من شرّ نفسي و أستعيذ بك من أذاه»، فإذا دخلت البيت الثاني فقل: «اللّهمّ أذهب عنّي الرجس النجس و طهّر جسدي و قلبي»

---

(١) أخرجه احمد في مسنده ج ١ ص ٢٤٣ بلفظ آخر. ورواجب جمع راجبة وهي مابين عقد الاصابع من داخل، والبراجم جمع برجمة - بضم الباء و الجيم - وهي مفاصل الاصابع.

(٢) المجلد السادس ٤٩٧ تحت رقم ١٧.

(٣) تتمة كلام أبي حامد.

(٤) الكافي ج ٦ ص ٤٩٧ تحت رقم ٣، و الفقيه ص ٢٥ تحت رقم ١.

و خذ من الماء الحارّ وضعه على هامتك ، و صبّ منه على رجليك و إن أمكن أن تبلع منه جرعة فافعل فإنّه ينقي المثانة[1] ، والبث في البيت الثاني ساعة ، فإذا دخلت البيت الثالث فقل : « نعوذ بالله من النّار ، و نسأله الجنّة » تردّدها إلى وقت خروجك من البيت الحارّ ، و إيّاك و شرب الماء البارد ، و الفقّاع في الحمّام[2] فإنّه يفسد المعدة ولاتصبّنّ عليك الماء البارد فإنّه يضعف البدن ، وصبّ الماء البارد على قدمك إذا خرجت فإنّه يسلّ الداء من جسدك ، فإذا لبست ثيابك فقل : «اللّهمّ ألبسني التقوى ، وجنّبني الرّدى » فإذا فعلت ذلك أمنت من كلّ داء ، ولا بأس بقراءة القرآن في الحمّام مالم ترد به الصوت إذا كان عليك مئزر »[3].

و سأل محمّد بن مسلم أبا جعفر عليه السلام « فقال : أكان أميرالمؤمنين عليه السلام ينهى عن

---

(١) الذى يظهر من تتبع الاخبار أن الحمامات كانت فى عصرهم ذات بيوت أربعة، البيت الاول : بارد يابس ـ و فيه ينزعون ملابسهم ـ ، و الثاني : بارد رطب ـ فيه مخزن الماء البارد ـ ، الثالث : حار رطب ـ فيه مخزن الماء الحار ـ الرابع حار يابس ـ فيه يحمى المستحم بدنه فيدلك ـ راجع (الرسالة الذهبية ـ طب الرضا عليه السلام ـ ص ٩٤ ومستدرك النورى ج١ص ٥٤) وكان فى البيت الثالث الذى فيه مخزن الماء الحار بئر أوحوض يسيل فيه ماء الغسالة فقط ، و كان ممنوعاً على المغتسل الارتماس فى مخزن الماء سواء كان حاراً او بارداً ، وكان حول المخزن مواضع ومصطبات يقوم المغتسل عليها فيأخذ الماء من المخزن بالمشربة فيصب عليه و يخرج الغسالة منه الى البئر و كان فى بعض الحمامات حول المخزن حياض صغار يخرج الماء من المخزن فى انابيب خاصة الى تلك الحياض و يأخذ كل مستحم الماء بقدر حاجته . و المراد فى حديث الصدوق ـ رحمه الله ـ من بيوت الحمام البيوت التى كان يدخل فيها المستحم بعد نزع ثيابه ، و المراد من تجرع الماء المنقى للمثانة ان يغترف من ماء المخزن أو الحوض الخاص الممنوع وروده لاماء المخازن التى يغتسلون الناس فيه و يدلكون كما كان فى عصرنا هذا فى بعض البلاد ، بل الظاهر كراهية الاغتسال والارتماس فيه فضلا عن شربه كمافى الخبر الذى رواه الكلينى فى الكافى ج٦ ص ٥٠٣ عن ابى الحسن الرضا عليه السلام «من اغتسل فى الماء الذى يغتسل فيه فأصابه الجذام فلا يلومن الانفسه » .

(٢) الفقاع وان كان حراماً الا أنه عليه السلام أكد حرمة شربه فى الحمام .

(٣) الفقيه ص ٢٧ تحت رقم ١٢ .

قراءة القرآن في الحمّام؟ فقال : لا ، إنّما ينهى أن يقرء الرجل وهو عريان ، فأمّا إذا كان عليه إزار فلابأس »[١].

و قال عليّ بن يقطين لموسى بن جعفر عليهما السلام : « أقرء في الحمّام وأنكح فيه؟ قال : لابأس »[٢].

قال الصدوق ـ رحمه الله ـ : وكذا النهي الوارد عن التسليم فيه إنّما هو لمن لامئزر عليه [٣].

قال عليه السلام : « ويجب على الرجل أن يغضّ بصره ، ويستر فرجه من أن ينظر إليه»[٤] .

وسئل الصادق عليه السلام « عن قول الله عزّ وجلّ : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم »[٥] فقال : كلّ ماكان في كتاب الله تعالى من ذكر حفظ الفرج فهو من الزّنى إلّا في هذا الموضع فإنّه الحفظ من أن ينظر إليه » .

وروي عن الصادق عليه السلام « أنّه قال : إنّما أكره النظر إلى عورة المسلم ، فأمّا النظر إلى عورة الذمّي ومن ليس بمسلم فهو مثل النظر إلى عورة الحمار »[٦] .

و قال الصادق عليه السلام : « الفخذ ليس من العورة »[٧]ـ انتهى كلام الصدوق ـ .

و الأولى أن يستر من السرّة إلى الركبة كما فعله أبو جعفر عليه السلام حين يطليه غيره ثمّ قال : اُخرج عنّي ، ثمّ طلى هو ماتحته بيده ، ثمّ قال : هكذا فافعل . رواه في الكافي .[٨]

---

(١) و (٢) الفقيه ص ٢٦ تحت رقم ١٣ و ١٤ . و الكافي ج ٦ ص ٥٠٢ تحت رقم ٣٢ و ٣١ .

(٣) الفقيه ص ٢٧ ذيل الخبر السادس و الثلاثين .

(٤) الفقيه ص ٢٦ تحت رقم ١٨ من أبي الحسن موسى عليه السلام .

(٥) النور : ٣١ ، و الخبر في الفقيه ص ٢٦ تحت رقم ١٩ .

(٦) الكافي ج ٦ ص ٥٠١ تحت رقم ٢٧ ، والفقيه ص ٢٦ تحت رقم ٢٠ . و قال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ في المرآة : يظهر من الكليني و الصدوق ـ رحمهماالله ـ القول بمدلول الخبر ، و يظهر من الشهيد و جماعة عدم الخلاف في التحريم .

(٧) الفقيه ص ٢٧ تحت رقم ٣٨ .

(٨) المصدر ص ٥٠١ تحت رقم ٢٢ .

و ذلك لأنّ تلك المواضع بمنزلة حريم للعورة ، و قد قيل بوجوب سترها أيضاً .

قال الصدوق ـ رحمه الله ـ : وقال أميرالمؤمنين عليه السلام : « نعم البيت الحمّام ، تذكر فيه النّار ويذهب بالدرن»[١] .

وقال أميرالمومنين عليه السلام : « بئس البيت الحمّام يهتك الستر و يذهب بالحياء ».[٢]

وقال الصادق عليه السلام :« بئس البيت الحمّام يهتك الستر ويبدي العورة ، و نعم البيت الحمّام يذكر حرّ النّار »[٣] .

أقول : وقد ذكر أبوحامد في سنن الحمّام « أن يتذكّر حرّ النار بحرارته و يقدّر نفسه محبوساً في البيت الحارّ ساعة و يقيسه إلى جهنّم ، فإنّه أشبه بيت بجهنّم ، النّار من تحت ، والظلام من فوق ، نعوذ بالله منها ، قال : بل العاقل لايغفل عن ذكر الآخرة في لحظة فإنّها مصيره و مستقرّه فيكون له في كلّ ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة و موعظة ، فإنّ المرء ينظر بحسب همّته ، فإذا دخل بزّاز ونجّار وبنّاء و حائك داراً معمورة مفروشة ، فإذا تفقّدتهم رأيت البزّاز ينظر إلى الفرش ، يتأمّل قيمتها ، و الحائك ينظر إلى الثياب ، يتأمّل نسجها ، والنجّار ينظر إلى السقف ، يتأمّل كيفيّة تركيبها [٤] ، والبنّاء ينظر إلى الحيطان ، يتأمّل كيفيّة إحكامها واستقامتها ، فكذلك سالك طريق الآخرة لايرى من الأشياء إلّا مايكون له موعظة من الآخرة ، بل لاينظر إلى شيء إلّا و يفتح الله له فيه طريق عبرة ، فإن نظر إلى سواد يذكر ظلمة اللّحد ، و إن نظر إلى حيّة يذكر أفاعي جهنّم ، و إن نظر إلى صورة قبيحة يذكر منكراً و نكيراً و الزبانية ، و إن سمع صوتاً هائلاً يذكر نفخة الصور ، و إن رأى شيئاً حسناً يذكر نعيم الجنّة ، وإن سمع كلمة ردّ أو قبول في سوق أودار يذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الردّ أو القبول ، و ما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذلا يصرفه عنه إلّا مهمّات الدنيا ، فإذا نسب مدّة المقام في الدّنيا إلى مدّة المقام

---

(١) و (٢) و (٣) الفقيه ص ٢٦ تحت رقم ٢١ و ٢٢ و ٢٣ .

(٤) أراد به السقوف التي كانت في زمانه حيث يزخرفون السقوف باشكال هندسية ولايزال بعضها باقياً الى عصرنا .

في الآخرة استحقرها إن لم يكن ممّن أقفل قلبه أو عميت بصيرته » - انتهى كلامه .

قال في الفقيه : « ومن الآداب أن لا يدخل الرّجل ولده معه الحمّام فينظر إلى عورته» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فلا يبعث بحليلته إلى الحمّام » .

وقال صلى الله عليه وآله : « من أطاع امرأته أكبّه الله على منخريه في النّار ، قيل : وما تلك الطاعة ؟ فقال : تدعوه إلى النياحات و العرسات والحمّامات و الثياب الرقاق فيجيبها » .

و قال الصادق عليه السلام : «لا تتّك في الحمّام فإنّه يذيب شحم الكليتين ، ولا تسرّح في الحمّام فإنّه يرقّق الشعر ، ولا تغسل رأسك بالطين فإنّه يسمج الوجه -[1] و في حديث آخر يذهب بالغيرة - ، ولا تدلك بالخزف فإنّه يورث البرص ، ولا تمسح وجهك بالإزار فإنّه يذهب بماء الوجه ، وروي أنّ ذلك طين مصر ، و خزف الشام ؛ و السواك في الحمّام يورث و باء الأسنان ، ولا يجوز التطهير والغسل بغسالة الحمّام » .

وقال أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام : « لا تدخلوا الحمّام على الريق ولا تدخلوا حتّى تطعموا شيئاً » .

و قال عليه السلام : « الحمّام يوم و يوم لا ، يكثر اللّحم ، و إدمانه كلّ يوم يذيب شحم الكليتين » [2].

و « دخل الصادق عليه السلام الحمّام ، فقال له صاحب الحمّام : نخلّيه لك ؟ قال : لا ، إنّ المؤمن خفيف المؤونة» [3] .

و قال الصادق عليه السلام : « غسل الرأس بالخطمي ينفي الفقر ويزيد في الرزق » [4].

وقال عليه السلام : « غسل الرأس بالخطمي في كلّ جمعة أمان من البرص والجنون » .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : «غسل الرأس بالخطمي يذهب بالدرن ، وينفي الأقذار»

---

(١) اى يقبح .

(٢) جميع تلك الاخبار فى الفقيه ص ٢٦ و ٢٧ فلتراجع .

(٣) الكافى ج ٦ ص ٥٠٣ تحت رقم ٣٧ .

(٤) الفقيه ص ٢٩ تحت رقم ٧٩ ، والكافى ج ٦ ص ٥٠٤ تحت رقم ١ ، والخبران بعده تحت رقم ٢ و ٣ .

و « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله اغتمّ فأمره جبرئيل عليه السلام بغسل رأسه بالسدر ، و كان ذلك سدراً من سدرة المنتهى[(١)] » .

وقال أبوالحسن موسى بن جعفر عليهما السلام : «غسل الرأس بالسدر يجلب الرزق جلباً » .

وقال الصادق عليه السلام : « اغسلوا رؤوسكم بورق السدر فإنّه قدّسه كلّ ملك مقرّب و كلّ نبيّ مرسل ، ومن غسل رأسه بورق السدر صرف الله عنه وسوسة الشيطان سبعين يوماً ، ومن صرف الله عنه وسوسة الشيطان سبعين يوماً لم يعص ومن لم يعص دخل الجنّة » .

و « خرج الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام من الحمّام فقال له رجل : طاب استحمامك ، فقال : يا لكع و ماتصنع بالإست ههنا [(٢)] ؟ فقال : طاب حمّامك ، قال : إذا طاب الحمّام فماراحة البدن منه ؟ قال : فطاب حميمك ، فقال : ويحك أما علمت أنّ الحميم العرق ، قال له : فكيف أقول ؟ قال : قل طاب ماطهر منك وطهر ماطاب منك » .[(٣)]

وقال الصادق عليه السلام : « إذا قال لك أخوك وقد خرجت من الحمّام : طاب حمّامك فقل له : أنعم الله بالك »[(٤)].

أقول : و أمّا الكلام في غسل الجمعة و آدابه فسنورده في مباحث صلاة الجمعة كما فعله أبوحامد .

قال : « النوع الثاني ما يحذف من البدن من الأجزاء و هي ثمانية :

الأوّل : شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ، و لا بتركه لمن يدهن و

---

(١) الفقيه ص ٢٩ تحت رقم ٨٠ ، و اللذان بعده تحت رقم ٨٢ و ٨٣ .

(٢) قال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ في المرآة : أي لامناسبة لحروف الطلب ههنا بعد الخروج من الحمام مع استهجان لفظ الاست بمعناه الاخر .

(٣) الكافي ج ٦ ص ٥٠٠ تحت رقم ٢١ . و قال الجوهري : الحميم : الحار ، و العرق ، و قد استحم أي عرق ، و قوله عليه السلام : « طهر » اي طهرالله من المعاصي «ما طاب منك » من نفسك و قلبك و طيب من العلل و الامراض و عن المعاصي ما طهر منك بالغسل . (كذا في المرآة) .

(٤) الفقيه ص ٣٠ تحت رقم ٨٦ .

يرجّل إلّا إذا تركه قزعاً [1] قطعاً فهي دأب الشطارة ، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعاراً لهم ، فإنّه إذا لم يكن شريفاً كان ذلك تلبيساً » .

أقول : و قد ذكرنا أنّ حلق الرأس أفضل من تركه و أجمل ، و أمّا القنازع فقد ورد كراهته عن أهل البيت عليهم السلام أيضاً .

ففي الكافي عن الصادق عليه السلام « قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا تحلقوا الصبيان القزع ، و القزع أن يحلق موضعاً و يدع موضعاً » [2] .

و عنه عليه السلام « أنّه كره القزع في رؤوس الصبيان ، و ذكر أنّ القزع أن يحلق الرأس إلّا قليلاً وسط الرأس يسمّى القزعة » [3] .

و عنه عليه السلام « قال : أُتي النبيّ صلى الله عليه وآله بصبيّ يدعو له وله قنازع فأبى أن يدعو له وأمر أن يحلق رأسه » [4] .

الثاني : شعر الأنف ويستحبّ نتفه أو قرضه ففي الكافي والفقيه عن الصادق عليه السلام « أنّه قال : أخذ شعر الأنف يحسّن الوجه »[5] و القرض أولى من النتف كما ورد [6] ، و لم يذكره أبو حامد و ذكر بدله في السادس زيادة السرّة ، قال : و يقطع في أوّل الولادة و اقتصر عليه ، وأخّر ما طال من اللّحية إلى الثامن لمصلحة زعمها فيه فهي ساقطة عندنا و لذا ذكرناه في محلّه و ما فعلناه أولى كما لايخفى .

الثالث : شعر الشارب و قد قال صلى الله عليه وآله : « قصّوا الشوارب » [7] و في لفظ آخر

---

(۱) القزع - بالتحريك - يأتى معناه وفى بعض النسخ [قنزعاً] و القنزع - بضم القاف والزاى - هى الخصلة من الشعر ترك على الرأس ، و أيضاً الشعر حول الرأس .

(۲) المصدر ج ٦ ص ٤٠ تحت رقم ۱ .

(۳) المصدر ج ٦ ص ٤٠ تحت رقم ۲ . و فيه « القنزعة » .

(٤) المصدر ج ٦ ص ٤٠ .

(٥) الكافى ج ٦ ص ٤٨٨ تحت رقم۱ ، والفقيه ص ۲۹تحت رقم ۷۸ .

(٦) راجع الكافى ج٦ ص٤٩۲ باب جزالشيب ونتفة ، وسنن النسائى ج٨ ص ١٤٨ .

(۷) أخرجه أحمد فى المسند ج ۲ ص ۲۲۹ عن ابى هريرة .

« جزّوا الشوارب»[1] و في لفظ آخر «حفّوا الشوارب ، وأعفوا اللّحى» [2] أي اجعلوها حفاف الشفة أي حولها ، و حفاف الشيء حوله ، و منه قوله تعالى : « و ترى الملائكة حافّين من حول العرش » [3] و في لفظ آخر « أحفوا الشوارب » [4] و هذا يشعر بالاستيصال ، و قوله : « حفّوا » يدلّ على ما دون ذلك ، قال تعالى : « إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا » [5] أي يستقصي عليكم ، و أمّا الحلق فلم يرد ، و الإحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة ؛ نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه فقال : ذكرتني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا بأس بترك سباليه و هما طرفا الشارب ، فعل ذلك بعض الصحابة لأنّ ذلك لا يستر الفمّ و لا يبقى فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه ، و قوله : « أعفوا اللّحى» أي كثّروها ، و في الخبر أنّ اليهود يعفون شواربهم و يقصّون لحاهم فخالفوهم» .[6] و كره بعض العلماء الحلق و رآه بدعة ».

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه في الفقيه [7] « عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّ المجوس جزّوا لحاهم ووفّروا شواربهم وإنّا نحن نجزّ الشوارب و نعفي اللّحى وهي الفطرة» .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أحفوا الشوارب ، و أعفوا اللّحى ، و لا تتشبّهوا باليهود » [8] .

و روى في الكافي [9] « عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا يطوّلنّ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ١٥٣ عن أبى هريرة ، وأخرجه أيضاً احمد فى المسند ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) أخرجه النسائى فى سننه ج ٨ ص ١٢٩ ، وأحمد فى المسند ج ١ ص ٥٢ .

(٣) الزمر : ٧٥ .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ١٥٣ ، والنسائى ج ١ ص ١٦ عن ابن عمر .

(٥) سورة محمد . ٣٧ .

(٦) اخرج أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٥٦ نحوه ، و أيضاً روى القاضى نعمان فى دعائم الاسلام مثله كما فى المستدرك للنورى ج ١ ص ٥٩ .

(٧) المصدر ص ٣١ تحت رقم ١١٩ .

(٨) الفقيه ص ٣١ تحت رقم ١١٨ .

(٩) المصدر ج ٦ ص ٤٨٧ تحت رقم ١١ .

أحدكم شاربه فإنّ الشيطان يتّخذه مخبأ يستتر به[1] ».

وعن الباقر عليه السلام « من أخذ من أظفاره وشاربه كلّ جمعة و قال حين يأخذه : « بسم الله وبالله وعلى سنّة محمّد رسول الله وآل محمّد صلوات الله عليهم لم تسقط منه قلامة ولاجزازة إلّا كتب الله عزّوجلّ له بها عتق نسمة ، ولا يمرض إلّا مرضه الّذي يموت فيه »[2].

وعن الصادق عليه السلام « أخذ الشارب من الجمعة إلى الجمعة أمان من الجذام »[3].

وقال عبدالله بن أبي يعفور للصادق عليه السلام : «جعلت فداك يقال : ما استنزل الرزق بشيء مثل التعقيب فيمابين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فقال : أجل ولكن اُخبرك بخير من ذلك أخذ الشارب وتقليم الأظفار يوم الجمعة »[4].

و في الكافي[5]« عن عبدالله بن عثمان أنّه رأى أبا عبدالله عليه السلام أحفى شاربه حتّى ألصقه بالعسيب » وهومنبت الشعر .

وفيه عنه عليه السلام « قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنّ من السنّة أن يأخذ الشارب حتّى يبلغ الإطار »[6].

الرابع : ما طال من اللّحية قال في الفقيه : « نظر رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى رجل طويل اللّحية فقال : ما كان على هذا لوهيّأ من لحيته ؟ فبلغ الرجل ذلك فهيّأ لحيته بين

(١) المخبأ : موضع الاختباء اى الاستتار . وفي بعض النسخ [مجنأ] بمعناه .

(٢) الفقيه ص ٣٠ تحت رقم ٩١ ونحوه فى الكافى ج ٣ ص ٤١٧ عن ابى عبدالله عليه السلام ، و قال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ : لعل التخلف فى بعض الموارد للاخلال بشرائطه و القصور فى النية اوالمراد أن هذا الفعل فى نفسه هذا ثمرته فلا ينافى أن ينفك هذا الاثر عنه بسبب ما ير تكبه العبد من المعاصى مما يوجب العقوبة كما أن الطبيب يقول : الفلفل يسخن ، فاذا أكله أحد وداواه بضده فلم يظهر فيه أثر التسخين لا يوجب تكذيب الطبيب . انتهى . والقلامة : ما سقط من الظفر ، و الجزازة : ما يسقط على الارض .

(٣) الكافى ج ٣ ص ٤١٨ تحت رقم ٧ ، و فى الفقيه ص ٣٠ تحت رقم ٩٣ .

(٤) الفقيه ص ٣٠ تحت رقم ٩٨ .

(٥) و (٦) الكافى ج ٦ ص ٤٨٧ تحت رقم ٩ و ٦ ، و الاطار ـ ككتاب ـ : ما ما يفصل بين الشفة و شعرات الشارب . (القاموس)

اللّحيتين ثمّ دخل على النبيّ صلّى الله عليه وآله، فلمّا رآه قال: هكذا فافعلوا »[١].

و قال الصادق عليه السلام: « مازاد في اللّحية عن القبضة فهو في النار »[٢].

و قال محمّد بن مسلم: « رأيت أبا جعفر الباقر عليه السلام و الحجّام يأخذ من لحيته فقال: دوّرها »[٣].

وقال الصادق عليه السلام: « تقبض بيدك على لحيتك و تجزّ مافضل »[٤].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: « الشيب في مقدّم الرأس يمن، و في العارضين سخاء، و في الذوائب شجاعة، و في القفا شوم »[٥].

و قال الصادق عليه السلام: « أوّل من شاب إبراهيم الخليل عليه السلام و أنّه هيّأ لحيته فرأى طاقة بيضاء، فقال: يا جبرئيل ما هذا؟ فقال: هذا وقار، فقال إبراهيم عليه السلام: « اللّهمّ زدني وقاراً »[٦].

وقال صلّى الله عليه وآله: من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورٌ يوم القيامة »[٧].

وقال صلّى الله عليه وآله: «الشيب نور فلاتنتفوه »[٨].

وكان عليّ عليه السلام: « لايرى بجزّ الشيب بأساً و يكره نتفه »[٩].

فالنّهي عن نتف الشيب نهي كراهيّة لانهي تحريم لأنّ الصادق عليه السلام يقول[١٠]: «لا بأس بجزّ الشمط ونتفه[١١] و جزّه أحبّ إليّ من نتفه » فأخبارهم عليهم السلام لايختلف في حالة واحدة لأنّ مخرجها من عندالله تعالى ذكره وإنّما تختلف بحسب اختلاف الأحوال[١٢].

أقول: و أمّا حلق اللّحية فقد قيل بتحريمه، ولم يتعرّض له أبوحامد في هذا الكتاب ولا من يوثق به من أصحابنا، و لعلّ وجه حرمته أنّه خلاف السنّة فيكون بدعة ولمخالفته قول الرسول صلّى الله عليه وآله: « أعفوا اللّحى » ولقوله تعالى ـ حكاية عن الشيطان اللّعين ـ: «ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق الله »[١٣] فإنّ إزالة الشعور الأخر مأذونة من الشارع

---

(١) الى (١٠) جميع تلك الاخبار فى الفقيه ص ٣١ تحت رقم ١١٨ الى ١٢٥ . وبعضها فى الكافي ج٦ ص٤٨٦ الى ٤٨٨ . (١١) الشمط: اختلاط الشيب بسواد الشباب .

(١٢) من كلام الصدوق ـ رحمه الله ـ كما فى الفقيه ص ٣١ تحت رقم ١٢٥ .

(١٣) النساء: ١١٩ .

بخلاف اللّحية بتمامها، و لمارواه في الكافي عن حبابة الوالبيّة قالت: رأيت أميرالمؤمنين عليه السلام في شرطة الخميس و معه درّة لها سبابتان يضرب بها بيّاعي الجرّيّ و المارماهي والزّمار و يقول لهم: يا بيّاعي مسوخ بني إسرائيل و جند بني مروان، فقام إليه فرات ابن أحنف فقال: يا أميرالمؤمنين: وما جند بني مروان؟ قال: فقال له: أقوام حلقوا اللّحى و فتلوا الشوارب فمسخوا - الحديث - » [1] و هو طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

قال أبو حامد: « و أمّا نتفها في أوّل النبات تشبّهاً بالمرد فمن المنكرات الكبار فإنّ اللّحية زينة الرجال فللّه ملائكة يقسمون: والّذي زيّن بني آدم باللّحى. و هي من تمام الخلق و بها يتميّز الرجال عن النساء، و قيل في غريب التأويل: اللّحية هي المراد بقوله: « يزيد في الخلق ما يشاء » [2].

قال أصحاب الأحنف: و ددنا أن نشتري للأحنف لحية ولو بعشرين ألفاً، وقال شريح القاضي: و ددت أن يكون لي لحية بعشرة آلاف؛ و كيف يكره اللّحية و فيها تعظيم الرجل، و النظر إليه بعين العلم و الوقار، و الرفع في المجالس، و إقبال الوجوه إليه، و التقدّم على الجماعة، و وقاية العرض، فإنّ من يشتم يعرّض باللّحية إذا كان للمشتوم لحية. و قيل: إنّ أهل الجنّة مردٌ إلّا هارون أخو موسى عليهما السلام فإنّ له لحية إلى سرّته تخصيصاً له و تفضيلاً».

الخامس والسادس: شعر الابط و العانة، ويلحق بهما شعر سائرالجسد ويستحبّ إزالتها إمّا بالحلق أو بالنورة، و أمّا النتف فإيلام و تعذيب و المقصود النظافة، و أن لا يجتمع الوسخ في خللها و يحصل ذلك بالأسهل.

و في الفقيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « لايطوّلنّ أحدكم شعر إبطيه فإنّ الشيطان يتّخذه مجنّاً [3] يستتر به » [4].

---

(١) المصدر ج ١ ص ٣٤٦، و رواه الصدوق - رحمه الله - أيضاً فی كمال الدين ص ٢٩٤ من حديث حبابة الوالبية.

(٢) الفاطر: ١.

(٣) المجن كل ماوقى من السلاح. و فی بعض النسخ [مخبأ] والمخبأ موضع الاستتار.

(٤) المصدر ص ٢٨ تحت رقم ٥٠.

و قال صلى الله عليه و آله : « من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فلا يترك عانته فوق أربعين يوماً ، ولا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تدع ذلك منها فوق عشرين يوماً»(١).

و قال أمير المؤمنين عليه السلام : «أحبّ للمؤمن أن يطلي في كلّ خمسة عشر يوماً »(٢) .

و قال الصادق عليه السلام : «السنّة في النورة في كلّ خمسة عشر يوماً ، فإن أتت عليك عشرون يوماً و ليس عندك فاستقرض على الله عزّ وجلّ » (٣) .

و كان الصادق عليه السلام يطلي إبطيه في الحمّام و يقول : « نتف الإبط يضعف المنكبين و يوهي ، و يضعف البصر » (٤) .

و قال عليه السلام : « حلقه أفضل من نتفه ، و طليه أفضل من حلقه » (٥) .

و قال عليّ عليه السلام : «نتف الإبط ينفي الرائحة المكروهة ، و هو طهور و سنّة ممّا أمر به الطيّب عليه و آله السلام » (٦) . و قال عليه السلام : « أيضاً النورة طهور »(٧).

و قال الصادق عليه السلام : « من أراد أن يتنوّر فليأخذ من النورة و يجعله على طرف أنفه و يقول : « اللّهمّ ارحم سليمان بن داود كما أمر بالنورة » فإنّه لاتحرقه إن شاء الله تعالى» (٨) .

و روي « أنّ من جلس و هو متنوّر خيف عليه الفتق »(٩)« والجنب لا بأس بأن يطلي فإنّ النورة تزيده نظافة »(١٠) .

و قال الصادق عليه السلام : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : ينبغي للرّجل أن يتوقّى النورة يوم الأربعاء فإنّه يوم نحس مستمرّ و يجوز النورة في سائر الأيّام » (١١).

و روي « أنّها في يوم الجمعة تورث البرص» (١٢).

و روى الريّان بن الصّلت عمّن أخبره ، عن أبي الحسن عليه السلام « قال : من تنوّر يوم الجمعة فأصابه البرص فلا يلومنّ إلّا نفسه» (١٣).

أقول : و قد روى في الكافي عن البرقي رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام « قال : قيل له يزعم بعض الناس أنّ النورة يوم الجمعة مكروهة ، فقال : ليس حيث ذهبت أي طهور أطهر

---

(١) الى (١٣) جميع تلك الروايات فى الفقيه باب غسل يوم الجمعة تحت رقم ٤٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ٤٨ ، ٤٩ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ على الترتيب.

من النورة يوم الجمعة »[١].

و فيه عن الصادق عليه السلام « قال : طلية في الصيف خيرٌ من عشر في الشتاء »[٢].

و عنه عليه السلام « قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطلي العانة و ما تحت الأليتين في كلّ جمعة »[٣].

و عن « سدير أنّه سمع عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول : من قال إذا أطلى بالنورة : « اللّهمّ طيّب ما طهر منّي ، و طهّر ما طاب منّي ، و أبدلني شعراً طاهراً لا يعصيك اللّهمّ إنّي تطهّرت ابتغاء سنّة المرسلين ، و ابتغاء رضوانك و مغفرتك ، فحرّم شعري و بشري على النار ، و طهّر خَلقي ، و طيّب خُلقي ، و زكّ عملي ، و اجعلني ممّن يلقاك على الحنيفيّة السمحة ، ملّة إبراهيم خليلك ، و دين محمّد صلى الله عليه وآله حبيبك و رسولك ، عاملاً بشرائعك ، تابعاً لسنّة نبيّك ، آخذاً به متأدّباً بحسن تأديبك و تأديب رسولك صلى الله عليه وآله و تأديب أوليائك ، الّذين غذوتهم بأدبك ، و زرعت الحكمة في صدورهم ، و جعلتهم معادن لعلمك صلواتك عليهم » من قال ذلك طهّره الله من الأدناس في الدنيا ، و من الذنوب ، و أبدله شعراً لا يعصي ، و خلق الله بكلّ شعرة من جسده ملكاً يسبّح له إلى أن تقوم الساعة ، و أنّ تسبيحة من تسبيحهم تعدل بألف تسبيحة من تسبيح أهل الأرض »[٤].

و عن الحكم بن عتيبة « قال : رأيت أبا جعفر عليه السلام و قد أخذ الحنّاء و جعله على أظافيره ، فقال : يا حكم ما تقول في هذا ؟ فقلت : ما عسيت أن أقول فيه و أنت تفعله ، و إنّ عندنا يفعله الشبّان ، فقال : يا حكم إنّ الأظافير إذا أصابتها النورة غيّرتها حتّى تشبه أظافير الموتى فغيّرها بالحنّاء »[٥].

و عن أحمد بن عبدوس « قال : رأيت أبا جعفر عليه السلام و قد خرج من الحمّام و هو من قرنه إلى قدمه مثل الوردة من أثر الحنّاء »[٦].

وفي الفقيه « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أطلى و اختضب بالحنّاء آمنه الله تعالى

(١) الى(٦) راجع الكافي ٦ ص ٥٠٥ باب النورة ، ٥٠٧ باب الابط ، و ص ٥٠٩ باب الحناء بعد النورة.

من ثلاث خصال: الجذام، و البرص، و الآكلة إلى طلية مثلها» [١].

و قال الصادق عليه السلام: «الحنّاء على أثر النورة أمان من الجذام والبرص» [٢].

و روي «أنّ من أطلى فتدلّك بالحنّاء من قرنه إلى قدمه نفى الله عنه الفقر» [٣].

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «اختضبوا بالحنّاء فإنّه يجلو البصر، و ينبت الشعر، ويطيّب الريح، ويسكّن الزوجة» [٤].

وقال الصادق عليه السلام: «الحنّاء يذهب بالسهك(*) ويزيد في ماء الوجه، ويطيّب النكهة، ويحسن الولد» [٥].

و قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الخضاب هدى محمّد صلى الله عليه و آله وهو من السنّة» [٦].

و قال الصادق عليه السلام: «لا بأس بالخضاب كلّه» [٧].

ولا بأس أن يتدلّك الرجل في الحمّام بالسويق، و الدقيق، و النخالة، ولا بأس بأن يتدلّك بالدقيق الملتوت بالزيت، و ليس فيما ينفع البدن إسراف، إنّما الإسراف فيما أتلف المال و أضرّ بالبدن.

السابع: الأظفار و قلمها مستحبّ لشناعة صورتها إذا طالت، ولما يجتمع فيها من الوسخ؛ روي في الكافي عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّما قصّ الأظفار لأنّها مقيل الشيطان، و منه يكون النسيان» [٨].

و عن حذيفة بن منصور، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ أستر و أخفى ما يسلّط الشيطان من ابن آدم أن صار يسكن تحت الأظافير» [٩].

و عن الحسن بن راشد «عن النبيّ صلى الله عليه و آله قال: تقليم الأظفار يمنع الداء الأعظم ويدرّ الرزق» [١٠].

و عن محمّد بن طلحة «قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: تقليم الأظفار و قصّ الشارب،

(*) السهك ـ محركة ـ: ريح كريهة تجدها ممن عرق.

(١) الى (٧) الفقيه باب غسل الجمعة ص ٢٥ تحت رقم ٥٦: الى ٦٢.

(٨) الى (١٠) الكافي ج ٦ باب تقليم الاظفار ص ٤٩٠ رقم ٦، ٧، ١، على الترتيب.

و غسل الرأس بالخطمي في كلّ جمعة ينفي الفقر، و يزيد في الرزق »(١).

و عن أبي بصير « قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ما ثواب من أخذ من شاربه، و قلّم أظفاره في كلّ جمعة؟ قال : لايزال مطهّراً إلى الجمعة الأخرى »(٢).

و عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام « قال : تقليم الأظفار يوم الجمعة يؤمن من الجنون و الجذام و البرص و العمى و إن لم تحتج فحكّها حكّاً »(٣).

قال في الفقيه : و في خبر آخر « فان لم تحتج فأمرّ عليها السكّين أوالمقراض»(٤).

قال : «و تقليم الأظفار يوم الخميس يرفع الرّمد»(٥).

و قال أبو جعفر عليه السلام : « من أخذ من أظفاره كلّ خميس لم يرمد ولده »(٦).

و في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام « من أدمن أخذ أظفاره كلّ خميس لم يرمد عينيه »(٧).

و في الفقيه « قال الصادق عليه السلام : من قلّم أظفاره يوم الجمعة لم تشعث أنامله»(٨).

وقال : «من قصّ أظفاره يوم الخميس، وترك واحداً ليوم الجمعة نفى الله عنه الفقر»(٩).

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : « من قلّم أظفاره يوم السبت و يوم الخميس، وأخذ من شاربه عوفي من وجع الضرس، و وجع العين »(١٠).

و قال موسى بن بكر للصادق عليه السلام : « إنّ أصحابنا يقولون : إنّما أخذ الشارب و الأظفار يوم الجمعة، فقال : سبحان الله خذها إن شئت في يوم الجمعة و إن شئت في سائر الأيّام، و قال : قصّها إذا طالت »(١١).

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم « للرجال : قصّوا أظافيركم، و للنساء : اتركن من أظافيركنّ فإنّه أزين لكنّ »(١٢).

---

(١) و (٢) الكافي ج ٦ باب تقليم الاظفار ص ٤٩٠ تحت رقم ١٠، ٨، على الترتيب.

(٣) الى (٦) الفقيه باب غسل الجمعة ص ٢٥ تحت رقم ٨٩، ٩٠، ٩٨، ٩٩.

(٧) المصدر ج ٦ ص ٤٩١ رقم ١٤.

(٨) الى (١٢) فى الفقيه باب غسل الجمعة رقم ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، على الترتيب.

وقال الصادق عليه السلام : « يدفن الرجل أظافيره وشعره إذا أخذ منها وهي سنّة »[١].

و روي « أنّ من السنّة دفن الشعر ، و الظفر ، و الدّم »[٢].

أقول و قد ذكرنا دعاء القلم في أخذ الشارب ، وأمّا ترتيبه ففي الكتابين[٣] رواية أنّه يبدء بخنصره اليسرى و يختم بخنصره اليمنى ، و قد روي بالعكس وغيرهما .

قال أبو حامد ولم أر في الكتب خبراً مرويّاً في ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت أنّه روي أنّه صلى الله عليه وآله بدأ بمسبّحة اليمنى و ختم بإبهام اليمنى فابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام وفي اليمنى من المسبّحة إلى الخنصر والختم بإبهام اليمنى[٤] . و لمّا تأمّلت في هذا خطر لي من المعنى ما يدلّ على أنّ الرواية فيه صحيحة إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء إلّا بنور النبوّة و أمّا العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه ، و الّذي لاح لي فيه ـ و العلم عند الله ـ أنّه لابدّ من قلم أظفار اليد و الرجل ، و اليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ثمّ اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ، ثمّ على اليمنى خمسة أصابع و المسبّحة أشرفها إذ هي المشيرة في كلمتي الشهادة من جملة الأصابع ثمّ بعدها ينبغي أن يبتدأ بما على يمينها إذ الشرع يستحبّ إدارة الطهور وغيره على اليمين ، و إن وضعت ظهر اليد على الأرض فالإبهام هو اليمين و إن وضعت بطن الكفّ فالوسطى هي اليمين ، و اليد إذا تركت بطبعها كان الكفّ مائلاً إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمنى إلى اليسار و استتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكفّ عالياً فما يقتضيه الطبع أولى ، ثمّ إذا وضعت الكفّ على الكفّ صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة فيقتضي ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبّحة إلى أن يعود إلى المسبّحة فتقع البداية بخنصر اليسرى و الختم بإبهامها ، و يبقى إبهام اليمنى ، و إنّما قدّرت الكفّ موضوعاً على الكفّ حتّى تصير الأصابع كالأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها و تقدير ذلك أولى

---

(١) و (٢) في الفقيه باب غسل الجمعة رقم ١٠٤ ، ١٠٥ على الترتيب .

(٣) الكافي ج ٦ ص ٤٩٢ رقم ١٦ ، الفقيه باب غسل الجمعة رقم ٩٢ .

(٤) قال العراقي : لم أجد له أصلا و قد أنكره أبو عبدالله المازري في الرد على الغزالي و شنع عليه .

من تقدير وضع الكفّ على ظهر الكفّ ، فإنّ ذلك لا يقتضيه الطبع ، و أمّا أصابع الرجل فالأولى عندي إن لم يثبت فيه نقل أن يبدأ بخنصره اليمنى ثمّ يختم بخنصره اليسرى كما في التخليل[1] ، فإنّ المعاني الّتي ذكرناها لا يتّجه ههنا إذ لا مسبّحة في الرجل و هذه الأصابع في حكم صفّ واحد ثابت على الأرض ، فيبدأ من جانب اليمين فإنّ تقديرها حلقة بوضع الأخمص على الأخمص يأباه الطبع بخلاف اليدين» .

أقول : و هذا هو الوجه في الرواية الثانية من طريقنا في اليد ، فإنّه لم ينظر فيها إلى المعاني المذكورة بل اكتفى بما يرى بالنظر الجليل[2] مع ترك اليد بطبعها ، وأمّا الرواية الأولى فلعلّ السرّ فيها تحصيل التيامن في كلّ أصبع أصبع ، بعد الأولى مع الترتيب فيها و وضع اليدين على مايقتضيه الطبع .

قال أبوحامد : « وهذه الدّقائق في الترتيب تنكشف بنور النبوّة في لحظة واحدة و إنّما يطول التعب علينا ثمّ لوسئلنا ابتداء ربّما لم يخطر لنا ، و إذا ذكر لنا فعله صلّى الله عليه وآله و ترتيبه ربّما يتيسّر لنا بإعانته صلّى الله عليه وآله - بشهادة الحكم و تنبيهه على المعنى - استنباط المعنى ، و لا تظنّنّ أنّ أفعاله صلّى الله عليه وآله في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن و قانون و ترتيب ، بل جميع الأمور الاختياريّة الّتي يتردّد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لايقدم على واحد معيّن بالاتّفاق ، بل بمعنى يقتضي الإقدام و التقديم ، فإنّ الاسترسال مهملاً كما يتّفق سجيّة البهائم . و ضبط الحركات بموازين المعاني سجيّة أولياء الله تعالى ، و كلّما كانت حركات الإنسان و خطراته إلى الضبط أقرب ، و عن الإهمال و تركه سدى أبعد ، كان قربه إلى رتبة الأنبياء و الأولياء أكثر ، و كان قربه من الله أظهر إذ القريب من النبيّ صلّى الله عليه وآله - وهو قريب من الله - لابدّ و أن يكون قريباً فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره ، فنعوذ بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا في يد الشيطان بواسطة الهوى ، و اعتبر في ضبط الحركات باكتحاله صلّى الله عليه وآله فإنّه كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً و في اليسرى اثنين[3] فبدايته باليمنى لشرفها

(١) اشار الى ما قاله في غسل الرجلين في الوضوء على مذهبه . (٢) كذا .
(٣) ومجمع الزوائد ج٥ ص ٩٥ . وفي الكافي ج ٦ ص٤٩٥ رقم١٢ « كان صلى الله عليه و آله يكتحل قبل أن ينام أربعاً في اليمنى و ثلاثا في اليسرى» .

و تفاوته بين العينين ليكون الجملة و تراً ، فإنّ للوتر فضلاً على الزّوج ، فإنّ الله و تر يحبّ الوتر ، فلاينبغي أن يخلو فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الربّ ، و لذلك استحبّ الإيتار في الاستجمار ، و إنّما لم يقتصر على الثلاث و هو وتر لأنّ اليسرى لايخصّها إلّا واحدة و الغالب أنّ الواحدة لاتستوعب اُصول الأجفان بالكحل و إنّما خصّص اليمين بالزيادة لأنّ التفضيل لابدّ منه للإيتار و اليمين أفضل فهي بالزيادة أحقّ (١).

و إن قلت : لِمَ اقتصر على اثنين لليسرى وهوزوج ؟ فذلك ضرورة إذلوجعل لكلّ واحدة وتراً كان المجموع زوجاً إذ الوتر مع الوترزوج و رعاية الإيتار في مجموع الفعل و هو في حكم الخصلة الواحدة أحبّ من رعايته في الآحاد ، و لذلك أيضاً وجه و هو أن يكتحل في كلّ واحدة ثلاثاً ولو ذهبت أستقصي دقائق ماراعاه صلى الله عليه وآله في حركاته لطال الأمر فقس على ما سمعته مالم تسمعه ، و اعلم أنّ العالم لايكون وارثاً (٢) إلّا إذا اطّلع على جميع معاني الشريعة حتّى لايكون بينه و بين النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا درجة وهي درجة النبوّة وهي الدرجة الفارقة بين الوارث و المورث ، إذ المورث هو الّذي حصل المال له و استقلّ بتحصيله و اقتدر عليه ، والوارث هو الّذي لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه و تلقّاه منه بعد حصوله له ، فأمثال هذه المعاني مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار و الأسرار لايستقلّ بدركها ابتداء إلّا الأنبياء عليهم السلام ولا يستقلّ باستنباطها تلقّياً بعد تنبيه الأنبياء عليها إلّا العلماء الّذين هم ورثةالأنبياء صلوات الله عليهم » .

---

(١) العجب من أبي حامد حيث تفوه بأمثال هذه الكلمات التي لاطائل تحتها و لا ينبغي للمؤمن أن يضيع عمره في اصغاء أمثال هذه الترهات . لان الخبر الذى ورد «أنه صلى الله عليه وآله يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنين» رواه الطبراني في الكبير والاوسط والبزاز في مسنده عن عقبة بن علي وهو ضعيف وأيضاً معارض للخبر الذى رواه الكليني كما مر و كذا الخبر الذى رواه أحمد ج ١ من المسند ص ٣٥٤ بالاسناد الحسن عن ابن عباس انه صلى الله عليه وآله كان يكتحل في كل عين ثلاثة اميال . وعلى فرض صحة الخبر لعل وجهه تفاوت العينين من جهة القوة والضعف لاما نسجه أبوحامد من الاباطيل .

(٢) أي للنبي صلى الله عليه و آله كما في الاحياء .

الثامن : غلفة الحشفة قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « الختان سنّة في الرجال و مكرمة في النساء » رواه الخاصّة والعامّة[1] ، و كذلك روي عن الصادق عليه السلام .

و في الفقيه « روى غياث بن إبراهيم ، عن جعفر بن محمّد ، عن أبيه قال : قال عليّ عليه السلام : لابأس أن تختتن المرأة فأمّا الرجل فلابدّ منه »[2] .

و في الصحيح عن الصادق عليه السلام « قال : ختان الغلام من السنّة ، و خفض الجارية ليس من السنّة »[3].

و في رواية اُخرى « خفض النساء مكرمة ، وليس من السنّة ، و لاشيئاً واجباً ، و أيّ شيء أفضل من المكرمة »[4].

قال أبوحامد : « عادة اليهود اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يثغر الولد أحبّ وأبعد عن الخطر » .

أقول : بل الأولى اليوم السابع فقدورد بالإسناد الصحيح في الكتابين[5] « أنّه كتب عبد الله بن جعفر الحميريّ إلى أبي محمّد الحسن بن عليّ عليهما السلام أنّه روي عن الصالحين عليهم السلام أن اختنوا أولادكم يوم السابع يطهروا ، فإنّ الأرض تضجّ إلى الله تعالى من بول الأغلف ، وليس جعلني الله فداك لحجّامي بلدنا حذقٌ بذلك ، ولا يحسنونه يوم السابع وعندنا حجّام من اليهود فهل يجوز لليهود أن يختنوا أولاد المسلمين أم لا ؟ فوقّع عليه السلام السنّة يوم السابع فلاتخالفوا السنن إن شاء الله » .

و في الكافي بإسناده عن الصادق عليه السلام « قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : طهّروا أولادكم يوم السابع ، فإنّه أطهر وأطيب و أسرع لنبات اللّحم ، و إنّ الأرض تنجس من بول الأغلف أربعين صباحاً »[6] . و في معناه غيره من الأخبار .

---

(١) مسند أحمد ج ٥ ص ٧٥ و فيه « مكرمة للنساء » ، و الكافي ج ٦ ص ٣٧ تحت رقم ٤ .

(٢) المصدر ص ٤٣٨ تحت رقم ١٤ .

(٣) و (٤) الكافي ج ٦ ص ٣٧ تحت رقم ٢ و ٣ .

(٥) الكافي ج ٦ ص ٣٥ تحت رقم ٣ ، الفقيه ص ٤٣٨ تحت رقم ١٥ .

(٦) الكافي ج ٦ ص ٣٥ تحت رقم ٢ .

و بإسناده الصحيح عن عليّ بن يقطين « قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن ختان الصبيّ لسبعة أيّام من السنّة هو أو يؤخّر فأيّهما أفضل ؟ قال : لسبعة أيّام من السنّة ، و إن أُخّر فلا بأس »(١).

و بإسناده عن الصادق عليه السلام « قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا أسلم الرجل اختتن ولو بلغ ثمانين سنة »(٢).

و في الفقيه « روي عن مرازم بن حكيم عن أبي عبدالله عليه السلام في الصبيّ إذا ختن قال : يقول : «اللّهمّ إنّ هذه سنّتك و سنّة نبيّك صلواتك عليه وآله ، واتّباع منّا لك و لنبيّك بمشيّتك وبإرادتك وقضائك لأمر أردته ، وقضاء حتمته ، و أمر أنفذته ، فأذقته حرّ الحديد في ختانه و حجامته لأمر أنت أعرف به منّي ، اللّهمّ فطهّره من الذّنوب ، وزد في عمره ، و ادفع الآفات من بدنه ، والأوجاع عن جسمه ، وزده من الغنى ، وادفع عنه الفقر ، فإنّك تعلم ولانعلم »(٣).

و قال أبوعبدالله عليه السلام : « أيّ رجل لم يقلها عندختان ولده فليقلها عليه من قبل أن يحتلم فإن قالها كفي حرّ الحديد من قتل أوغيره »(٤).

قال أبوحامد : « و ينبغي أن لايبالغ في خفض المرأة قال صلى الله عليه وآله لأُمّ عطيّة ـ وكانت تخفض ـ : « يا أُمّ عطيّة أشمّي ولاتنهكي ، فإنّه أسرى للوجه ، و أحظى عند الزوج »(٥) أي أكثر لماء الوجه ، وأحسن في جماعها » .

أقول : و في الكافي وغيره من كتبنا هكذا « إذا أنت خفضت فأشمّي ولا تجحفي ، فإنّه أصفى للّون ، و أحظى عندالبعل »(٦).

و في رواية أُخرى « أنّه قال صلى الله عليه وآله لأُمّ حبيب ـ وكانت خافضة تخفض الجواري ـ : « يا أُمّ حبيب العمل الّذي كان في يدك هو في يدك اليوم ؟ قالت : نعم يا رسول الله إلّا

(١) و (٢) الكافي ج ٦ ص ٣٦ تحت رقم ٧ و ١٠ .
(٣) المصدر ص ٤٣٨ تحت رقم ١٦ .
(٤) الفقيه ص ٤٣٨ تحت رقم ٢٠ .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه ج ٢ ص ٦٥٧ ، وفيه «أنور للوجه» .
(٦) المصدر ج ٦ ص ٣٨ تحت رقم ٥ .

أن يكون حراماً فتنهاني عنه ، قال : لا بل حلالٌ فادني منّي حتّى اُعلّمك ، فدنت منه ، فقال : يا اُمّ حبيب إذا أنت فعلت فلاتنهكي ـ أي لاتستأصلي ـ و أشّمي فإنّه أشرق للوجه ، و أحظى عند الزّوج »[1].

قال أبوحامد : « فانظر إلى جزالة لفظه في الكناية و إلى إشراق نورالنبوّة من مصالح الآخرة الّتي هي أهمّ مقاصد النبوّة إلى مصالح الدنيا حتّى انكشف له و هو اُمّيٌّ من هذا الأمر النازل قدره مالو وقعت الغفلة عنه خيف ضرره فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم بيمن بعثته[2] مصالح الدّنيا و الدّين صلّى الله عليه وآله وسلّم .

قال : فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزيّن والنظافة ، وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد ثنتا عشرة : خمس منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس ، والمضمضة والاستنشاق ، و السواك ، وقصّ الشارب ؛ وثلاثة في اليد و الرجل و هي القلم ، و غسل البراجم ، وتنظيف الرواجب ، وأربعة في الجسد : وهي نتف الإبط ، والاستحداد ، والختان ، والاستنجاء بالماء ، فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك » .

أقول : وقد ذكر في الفقيه « أنّ الحنيفيّة عشر سنن : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد[3]» ثمّ ذكرماذكره أبوحامد سوى غسل البراجم و تنظيف الرواجب .

قال : « و الفرق لمن طال شعر رأسه ، ومن لم يفرق شعر رأسه فرقه الله يوم القيامة بمنشار من نار » و ذكر بدل الاستحداد حلق العانة و هما بمعنى واحد .

قال في النهاية : و فيه : السنّة عشر و عدّ فيها الاستحداد و هو حلق شعر العانة بالحديد و منه الحديث الآخر أمهلوا كي تمتشط الشعثة ، وتستحدّ المغيبة ، و هو استفعال من الحديد ذكر على سبيل الكناية و التورية .

قال أبوحامد : « و إذا كان غرض هذا الكتاب التعرّض للطهارة الظاهرة دون الباطنة فلنقتصر على هذا و ليتحقّق أنّ فضلات الباطن وأوساخه الّتي يجب التنظيف منها

(١) الكافي ج ٦ ص ٣٨ تحت رقم ٦ .

(٢) في بعض النسخ [بيمن تقنينه] و هو ليس بصواب لان النبي عليه الصلاة والسلام ليس بمقنن بل الشارع هو سبحانه و تعالى كما هو المذهب الحق .

(٣) المصدر ص١٣ تحت رقم ١٠ .

أكثرمن أن تحصى ، و سيأتي تفصيلها في ربع المهلكات مع تعريف الطريق في إزالتها و تطهير القلب منها إن شاء الله ».

هذا آخر كتاب أسرار الطهارة و مهمّاتها من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه كتاب أسرار الصلاة و مهمّاتها و الحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

﴿ كتاب أسرار الصلاة ﴾

✿(ومهماتها)✿

(وهو الكتاب الرابع من ربع العبادات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الّذي غمر العباد بلطائفه ، وعمّر قلوبهم بأنوار الدّين و وظائفه ، الّذي فارق الملوك مع التفرّد بالجلال و الكبرياء بترغيب الخلق في السؤال والدعاء ، فقال : « هل من داع فأستجيب له ، وهل من مستغفر فأغفر له » و باين السلاطين بفتح الباب ورفع الحجاب ، فرخّص للعباد في المناجاة بالصلوات كيف ما تقلّبت بهم الحالات في الجماعات و الخلوات ، ولم يقتصرعلى الرخصة ، بل تلطّف بالترغيب و الدّعوة ، و غيره من ضعفاء الملوك لايسمح بالخلوة إلّا بعد تقديم الهديّة و الرشوة ، فسبحان ما أعظم شأنه ، و أقوى سلطانه ، و أتمّ لطفه ، و أعمّ إحسانه ، و الصلاة على محمّد نبيّه المصطفى و وليّه المجتبى ، وعلى آله و أصحابه ، مفاتيح الهدى ، و مصابيح الدجى و سلّم .

أمابعد فإنّ الصلاة عماد الدّين ، و عصام اليقين ، وسيّدالقربات ، وغرّةالطاعات و قد استقصينا في فنّ الفقه اُصولها و فروعها و مسائلها و أحكامها ، و نحن الآن في هذا الكتاب مقتصرون على ما لابدّ للمريد منه من أعمالها الظاهرة ، و أسرارها الباطنة ، و كاشفون من دقائق معانيها الخفيّة في معاني الخشوع و الإخلاص و النيّة مالم تجري العادة بذكرها في الفقه ، و مرتّبون الكتاب على سبعة أبواب :

الباب الأوّل في فضائل الصلوات و متعلّقاتها ، الباب الثاني في تفصيل الأعمال الظاهرة من الصلاة ، الباب الثالث في تفصيل الأعمال الباطنة منها ، الباب الرابع في الإمامة و القدوة ، الباب الخامس في صلاة الجمعة و آدابها ، الباب السادس في مسائل متفرّقة يعمّ بها البلوى ، الباب السابع في سائر الصلوات .

(الباب الاول)

(في فضائل الصلوات ، والسجود ، والجماعة ، والأذان ، و غيرها)

أقول : ما أورده أبوحامد في هذا الباب من الروايات أكثره ممّا رواه أصحابنا أيضاً عن أهل البيت عليهم السلام من طريق الخاصّة بأدنى تفاوت في الألفاظ ، فنحن نرويه عنهم عليهم السلام برواية أصحابنا إلّا قليلاً ممّا فيه زيادة فائدة من رواية العامّة ، و مالم يروه أصحابنا ممّا له فائدة معتدٌّ بها ، ونذكر ما قاله أبوحامد من تحقيقاته و فوائده كلّاً في محلّه ناسبين إليه ، و كذلك في كلّ باب إن شاء الله ، وننقل أكثر ما نرويه عن أهل البيت عليهم السلام من كتابي الكافي و الفقيه لأنّ جميع ما روي في الكتابين قد صحّ عنهم عليهم السلام كما شهد به مصنّفا هما في أوّليهما .

❀ (فضيلة الاذان) ❀

روى في الفقيه عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « من أذّن في مصر من أمصار المسلمين سنة وجبت له الجنّة[1] » .

وعن الباقر عليه السلام « المؤذّن يغفرالله له مدّ بصره ، ومدّ صوته في السماء ، ويصدّقه كلّ رطب ويابس يسمعه ، وله من كلّ من يصلّي معه في مسجده سهم ، وله بكلّ من يصلّي بصوته حسنة[2] » .

و قال عليه السلام : « من أذّن سبع سنين محتسباً جاء يوم القيامة ولاذنب عليه[3] » .

و روي « أنّ الملائكة إذا سمعت الأذان من أهل الأرض قالت : هذه أصوات اُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله بتوحيدالله ، فيستغفرون الله لاُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله حتّى يفرغوا من تلك الصلاة[4] » .

---

(١) الى (٤) الفقيه باب الاذان والاقامة ص٧٧ رقم ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣ على الترتيب .

و روي « أنّ من صلّى بأذان و إقامة صلّى خلفه صفّان من الملائكة ، و من صلّى بإقامة بغير أذان صلّى خلفه صفّ واحد ، وحدّ الصفّ ما بين المشرق والمغرب[1]» .

و في رواية العبّاس بن هلال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام « أنّه قال : من أذّن وأقام صلّى وراءه صفّان من الملائكة ، و إن أقام بغير أذان صلّى عن يمينه واحد و عن شماله واحد ، ثمّ قال : اغتنم الصفّين[2]» .

و في رواية ابن أبي ليلى عن عليّ عليه السلام أنّه قال : « من صلّى بأذان وإقامة صلّى خلفه صفّان من الملائكة لايرى طرفاهما ، و من صلّى بإقامة صلّى خلفه ملك[3]» .

و روى الحارث بن المغيرة النصري عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : « من سمع المؤذّن يقول : « أشهد أن لا إله إلّا الله ، و أشهد أنّ محمّداً رسول الله » فقال مصدّقاً محتسباً : « و أنا أشهد أن لاإله إلّا الله ، وأنّ محمّداً رسول‌الله ، أكتفي بهما عن كلّ من أبى وجحد ، و أعين بهما من أقرّ و شهد» كان‌له من الأجر عدد من أنكر وجحد ، و عدد من أقرّ وشهد[4]» .

و قال أبوجعفر عليه السلام لمحمد بن مسلم يا ابن مسلم : « لاتدعنّ ذكر الله على كلّ حال ، ولو سمعت المنادي ينادي بالأذان و أنت على الخلاء فاذكرالله عزّ وجلّ وقل كما يقول المؤذّن[5]» .

أقول : و في بعض الأخبار أنّه يحولق[6] عند سماع الحيعلة[7] « و أنّ من فعل ذلك من قلبه دخل الجنّة » وهوحسن .

✲(فضيلة المكتوبة)✲

قال الله سبحانه : « إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً[8]» .

---

(١) الى (٥) الفقيه‌ص٧٦ باب الاذان رقم ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢على الترتيب .

(٦) أى قال : «لاحول ولا قوة الا بالله » .

(٧) أى«حى على الصلاة ، وحى‌على‌الفلاح »وهومصدرجعلى وراجع‌مكارم الاخلاق ص ٣٤٧ ومجمع الزوائد ج ١ ص ٣٣١ وصحيح مسلم ج ٢ ص ٤ .

(٨) النساء : ١٠٣ .

و في الفقيه قال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : « مامن صلاة يحضر وقتها إلّا نادى ملك بين يدي الناس : أيّها النّاس قوموا إلى نيرانكم الّتي أو قد تمو ها على ظهور كم ، فاطفؤوها بصلاتكم [1] » .

و دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد و فيه ناس من أصحابه فقال : « تدرون ما قال ربّكم ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم ، فقال : إنّ ربّكم يقول : إنّ هذه الصلوات الخمس المفروضات من صلّاهنّ لوقتهنّ ، و حافظ عليهنّ لقيني يوم القيامة وله عندي عهد اُدخله به الجنّة ، و من لم يصلهنّ لوقتهنّ و لم يحافظ عليهنّ فذاك إليّ إن شئت عذّبته و إن شئت غفرت له [2]» .

و قال الصادق عليه السلام : « أوّل مايحاسب به العبد عن الصلاة فإذا قبلت منه قبل سائر عمله ، و إذا ردّت عليه ردّ عليه سائر عمله [3]» .

وقال عليه السلام : « صلاة فريضة خيرٌ من عشرين حجّة ، وحجّة خيرٌ من بيت مملوّ ذهباً يتصدّق منه حتّى يفنى [4]» .

وسأله معاوية بن وهب عن أفضل مايتقرّب به العباد إلى ربّهم و أحبّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ ماهو ؟ فقال : « ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة ، ألاترى أنّ العبد الصالح عيسى ابن مريم عليه السلام قال : « و أوصاني بالصلاة [5]» .

وقال أبوالحسن الرضا عليه السلام : « الصلاة قربان كلّ تقيّ [6]» .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّما مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبت الأطناب والأوتاد والغشاء ، و إذا انكسر العمود لم ينفع طنب ولاوتد ولاغشاء » [7].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّما مثل الصلاة فيكم كمثل السريّ ـ و هوالنهر ـ على باب أحدكم ، يخرج إليه في اليوم و اللّيلة ، يغتسل منه خمس مرّات ، فلم يبق الدرن على الغسل خمس مرّات ، ولم يبق الذنوب على الصلاة خمس مرّات [8]» .

و قال الصادق عليه السلام : « من قبل الله منه صلاة واحدة لم يعذّبه ، و من قبل الله له حسنة لم يعذّبه [9]» .

---

(١) الى (٩) فيالفقيه ص ٥٥ باب فضل الصلاة تحت رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٩ و ١٣ و١٦ و١٨و ١٩ و ٢٠ علىالترتيب.

و قال عليه السلام : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : من حبس نفسه على صلاة فريضة ينتظر وقتها ، فصلاّها في أوّل وقتها ، فأتمّ ركوعها وسجودها وخشوعها ، ثمّ مجّد الله عزّ وجل و عظّمه وحمده حتّى يدخل وقت صلاة أُخرى لم يلغ بينهما كتب الله له كأجر الحاجّ المعتمر ، وكان من أهل علّيين[١] » .

أقول : و في الصّحيح عن الباقر عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما بين المسلم وبين أن يكفر إلّا أن يترك الصلاة الفريضة متعمّداً ، أو يتهاون بها ، فلا يصلّيها »[٢] .

وفي رواية أُخرى « من ترك صلاة متعمّداً فقد كفر[٣] » .

قال أبوحامد : « أي قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده ، كما يقال لمن قارب المدينة : إنّه بلغها و دخلها » .

(فضيلة اتمام الاركان)

في الفقيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصلاة ميزان من وفّى استوفي »[٤]. يعني بذلك أن يكون ركوعه مثل سجوده ، ولبثه في الأُولى والثانية سواء ، من و فى بذلك استوفي الأجر .

وقال الصادق عليه السلام : « إنّ العبد إذا صلّى الصلاة في وقتها ، وحافظ عليها ارتفعت بيضاء نقيّة ، تقول : حفظتني حفظك الله ، وإذا لم يصلّها لوقتها ، ولم يحافظ عليها رجعت عليه سوداء مظلمة ، تقول : ضيّعتني ضيّعك الله[٥] » .

أقول : وفي الحسن عن الباقر عليه السلام قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالس في المسجد إذ دخل رجل فقام فصلّى فلم يتمّ ركوعه ولا سجوده فقال صلى الله عليه وآله : نقر كنقر الغراب لئن

---

(١) فى الفقيه ص ٥٦ باب فضل الصلاة تحت رقم ٢١ .

(٢) محاسن البرقى ص ٨٠ ، وعقاب الاعمال للصدوق ـ رحمه الله ـ ص ٢٢٣ .

(٣) رواه الطبرانى فى الاوسط كما فى الجامع الصغير باب الميم .

(٤) المصدر ص ٥٥ تحت رقم ١ ، الكافى ج٣ ص٢٦٦ تحت رقم ١٣ . وأخرجه البيهقى فى شعب الايمان كما فى الجامع الصغير باب الصاد .

(٥) الكافى ج ٣ ص ٢٦٨ تحت رقم ٤ .

مات هذا وهكذا صلاته ليموتنّ على غير ديني » رواه في الكافي والتهذيب[1].

و عن النبيّ صلى الله عليه وآله « إنّ الرجلين من اُمّتي ليقومان إلى الصلاة و ركوعهما و سجود هما واحد و إنّ ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض »[2] وأشار إلى الخشوع .

و في الصحيح عن الصادق عليه السلام قال : « والله إنّه ليأتي على الرجل خمسون سنة ما قبل الله منه صلاة واحدة ، فأيّ شيء أشدّ من هذا ، والله إنّكم لتعرفون من جيرانكم وأصحابكم من لوكان يصلّي لبعضكم ماقبلها منه لاستخفافه بها ، إنّ الله لايقبل إلّاالحسن فكيف يقبل ما استخفّ به[3]» .

وفي الصحيح عنه عليه السلام قال : « إذاقام العبد في الصلاة فخفّف صلاته قال الله تعالى لملائكته : أما ترون إلى عبدي كأنّه يرى أنّ قضاء حوائجه بيد غيري ، أما يعلم أنّ قضاء حوائجه بيدي » رواهما في التهذيب[4].

☆ (فضيلة الجماعة) ☆

في الفقيه[5] «قال الله تبارك وتعالى : « و اقيمواالصلاة وآتوا الزكوة و اركعوا مع الراكعين »[6] فأمر بالجماعة كما أمر بالصلاة ، و فرض الله تبارك وتعالى على الناس من الجمعة إلى الجمعة خمساً و ثلاثين صلاة ، منها صلاة واحدة فرضها الله تعالى في جماعة وهي الجمعة ، وأمّا سائر الصلوات فليس الاجتماع عليها بمفروض ولكنّه سنّة ، من تركها رغبة عنها وعن جماعة المسلمين من غير علّة فلا صلاة له ، و من ترك ثلاث جمعات متواليات من غير علّة فهو منافق ، وصلاة الرجل في جماعة تفضل على صلاة الرجل وحده بخمس و عشرين صلاة » .

أقول : هذا كلّه مرويّ عن مولينا الصادق عليه السلام في الصحيح وغيره .

---

(١) الكافى ج ٣ ص ٢٦٨ تحت رقم٦، والتهذيب ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) قال العراقى : أخرجه ابن المحبر فى العقل من حديث أبو أيوب الانصارى بنحوه ، وهو موضوع و رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن ابن المحبر .

(٣) و (٤) التهذيب ج ١ ص ٢٠٤ .

(٥) الفقيه ص ١٠٢ تحت رقم١ . (٦) البقرة : ٤٣ .

و في الصحيح عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لاصلاة لمن لايصلّي في المسجد مع المسلمين إلّا من علّة[١] » .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لاغيبة إلّا لمن صلّى في بيته ، ورغب عن جماعتنا ، ومن رغب عن جماعة المسلمين وجب على المسلمين غيبته ، و سقطت بينهم عدالته ، و وجب هجرانه ، و إذا رفع إلى إمام المسلمين أنذره و حذّره ، فإن حضر جماعة المسلمين و إلّا أحرق عليه بيته »[٢] .

و روى شيخنا الشهيد ـ رحمه الله ـ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : « إن سئلت عمّن لم يشهد الجماعة فقل : لا أعرفه »[٣].

قال : وعن الصادق عليه السلام « الصلاة خلف العالم بألف ركعة ، و خلف المولى خمس و عشرون[٤] » .

قال في الفقيه : و روى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال : « لاصلاة لمن لايشهد الصلاة من جيران المسجد إلّا مريض أو مشغول[٥] » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لقوم : « لتحضرنّ المسجد أولأحرقنّ عليكم منازلكم[٦] ».

و قال صلى الله عليه وآله : « من صلّى الصلاة الخمس جماعة فظنّوا به كلّ خير[٧] » .

وقال صلى الله عليه وآله : « الاثنان جماعة[٨] » .

و سأل الحسن الصيقل أبا عبدالله عليه السلام « عن أقلّ مايكون الجماعة قال : رجل و امرأة ، و إذا لم يحضر المسجد أحد فالمؤمن وحده جماعة ، لأنّه متى أذّن و أقام صلّى خلفه صفّان من الملائكة ، ومتى أقام ولم يؤذّن صلّى خلفه صفّ واحد ، و قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : المؤمن وحده حجّة ، والمؤمن وحده جماعة[٩] » .

---

(١) علل الشرايع ج٢ باب ١٨. وفي الكافي ج ٣ ص ٣٧٢ تحت رقم ٦ نحوه .

(٢) أورده الشهيد ـ رحمه الله ـ في النفلية كما في البحار ج ١٨ ص ٦١٢ .

(٣) النفلية كما في مستدرك الوسائل ج١ص ٤٨٩ .

(٤) النفلية كما في البحار ج ١٨ ص ٦١١ و تمام الخبر هكذا « الصلاة خلف العالم بألف ركعة ، وخلف القرشي بمائة ، وخلف العربي خمسون ، وخلف المولى خمس و عشرون » .

(٥) الى(٩) الفقيه ص ١٠٣ تحت رقم ٢ الى ٧ .

و صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله الفجر ذات يوم فلمّا انصرف أقبل بوجهه على أصحابه، فسأل عن اُناس يسمّيهم بأسمائهم هل حضروا الصلاة ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، فقال : غيّبٌ هم ؟ فقالوا : لا يا رسول الله ، قال : أما إنّه ليس من صلاة أثقل على المنافقين من هذه الصلاة ، وصلاة العشاء الآخرة ، ولو علموا الفضل الّذي فيهما لأتوهما ولو حبواً[1]» .

وقال الصادق عليه السلام : « من صلّى الغداة و العشاء الآخرة في جماعة فهو في ذمّة الله عزّ وجلّ ، ومن ظلمه فإنّما يظلم الله ، ومن حقّره فإنّما يحقّر الله عزّ وجلّ ، وإذا كان مطر أو برد شديد فجائز للرجل أن يصلّي في رحله ، ولا يحضر المسجد لقول النبيّ صلى الله عليه وآله : « إذا ابتلّت النعال فالصلاة في الرحال[2]» .

أقول : ويستحبّ حضور جماعه أهل الخلاف استحباباً مؤكّداً ، ولكنّه لا يعتدّ بقراءتهم بل يقرء لنفسه ولو مثل حديث النفس[3].

و في الصحيح عن الصادق عليه السلام « من صلّى معهم في الصف الأوّل كان كمن صلّى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله في الصف الأوّل »[4] .

وفي الصحيح عنه عليه السلام « يحسب لك إذا دخلت معهم و إن كنت لا تقتدي بهم مثل ما يحسب لك إذا كنت مع من تقتدي به » [5] .

و في الصحيح عنه عليه السلام ما من عبد يصلّي في الوقت و يفرغ ، ثمّ يأتيهم و يصلّي معهم و هو على وضوء إلّا كتب الله له خمساً وعشرين درجة » [6] .

قال أبو حامد : « و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من صلّى أربعين يوماً الصلوات في جماعة

---

(۱) و (۲) الفقيه ص۱۰۳ تحت رقم ۸ و ۱۰ ، وحبى الصبى اذا مشى على استه . وقوله : «حقره فانما يحقر الله عزوجل » فى روايات العامة « ومن خفره فإنما يخفر الله عزوجل» والخفر نقض العهد .

(۳) كما فى التهذيب ج ۱ ص ۱٦۲ ، والكافى ج ۳ ص ۳۱٥ رقم ۱٦ .

(٤) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ فى الهداية باب التقية ص ۱۰ .

(٥) التهذيب ج ۱ ص ۳۲۹ ، والفقيه ص ۱۰٥ رقم ۳۹ .

(٦) الفقيه ص ۱۱۰ رقم ۱۲٥ .

لا يفوته تكبيرة الإحرام كتب له براءتان براءة من النفاق و براءة من النار » (١).

و قال ابن عبّاس : من سمع المنادي ثمّ لم يجب لم يرد خيراً و لم يرد به .

و يقال : إنّه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدرّي فيقول لهم الملائكة : ما أعمالكم ؟ فيقولون : كنّا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة ، لا يشغلنا غيرها ، ثمّ يحشر طائفة وجوههم كالأقمار ، فيقولون بعد السؤال : كنّا نتوضّأ قبل الوقت ، ثمّ يحشر طائفة وجوههم كالشمس ، فيقولون : كنّا نسمع الأذان في المسجد .

و قال حاتم الأصم : فاتتني الجماعة فعزّاني البخاريّ وحده ، و لو مات لي ولد لعزّاني أكثر من عشرة آلاف لأنّ مصيبة الدّين أهون عند الناس من مصيبة الدّنيا .

و روي أنّ السلف كانوا يعزّون أنفسهم ثلاثة أيّام إذا فاتتهم التكبيرة الأُولى ، و يعزّون سبعاً إذا فاتتهم الجماعة ، و قد كانوا يبالغون في ذلك حتّى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى باب دار من تخلّف عن الجماعة ، إشارة إلى أنّ الميّت هو الّذي يتأخّر عن الجماعة دون الحيّ .

أقول : فانظر كيف خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة و اتّبعوا الشهوات حتّى آل الحال إلى ما آل .

✿(فضيلة السجود والقول فيه)✿

في الفقيه « قال الصادق عليه السلام : أقرب ما يكون العبد إلى الله عزّ وجلّ وهو ساجد قال الله تعالى و اسجد و اقترب » (٢).

---

(١) أخرجه الترمذى ج٢ ص٤٠ . وقال : لاأعلم أحد رفعه الاما روى مسلم بن قتيبة عن طعمة بن حبيب بن أبى حبيب البجلى عن أنس بن مالك . أقول : و نقله الشهيد - رحمه الله - فى الذكرى .

(٢) المصدر ص ٥٥ تحت رقم ٧ . والاية فى العلق : ١٩ . قال الرضى - رضى الله عنه - : ان كانت الحال جملة اسمية فعند غير الكسائى يجب معها واو الحال ، قال صلى الله عليه وآله : « أقرب ما يكون العبد من ربه و هو ساجد » اذ الحال فضلة و قد وقعت موقع العمدة فيجب معها علامة الحالية لان كل واقع غير موقعه ينكر ، وجوز الكسائى تجردها من الواو بوقوعها موقع الخبر فتقول : ضربى زيداً أبوه قائم .

و قال عليه السلام : « إنّ العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس : ياويلاه أطاع وعصيت و سجد وأبيت » (١).

و في الكافي بإسناده الصحيح « عن الصادق عليه السلام قال : مرّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله رجلٌ و هو يعالج بعض حجراته ، فقال : يا رسول الله ألا أكفيك ؟ فقال : شأنك ، فلمّا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : حاجتك ؟ قال : الجنّة ، فأطرق رسول الله ، ثمّ قال : نعم ، فلمّا ولّى قال له : يا عبد الله أعنّا بطول السجود » (٢).

قال أبو حامد : « و روي أنّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ، و يرزقني مرافقتك في الجنّة ، قال : أعنّي بكثرة السجود » (٣).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما تقرّب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفيّ » (٤).

و قال : « ما من مسلم يسجد لله سجدة إلّا رفعه بها درجة ، و حطّ بها عنه خطيئة » (٥).

و قال عزّ و جلّ : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » (٦) فقيل : هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود ، وقيل : هو نور الخشوع فانّه يشرق من الباطن على الظاهر و هو الأصحّ ، و قيل : هي الغرر الّتي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء .

أقول : و في الفقيه « كان أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام يسجد بعد ما يصلّي فلا يرفع رأسه حتّى يتعالى النهار » (٧).

---

(١) الفقيه ص ٥٦ تحت رقم ١٧ ، والكافي ج ٣ ص ٢٦٤ تحت رقم ٢ .

(٢) المصدر ج ٣ ص ٢٦٦ تحت رقم ٨ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، ونحوه مسلم وأبوداود ، راجع الترغيب والترهيب ج ١ ص ٢٤٩ .

(٤) أخرجه ابن المبارك عن حمزة بن حبيب مرسلا كما في الجامع الصغير باب الميم.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ج ٥ ص ٢٧٦ من حديث ثوبان مولى رسول الله (ص) .

(٦) الفتح : ٢٩ .

(٧) المصدر ص ٩١ تحت رقم ٥ .

وروى عبد الرحمن بن الحجّاج «عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من سجد سجدة الشكر لنعمة و هومتوضّئ كتب الله له بهاعشر صلوات ، ومحى عنه عشرخطاياعظام»[1] .

و في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في سفر يسير على ناقة له إذ نزل فسجد خمس سجدات ، فلمّا ركب قالوا : يا رسول الله إنّا رأينا صنعت شيئاً لم تصنعه ؟ فقال : نعم استقبلني جبرئيل فبشّرني ببشارات من الله ، فسجدت لله شكراً ، لكلّ بشرى سجدة »[2] .

و فيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إذا ذكر أحدكم نعمة الله تعالى فليضع خدّه على التراب ، و إن لم يكن يقدر على النزول للشّهرة فليضع خدّه على قربوسه ، فإن لم يقدر فليضع خدّه على كفّه ، ثمّ ليحمد الله على ماأنعم عليه »[3].

و بإسناده عن هشام بن أحمر قال : «كنت أسير مع أبي الحسن عليه السلام في بعض أطراف المدينة إذ ثنّى رجله عن دابّته فخرّساجداً فأطال وأطال ، ثمّ رفع رأسه وركب دابّته ، فقلت : جعلت فداك قد أطلت السجود ؟ فقال : إنّني ذكرت نعمة أنعم الله بها عليّ فأحببت أن أشكر ربّي »[4].

و في الفقيه روى إسحاق بن عمّار ، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال : « كان موسى ابن عمران عليه السلام إذا صلّى لم ينفتل حتّى يلصق خدّه الأيمن بالأرض ، و خدّه الأيسر بالأرض »[5] .

و قال أبو جعفر عليه السلام : « أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أتدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي ؟ قال موسى : لايا ربّ ، قال : يا موسى ، إنّي قلبت عبادي ظهراً وبطناً ، فلم أجد فيهم أحداً أذلّ نفساً لي منك ، يا موسى إذا صلّيت وضعت خدّيك على التراب»[6] .

و قال الصادق عليه السلام : « إنّ العبد إذا سجد و قال : «يا ربّ يا ربّ يا ربّ » حتّى

---

(١) الفقيه ص ٩١ تحت رقم ٦ .

(٢) و (٣) و (٤) الكافي ج ٢ ص ٩٨ رقم ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ .

(٥) و (٦) الفقيه ص ٩١ تحت رقم ٨ و٩ .

ينقطع نفسه ، قال له الربّ تبارك و تعالى : لبّيك ما حاجتكَ ؟ » [١].

و كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول في سجوده : « اللّهمّ إن كنت قد عصيتك فإنّي أطعتك في أحبّ الأشياء إليك و هو الإيمان بك ، منّاً منك عليّ ، لا منّاً منّي عليك ، و تركت معصيتك في أبغض الأشياء إليك و هو أن أدعولك شريكاً ، منّاً منك عليّ ، لا منّاً منّي عليك ، و عصيتك في أشياء على غير وجه مكابرة ولا معاندة ، و لا استكبار عن عبادتك ، ولا جحود لربوبيّتك ، ولكن اتّبعت هواي و استزلّني الشيطان بعد الحجّة عليّ و البيان ، فإن تعذّبني فبذنوبي ، غير ظالم لي ، و إن تغفر لي و ترحمني فبجودك و كرمك يا أرحم الراحمين » [٢].

و في الكافي في الصحيح « عن الصادق عليه السلام أنّه قال : قل فيه : « يارب الأرباب ، و يا ملك الملوك ، و يا سيّد السادات ، ويا جبّار الجبابرة ، و يا إله الآلهة صلّ على محمّد و آل محمّد ، و افعل بي كذا و كذا » ثمّ قل : « إنّي عبدك ، ناصيتي في قبضتك » ، ثمّ ادع بما شئتَ و سله ، فإنّه جوادٌ لا يتعاظمه شيء » [٣].

و في رواية أُخرى «ادع فيه للدّنيا والآخرة فإنّه ربّ الدّنيا والآخرة » [٤].

و عن محمّد بن سليمان ، عن أبيه عن الكاظم عليه السلام : قال : « خرجت معه في بعض أمواله فقام إلى صلاة الظهر ، فلمّا فرغ خرّ لله ساجداً ، فسمعته يقول بصوت حزين ويغرغر دموعه : [٥] « ربّ عصيتك بلساني ، و لو شئت و عزّتك لأخرستني ، و عصيتك ببصري ، و لو شئت و عزّتك لأكمهتني [٦] ، و عصيتك بسمعي ، و لو شئت و عزّتك لأصممتني ، و عصيتك بيدي ، و لو شئت و عزّتك لكنعتني [٧]، و عصيتك برجلي ، و لو شئت و عزّتك لجذمتني [٨]، و عصيتك بفرجي ، و لو شئت و عزّتك لعقمتني ، و عصيتك بجميع جوارحي الّتي أنعمت بها عليّ و ليس هذا جزاؤك منّي » ، قال : ثمّ أحصيت له

(١) و (٢) الفقيه ص ٩١ رقم ١٠ و ١١ .
(٣) و (٤) الكافي ج ٣ ص ٣٢٣ رقم ٧ و ٦ .
(٥) الغرغرة : ترديد الماء في الحلق . (القاموس) .
(٦) الكمه : العمى .
(٧) الاكنع : الاشل .
(٨) « لجذمتني » أي لقطعتني، والاجذم المقطوع اليد .

ألف مرّة و هو يقول : العفو ، العفو ، ثمّ ألصق خدّه الأيمن بالأرض وسمعته وهو يقول بصوت حزين : « بؤت إليك بذنبي ، عملت سوءاً ، وظلمت نفسي ، فاغفرلي فإنّه لا يغفر الذّنوب غيرك ، مولاي ! » ثلاث مرّات ، ثمّ ألصق خدّه الأيسر بالأرض فسمعته يقول : « ارحم من أساء و اقترف ، و استكان و اعترف » ثلاث مرّات ، ثمّ رفع رأسه »[١] .

قال في الفقيه[٢]: « وينبغي لمن يسجد سجدة الشكر أن يضع ذراعيه على الأرض و يلحق جؤجؤه بالأرض »[٣] .

و في رواية أبي الحسن الأسدي أنّ الصادق عليه السلام قال : « إنّما يسجد المصلّي سجدة بعد الفريضة ليشكر الله تعالى ذكره فيها على مامنّ به عليه من أداء فرضه ، و أدنى ما يجزيء فيها شكر الله ثلاث مرّات »[٤].

و روى أحمد بن أبي عبد الله ، عن أبيه ، عن محمّد بن أبي عمير ، عن حريز ، عن مرازم ، عن أبي عبد الله عليه السلام « قال : سجدة الشكر واجبة على كلّ مسلم ، تتمّ بها صلواتك ، و ترضي بها ربّك ، و تعجب الملائكة منك ، و إنّ العبد إذا صلّى ثمّ سجد سجدة الشكر فتح الربّ تبارك و تعالى الحجاب بين العبد و بين الملائكة ، فيقول : يا ملائكتي انظروا إلى عبدي أدّى فرضي ، و أتمّ عهدي ، ثمّ سجد لي شكراً على ما أنعمت به عليه ، ملائكتي ما ذا له عندي ؟ قال : فتقول الملائكة : يا ربّنا رحمتك ، ثمّ يقول الربّ تبارك و تعالى : ثمّ ما ذاله ؟ فتقول الملائكة : يا ربّنا جنّتك ، فيقول الربّ تبارك وتعالى : ثمّ ماذا له ؟ فتقول الملائكة : ياربّنا كفاية مهمّه ، فيقول الله تبارك وتعالى : ثمّ ماذاله ؟ قال : ولا يبقى شيء من الخير إلّا قالته الملائكة ، فيقول الله تعالى : يا ملائكتي ثمّ ماذا ؟ فتقول الملائكة : يا ربّنا لاعلم لنا ، قال : فيقول الله تبارك و تعالى : أشكرله كما شكرلي وأقبل إليه بفضلي و اُريه وجهي»[٥].

(١) الكافي ج ٣ ص ٣٢٦ رقم١٩ .

(٢) المصدر ص ٩١ تحت رقم ١٢ .

(٣) الجؤجؤ - بضم الجيم - : لصدا .

(٤) و (٥) الفقيه ص ٩١ رقم ١٣و١٤ وللصدوق - رحمه الله - بيان في معنى الوجه .

(فضيلة الخشوع ومعناه)

قال الله تعالى : « و الّذين هم في صلاتهم خاشعون» (١) وقال عزّ و جلّ : «فويل للمصلّين * الّذين هم عن صلوتهم ساهون » (٢) ذمّهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلّين لا لأنّهم سهوا عنها و تركوها .

قال أبو حامد : « قال الله عزّ و جلّ : «و أقم الصلاة لذكري »(٣)؛ و قال تعالى : « و لا تكن من الغافلين »(٤) ؛ و قال تعالى : « و لا تقربوا الصلوة و أنتم سكارى حتّى تعلموا ما تقولون »(٥). قيل : سكارى من كثرة الهمّ؛ و قيل : من حبّ الدنيا ، وهب (٦) أنّ المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بيّن فيه العلّة فقال تعالى : « حتّى تعلموا ما تقولون » و كم من مصلّ لم يشرب الخمر و هو لا يعلم ما يقول في صلاته .

و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « من صلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدّم من ذنبه (٧) .

و قال صلّى الله عليه وآله : « إنّما الصلاة تمسكن (٨) و تواضع و تضرّع و تبأس (٩) و تندّم ؛ و تقنع بمدّ يديك فتقول : « اللّهمّ اللّهم» فمن لم يفعل فهي خِداج »(١٠) .

وروي عن الله (١١) في الكتب السالفة «أنّه قال : ليس كلّ مصلّ أتقبّل صلاته ، إنّما

---

(١) المؤمنون : ٣ .
(٢) الماعون : ٤ و٥ .
(٣) طه : ١٤ .
(٤) الاعراف : ٢٠٥ .
(٥) النساء : ٤٣ .
(٦) في الاحياء « قال وهب» .
(٧) مر سابقاً عن أحمد أخرجه في مسنده .
(٨) تمفعل من سكن . بمعنى الذل والفقر والخضوع .
(٩) تبأس أى تفاقر وأرى تخشع الفقراء اخباتاً و تضرعاً .
(١٠) أخرجه أحمد في المسند ج٤ ص١٦٧ ونحوه الترمذى في السنن ج٢ ص١٧٥ والنسائي وابن خزيمة . كما في الترغيب ج١ ص ٣٤٨ و ٣٤٩ . و لفظه « الصلاة مثنى مثنى ، تشهد في كل ركعتين و تخشع و تضرع وتمسكن » كلها بصيغة الامر . والخداج ـ بكسر الخاء المعجمة ـ ههنا بمعنى الناقص .
(١١) كذا في النسخ في بعض نسخ الاحياء «قال وهب » .

أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ، و لمْ يتكبّر عليّ ، و أطعم الفقير الجائع لوجهي » .

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله : « إنّما فرضت الصلاة و اُمر بالحج و الطواف و أشعرت المناسك لإقامة ذكر الله » [1] فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الّذي هوالمقصود والمبتغي عظمته و هيبته فما قيمة ذكرك .

و قال صلى الله عليه و آله : « و إذا صلّيت صلاة فصلّ صلاة مودّع » [2] أي مودّع لنفسه ، مودّع لهواه ، مودّع لعمره ، سائر إلى مولاه كما قال تعالى : « يا أيّها الإنسان إنّك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فملاقيه » [3] .

و قال تعالى : « و اتّقوا الله و اعلموا أنّكم ملاقوه » [4] .

أقول : و من طريق الخاصّة عن الصادق عليه السلام « إذا صلّيت صلاة فريضة فصلّ لوقتها صلاة مودّع تخاف ألّا تعود إليها » [5] و مثله عن النبيّ صلى الله عليه و آله بطريق حسن .

قال أبو حامد : « و قال صلى الله عليه و آله : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً » [6] ، و الصلاة مناجاة فكيف يكون مع الغفلة .

قيل : يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن دخلت ، قيل : كيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك و تدخل محرابك فإذن أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن و كلّمته بغير ترجمان .

و عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه و آله يحدّثنا و نحدّثه فإذا حضرت الصلاة

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى بنحو آخر عن عائشة دون قوله ذكر الصلاة و قال الترمذى حسن صحيح . (المغنى)

(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث أبى أيوب والحاكم فى المستدرك كما فى المغنى .

(٣) الانشقاق : ٧ . وقوله : «كادح» أى عامل أوساع فى عملك .

(٤) البقرة : ٢٢٣ .

(٥) رواه الصدوق فى الامالى ص ١٥٥ . وفى الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام ج ٢ ص ١٦٥ . وفى دعائم الاسلام عن النبى صلى الله عليه و آله مثله كما فى مستدرك الوسائل .

(٦) أخرجه ابن جرير عن الحسن وأخرجه ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً كما فى الدر المنثور ج ٥ ص ١٤٦ . ورواه على بن ابراهيم فى تفسيره أيضاً .

فكأنه لم يعرفنا و لم نعرفه إشتغالاً بعظمة الله [1].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لا ينظر الله إلى صلاة لايحضرالرجل فيها قلبه مع بدنه»[2] وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه إذا قام إلى الصلاة سمع و جيب قلبه على ميلين.

و كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام إذا حضروقت الصلاة يتزلزل ويتلوّن ، فقيل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » [3].

وروي عن عليّ بن الحسين عليهما السلام « أنّه كان إذا توضّأ أصفرّ لونه فيقول له أهله : ما هذا الّذي يعتارك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم » [4].

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه في عدّة الداعي [5] انّ إبراهيم عليه السلام كان يسمع تأوّهه على حدّ ميل حتّى مدحه الله تعالى بقوله : « إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب » [6] وكان في صلاته يسمع له أزيز كأزيز المرجل [7] و كذلك كان يسمع من صدر سيّدنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مثل ذلك ، و كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا أخذ في الوضوء يتغيّر وجهه من خيفة الله ، وكانت فاطمة عليها السلام تنهج في الصلاة من خيفة الله [8] ؛ و كان الحسن عليه السلام إذافرغ من وضوئه تغيّر لونه فقيل له في ذلك ، فقال : حقّ على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغيّر لونه ؛ و يروى مثل هذا عن زين العابدين عليه السلام .

---

(١) عدة الداعي آخر الفصل الاول من الباب الرابع ص ١٠٩ .

(٢) رواه الراوندي ـ رحمه الله ـ في لب اللباب كما في مستدرك الوسائل ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) رواه ابن شهر آشوب في التنزيل عن تفسير القشيري كما في البحار ج ١٨ باب آداب الصلاة ، ورواه أيضاً جعفر بن أحمد القمي في كتاب زهد النبي صلى الله عليه وآله كما في المستدرك ج ١ ص ٢٦٦.

(٤) علل الشرايع ص ٨٨ عن أبان بن تغلب.

(٥) الباب الرابع من الكتاب ص ١٠٨ . (٦) هود : ٧٥ .

(٧) قال الجوهري : الازيز : صوت الرعد وصوت غليان القدر ، و قد أزت القدر تؤز أزيزاً : غلت وفي الحديث « أنه يصلي و لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء » .

(٨) النهج ـ بالتحريك ـ : البهر و تتابع النفس .

وفي التهذيب عن أبي حمزة الثمالي «قال : رأيت عليّ بن الحسين عليهما السلام يصلّي فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوّه حتّى فرغ من صلاته ، قال : فسألته عن ذلك ، فقال : ويحك أتدري بين يدي من كنت ، إنّ العبد لا تقبل منه صلاة إلّا ما أقبل فيها ، فقلت : جعلت فداك هلكنا ، قال : كلّا إنّ الله يتمّ ذلك بالنوافل » (١) .

وفي الصحيح عن الصادق عليه السلام « قال: كان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا قام في الصلاة تغيّر لونه ، و إذا سجد لم يرفع رأسه حتّى يرفضّ عرقاً » (٢) .

و عنه عليه السلام قال : « كان أبي يقول : كان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا قام إلى الصلاة كأنّه ساق شجرة لا يتحرّك منه إلّا ما حرّكت الريح منه » (٣) .

و عنه عليه السلام « أنّه سئل عن حالة لحقته في الصلاة حتّى خرّ مغشياً عليه فلمّا أفاق قيل له في ذلك ، فقال : ما زلت أردّد هذه الآية على قلبي حتّى سمعتها من المتكلّم بها ، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته » (٤) . قيل : وكان لسان الإمام في تلك الحال كشجرة طور حين قالت : إنّي أنا الله .

و عنه عليه السلام قال : «لا يجتمع الرغبة و الرهبة في قلب إلّا وجبت له الجنّة ، فإذا صلّيت فأقبل بقلبك على الله عزّ و جلّ فإنّه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عزّ و جلّ في صلاته و دعائه إلّا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين و أيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنّة » (٥) .

و عنه عليه السلام بسند حسن « إذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع و الإقبال على صلاتك فإنّ الله تعالى يقول :« الّذين هم في صلاتهم خاشعون » (٦) .

---

(١) المصدر ج ١ ص ٢٣٣، و رواه الصدوق - رحمه الله - أيضاً في العلل ص٨٨ .

(٢) الكافي ج ٣ ص ٣٠٠ تحت رقم ٥، وارفضاض الدموع : ترشيشها .

(٣) الكافي ج ٣ ص ٣٠٠ تحت رقم ٤ .

(٤) نقله المجلسي - رحمه الله - في البحار ج ١٨ ص ١٩٧ من فلاح السائل للسيد ابن طاوس ، والظاهر المراد بالاية «مالك يوم الدين» كما في فلاح السائل أيضاً رواه عن الكليني - رحمه الله - .

(٥) رواه المفيد - رحمه الله - بنحو أبسط في أماليه كما في المستدرك ج١ص٢٦٥.

(٦) الكافي ج٣ ص ٣٠٠ تحت رقم٣، والاية في المؤمنون : ٣ .

و قيل في تفسير قوله تعالى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوّة »[1] أي بجدّ واجتهاد ، و أخذه بالجدّ أن يتجرّد عند قراءته بحذف جميع المشتغلات و الهموم عنه .

و عن الرضا عليه السلام «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول : طوبى لمن أخلص لله العبادة و الدعاء ، و لم يشتغل قلبه بما ترى عيناه ، و لم ينس ذكر الله بما تسمع اُذناه ، ولم يحزن صدره بما اُعطي غيره »[2].

قال أبو حامد : « و يروى عن ابن عباس أنّه قال : قال داود عليه السلام : إلهي من يسكن بيتك ؟ و ممّن تقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه يا داود إنّما يسكن بيتي و أقبل الصلاة ممّن تواضع لعظمتي ، وقطع نهاره بذكري ، و كفّ نفسه عن الشهوات من أجلي ، يطعم الجائع ، ويؤوي الغريب ، ويرحم المصاب ، فذلك يضيىء نوره في السماء كالشمس ، إذا دعاني لبّيته ، و إن سألني أعطيته ، أجعل له في الجهل حلماً ، و في الغفلة ذكراً ، و في الظلمة نوراً ، و إنّما مثله في الناس كالفردوس في الجنان لا ييبس أنهارها ولا يتغيّر ثمارها»[3] .

و يروى عن حاتم الأصم أنّه سئل عن صلاته ، فقال : إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء و أتيت الموضع الّذي اُريد الصلاة فيه ، فأقعد فيه حتّى يجتمع جوارحي ، ثمّ أقوم إلى صلاتي فأجعل الكعبة بين حاجبي ، و الصراط تحت قدمي ، و الجنّة عن يميني ، و النار عن يساري ، و ملك الموت و رائي ، و أظنّها آخر صلاتي ثمّ أقوم بين الرجاء و الخوف و اُكبّر تكبيراً بتحنّن ، و أقرأ القرآن بترتيل ، و أركع ركوعاً بتواضع ، و أسجد سجوداً بتخشّع ، و أقعد على الورك اليسرى ، و أفرش ظهر قدمها ، و أنصب قدم اليمنى على الإبهام ، و أتبعها الإخلاص ، ثمّ لا أدري أقبلت منّي أم لا » .

و قال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكّر خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساه .

أقول : الخشوع في الصلاة خشوعان : خشوعٌ بالقلب وهو أن يتفرّغ لجمع الهمّة لها و الإعراض عمّا سواها بحيث لا يكون فيه غير المعبود ، قال الصادق عليه السلام : « إنّما اُريد بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»[4] و خشوع بالجوارح وهو أن يغضّ بصره

---

(١) مريم :١٢ .
(٢) رواه الكليني - رحمه الله - في الكافي ج ٢ ص ١٦ رقم ٣ .
(٣) رواه البرقي في المحاسن ص ١٥ دون ذكر داود عليه السلام عن الصادق عليه السلام .
(٤) الكافي ج ٢ ص ١٦ تحت رقم ٥ .

و يقبل عليها ولا يلتفت ولا يعبث ، [١] و بالجملة لا يتحرّك لغير الصلاة ، و لا يفعل من المكروهات شيئاً .

روى في الكافي بإسناده الصحيح عن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إذا قمت في الصلاة فعليك بالإقبال على صلاتك فإنّما يحسب لك منها ما أقبلت عليه ، و لا تعبث فيها بيدك ولا برأسك ولا بلحيتك ، ولاتحدّث نفسك ولا تتثاءب ولا تتمطّ[٢] ولا تكفّر فإنّما يفعل ذلك المجوس ، ولا تلثّم[٣] ، ولاتحتفز ، وتفرّج كمايتفرّج البعير ، ولا تقع على قدميك ، ولا تفترش ذراعيك ، ولا تفرقع أصابعك فإنّ ذلك كلّه نقصان في الصلاة ، ولا تقم إلى الصلاة متكاسلاً ولامتناعساً ولا متثاقلاً فإنّها من خلال النفاق ، فإنّ الله نهى المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة و هم سكارى يعني سكر النوم ، و قال للمنافقين : « و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالي يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلّا قليلاً »[٤] .

قوله عليه السلام : « ولا تكفّر» التفكير هو وضع اليمين على الشمال كما يفعله العامّة ، والاحتفاز - بالحاء المهملة و الزاي - أن يتضأم في سجوده و جلوسه ، و الإقعاء عند أهل اللّغة أن يجلس على و ركيه و ينصب ركبتيه ، و عند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جاثياً و ليس على الأرض إلّا رؤوس أصابع الرجلين والركبتين .

و في الصحيح عن الباقر عليه السلام : « إيّاك و القعود على قدميك فتتأذّى بذلك ولا تكون قاعداً على الأرض وإنّما قعد بعضك على بعض فلاتصبر للتشهد والدعاء » [٤] .

و في الصحيح عن الصادق عليه السلام « لا صلاة لحاقن ولا حاقب » [٥] وهو بمنزلة من هو في ثيابه ، و الحقن حبس البول ، و الحقب حبس الغائط .

و رواه أبو حامد عن النبيّ صلى الله عليه و آله و زاد «الحازق» و هو صاحب الخفّ الضيق .

---

(١) روى الصدوق في الخصال ج ٢ ص ١٦٥ نحوه .

(٢) الثؤباء : فتح الفم ، والتمطى : مد اليدين .

(٣) المتلثم : المتنقب .

(٤) الكافي ج ٣ ص ٢٩٩ . والاية في سورة النساء : ١٤٢ .

(٥) رواه الصدوق - رحمه الله - في المجالس ص ٢٤٨، والمعاني ص ٢٣٧ .

و «الصفن» و هو رفع إحدى الرجلين . و «الصفد» و هو اقتران القدمين . و «الاختصار» و هو وضع يديه على خاصرتيه . و «الصلب» وهو ذلك مع التجافي بين عضديه . و «السدل» و هو إدخال اليدين تحت الثوب في الركوع و السجود ، و عقص شعر الرأس للرجال وهو الكفّ . و وضع إحدى الكفّين على الأُخرى ، وإدخالهما بين الفخذين في الركوع و هو التطبيق . و نفخ موضع السجود » .

و زاد أصحابنا على ذلك كلّه تحديد النظر في شيء و الامتخاط والتنخّم و البصاق و التبسّم أمّا القهقهة فمبطلة ، والتصفيق إلّا لضرورة ، و العجن باليدين أو إحديهما في النهوض و التبازخ في الركوع - بالتاء المثنّاة الفوقانية و الباء الموحّدة و الزاي و الخاء المعجمة - وهو تقويس الظهر إلى فوق مع إخراج الصدر . والتدبيخ - بالتاء المثنّاة الفوقانيّة والدال المهملة والباء الموحّدة والياء المثنّاة التحتانية والخاء المعجمة - و يروى - بالحاء - أيضاً و هو تقويس الظهر إلى فوق مع طأطأة الرأس ، و خشوع القلب يستلزم خشوع الجوارح و لهذا لمّا رأى النبيّ صلّى الله عليه و آله العابث في الصلاة قال : « لوخشع قلب هذا لخشعت جوارحه » [(١)] بخلاف العكس لأنّ القلب هو الأصل و عليه المدار .

✿(فضيلة المساجد و مواضع الصلاة)✿

قال الله تعالى : « إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» [(٢)] .

و في الفقيه « روى أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال : من صلّى في المسجد الحرام صلاة مكتوبة قبل الله بها منه كلّ صلاة صلاّها منذ يوم وجبت عليه الصلاة و كلّ صلاة يصلّيها إلى أن يموت » [(٣)].

و قال رسول الله صلّى الله عليه و آله : « الصلاة في مسجدي كألف صلاة في غيره إلّا المسجد الحرام فإنّ صلاة في المسجد الحرام كألف صلاة في مسجدي» [(٤)] .

وقال أبو جعفر عليه السلام لأبي حمزة الثمالي : « المساجد الأربعة - : المسجد الحرام ،

---

(١) الجعفريات ص ٣٦ . (٢) التوبة :١٨ .

(٣) و (٤) الفقيه باب فضل المساجد رقم٢ و٣ .

و مسجد رسول الله صلّى الله عليه وآله، ومسجد بيت المقدس، و مسجد الكوفة - يا أبا حمزة الفريضة فيها تعدل حجّة، والنافلة تعدل عمرة»(١).

و قال عليّ عليه السلام: «صلاة في بيت المقدس تعدل ألف صلاة، وصلاة في المسجد الأعظم تعدل مائة [ألف] صلاة، وصلاة في مسجد القبيلة تعدل خمساً و عشرين صلاة؛ وصلاة في مسجد السوق تعدل اثنتي عشرة صلاة، وصلاة الرّجل في بيته صلاة واحدة»(٢).

و قال أبو جعفر عليه السلام: «من بنى مسجداً كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»(٣).

و قال أبو عبيدة الحذّاء و مرّ عليه السلام بي و أنا بين مكّة و المدينة أضع الأحجار، فقلت: هذا من ذاك؟ فقال: نعم»(٤).

و كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله عزّ وجلّ أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردى، أو يسمع كلمة تدلّه على هدى، أو يترك ذنباً خشية أو حياء»(٥).

و قال الصادق عليه السلام: «من مشى إلى المسجد لم يضع رجليه على رطب ولا يابس إلّا سبّح الله له إلى الأرضين السابعة»(٦).

و قال عليه السلام: «من تنخّم في المسجد ثمّ ردّها في جوفه لم تمرّ بداء إلّا أبرأته»(٧).

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من كنس المسجد يوم الخميس فأخرج منه من التراب ما يذرّ في العين غفر الله له»(٨).

و قال صلّى الله عليه وآله: «من أسرج في مسجد من مساجد الله سراجاً لم تزل الملائكة و حملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوء من السراج»(٩).

و روي: «أنّ في التوراة مكتوباً أنّ بيوتي في الأرض المساجد، فطوبى لعبد تطهّر في بيته ثمّ زارني في بيتي، ألا إنّ على المزور كرامة الزائر، ألا بشّر المشائين في الظلمات إلى المساجد بالنور الساطع يوم القيامة»(١٠).

---

(١) الى (١٠) في الفقيه باب فضل المساجد تحت رقم ٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٣٥ و ٢٥ و ٢٣ و ٢٤ و ٣٩ و ٤٤.

و روي أنّ البيوت الّتي يصلّى فيها باللّيل يضيىء نورها لأهل السماء كما يضيىء نور الكواكب لأهل الأرض »(١).

و من أراد دخول المسجد فليدخله على سكون و وقار ، فانّ المساجد بيوت الله وأحبّ البقاع إليه . وأحبّهم إلى الله عزّ وجلّ رجلاً أوّلهم دخولاً وآخرهم خروجاً ومن دخل المسجد فليدخل رجله اليمنى قبل اليسرى وليقل « بسم الله وبالله السلام عليك أيّها النبيّ و رحمة الله وبركاته ، اللّهمّ صلّ على محمّد و آل محمّد و افتح لنا أبواب رحمتك واجعلنا من عمّار مساجدك ، جلّ ثناء وجهك » و إذا خرج فليخرج رجله اليسرى قبل اليمنى و ليقل « اللّهم صلّ على محمّد و آل محمّد وافتح لنا باب فضلك »(٢) هذا كلّه من الفقيه .

و في الصحيح ، عن ابن سنان عن الصادق عليه السلام « قال : سمعته يقول : إنّ أناساً كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أبطأوا عن الصلاة في المسجد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ليوشك قوم يدعون الصلاة في المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فيوقد عليهم نار فيحرق عليهم بيوتهم »(٣).

و عنه عن أبيه ، عن عليّ عليه السلام : « قال : لاصلاة لمن لم يشهد الصلوات المكتوبات من جيران المسجد إذا كان فارغاً صحيحاً »(٤) .

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله « إذا دخل أحدكم المسجد فلايجلس حتّى يركع وليدع الله عقيبهما وليصلّ على النبيّ صلى الله عليه وآله ودعا الله وسأله حاجته(٥) » .

و عنه صلى الله عليه وآله « الجلوس في المسجد انتظاراً للصلاة عبادة مالم يُحدث ، فقيل : يا رسول الله وما الحدث ؟ قال : الاغتياب(٦) » .

---

(١) و (٢) في الفقيه باب فضل المساجد تحت رقم ٤٥ و ٤٧ و ٤٨ .

(٣) رواه الشيخ في التهذيب ج ١ ص ٢٥٢ .

(٤) رواه الشيخ - رحمه الله - في التهذيب ج ١ ص ٣٢٧ .

(٥) أخرج صدره البخاري ج ١ ص ١١٤ ، ومسلم ج ٢ ص ١٥٥ ، والترمذي ج٢ ص ١١٢ ، وغيره كلهم عن أبي قتادة ، وراجع أيضاً البحار ج١٨ باب صلاة التحية والدعاء عند الخروج الى الصلاة ص ١٤١ .

(٦) رواه الصدوق في الامالي كما في البحار ج ١٨ ص ١٣٦ .

قال أبوحامد : « قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « الملائكة تصلّي على أحدكم مادام في مصلاّه الّذي يصلّي فيه : اللّهمّ اغفر له اللّهمّ ارحمه . مالم يحدث أويخرج من المسجد(١)» .

وقال صلى الله عليه وآله : « من ألف المسجد ألفه الله (٢) » .

وقال صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم الرّجل يعتادالمسجد فاشهدوا له بالايمان»(٣) .

وقال صلى الله عليه وآله : «يكون في آخرالزّمان [اُ]ناس من اُمّتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً ، ذكرهم الدنيا وحبّ الدّنيا ، لاتجالسوهم فليس لله بهم حاجة (٤) » .

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : «إذامات العبد بكى عليه مصلاّه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثمّ قرأ «فمابكت عليهم السماء والأرض وماكانوا منظرين(٥) » .

وقال ابن عباس : « تبكي عليه الأرض أربعين صباحاً (٦) » .

وقيل : إنّها تشهدله بها يوم القيامة ، ويقال : مامن منزل ينزله قوم إلّا أصبح ذلك المنزل يصلّي عليهم أويلعنهم .

﴿ الباب الثانى ﴾

(في كيفية الاعمال الظاهرة من الصلاة)

أقول : و لنذكرها على طريقة أهل البيت عليهم السلام فنقول : ينبغي للمصلّي إذا فرغ

---

(١) أخرجه البغوى فى المصابيح ج ١ ص ٤٨ ، والنسائى فى السنن ج٢ص٥٥ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الاوسط وفيه ابن لهيعة وفيه كلام كما فى مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢٣ .

(٣) أخرجه الترمذى ج١١ ص ٢٣٧ . وأحمد فى المسند ج ٣ ص ٧٦ .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير وفيه بزيع أبو الخليل ونسب الى الوضع كما فى مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢٤ .

(٥) أخرجه ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا و ابن المنذر من طريق المسيب بن رافع كما فى الدرالمنثور ج ٦ ص ٣١ ، والاية فى سورة الدخان : ٢٣ .

(٦) أخرجه الحاكم وابن أبى الدنيا كما فى الدرالمنثور ج ٦ص ٣١ .

من الطهارة و إزالة الخبث عن البدن و الثوب و محلّ السجود بل كلّ المكان و من ستر العورة بل من السرّة إلى الركبة بما يجوزلبسه في الصلاة أعني غير الحرير المحض ، ولا جلد الميتة ، ولا ما لا يؤكل لحمه ، ولا شعره و وبره سوى ما استثني أن ينتصب[١] قائماً متوجّهاً إلى القبلة عينها أوجهتها بوقاروخشوع ، واضعاً يديه على فخذيه بإزاء ركبتيه مفرّجاً بين قدميه بقدر ثلاث أصابع مفرّجات إلى شبر، مستقبلاً بأصابع رجليه جميعاً القبلة، مسدلاً منكبيه ، مقيماً صلبه، ناظراً إلى موضع سجوده ، غيرمجاوز بصره عن مصلّاه ، ولا رافع له إلى السماء ، فإن لم يكن مصلّى فليقرب من جدار ، أو يضع بين يديه شيئاً ، أو يخطّ خطاً ليستتربذلك ممّن يمرّ بين يديه ، ويقصرمسافة البصر ، و يمنع تفرّق الفكر ، قال الصادق عليه السلام : « لايقطع الصلاة شيء لا كلب ولاحمار ولاامرأة ولكن استتروا بشيء[٢] » فإذا استوى قيامه واستقباله وإقباله على الصلاة فليحضر النيّة بأن يقصد بقلبه أنّه يؤدّي فريضة الظهرمثلاً لله ليميّزه بقوله أؤدّي عن القضاء ، و بالفريضة عن النّفل ، وبالظّهر عن العصر وغيره ، ويقارن بها إحدى التكبيرات السبع الإفتتاحية و يجعلها تحريمه ، ويرفع بكلّ منها يديه فإنّه زينة الصلاة والعبودية ويتأكد للإمام ، و يستقبل بكفّيه القبلة ، ضامّاً أصابعه سوى الإبهامين ، غير متجاوز بكفّيه أذنيه ، مبتدئاً بالتّكبير حال ابتداء الرّفع ، منتهياً بانتهائه ، وكذلك في كلّ تكبير في الصلاة ، ويقطع همزتي الجلالة وأكبرمن غير مدّ ، ويضمّ الهاء من الجلالة ضمّة خفيفة من غيرمبالغة ، ولايمدّ بين اللاّم والهاء زيادة على العادة ، ويجزم راء التكبيرولايضمّه ، ويأتي بالتكبيرات السبع بأدعيتها فعند الثالثة « اللّهمّ أنت الملك الحقّ ، لا إله إلّا أنت ، سبحانك إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي إنّه لايغفرالذّنوب إلّا أنت ، وبعدالخامسة « لبّيك وسعديك ، والخير في يديك والشرّ ليس إليك ، والمهديّ من هديت لاملجأمنك إلّاإليك ، سبحانك وحنانيك تباركت وتعاليت سبحانك ربّ البيت[٣] » و في بعض الأخبار بعد قوله : « والمهديّ من هديت »

---

(١) قوله : « أن ينتصب» مربوط بقوله « ينبغي » .

(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٩٧ ، التهذيب ج ١ ص ٢٢٨ .

(٣) قوله : « لبيك و سعديك » أي اقامة على طاعتك بعد اقامة و مساعدة على ←

« منك وبك ولك وإليك » وبعد السابعة « وجّهت وجهي للّذي فطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، حنيفاً مسلماً و ما أنا من المشركين ، إنّ صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله ربّ العالمين ، لاشريك له وبذلك اُمرت وأنامن المسلمين » وفي بعض الأخبار بدل «عالم الغيب والشهادة» «على دين محمّد ومنهاج عليّ» ثم يقول : «أعوذبالله السميع العليم من الشيطان الرّجيم » متخافتاً بها ، ثمّ يقرءالحمد على الوجه المنقول بالتواتر، مخرجاً للحروف من مخارجها ، مراعياً للوقوف في مواضعها ، مرتّلاً موالياً لأجزائها عرفاً ، آتياً بالبسملة لأنّها جزء منها و يجهربها في الصبح و اُوليي العشائين والجمعة ، و يخافت في غيرها فيما عداالبسملة ، ويسكت بعدها بقدر نفس ، ثمّ يقرأسورة كذلك مع بسملتها ، وينبغي أن تكون مثل الأعلى والشمس في الظهروالعشاء ، ومثل الفتح والتكاثر في العصر والمغرب ، ومثل النبأ والدّهر في الصبح ، وفي الجمعتين الجمعتين[1] و في ليلتها و غداتها الجمعة و في غداة الخميس و الإثنين الدّهر ، و في بعض الأخبارالقدر في جميع الفرائض و في الثانية التوحيد وفي بعضها بالعكس ، ويسكت بعدها كماسكت قبلها ، ثمّ يرفع يديه كرفعه في السبع ،آتياً بالتكبير وهو قائم ، ثمّ يركع واضعاً يمناه على ركبته اليمنى قبل يسراه على اليسرى ، مالئاً كفّيه بركبتيه ، مُلقماً لهما بأطراف أصابعه مفرّجات ، رادّاً لهما إلى خلف ، مستوياً ظهره بحيث لوصبّ عليه قطرة من ماء أودهن لم تزل ، مادّاً عنقه مغمّضاً عينيه أوناظراً إلى مابين قدميه ، ثم يقول : « اللّهمّ لك ركعت ولك أسلمت و بك آمنت وعليك توكّلت وأنت ربّي خشع لك سمعي وبصيري وشعري و بشري ولحمي ودمي ومخّي وعصبي وعظامي وما أقلّته قدماي ، غير مستنكف ولا مستكبر ولا مستحسر[2]»

← امتثال أمرك بعد مساعدة . « والشر ليس اليك »أى ليس منسوباً اليك ولا صادراً عنك . والحنان ـ بتخفيف النون ـ: الرحمةوبتشديدها ذوالرحمة : وقوله : «سبحانك وحنانيك» أى انزهك عما لايليق بك تنزيها والحال أني أسألك رحمة بعد رحمة .

(١) كذا في النسخ .

(٢) قوله « أقلته قدماى» أى ما حملته قدماى . والاستنكاف معناه بالفارسية ننگ داشتن . والاستحسار ـ بالحاء المهملةوالسين ـ التعب والمراد انى لاأجدفي الركوع تعباً ولا كلالا ولامشقة بل أجدلذة وراحة . وقوله : «سبحان ربي العظيم وبحمده» يعني انزه ربي ←

ثمّ يقول : « سبحان ربّي العظيم وبحمده » مرّة أوثلاثاً أوخمساً أوسبعاً إلى مايتّسع له الصدر فقد عُدّ للصادق عليه السلام في الركوع والسجود تسعون تسبيحة ، ثمّ ينتصب ويقول : « سمع الله لمن حمده » رافعاً يديه ، ثمّ يقول : « والحمد لله ربّ العالمين أهل الكبرياء والعظمة و الجودوالجبروت » ، ثمّ يكبّر على قياس ما ذكر و هو قائمٌ و يهوي للسجود بخضوع وخشوع ، متلقّياً الأرض بكفّيه قبل ركبتيه، مجنّحاً بيديه، باسطاً كفّيه، مضمومتي الأصابع حيال منكبيه ووجهه ، ولا يلزقهما بركبتيه ، ولا يدنهما من وجهه ، ولا يضع شيئاً من جسده على شيء منه في ركوع ولاسجود ، ويسجد على الأرض أومانبت منها غير مأكول ولاملبوس عادة ، ولا معدن لأنّ أبناء الدّنيا عبيدٌ لما يأكلون و يلبسون - كذا عن الصادق عليه السلام - [1].

وقال عليه السلام : « وان تسجد على الأرض أحبّ إليّ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحبّ أن يمكّن جبهته من الأرض فأنا أحبّ لك ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّه » [2].

وقال عليه السلام : « و إن أفضيت بيديك إلى الأرض فهو أفضل [3] » و أفضل المساجد التربة الحسينيّة على مشرفها السلام ، فإنّها تنور إلى الأرضين السبع و تخرق الحجب . كذاعن أئمة الهدى صلوات الله عليهم [4] و يضع مع الجبهة الكفّين والركبتين وإبهامي

← العظيم عما لايليق بعز شأنه تنزيهاً وأنامتلبس بحمده على ما وفقني له من تنزيهه وعبادته . كأن المصلى لما أسند التنزيه الى نفسه خاف أن يكون فى هذا الاسناد نوع تبجح بأنه مصدر لهذا الفعل العظيم فتدارك ذلك بقوله : وأنامتلبس بحمده على أن صيرني أهلا لتسبيحه و قابلا لعبادته ، فسبحان مصدر - كغفران - ومعناه التنزيه ونصبه على أنه مفعول مطلق و عامله محذوف سماعاً ، والواو فى « و بحمده » و أو الحال و بعض النحاة يجعلها عاطفة و هو من قبيل عطف الجملة الاسمية على الفعلية (كذا قال الشيخ البهائى فى مفتاح الفلاح) .

(١) الفقيه ص ٧٣ رقم ١ ، والعلل ج ٢ باب ٤٢ ، والتهذيب ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) التهذيب ج ١ ص ٢٢٤ .

(٣) التهذيب ج ١ ص ١٥٧ .

(٤) راجع الفقيه ص ٧٢ تحت رقم ٢ ، و الاحتجاج للطبرسى ص ٢٧٤ و مصباح المتهجد ص ٥١١ .

الرّجلين و يجعل الأنف ثاني ما منسها ويرغم به ويقول ناظراً إلى طرفه : « اللّهمّ لك سجدت وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكّلت ، وأنت ربّي سجد وجهي للّذي خلقه و شقّ سمعه وبصره ، الحمد لله ربّ العالمين تبارك الله أحسن الخالقين » ثمّ يقول : « سبحان ربّي الأعلى وبحمده » مرّة أوثلاثاً أوخمساً أوسبعاً إلى مايتّسع له الصّدر ، ثمّ يرفع رأسه ويكبّرجالساًعلى فخذهالأيسروقد وضع ظهرقدمهاليمنى على بطن اليسرى ويقول : « أستغفرالله ربّي وأتوب إليه » ، ثمّ يقول : « اللّهمّ اغفرلي وارحمني وأجرني وادفع عنّي إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير تبارك اللهربّ العالمين » ثمّ يكبّرويسجد السجدة الثانية كالأولى ثمّ يرفع رأسه ويجلس متورّكاً كما ذكرهنيئة و هي جلسة الاستراحة ثمّ يقوم رافعاً ركبتيه قبل كفّيه معتمداًعليهما قائلاً «بحولكاللّهمّوقوّتك أقوم وأقعد » وإن شاء يقول : « وأركع وأسجد » فإذا انتصب قائماً فيأتي بالبسملة و الحمد و سورة و أفضلها التوّحيد في جميع الفرائض ، ثمّ يسكت بقدرنفس ، ثمّ يكبّر للقنوت ويرفع كفّيه تلقاء وجهه ، مستقبلاً ببطنيهما السّماء ، ضامّاً أصابعهما ماعدا الإبهامين ، وينظرإليهماويأتي بكلمات الفرج ، ثمّ يدعو بماشاء وأفضله المأثورات و يجهربه و يطيل فيه ، ففيالحديث « أطولكمقنوتاً في دارالدّنياأطولكم راحة يومالقيامة»[١] ثمّ يرفع يديه بالتكبيرويركع ويسجدالسّجدتين كمامرّ ، ثمّ يجلسللتشهد متورّكاً ، لاصقاً ركبتيهعلىالأرض ، مفرّجاً بينهما شيئاً ويقول : ناظراً إلى حجره : « بسم الله وبالله وخير الأسماء لله أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له وأشهدأنّ محمّداًعبده ورسوله ، أرسله بالحقّ بشيراً ونذيراًبين يدي السّاعة ، وأشهد أنّ ربّي نعم الرّبّ وأنّ محمّداً نعم الرّسول ، اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد وتقبّل شفاعته في اُمّته وارفع درجته » ، ثمّ يحمد الله مرّتين أو ثلاثاً إن كانت غير ثنائية ، ويقوم إلى الثالثة آتياً بما قاله عند نهوضه إلىالثانية فإذاانتصب قائماًقرءالحمد أوسبّح التسبيحات الأربع فإن ثلّثها وأضافإليها الاستغفارفهوأفضل ، ثمّيركع ويسجد آتياً بالتكبيرات والأذكار ، ثمّ يأتي بالرّابعة كذلك إن كانت رباعية ، ثمّيتشهّد ثانياً كما مرّ ويضيف إليه ما في رواية أبي بصيرالمشهورة عن الصادق عليه السلام[٢] إلىآخرالتسليمات

(١) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ فيالامالي ص ٣٠٤ .
(٢) راجع التهذيب ج ١ ص ١٦٢ .

المستحبّة ، ثمّ يشير بمؤخّر عينه إلى يمينه ويقول : «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ناوياً به الخروج عن صلاته ، قاصداً بالخطاب الأنبياء و الأئمة و الحفظة عليهم السلام فهذه هيئة صلاة المنفرد .

ثمّ يشرع في التعقيب متورّكاً مستقبل القبلة ، ملازماً لمصلاّه ، مستديماً طهارته ، مجتنباً كلّ ما يبطل الصلاة أو ينقص ثوابها ، فقد روي «أن كلّ ما يضرّ بالصّلاة يضرّ بالتعقيب ، وهو أفضل من الصّلاة تنفّلاً ، وأبلغ في طلب الرزق من الضرب في البلاد [1] » والأذكار الواردة فيه عن أهل البيت عليهم السلام كثيرة ويأتي بعضها في كتاب ترتيب الأوراد ، و أفضلها تسبيح الزّهراء عليها السلام و هو أفضل من صلاة ألف ركعة في كلّ يوم . ـ كذا عن الصادق عليه السلام ـ [2] .

فإذا فرغ من التعقيب سجد سجدتي الشكر ويطيلهما ما استطاع ، ويفترش ذراعيه فيهما ، ويلصق صدره و بطنه بالأرض و يعفّر جبينيه و خدّيه أي يضعهما على العفَر ـ بفتحتين وهو التّراب ـ وبوضع الخدّين يتحقّق الفصل بينهما ويدعو فيهما بالمأثور و قد مرّ نبذ منه .

(بيان تمييز الفرائض والسنن و تفاوت بعضها عن بعض)

أقول : جملة ما ذكرناه اشتملت على السنن والهيئات والآداب الّتي ينبغي أن يراعي مريد طريق الآخرة جميعها والفرض منها القيام ، و النيّة ، و تكبيرة الاحرام ، و قراءة الفاتحة على الوجه المنقول بالتواتر والجهر بها أو الإخفات ؛ والانحناء في الرّكوع إلى أن ينال راحتاه ركبتيه ، و الذكر فيه و الطمأنينة بقدره ، و رفع الرأس منه مطمئنّاً فيه والسّجدتان على الأعضاء السّبعة ، و الذكر فيهما ، مطمئنّاً بقدره ، و رفع الرأس عنهما والجلوس بينهما مطمئنّاً ، والشهادتان في موضعيهما مع الصّلاة على النبيّ و آله عليهم السلام ، و الجلوس لهما ، والتسليم على خلاف فيه وهو تحليل الصّلاة كما أن التكبير تحريمها و الطهور مفتاحها . و في وجوب السورة بعد الحمد والقنوت أو استحبابهما خلاف ، و كذا

(١) راجع مفتاح الفلاح ص ٤٩ ، والكافي ج ٣ ص ٣٤٢ ، والتهذيب ج١ ص١٦٤.
(٢) الكافي ج ٣ ص ٣٤٣ تحت رقم ١٤ و ١٥ .

في وجوب الجهر بالبسملة في مواضع الإخفات أو استحبابه .

وما عداهذه فليس بواجب بل هي سنن وهيئات وآداب فيهاوفي الفرائض ، وللكل درجات متفاوتة في الفضل والاهتمام به فأهمّها النيّة ، وأفضل الأفعال الأركانية السجود ، ثمّ الركوع ، ثمّ القيام وهذه الأربعة أركان تبطل الصلاة بتركها عمداً و سهواً و نظيرها من الشروط الطهور قال الصادق عليه السلام : « الصلاة ثلاثة أثلاث : ثلث طهور، وثلث ركوع، وثلث سجود[1]» ثمّ الجلوس للتشهّد وفيما بين السجدتين ، ثمّ رفع اليدين في التكبيرات ثمّ سائر الهيئات وهي تابعة لذي الفضل في الفضل وما هومنها أدلّ على الخشوع فهو أفضل ، وأفضل الأذكار تكبيرة الإحرام ، وهو من الأركان ، ثمّ الفاتحة ، ثمّ التشهد ، ثمّ أذكار الركوع والسجود ، ثمّ التسليم ، ثمّ السورة وسائر التكبيرات ، ثمّ القنوت ، ثمّ التعوّذ ، ثمّ دعاء الافتتاح الأخير ، ثمّ الأوّلان ، ثمّ سائر الأذكار ، هذا ما يناسب طريقتنا في التفاوت والتفضيل ممّا فهمتُه من فحاوي الأخبار ، ولم أرمن أصحابنا من تعرّض لذلك[2].

قال أبوحامد بعد تمييز الفرائض والسّنن وتفضيل بعض السّنن على بعض على طريقة العامّة : « فإن قلت : تمييز السّنن عن الفرائض معقول إذتفوت الصّحة بفوت الفرض دون السّنة ويتوجّه العقاب به دونها فأمّا تمييز سنّة عن سنّة والكلّ مأمور به على سبيل الاستحباب ولاعقاب في ترك الكلّ والثواب مرجوّ على الكلّ فمامعناه ؟ .

فاعلم أنّ اشتراكها في الثواب و العقاب و الاستحباب لا يدفع تفاوتها ، ولنكشف لك ذلك بمثال و هو أنّ الإنسان لا يكون إنساناً موجوداً كاملاً إلّا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالمعنى الباطن هو الحياة و الروح ، و الظاهر أجسام أعضائه ، ثمّ بعض تلك الأعضاء ينعدم الإنسان بعدمه وتفوت الحياة بفواته ؛ كالقلب والكبد و الدماغ ، وبعضها لا يفوت به الحياة و لكن يفوت به مقاصد الحياة ؛ كالعين و اليد و الرجل و اللّسان ،

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٧٣ تحت رقم ٨ .

(٢) في هامش بعض النسخ منه ـ رحمه الله ـ كذا : « لم يتعرض أبوحامد لتفضيل بعض الفرائض على بعض و تفاوتها في الدرجة ولاغيره من أصحابنا وانما ذلك من خواص هذا الكتاب ».

و بعضها لا يفوت به الحياة و لا مقاصدها ولكن يفوت به الحسن ؛ كالحاجبين و اللّحية و الأهداب و حسن اللّون ، و بعضها لا يفوت به أصل الجمال ولكن كماله ؛ كاستقواس الحاجبين ، و سواد شعر اللّحية و تناسب خلقة الأعضاء ، و امتزاج الحمرة بالبياض في اللّون ، فهذه درجات متفاوته ، فكذلك العبادة صورة صوّرها الشرع و تعبّدنا باكتسابها فروحها و حياتها الباطنة الخشوع و النيّة و حضور القلب و الإخلاص كما سيأتي ونحن الآن في أجزائها الظاهرة فالركوع و السجود و القيام و سائر الأركان يجري منهامجرى القلب و الرأس و الكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها ، و السنن الّتي ذكرناها من رفع اليدين و دعاء الاستفتاح وغيرهما يجري منها مجرى اليدين و العينين و الرجلين لايفوت الصحّة بفواتها كما لايفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن يصير الشخص بسببه مشوّه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه ، فكذلك من اقتصر على أقلّ ما يجزىء من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبداً حيّاً مقطوع الأطراف ، و أمّا الهيئات وهي ماوراء السنن فيجرى مجرى أسباب الحسن من الحاجبين و اللّحية و الأهداب و حسن اللّون ، و أمّا لطائف الآداب في تلك السنن فهي مكمّلات الحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللّحية و غيرها و الصلاة عندك قربة و تحفة تتقرّب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يُهديها طالب القربة من السلاطين إليهم و هذه التحفة تعرض على الله ثمّ تردّ عليك في يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها فإن أحسنت فلنفسك و إن أسأت فعليها ، ولا ينبغي أن يكون حظّك من ممارسة الفقه أن يتميّز لك السنّة عن الفرض فلا يعبق بفهمك من أوصاف السنّة إلّا أنّه يجوز تركها فتتركها فإنّ ذلك يضاهي قول الطبيب : إنّ فقأ العينين لا يبطل وجود الإنسان و لكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرّب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهديّة ، فهكذا ينبغي أن يفهم مراتب السنن والهيئات والآداب ، وكلّ صلاة لم يتمّ الإنسان ركوعها و سجودها فهي الخصم الأوّل على صاحبها تقول : ضيّعك الله كما ضيعتني ، فطالع الأخبار الّتي أوردناها في إكمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها » .

﴿الباب الثالث﴾

﴿في الشروط الباطنة من أعمال القلب﴾

قال أبو حامد: «و لنذكر في هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب، ثمّ لنذكر المعاني الباطنة و حدودها و أسبابها و علاجها، ثمّ لنذكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كلّ ركن من الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة.

﴿بيان اشتراط الخشوع و حضور القلب﴾

اعلم أنّ أدلّة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى: «أقم الصلاة لذكري» و ظاهر الأمر للواجب و الغفلة تضادّ الذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره؛ و قوله: «ولا تكن من الغافلين» نهي و ظاهره للتحريم؛ و قوله تعالى: «حتّى تعلموا ما تقولون» تعليل لنهي السكران وهو مطّرد في الغافل المستغرق الهمّ بالوساوس و أفكار الدنيا، و قوله صلّى الله عليه وآله: «إنّما الصلاة تمسكنٌ و تواضعٌ» [1] حصر بالألف و اللّام و كلمة إنّما للتحقيق و التمحيق (*)، و قد فهم الفقهاء من قوله صلّى الله عليه وآله: «إنّما الشفعة فيما لم يقسم الحصر و الإثبات و النفي، و قوله صلّى الله عليه وآله: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم تزده من الله إلّا بعداً» [2] و صلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء؛ و قال صلّى الله عليه وآله: «كم من قائم حظّه من صلاته التعب والنصب» [3] و ما أراد به إلّا الغافل. و قال صلّى الله عليه وآله أيضا: «ليس للعبد من صلاته إلّا ما عقل» [4].

و التحقيق فيه أنّ المصلّي مناج ربّه كما ورد الخبر به و الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتّة، و بيانه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلاً فهي في نفسها مخالفة

(١) و (٢) مر سابقاً. (*) كذا في النسخ وفي الاحياء «والتوكيد».

(٣) رواه ابن ماجه وأحمد والطبراني والبيهقي بالفاظ مختلفة وفي لفظ الطبراني «رب قائم حظه من قيامه السهر» راجع الجامع الصغير باب الراء.

(٤) نقله النوري - رحمه الله - في المستدرك ج١ ص٢٦٤ من كتاب غوالي اللئالي.

للشهوة ، شديدة على النفس ، وكذا الصوم قاهر للقوى ، كاسر لسطوة الهوى الّذي هو آلة الشيطان عدوّ الله ، فلا يبعد أن يحصل منهما مقصود مع الغفلة ، وكذلك الحجّ أفعاله شاقّة شديدة ، وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام ، كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن ، أمّا الصلاة فليس فيها إلّا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، أمّا الذكر فإنّه محاورة ومناجاة مع الله تعالى فامّا أن يكون المقصود منه كونه خطاباً ومحاورة ، أوالمقصود الحروف والأصوات إمتحاناً للّسان بالعمل كما يمتحن المعدة والفرج بالإمساك في الصوم ، وكما يمتحن البدن بمشاقّ الحجّ ويمتحن القلب بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق ، ولا شكّ في أنّ هذا القسم باطلٌ فإنّ تحريك اللّسان بالهذيان ما أخفّه على العاقل فليس فيه امتحان من حيث أنّه عملٌ بل المقصود الحروف من حيث أنّه نطق ولا يكون نطقاً إلّا إذا أعرب عمّا في الضمير ، ولا يكون معرباً إلّا بحضور القلب فأيّ سؤال في قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » إذا كان القلب غافلاً ، وإن لم يقصد كونه تضرّعاً ودعاء فأيّ مشقّة في حركة اللّسان به في الغفلة لا سيّما بعد الاعتياد ؟ هذا حكم الأذكار بل أقول : لو حلف الإنسان وقال : لأشكرنّ فلاناً واُثني عليه وأسألنّه حاجة ثمّ جرت الألفاظ الدالّة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبرّ في يمينه ولو جرى على لسانه في ظلمة وذلك الإنسان حاضرٌ وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارّاً في يمينه ، إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه ما لم يكن هو حاضراً في قلبه فلو كان يجري هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلّا أنّه في بياض النهار غافلٌ لكونه مستغرق الهمّ بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب عليه عند نطقه لم يصر بارّاً في يمينه ولا شك في أنّ المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرّع والدعاء والمخاطب هوالله تعالى وقلبه بحجاب الغفلة محجوبٌ عنه ، فلا يراه ولا يشاهده ، بل هو غافلٌ عن المخاطب ولسانه يتحرّك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة الّتي شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله ورسوخ عقد الإيمان بها ، هذا حكم القراءة والذكر وبالجملة فهذه الخاصيّة لاسبيل إلى إنكارها في النطق وتمييزه بها عن الفعل ، وأمّا الركوع والسجود فالمقصود

التعظيم بهما قطعاً و لو جاز أن يكون معظّماً لله بفعله و هو غافل عنه لجاز أن يكون معظّماً لصنم موضوع بين يديه وهو غافلٌ عنه ، أو يكون معظّماً للحائط الّذي بين يديه و هو غافلٌ ، و إذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلّا مجرد حركة الظهر و الرأس وليس فيه من المشقّة ما يقصد الامتحان به ، ثمّ يجعل عماد الدّين ، و الفاصل بين الكفر و الإسلام و يقدّم على الحجّ وسائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص ما أرى أنّ هذه العظمة كلّها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلّا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإنّ ذلك يتقدّم على الصوم و الزكاة و الحجّ و غيرها بل الضحايا و القرابين الّتي هي مجاهدة للنفس بتنقيص المال قال الله تعالى فيه « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها و لكن يناله التقوى منكم » [1] أي الصفة الّتي استولت على القلب حتّى حملت على امتثال الأوامر و هي المطلوبة فكيف الأمر في الصلاة و الأدب في أفعالها فهذا ما يدلّ من حيث المعنى على الاشتراط حضور القلب .

« فصل »

فإن قلت : إن حكمت ببطلان الصلاة و جعلت حضور القلب شرطاً في صحّتها خالفت به إجماع الفقهاء فإنّهم لم يشترطوا إلّا حضور القلب عند التكبير ، فاعلم أنّه قد تقدّم في كتاب العلم أنّ الفقهاء لا يتصرّفون في الباطن و لا مطلع لهم على ما في القلوب ولا في الطريق الآخرة بل يبنون ظاهر أحكام الدنيا على ظاهر أعمال الجوارح و ظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل أو تعزير السلطان فأمّا أنّه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه ، على أنّه لا يمكن أن يدّعى الإجماع فيه فقد نقل عن بعض السلف أنّه قال : من لم يخشع فسدت صلاته ، و قال آخر : كلّ صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع ، وروي أيضاً مسنداً عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: « أنّ العبد ليصلّي الصلاة لا يكتب له سدسها و لا عشرها و إنّما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها » [2] و هذا لو نقل

(١) الحج : ٣٧.

(٢) مر عن غوالى اللئالى لابن أبي جمهور الاحسائى .

من غيره لجعل مذهباً فكيف لا يتمسك به ؟ و قال عبد الرحمن بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منهافجعله إجماعاً ، وما نقل من هذا الجنس من الفقهاء المتورعين و عن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى ».

أقول : و قد ورد مضمون هذا الحديث عن الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم في ألفاظ متعددة و قد أشرنا إلى بعضها فيما سبق .

قال : « و الحق الرجوع إلى أدلة الشرع ؛ و الآيات و الأخبار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقيد بقدر قصور الخلق فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين و إذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم و لو في اللحظة الواحدة و أولى اللحظات به لحظة التكبير فاقتصرنا على التكليف بذلك ، و نحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية ، فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً ، و أحضر القلب لحظة ، و كيف لا ؟ و الذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله ، و لكن له أجر ما بحسب فعله و على قدر قصوره و عذره و مع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك و كيف لا ؟ و الذي يحضر الخدمة و يتهاون بالحضرة و يتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالاً من الذي يعرض عن الخدمة ، و إذا تعارض أسباب الخوف و الرجاء و صار الأمر مخطراً في نفسه فإليك الخيرة بعده في الاحتياط و التساهل ، و مع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة و إن ذلك ضرورة الفتوى كما سبق التنبيه عليه ، و من عرف سر الصلاة علم أن الغفلة ، تضادها و لكن قد ذكرنا في الفرق بين العلم الباطن و الظاهر في كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ماينكشف من أسرار الشرع ، فلنقتصر على هذا القدر من البحث فإن فيه مقنعاً للمريد الطالب لطريق الآخرة ، و أما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن ، و حاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة و أن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير

فالنقصان منه هلاك ، و بقدر الزيادة عليه ينبسط الرّوح في أجزاء الصلاة، و كم من حيّ لا حراك به قريب من ميّت ، فصلاة الغافل في جميعها إلّا عند التكبير حيّ لا حراك به .

❁(بيان المعاني الباطنة التي بها تتم حياة الصلاة)❁

اعلم أنّ هذه المعاني تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ستّ جمل و هي حضور القلب ، و التفهّم ، والتعظيم ، و الهيبة ، و الرجاء ، والحياء فلنذكر تفاصيلها ثمّ أسبابها ثمّ العلاج في اكتسابها .

أما التفاصيل: فالأوّل حضور القلب ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلّم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما ولا يكون الفكر جارياً في غيرهما ، ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كلّ شيء فقد حصل حضور القلب ، و لكن التفهّم لمعنى الكلام أمر و راء حضور القلب فربما يكون القلب حاضراً مع اللّفظ و لا يكون حاضراً مع معنى اللّفظ فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللّفظ هو الّذي أردناه بالتفهّم و هذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهّم المعاني للقرآن والتسبيحات و كم من معان لطيفة يفهمها المصلّي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ، و من هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء و المنكر فإنّها تفهّم أُموراً تلك الأُمور تمنع من الفحشاء لا محالة .

وأمّا التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل ربّما يخاطب غيره بكلام هو حاضر القلب فيه و متفهّم لمعناه ولا يكون معظّماً له فالتعظيم [له] زائدٌ عليهما .

وأمّا الهيبة فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأنّ من لا يخاف لا يسمّى هائباً ، و المخافة من العقرب و سوء خلق العبد و ما يجري مجراه من الاسباب الخسيسة لا يسمّى مَهابة ، بل الخوف من السلطان المعظّم يسمّى مهابة فالهيبة خوف مصدرها الإجلال .

وأمّا الرّجاء فلاشكّ في أنّه زائد فكم من معظّم ملكاً من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مبرّته ، والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله كما أنّه خائف بتقصيره عقاب الله عزّ وجلّ .

وأمّا الحياء فهوزائد على الجملة لأنّ مستنده استشعارتقصيروتوهّم ذنب ويتصوّر التعظيم والخوف والرّجاء من غيرحياء حيث لايكون توهّم تقصير وارتكاب ذنب .

وأمّا أسباب هذه المعاني الستة

فاعلم أنّ حضور القلب سببه الهمّة فإنّ قلبك تابع لهمّك فلا يحضر إلّا فيما يهمّك ، ومهما أهمّك أمرٌ حضر القلب شاء أم أبى فهومجبول عليه ومسخّرٌ فيه والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطّلاً بل كان حاضراً فيما الهمّة مصروفة إليه من اُمور الدّنيا فلاحيلة ولاعلاج لإحضار القلب إلّا بصرف الهمّة إلى الصّلاة ، و الهمّة لاتنصرف إليها مالم يتبيّن أنّ الغرض المطلوب منوط بها وذلك هوالإيمان والتصديق بأنّ الآخرة خيرٌ وأبقى وأنّ الصلاة وسيلة إليها فإذا اُضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدّنيا ومهانتها حصل من مجموعهما حضور القلب في الصلاة وبمثل هذه العلّة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممّن لايقدر على مضرّتك و منفعتك ، فإذا كان لايحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الّذي بيده الملك والملكوت والنفع والضرّ فلاتظنّنّ أنّ له سبباً سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان ، وطريقه مُستقصى في غير هذا الموضع .

وأمّا التفهّم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هوعلاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمّر لرفع الخواطر الشاغلة وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادّها أعني النزوع عن تلك الأسباب الّتي تنجذب الخواطر إليها ومالم تنقطع تلك الموادّ لاينصرف عنها الخواطر، فمن أحبّ شيئاً أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ولذلك ترى أنّ من أحبّ غير الله لايصفو له صلاة عن الخواطر .

وأمّا التعظيم فهي حالة للقلب تتولّد من معرفتين : إحديهما معرفة جلال الله وعظمته وهي من اُصول الإيمان فإنّ من لايُعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه . الثانية معرفة حقارة النفس وخسّتها و كونها عبداً مسخّراً مربوباً حتّى يتولّد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله فيعبّر عنه بالتعظيم وما لم يمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرّب لاينتظم حالة التعظيم والخشوع فإنّ المستغني عن غيره ، الآمن على

نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ، ولايكون الخشوع والتعظيم حاله لأنّ القرينة الأُخرى وهي معرفة حقارة النّفس وحاجتها لم تقترن إليه .

وأمّا الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولّد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيّته فيه مع قلّة المبالاة به وإنّه لو أهلك الأوّلين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرّة ، هذا مع مطالعة مايجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدّفع على خلاف مايشاهد من ملوك الأرض ، وبالجملة كلّمازادالعلم بالله زادت الخشية والهيبة وسيأتي أسباب ذلك في كتاب الخوف من ربع المنجيات .

وأمّا الرّجاء فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم إنعامه و لطائف صنعه و معرفة صدقه في وعده الجنّة بالصّلاة فإذاحصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة .

و أمّا الحياء فباستشعاره التقصير في العبادة و علمه بالعجز عن القيام بعظيم حقّ الله ، و يقوي ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها و قلّة إخلاصها و خبث دخلتها و ميلها إلى الحظّ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله ، و العلم بأنّه مطّلع على السريرة وخطرات القلب و إن دقّت و خفيت و هذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمّى الحياء .

فهذه أسباب هذه الصفات ، وكلّ ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ففي معرفة السبب معرفة العلاج و رابطة جميع هذه الأسباب الإيمان و اليقين أعني به هذه المعارف الّتي ذكرناها ، ومعنى كونها يقيناً انتفاء الشكّ و استيلاؤها على القلب كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم ، وبقدر اليقين يخشع القلب ، ولذلك قالت عائشة : كان النبيّ صلّى الله عليه وآله يحدّثنا و نحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا و لم نعرفه .(١)

و قد روي «أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني و أنت تنتفض أعضاؤك ، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئنّاً ، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك ، و إذا قمت بين يديّ فقم قيام العبد الذليل و ناجني بقلب وجل و لسان

(١) قد مر سابقاً .

صادق »[1].

وروي أنّه أوحي إليه « قل لعصاة اُمّتك : لا يذكروني فإنّي آليت على نفسي أنّ من ذكرني ذكرته و إذا ذكروني بالغفلة ذكرتهم باللّعنة »[2] هذا في عاص غير غافل فكيف إذا اجتمعت الغفلة و العصيان ؛ وباختلاف المعاني الّتي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمّم صلاته و لم يحضر قلبه في لحظة و إلى من يتمّم و لم يغب قلبه في لحظة ، بل ربما كان مستوعب الهمّ بها بحيث لا يحسّ بما يجري بين يديه ، و لذلك لم يحسّ بعضهم بسقوط اسطوانة في المسجد اجتمع الناس عليها وبعضهم حضر الجماعة مدّة و لم يعرف قطّ من على يمينه و يساره ، و وجيب قلب إبراهيم الخليل صلوات الله عليه كان يسمع على ميلين ، و جماعة كانت تصفرّ وجوههم و ترتعد فرائصهم و كلّ ذلك غير مستبعد ، فإنّ أضعافه مشاهدة في همّ الدّنيا و خوف ملوك الدّنيا مع ضعفهم و عجزهم و خساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتّى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدّثه بمهمّ و يخرج و لو سئل عمّن حواليه و عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همّه به عن ثوبه و الحاضرين حوله ، و لكلّ درجات ممّا عملوا ، فحظّ كلّ واحد من صلاته بقدر خوفه و خشوعه و تعظيمه ، فإنّ موضع نظر الله القلوب دون ظاهر الحركات و لذلك قال بعض الصحابة : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة و الهدوء ، ومن وجود النعيم بها واللّذّة . و لقد صدق فإنّه يحشر على ما مات عليه و يموت على ما عاش عليه و يراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه ، فمن صفات القلوب يصاغ الصور في الدّار الآخرة و لا ينجو إلّا من أتى الله بقلب سليم .

✿(بيان الدواء النافع في حضور القلب)✿

اعلم أنّ المؤمن لابدّ وأن يكون معظّماً لله ، و خائفاً منه ، و راجياً و مستحيياً من تقصيره ، فلا ينفكّ عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوّتها بقدر قوّة يقينه فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلّا تفرّق الفكر و تقسيم الخاطر و غيبة القلب عن المناجاة

(١) و (٢) ماعثرت عليهما في أصل .

و الغفلة عن الصلاة ولا تلهي عن الصلاة إلّا الخواطر الرّدية الشاغلة ، فالدّواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ، و لايدفع الشيء إلّا بدفع سببه فليعلم سببه ، و سبب توارُد الخواطر إمّا أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً .

أمّا الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر ، فإنّ ذلك قد يختطف الهمّ حتّى يتبعه و يتصرّف فيه ، ثمّ ينجرّ منه الفكر إلى غيره و يتسلسل و يكون الأبصار سبباً للافتكار ، ثمّ يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض و من قويت رتبته و علت همّته لم يلهه ما يجري على حواسّه ، ولكن الضعيف لابدّ و أن يتفرّق به فكره ، فعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغضّ بصره أو يصلّي في بيت مظلم ، و لا يترك بين يديه ما يشغل حسّه ، و يقرب من حائط عند صلاته حتّى لا يتّسع مسافة بصره ، و يحترز من الصلاة على الشوارع و في المواضع المنقوشة المصبوغة و على الفرش المصبوغة و لذلك كان المتعبّدون يتعبّدون في بيت صغير مظلم ، سعته بقدر السجود ليكون ذلك أجمع للهمّ ، و الأقوياء كانوا يحضرون المساجد و يغضّون البصر و لا يجاوزونه موضع السجود و يرون كمال الصلاة في أن لا يعرفوا من على يمينهم و شمالهم » .

أقول : قال الشهيد الثاني ـ رحمه الله [1] ـ : ينبغي أن لا يعدل إلى غمض العينين ما وجد السبيل إلى القيام بوظيفة النظر و هي جعله قائماً إلى موضع سجوده و غيره من الأمور المعلومة شرعاً ، فإن تعذّر القيام بها مع فتحهما فالغمض أولى لأنّ الفائت من وظيفة الصلاة و صفتها بتقسّم الخاطر أعظم منه مع الإخلال بوظيفة النظر انتهى كلامه ، و يمكن أن يقال : إنّ الغضّ الّذي هو من خشوع الجوارح المأمور به يغني عن الغمض فلا حاجة إلى ترك السنّة من وظيفة النظر ، اللّهمّ إلّا أن يشتغل بالتأمّل في موضع سجوده و ما بين قدميه و نحوهما فحينئذ لا يبعد ما قاله رحمه الله .

قال أبو حامد : « و أمّا الأسباب الباطنة فهي أشدّ فإنّ من تشعّبت الهموم به في أودية الدّنيا لم ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب و غضّ البصر لا يغنيه فإنّ ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يردّ النفس قهراً

---

(١) أسرار الصلاة ص ١٧٧ .

إلى فهم ما يقرأه في الصلاة و يشغلها به عن غيره و يعينه على ذلك أن يستعدّ له قبل التحريم بإن يجدّد على نفسه ذكر الآخرة و موقف المناجاة و خطر المقام بين يدي الله تعالى و هول المطّلع ، و يفرغ قلبه قبل التّحريم بالصلاة عمّا يهمّه ، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لعثمان بن أبي شيبة : « إنّي نسيت أن أقول لك : تخمّر القُدير الّذي في البيت فإنّه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم » [1] فهذا طريق تسكين الأفكار فإن كان لا يسكن هائج أفكاره بهذه الدّواء المسكّن فلا ينجيه إلّا المسهل الّذي يقمع مادّة الدّاء من أعماق العروق و هوأن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن إحضار القلب ولا شكّ في أنّها تعود إلى مهمّاته و أنّها إنّما صارت مهمّاً بشهواته فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات و قطع تلك العلائق ، فكلّ ما يشغله عن صلاته فهو ضدّ دينه و جند إبليس عدوّه ، فامساكه أضرّ عليه من إخراجه فيتخلّص عنه بإخراجه .

كما روي « أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا لبس الخميصة الّتي أتاه بها أبو جهم و عليها علم و صلّى فيها نزع بعد صلاته وقال : اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنّها ألهتني آنفاً عن صلاتي و ائتوني بأنبجانيّة أبي جهم و أمر بتجديد شراك نعله ، ثمّ نظر إليه في الصلاة إذ كان جديداً فأمر أن ينزع منها و يردّ الشراك الخلق [2] » .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم قداحتذى نعلاً فأعجبه حسنهافسجدفقال : تواضعت لربّي كيلا يمقتني ثمّ خرج بها فدفعها إلى أوّل سائل لقيه ، ثمّ أمر علياً عليه السلام أن يشتري له نعلين سبتيّتين

---

(١) قال العراقي : الحديث أخرجه أبو داود من حديث عثمان الحجبي و هو عثمان ابن طلحة كما في مسند أحمد و وقع للمصنف أنه قال ذلك لعثمان بن شيبة وهو وهم .

(٢) قال الفيومي في المصباح : الخميصة : كساء أسود معلم الطرفين و يكون من خز أوصوف وان لم يكن معلماً فليس بخميصة . وظاهر النووي في شرحه على صحيح مسلم أن الكساء اذا كان له علم فهو خميصة واذا لم يكن له علم فهو انبجانية ا هـ وهي - بالباء المفتوحة - كما في القاموس في مادة ن ب ج و منبج - كمجلس - موضع ، و كساء منبجاني وانبجاني بفتح بائهما نسبة على غير قياس . و الخبر رواه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٧٨ ونحوه النسائي في السنن ج٢ ص ٧٢ . وابن ماجه تحت رقم ٣٥٥٠ .

جرداوين فلبسهما[١] .

و كان في يده صلى الله عليه وآله وسلم خاتم ذهب قبل التحريم و كان على المنبر فرماه و قال : «شغلني هذا نظرة إليه و نظرة إليكم »[٢] .

أقول : و نسبة أمثال هذه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يليق بجلالة قدره و يشبه أن يكون من اختلاقات العامّة ذبّاً عن الطعن في أئمّتهم بما يشبهها كما هو دأبهم و العلم عند الله .

قال أبو حامد : « و قيل : إنّ بعضهم صلّى في حائط له فيه شجر فأعجبه دبسيّ طار في الشجر يلتمس مخرجاً فأتبعه بصره ساعة ثمّ لم يدركم صلّى فجعل حائطه صدقة ندماً و رجاءً للعوض عمّا فاته ، و هكذا كانوا يفعلون قطعاً لمادّة الفكر ، و كفّارة لما جرى من نقصان الصلاة و هذا هو الدّواء القامع لمادّة العلّة ولا يغني غيره فإنّ ما ذكرناه من التلطّف بالتسكين و الردّ إلى فهم الذكر ينفع في الشهوات الضعيفة ، و الهمم الّتي لا تشغل إلّا حواشي القلب فأمّا الشهوة القويّة المرهقة فلا ينفع معها التسكين بل لا يزال تجاذبها وتجاذبك ثمّ تغلبك وينقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة ، ومثاله رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره و كانت أصوات العصافير تشوّش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة فقيل له : إن هذا سير السواني [٣] ولا ينقطع فإن أردت الخلاص فاقلع الشجرة ، فكذلك شجرة الشهوة إذا استعلت وتفرّعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذّباب إلى الأقذار ، و الشغل يطول في دفعها فإنّ الذّباب كلّما ذُبّ آب و لأجله سمّي ذباباً فكذلك الخواطر و هذه الشهوات كثيرة و قلّما يخلو العبد عنها ، و يجمعها أصل واحد و هو حبّ الدنيا و ذلك رأس كلّ خطيئة ، و أساس كلّ نقصان و منبع كلّ فساد ، ومن انطوى باطنه على حبّ الدّنيا حتّى مال إلى شيء منها لا ليتزوّد منها و يستعين

(١) أخرجه ابن حقيق في شرف الفقراء بسند ضعيف . (المغنى)

(٢) أخرجه النسائي في سننه ج ٨ ص ١٩٥ عن ابن عباس .

(٣) السانية : الناقة التي يستقى عليه من البئر ، جمعها سوان .

بها على الآخرة فلا يطمعنّ في أن يصفوله لذّة المناجاة في الصلاة فإنّ من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله و بمناجاته و همّة الرّجل مع قرّة عينه فإن كانت قرّة عينه في الدّنيا انصرف لا محالة إليها همّه ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة و ردّ القلب إلى الصلاة و تقليل الأسباب الشاغلة فهذا هوالدّواء و لمرارته استبشعه أكثر الطباع ، وبقيت العلّة مزمنة و صار الداء عضالاً حتّى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلّوا ركعتين لايحدّثون أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عنه فإذن لامطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنامن الصلاة شطرها أو ثلثها عن الوسواس لنكون ممّن خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيئاً ، و على الجملة فهمّة الدنيا و همّة الآخرة في القلب مثل الماء الّذي يصبّ في قدح فيه خلّ فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج الخلّ لامحالة ولا يجتمعان ».

(بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط)
(من أعمال الصلاة)

« فنقول : حقّك إن كنت من المريدين للآخرة أن لاتغفل أوّلاً عن التنبيهات الّتي في شروط الصلاة و أركانها ، أمّا الشروط و السوابق فهي الأذان و الطهارة و ستر العورة و استقبال القبلة و الانتصاب قائماً والنيّة ».

أقول : و كان ينبغي أن يذكر الوقت و المكان و التوجّه بالتكبيرات أيضاً و نحن نذكرها في التفصيل إن شاء الله .

قال : « فإذا سمعت نداء المؤذّن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة و تشمّر بظاهرك و باطنك للإجابة و المسارعة ، فإنّ المسارعين إلى هذا النداء هم الّذين ينادون باللّطف يوم العرض الأكبر ، فاعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوّاً بالفرح و الاستبشار ، مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنّه يأتيك النداء بالبشرى و الفوز يوم القضاء و لذلك قال صلّى الله عليه وآله : « أرحنا يا بلال»[1] أي أرحنابها وبالنداء إليها إذ كانت قرّة عينه فيها ».

---

(١) قال العراقي : حديث ارحنا يا بلال أخرجه الدار قطني في العلل من حديث بلال ولابي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم باسناد صحيح .

أقول : قال بعض علمائنا ـ رحمهم الله ـ[(١)] و اعتبر بفصول الأذان و كلماته كيف افتتحت بالله و اختتمت بالله و اعتبر بذلك أنّ الله جلّ جلاله هوالأوّل و الآخر والظاهر و الباطن : و وطّن قلبك بتعظيمه و تكبيره عند سماع التكبير و استحقر الدنيا و ما فيها لئلّا تكون كاذباً في تكبيرك ، وانف عن خاطرك كلّ معبود سواه بسماع التهليل و أحضر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و تأدّب بين يديه و أشهد له بالرسالة مخلصاً و صلّ عليه و آله ، و حرّك نفسك ، واسع بقلبك و قالبك عند الدعاء إلى الصلاة و ما يوجب الفلاح و ما هو خير الأعمال و أفضلها ، و جدّد عهدك بعد ذلك بتكبير الله و تعظيمه و اختمه بذكره كما افتتحت به و اجعل مبدأك منه و عودك إليه و قوامك به و اعتمادك على حوله و قوّته فإنّه لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم .

فصل

أقول : وأمّا الوقت فقد قال بعض علمائنا[(١)] ـ رحمهم الله جميعاً ـ : استحضر عند دخوله أنّه ميقات جعله الله تعالى لك لتقوم فيه بخدمته ، و تتأهّل للمثول في حضرته و الفوز بطاعته ، و ليظهر على قلبك السرور و على وجهك البهجة عند دخوله لكونه سبباً لقربك و وسيلة إلى فوزك ، فاستعدّ له بالطهارة و النظافة و لبس الثياب الصالحة للمناجاة كما تتأهّب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا ، و تلقّاه بالوقار و السكينة و الخوف و الرجاء ، قال : و استحضر عظمة الله و جلاله و نقصان قدرك و كماله .

وقد روي عن بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قالت :كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيء ، وكان عليّ عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل فيقال له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها ، وكان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا حضر الوضوء اصفرّ لونه إلى غير ذلك .

(١) راجع اسرار الصلاة ص ١٨٦ و ١٨٥.

﴿فصل﴾

قال أبو حامد : « و أمّا الطهارة فإذا أتيت بها في مكانك و هو ظرفك الأبعد ، ثمّ في ثيابك و هو غلافك الأقرب ، ثمّ في بشرتك و هي قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبّك الّذي هو ذاتك و هو قلبك ، فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على مافرط ، وتصميم العزم على الترك في المستقبل ، فطهّر بها باطنك فإنّه موضع نظر معبودك » .

أقول : و قد ذكرنا في كتاب أسرار الطهارة كلاماً عن مولانا الصادق عليه السلام وآخر عن بعض علمائنا فتذكّر .

﴿فصل﴾

قال أبو حامد : « و أمّا سترالعورة فاعلم ، أنّ معناه تغطية مقابح بدنك من أبصار الخلق ، فإنّ ظاهربدنك موقع نظر الخلق فما رأيك في عورات باطنك و فضائح سرّك الّتي لا يطّلع عليها إلّا ربّك ، فاخطر تلك الفضائح ببالك ، و طالب نفسك بسترها و تحقّق أنّه لايستتر عن عين الله سبحانه ساتر ، وإنّما يكفرها الندم و الحياء و الخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكا منهما فتذلّ به نفسك و تستكين تحت الخجلة قلبك و تقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيىء الآبق الّذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء و الخوف » .

أقول : وفي مصباح الشريعة قال مولانا الصادق عليه السلام : « أزين اللّباس للمؤمنين لباس التقوى ، وأنعمه الإيمان قال الله عزّ وجلّ : « ولباس التقوى ذلك خيرٌ »[1] و أمّا اللّباس الظاهر فنعمة من الله يستر بها عورات بني آدم ، و هي كرامة أكرم الله بها عباده ذريّة آدم عليه السلام ما لم يكرم بها غيرهم وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم ، وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله تعالى بل يقرّبك من شكره وذكره وطاعته ولا يحملك إلى العجب و الرياء و التزيّن و المفاخرة و الخيلاء فإنّها من آفات الدّين و مورثة القسوة في

(١) الاعراف : ٢٦ .

القلب ، و إذ لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته ، و ألبس باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك وليكن باطنك في ستر الرهبة و ظاهرك في ستر الطاعة واعتبر بفضل الله عزّ و جلّ حيث خلق أسباب اللّباس لتستر العورات الظاهرة و فتح أبواب التوبة و الإنابة لتستر بها عورات الباطن من الذّنوب و أخلاق السوء ، ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك أعظم منه ، واشتغل بعيب نفسك ، واصفح عمّا لا يعنيك حاله و أمره و احذر أن يفني عمرك بعمل غيرك و يتّجر برأس مالك غيرك و تهلك نفسك ، فإنّ نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل و أو فر أسباب العقوبة في الآجل ، و ما دام العبد مشتغلاً بطاعة الله ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل على الآفات ، غائص في بحر رحمة الله تعالى يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة و البيان ومادام ناسياً لذنوبه جاهلاً لعيوبه راجعاً إلى حوله و قوّته لايفلح إذاً أبداً [(١)]».

«فصل»

أقول : وأمّا المكان فقدقال بعض علمائنا[(٢)] - رحمهم‌الله - : استحضر فيه أنّك كائن بين يدي ملك الملوك تريد مناجاته و التضرّع إليه و التماس رضاه و نظره إليك بعين الرّحمة ، فانظر مكاناً يصلح لذلك كالمساجد الشريفة و المشاهد المطهّرة مع الإمكان فإنّه تعالى جعل تلك المواضع محالاً لاجابته و مظنّة لقبوله و رحمته ، و معدناً لمرضاته و مغفرته على مثال حضرة الملوك الّذين يجعلونها وسيلة لذلك فادخلها ملازماً للسّكينة و الوقار و مراقباً للخشوع و الانكسار ، سائلاً أن يجعلك من خلّص عباده و أن يلحقك بالماضين منهم ، و راقب الله كأنّك على الصراط جائز ، وكن متردّداً بين الخوف و الرجاء و بين القبول و الطرد ، فيخشع حينئذ قلبك و يخضع لبّك و تتأهّل لأن يفيض عليك الرّحمة و تنالك يد العاطفة ، وترعاك عين العناية ، قال الصادق عليه‌السلام : « إذا بلغت باب المسجد فاعلم أنّك قصدت ملكاً عظيماً لا يطأ بساطه إلّا المطهّرون ، و لا يؤذن لمجالسته إلّا

(١) الى هنا منقول من مصباح الشريعة الباب السابع . (٢) اسرار الصلاة ص ١٨٤.

الصدّيقون ، وهب القدوم إلى بساط خدمته هيبة الملك فإنّك على خطر عظيم إن غفلت ، و اعلم أنّه قادر على ما يشاء من العدل و الفضل معك و بك ، فإن عطف عليك بفضله و رحمته قبل منك يسير الطاعة و أجزل عليها ثواباً كثيراً ، و إن طالبك باستحقاقه الصدق والاخلاص عدلاً بك حجبك و ردّ طاعتك و إن كثرت و هو فعّال لما يريد ، و اعترف بعجزك و تقصيرك و فقرك بين يديه فإنّك قد توجّهت للعبادة له و المؤانسة به و اعرض أسرارك عليه و ليعلم أنّه لا يخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين و علانيتهم ، و كن كأفقر عباده بين يديه ، وأخل قلبك عن كلّ شاغل يحجبك عن ربّك فإنّه لا يقبل إلّاالأطهر و الأخلص ، فانظر من أي ديوان يخرج اسمك فإن ذقت من حلاوة مناجاته و لذيذ مخاطباته و شربت بكأس رحمته و كراماته من حسن إقباله عليك و اجاباته ، و قد صلحت لخدمته فادخل فلك الإذن والأمان وإلّا فقف وقوف مضطرّ قد انقطع عنه الحيل و قصر عنه الأمل و قضى الأجل ، و إذا علم الله من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر إليك بعين الرأفة و الرّحمة و العطف ، و وفّقك لما يحبّ و يرضى فإنّه كريم يحبّ الكرامة لعباده المضطرّين إليه المحدقين على بابه لطلب مرضاته قال الله تعالى : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه » (۱) .

فصل

قال أبوحامد : « و أمّا الاستقبال فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله ، أفترى أنّ صرف القلب من سائر الأمور إلى أمر الله ليس مطلوباً منك هيهات فلامطلوب سواه و إنّما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالاثبات في جهة واحدة حتّى لا تبغي على القلب فإنّها إذا بغت و ظلمت في حركاتها إلى جهاتها استتبعت القلب و انقلبت به عن وجه الله ، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك ، واعلم أنّه كما لا يتوجّه الوجه إلى جهة البيت إلّا بالصرف عن غيرها فلا ينصرف القلب

(۱) النمل : ٦٢ . والخبر في مصباح الشريعة الباب الثاني عشر .

إلى الله تعالى إلّا بالتفرّغ عمّا سوى الله تعالى ، و قد قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إذا قام العبد إلى صلاته و كان هواه و قلبه إلى الله انصرف كيوم ولدته اُمّه »[١] .

أقول : و ممّا روي في هذا الباب عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : « أما يخاف الّذي يحوّل وجهه في الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار[٢] » قيل : هذا نهي عن الالتفات عن الله و ملاحظة عظمته في حال الصلاة ، فإنّ الملتفت يميناً و شمالاً ملتفت عن الله تعالى و غافل عن مطالعة أنوار كبريائه و من كان كذلك فيوشك أن يدوم تلك الغفلة عليه فيتحوّل وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلّة عقله للأمور العلوية و عدم فهمه للعلوم ، و عن مولانا الصادق عليه السلام : « إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا و ما فيها والخلق وما هم فيه ، و استفرغ قلبك من كلّ شاغل يشغلك عن الله تعالى ، وعاين بسرّك عظمة الله ، واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كلّ نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحق ، وقف على قدم الخوف و الرجاء »[٣] .

فصل

قال أبوحامد : « و أمّا الإعتدال قائماً فهو مثول بالشخص و القلب بين يدي الله ، فليكن رأسك الّذي هو أرفع أعضائك مطرقاً متطأطاً متنكّساً ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع و التذلّل والتبرّي عن الترأس و التكبّر ، وليكن على ذكرك ههنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطّلع[٤] عند التعرّض للسؤال ، و اعلم في الحال أنّك قائم بين يدي الله و هو مطّلع عليك ، فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدّر في دوام قيامك في صلاتك

(١) و (٢) نقلهما الشهيد الثاني ـ رحمه الله ـ فى اسرار الصلاة .

(٣) مصباح الشريعة الباب الثالث عشر .

(٤) المطلع ـ بفتح اللام ـ قال الجزرى هو مكان الاطلاع من موضع عال ، يقال : مطلع هذا الجبل من مكان كذا أى مأتاه و مصعده .

أنّك ملحوظ و مرقوب بعين كالئة[1] من رجل صالح من أهلك أو ممّن ترغب في أن يعرفك بالصلاح ، فإنّه يهدأ عند ذلك أطرافك و يخشع جوارحك و يسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلّة الخشوع ، و إذا أحسست من نفسك التماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك و قل لها : إنّك تدّعين معرفة الله و حبّه أفلا تستحين من اجترائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين النّاس ولا تخشينه و هو أحقّ أن يخشى ، ولذلك لماقيل للنبيّ ﷺ : كيف الحياء من الله فقال : «تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من أهلك»[2] .

﴿فصل﴾

أقول : وأمّا التوجّه فقد قال بعض علمائنا[3] : إذا توجّهت بالتكبيرات فاستحضر عظمة الله سبحانه و صغر نفسك و خسّة عبادتك في جنب عظمته و انحطاط همّتك عن القيام بوظائف خدمته و استتمام حقائق عبادته ، و تفكّر عند قولك : « اللّهمّ أنت الملك الحقّ» في عظيم ملكه و عموم قدرته و استيلائه على جميع العوالم ثمّ ارجع على نفسك بالذّل و الانكسار و الاعتراف بالذّنوب و الاستغفار عند قولك : « عملت سوءاً و ظلمت نفسي فاغفرلي إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت » و احضر دعوته لك بالقيام بهذه الخدمة ، و مثّل نفسك بين يديه و أنّه قريب منك يجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه ، ويسمع نداءه ، و أنّ بيده خير الدنيا و الآخرة لا بيد غيره عند قولك : « لبيك و سعديك و الخير في يديك » و نزّهه من الأعمال السيّئة و أفعال الشرّ و أبدله بها محض الهداية و الإرشاد عند قولك : « و الشرّ ليس إليك ، و المهديّ من هديت » و اعترف له بالعبودية و أنّ قوام وجودك و بدءه ومعاده منه بقولك : «عبدك وابن عبديك ، منك وبك ولك وإليك» أي

(۱) أكلاه بصره في الشيء : ردده فيه مصوبا ومصعداً .

(۲) قال العراقي : أخرجه الخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث ابي هريرة ، و روى البيهقي في شعب الايمان من حديث سعيد بن زيد نحوه مرسلا .

(۳) يعني به الشهيد الثاني ـ رحمه الله ـ في اسرار الصلاة ص ۱۸۷ .

منك وجوده ، و بك قوامه ، و لك ملكه ، و إليك معاده ، و هو الّذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده ، و هو أهون عليه ، وله المثل الأعلى ، فاحضر في ذهنك هذه الحقائق و ترقّ منها إلى ما يفتح عليك من الأسرار و الدّقائق و تلقّى الفيض من العالم الأعلى .

﴿فصل﴾

قال أبو حامد : « و أمّا النيّة فاعزم على إجابة الله تعالى في امتثال أمره بالصلاة و إتمامها ، والكفّ عن نواقضها و مفسداتها ، و إخلاص جميع ذلك لوجه الله رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه ، و طلباً للقربة منه ، متقلّداً للمنّة بإذنه إيّاك في المناجاة مع سوء أدبك و كثرة عصيانك ، و عظّم في نفسك قدر مناجاته ، وانظر من تناجي و كيف تناجي ، وبما ذا تناجي ، و عند هذا ينبغي أن تعرق جبينك من الخجلة ، و ترتعد فرائصك من الهيبة و يصفرّ وجهك من الخوف » .

أقول : روي عن مولانا الصادق عليه السلام : « أنّ الإخلاص بجميع حواصل الأعمال و هو معنى مفتاحه القبول » (١) و أدنى حدّ الإخلاص بذل العبد طاقته ، ثمّ لا يجعل لعمله عند الله قدراً فيوجب به على ربّه مكافاته بعمله لعلّه أنّه لو طالبه بوفاء حقّ العبوديّة لعجز ، و أدنى مقام المخلص لله في الدنيا السلامة من جميع الآثام و في الآخرة النجاة من النار ، و الفوز بالجنّة ، و قال عليه السلام : صاحب النيّة الصادقة صاحب القلب السليم لأنّ سلامة القلب من هواجس المحذورات تخلّص النيّة لله في الأمور كلّها ، قال الله تعالى : « يوم لا ينفع مال و لا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم » (٢) ثمّ النيّة تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات في معني قوّته و ضعفه و صاحب النيّة الخالصة نفسه وهواه معه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله و الحياء منه .

(١) نقله المحدث النورى عن مصباح الشريعة وفيه « الاخلاص يجمع فواضل الاعمال » . وهو معنى مفتاحه القبول » راجع المستدرك ج ١ ص ١٠ لكن فى اسرار الصلاة مثل ما فى المتن .
(٢) مصباح الشريعة الباب الرابع ، والاية فى الشعراء : ٨٩ .

﴿فصل﴾

أقول: و أمّا التكبير فمعناه أنّ الله سبحانه أكبر من كلّ شيء، أو أكبر من أن يوصف، أو أن يدرك بالحواسّ، أو يقاس بالناس.

قال أبو حامد: «فاذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذّبه قلبك و إن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله تعالى فالله يشهد أنّك كاذب و إن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم إنّه صلّى الله عليه و آله رسول الله، فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله و أنت أطوع له منك لله فقد اتّخذته إلهك و كبّرته، فيوشك أن يكون قولك الله أكبر كلاماً باللّسان المجرد و قد تخلّف القلب عن مساعدته و ما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة و الاستغفار و حسن الظنّ بكرم الله وعفوه».

أقول: و في مصباح الشريعة [1] عن الصادق عليه السلام «إذا كبّرت فاستصغر ما بين السماوات العلى و الثرى دون كبريائه، فإنّ الله تعالى إذا اطّلع على قلب العبد و هو يكبّر و في قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أتخدعني و عزّتي و جلالي لأحرمنّك حلاوة ذكري و لأحجبنّك عن قربي و المسرّة بمناجاتي».

فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك فإن كنت تجد حلاوتها و في نفسك سرورها و بهجتها و قلبك مسروراً بمناجاته ملتذّاً بمخاطباته فاعلم أنّه قد صدّقك في تكبيرك له و إلّا فقد عرفت من سلب لذّة المناجاة و حرمان حلاوة العبادة أنّه دليل على تكذيب الله لك و طردك عن بابه.

﴿فصل﴾

قال أبو حامد: «وأمّا دعاء الاستفتاح فأوّل كلماته قولك: «وجّهت وجهي للّذي فطر السماوات و الأرض حنيفاً مسلماً» و ليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنّك إنّما

(١) الباب الثالث عشر.

وجّهته إلى جهة القبلة و الله سبحانه يتقدّس عن أن يحدّه الجهات حتّى تقبل بوجه بدنك عليه ، و إنّما وجه القلب هو الّذي يتوجّه به إلى فاطر السماوات و الأرض فانظر إليه أمتوجّه هو إلى أمانيه وهممه في البيت و السوق ، و متّبع للشهوات أم مقبل على فاطر السماوات و الأرض و إيّاك و أن يكون أوّل مفاتحتك للمناجاة بالكذب و الاختلاق و لن ينصرف الوجه إلى الله إلّا بانصرافه عمّا سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه و إن عجزت عنه على الدوام ليكون قولك في الحال صدقاً و إذا قلت : «حنيفاً مسلماً» فينبغي أن يخطر ببالك أنّ المسلم هو الّذي سلم المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال و تندم على ما سبق من الأحوال ، و إذا قلت : «وما أنا من المشركين» فاخطر ببالك الشرك الخفيّ فإنّ قوله تعالى : «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً و لا يشرك بعبادة ربّه أحداً »[1] نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس وكن منفيّاً من هذا الشرك ، واستشعر الخجلة في قلبك أن وصفت نفسك بأنّك لست من المشركين من غير براءة من هذا الشرك فإنّ اسم الشرك يقع على القليل و الكثير منه ، و إذا قلت محياي و مماتي لله فاعلم أنّ هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيّده و أنّه إن صدر ممّن رضاه و غضبه و قيامه و قعوده و رغبته في الحياة و رهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائماً للحال ، و إذا قلت : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فاعلم أنّه عدوّك و مترصّد لصرف قلبك عن الله ، حسداً لك على مناجاتك مع الله و سجودك له مع أنّه لعن بسبب سجدة واحدة تركها و لم يوفّق لها وإنّ استعاذتك بالله منه بترك ما يحبّه و تبديله بما يحبّ الله لا بمجرّد قولك و إنّ من قصده سبعٌ أوعدوٌ ليفترسه أو يقتله فقال : « أعوذ منك بذلك الحصن الحصين» و هو ثابت على مكانه إنّ ذلك لا ينفعه بل لا يعيذه إلّا تبديل المكان فكذلك من يتّبع الشهوات الّتي هي محابّ الشيطان و مكاره الرّحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقترن قوله بالعزم على التعوّذ بحصن الله عزّ و جلّ عن شرّ الشيطان و حصنه لا إله إلّا الله إذ قال تعالى فيما أخبر عنه

---

(١) الكهف : ١١٠ .

نبيّنا صلى الله عليه وآله « لا إله إلّا الله حصني » (١) و المتحصّن به من لا معبود له سوى الله فأمّا من اتّخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله ، و اعلم أنّ من مكائده أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة و تدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ ، فاعلم أنّ كلّ ما يشغلك عن معاني قراءتك فهو وسواس فإنّ حركة اللّسان غير مقصودة بل المقصود معانيها ، وأمّا القراءة فالنّاس فيها ثلاثة رجل يتحرّك لسانه وقلبه غافل ، و رجل يتحرّك لسانه و قلبه يتبع اللّسان فيسمع و يفهم منه كأنّه يسمعه من غيره و هو درجة أصحاب اليمين ، و رجل يسبق قلبه إلى المعاني أوّلا ثمّ يخدم اللّسان قلبه فيترجمه ، ففرق بين أن يكون اللّسان ترجمان القلب أو يكون معلّم القلب ، و المقرّبون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب» .

✲ (تفصيل ترجمان المعاني) ✲

« إنّك إذا قلت : « بسم الله الرّحمن الرّحيم » فانو به التبرّك لابتداء القراءة لكلام الله ، و افهم أنّ معناه أنّ الأمور كلّها بالله و أنّ المراد بالاسم ههنا هو المسمّى و إذا كانت الأمور بالله فلا جرم كان « الحمد لله » و معناه أنّ الشكر لله إذ النعم من الله و من يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله بشكر لا من حيث أنّه مسخّر من الله ففي تسميته و تحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله ، فإذا قلت : « الرّحمن الرّحيم» فأحضر في قلبك أنواع لطفه ليتّضح لك رحمته فينبعث به رجاؤك ، ثمّ استثر من قلبك له التعظيم و الخوف بقولك : « مالك يوم الدّين » أمّا العظمة فلأنّه لا ملك إلّا له و أمّا الخوف فلهول يوم الجزاء و الحساب الّذي هو مالكه ، ثمّ جدّد الإخلاص بقولك : « إيّاك نعبد» و جدّد العجز و الاحتياج و التبرّي عن الحول و القوّة بقولك : « إيّاك نستعين » و تحقّق أنّه ما تيسّرت طاعتك إلّا بإعانته و أنّ له المنّة إذ وفّقك لطاعته ، و استخدمك لعبادته ، و جعلك أهلاً لمناجاته و لو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللّعين ، ثمّ إذا فرغت عن التعوّذ ومن قولك : « بسم الله » و عن التحميد وعن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعيّن سؤالك ولا تطلب إلّا أهمّ حاجاتك وقل : « اهدنا الصراط المستقيم»

(١) في الحديث المعروف بحديث سلسلة الذهب راجع عيون اخبار الرضا ص ٢٧٥.

الّذي يسوقنا إلى جوارك و يفضي بنا إلى مرضاتك ، وزده شرحاً و تفصيلاً و تأكيداً واستشهاداً بالّذين أفاض عليهم نعمةالهداية منالنبيّين والصدّيقين و الشهداء والصالحين ، دون الّذين غضب عليهم من الكفّار و الزائغين من اليهود و النصارى و الصابئين ، فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبهأن تكون ممّن قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « قسّمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين ، نصفها لي و نصفها لعبدي ، يقول العبد : « الحمد لله ربّ العالمين » فيقول الله : حمدني عبدي و أثنى عليّ و هو معنى قوله : « سمع الله لمن حمده » ـ الحديث إلى آخره ـ »[1] فإن لم يكن لك من صلواتك حظّ سوى ذكر الله في جلاله و عظمته فناهيك به غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه و فضله و كذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من السورة كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن فلا تغفل عن أمره و نهيه و وعده و وعيده و مواعظه و أخبار أنبيائه و ذكر مننه و إحسانه فلكلّ واحد حقّ فالرّجا حقّ الوعد ، و الخوف حقّ الوعيد ، و العزم حقّ الأمر والنهي ، والاتّعاظ حقّ الموعظة ، و الشكر حقّ ذكر المنّة ، و الاعتبار حقّ أخبار الأنبياء ، و تكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم و يكون الفهم بحسب وفور العلم و صفاء القلب ، و درجات ذلك لا تنحصر و الصلاة مفتاح القلوب فبها ينكشف أسرار الكلمات فهذا حقّ القراءة و هو حقّ الأذكار و التسبيحات أيضاً ، ثمّ يراعي الهيئة في القراءة فيرتّل و لا يسرد ولا يعجّل فإنّ ذلك أيسر للتأمّل ويفرّق بين نغماته في آية الرّحمة و العذاب ، والوعد و الوعيد ، و التحميد و التعظيم ، و التقديس و التسبيح و التمجيد ،كان بعضهم إذا مرّ بمثل قوله تعالى : « ما اتّخذ الله من ولد و ما كان معه من إله » يغضّ صوته كالمستحي

---

(١) أخرجه مسلم ج ٢ ص ٩ عن ابى هريرة في حديث قال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : قال الله تعالى قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين و لعبدى ما سأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى : حمدنى عبدى ، و اذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى على عبدى ، و اذا قال : مالك يوم الدين ، قال مجدنى عبدى ، واذا قال : اياك نعبد و اياك نستعين ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فاذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ولعبدى ماسأل . وأخرجه أيضاً النسائي ج٢ ص١٣٦.

عن أن يذكره بكلّ شيء ويقال لصاحب القرآن : « اقرء وارق ، و رتّل كما كنت ترتّل في الدنيا » [1].

أقول : و مثله ورد عن أهل البيت عليهم السلام من طريق الخاصّة أيضاً و سنذكر في كتاب تلاوة القرآن كلاماً عن الصادق عليه السلام في هذا الباب إن شاء الله .

﴿فصل﴾

« و أمّا دوام القيام فهو تنبيه على إقامة القلب مع الله على نعت واحد من الحضور قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الله مقبل على المصلّي ما لم يلتفت » [2] و كما تجب حراسة الرأس و العين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السرّ عن الالتفات إلى غير الصلاة فإن التفت إلى غيرها فذكّره باطّلاع الله عليك و قبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجي ليعود إليه ، و ألزم الخشوع للقلب فإنّ الخلاص عن الالتفات باطناً و ظاهراً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم وقد رأى مصلّياً يعبث بلحيته : « أمّا هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » [3] فإنّ الرعيّة بحكم الراعي و لهذا ورد في الدعاء « اللّهمّ أصلح الراعي و الرّعيّة » [4] و هو القلب و الجوارح و كلّ ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظّم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك ، ومن يطمئنّ بين يدي غير الله خاشعاً و تضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى فذلك لقصور معرفته عن جلال الله و عن إطّلاعه على سرّه و ضميره وتدبّر قوله تعالى : « الّذي يراك حين تقوم * و تقلّبك في الساجدين » [5].

---

(١) أخرجه النسائي ج ١ ص٣٣٨ . والترمذي ج ١١ ص٣٦ . ورواه الصدوق في ثواب الاعمال ص ١٢٤ .

(٢) أخرجه أبوداود ج ١ص ٢٠٩ ، وأخرجه النسائي والدارمي أيضاً كما في مشكاة المصابيح ج ١ ص ٩١ .

(٣) مر سابقاً .

(٤) ما عثرت على اصل له في كتب الفريقين .

(٥) الشعراء : ٢١٨ و ٢١٩ .

﴿فصل﴾

« وأمّا الركوع والسجود فينبغي أن تجدّد عندهما ذكر كبرياء الله وترفع يديك مستجيراً بعفو الله من عقابه ، و متّبعاً سنّة نبيّه صلى الله عليه وآله ، ثمّ تستأنف له ذلّا و تواضعاً بركوعك ، و تجتهد في ترقيق قلبك و تجديد خشوعك ، و تستشعر ذلك عزّ مولاك و اتّضاعك و علوّ ربّك ، و تستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك ، فتسبّح ربّك و تشهدله بالعظمة وأنّه أعظم من كلّ عظيم و تكرّر ذلك على قلبك لتؤكّده بالتكرار ، ثمّ ترتفع من ركوعك راجياً أنّه راحمٌ ذلّك وتؤكّدالرّجاء في نفسك بقولك : « سمع الله لمن حمده » أي أجاب الله لمن شكره ، ثمّ تردف ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد فتقول : « الحمد لله ربّ العالمين » .

أقول : ثمّ تزيد في الخشوع و التذلّل فتقول : أهل الكبرياء و العظمة و الجود و الجبروت .

و في الفقيه[1] « عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل عن معنى مدّ العنق في الرّكوع فقال : تأويله آمنت بك و لو ضربت عنقي » .

و في مصباح الشريعة [2] عن الصادق عليه السلام « لا يركع عبد لله ركوعاً على الحقيقة إلّا زيّنه الله تعالى بنور بهائه وأظلّه في ظلال كبريائه و كساه كسوة أصفيائه ، والرّكوع أوّل والسجود ثان ، فمن أتى بمعنى الأوّل صلح للثاني ، وفي الرّكوع أدب و في السجود قربٌ ، و من لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب ، فاركع ركوع خاضع لله عزّوجلّ بقلبه مُتذلّل وجل تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين ، و حكي أنّ ربيع بن خثيم كان يسهر باللّيل إلى الفجر في ركعة واحدة فإذا هو أصبح يزفر و قال : آه سبق المخلصون و قُطع بنا . و استوف ركوعك باستواء ظهرك و انحطّ عن همّتك في القيام بخدمته إلّا بعونه ، و فرّ بالقلب من وساوس

---

(١) ص ٨٥ تحت رقم ٢٥ . (٢) الباب الخامس عشر .

الشيطان و خدائعه و مكائده ، فإنّ الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له ، و يهديهم إلى أُصول التواضع و الخضوع و الخشوع بقدر اطّلاع عظمته على سرائرهم » .

قال أبو حامد : « ثمّ تهوي إلى السجود و هو أعلى درجات الاستكانة ، فمكّن أعزّ أعضائك و هوالوجه من أذلّ الأشياء وهو التراب ، و إن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنّه أجلب للخضوع و أدلّ على الذلّ ، و إذا وضعت نفسك موضع الذلّ فاعلم أنّك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله ، فإنّك من التراب خلقت و إليه رددت ، فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل : « سبحان ربّي الأعلى » و أكّده بالتّكرار فإنّ المرّة الواحدة ضعيفة الآثار ، فإذا رقّ قلبك وطهر لبّك فليصدق رجاؤك في رحمة ربّك ، فإنّ رحمته تتسارع إلى الضعف و الذّل لا إلى التكبّر و البطر فارفع رأسك مكبّراً وسائلاً حاجتك ومستغفراً من ذنوبك ، ثمّ أكّد التواضع بالتكرار وعد إلى السجود ثانياً كذلك» .

أقول : و في الفقيه [1] عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل ما معنى السجدة الأُولى ؟ قال : « تأويلها اللّهمّ إنّك منها خلقتنا » يعني من الأرض ، وتأويل رفع رأسك « و منها أخرجتنا » والسجدة الثانية « وإليها تعيدنا » ، ورفع رأسك « ومنها تخرجنا تارة أُخرى » .

وفي مصباح الشريعة [2] عن الصادق عليه السلام « ماخسر والله من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرّة واحدة ، و ما أفلح من خلا بربّه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه غافل لاه عمّا أعدّ الله للساجدين من أُنس العاجل و راحة الآجل ، ولا بعُد عن الله أبداً من أحسن تقرّبه في السجود ، ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده ، فاسجد سجود متواضع لله ، ذليل علم أنّه خُلق من تراب تطأه الخلق ، و أنّه ركّب من نطفة يستقذرها كلّ أحد [و كوّن ولم يكن] و قد جعل الله معنى السجود سبب التقرّب إليه بالقلب والسرّ والرّوح ، فمن قرب منه بعُد من غيره ، ألا ترى في الظاهر أنّه لا يستوي حال السجود إلّا بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كلّ ماتراه العيون كذلك [أراد الله] أمر الباطن فمن كان قلبه متعلّقاً في

(١) المصدر ص ٨٦ تحت رقم ٣٢ . (٢) الباب السادس عشر .

صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء بعيدٌ عن حقيقة ماأراداللّه منه في صلاته ، قال الله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين فيجوفه » وقال رسول‌الله ﷺ : « قال الله تعالي : لاأطّلع على قلب عبد فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعة وجهي ، و ابتغاء مرضاتي إلّا تولّيت‌تقويمه وسياسته [وتقرّبت منه] ومن اشتغل فيصلاته بغيري فهومن المستهزئين بنفسه مكتوب اسمه في ديوان الخاسرين » .

﴿ فصل ﴾

قال بعض علمائنا (١): إذا جلست للتّشهد بعد هذه الأفعال الدقيقة و الأسرار العميقة المشتملة على الأخطار الجسيمة و الأهوال العظيمة فاستشعر الخوف التامّ والرهبة والحياء و الوجل أن يكون جميع ماسلف منك غير واقع على وجهه ولا محصلاً لوظيفته و شرطه ، ولا مكتوباً في ديوان المقبولين ، فاجعل يدك صفراً من فوائد ها ، إلّا أن يتدارككَ الله برحمته ويقبّل عملك‌الناقص بفضله وارجع إلى مبدء الأمروأصل الدّين و استمسك بكلمة التوحيد و حصن الله تعالى الّذي من دخله كان‌آمناً إن لم يكن‌حصل في يدك غيره و اشهد له بالوحدانيّة وأحضر رسوله الكريم و نبيّه العظيم ﷺ ببالك واشهد له بالعبوديّةوالرسالة وصلّ عليه وعلىآله ، مجدّداً عهدالله بإعادة كلمتي الشهادة متعرّضاً بهما لتأسيس مراتب العبادة فإنّهما أوّل الوسائل وأساس الفواضل و جماع أمر الفضائل ، مترقّباً لإجابته ﷺ لك بصلاتك عشراً من صلاته إذا قمت بحقيقة صلاتك عليه الّتي لو وصل إليك منها واحدة أفلحت أبداً .

وقال الصادق عليه السلام : « التشهّد ثناء علىالله فكن عبداً له في السرّ، خاضعاً له في الفعل كما أنّك له عبدٌ بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرّك ، فإنّه خلقك عبداً وأمركأن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقّق عبوديّتكله بربوبيّته لك و تعلم أنّ نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظة إلّا بقدرته و مشيّته و هم

(١) يعني به الشهيد ـ رحمه الله ـ فياسرار الصلاة .

عاجزون عن إتيان أقلّ شيء في مملكته إلّا بإذنه و إرادته، قال الله عزّ وجلّ: «وربّك يخلق مايشاء و يختار ما كان لهم الخيرة (من أمرهم) سبحان الله وتعالى عمايشركون»(١) فكن لله عبداً ذاكراً بالقول و الدعوى، وصل صدق لسانك بصفاء سرّك، فإنّه خلقك فعزّ وجلّ أن تكون إرادة و مشيّة لأحد إلّا بسابق إرادته ومشيّته فاستعمل العبوديّة في الرّضاء بحكمته وبالعبادة في أداء أوامره وقد أمرك بالصلاة على نبيّه محمّد ﷺ فأوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته، وانظر ألّا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته و أمره بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر و النهي والسنن والآداب وتعلم جليل مرتبته عند الله عزّ وجلّ (٢).

﴿ فصل ﴾

قال بعض علمائنا: و إذا فرغت من التشهّد فأحضر نفسك بحضرة سيّد المرسلين والملائكة المقرّبين و قل: السلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته إلى آخر التسليم المستحبّ، ثمّ أحضر في بالك النبيّ ﷺ و بقيّة أنبياء الله و أئمّته عليهم السلام و الحفظة لك من الملائكة المقرّبين المحصين لأعمالك وقل: السلام عليكم ورحمة الله و بركاته. ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك فتكون من العابثين واللّاعبين، وكيف يسمع الخطاب لمن لايقصد لولا فضل الله تعالى و رحمته الشاملة ورأفته الكاملة في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب و إن كان بعيداً عن درجات القبول، منحطّاً عن أوج القرب والوصول، وإن كنت إماماً لقوم فاقصدهم بالسلام مع من تقدّم من المقصودين وليقصدوا هم الرّد عليك أيضاً ثمّ يقصدوا مقصدك بسلام ثان، فإذا فعلتم ذلك فقد أدّيتم وظيفة السلام و استحققتم من الله عزّ وجلّ مزيد الإكرام، و أصل السلام مشترك بين التحيّة الخاصّة و بين الاسم المقدّس من أسماء الله تعالى و المعني هنا على الأوّل ظاهر

(١) القصص: ٦٨.

(٢) مصباح الشريعة الباب السابع عشر.

و على الثاني يكون مستعاراً في الخلق بإذن الله تعالى للتفأل بالسلام والأمان من عذاب الله تعالى لمن قام بحدوده .

قال الصادق عليه السلام : «معنى السلام في دبر كلّ صلاة الأمان» أي من أدّى أمر الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله خاضعاً له خاشعاً منه فله الأمان من بلاء الدّنيا و براءة من عذاب الآخرة . و السلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات و الأمانات والانصافات ، و تصديق مصاحبتهم و مجالستهم فيما بينهم ، وصحّة معاشرتهم و إن أردت أن تضع السلام موضعه وتؤدّي معناه فاتّق الله وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ألّا تدنّسها بظلمة المعاصي ، و لتسلم منك حفظتك أن لا تبرمهم و لا تملّهم و توحشهم منك بسوء معاملتك معهم ، ثمّ صديقك ثمّ عدوّك فإنّ من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى ، و من لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق[1] » .

﴿ فصل ﴾

قال أبوحامد : « ثمّ ادع في آخر صلاتك يعني بعد التشهد بالدّعاء المأثور مع التواضع والخشوع ، والضراعة والابتهال ، وصدق الرّجاء بالاجابة وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين ، و اقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين ، و انو ختم الصّلاة به ، واستشعر شكر الله تعالى على توفيقه لإتمام هذه الطاعة ، وتوهّم أنّك مودّع لصلاتك هذه وأنّك ربما لا تعيش لمثلها ، قال صلى الله عليه وآله : « صلّ صلاة مودّع» ثمّ أشعر قلبك الوجل و الحياء من التقصير في الصلاة و خف أن لا يقبل صلاتك و أن تكون ممقوتاً بذنب ظاهر أو باطن فتردّ صلاتك في وجهك و ترجو مع ذلك أن يقبلها بفضله و كرمه ، فهذا تفصيل صلاة الخاشعين الّذين هم على صلواتهم يحافظون ، و الّذين هم على صلاتهم دائمون ، و الّذين هم يناجون الله تعالى على قدر استطاعتهم في العبودية ، فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة فبالقدر الّذي تيسّر له منها ينبغي أن يفرح و على ما يفوته ينبغي أن

(١) مصباح الشريعة الباب الثامن عشر .

يتحسّر ، و في مداومة ذلك ينبغي أن يجتهد ، وأمّا صلاةالغافلين فإنّها مخطرة إلّا أن يتغمّده الله برحمته والرّحمة و اسعة و الكرم فائض ، فنسأل الله تعالى أن يغمرنا برحمته و يتغمّدنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلّا الاعتراف بالعجزعن القيام بطاعته ، و اعلم أنّ تخليص الصلاة عن الآفات و إخلاصها لوجه الله وأداء ها بالشروط الباطنة الّتي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب ، تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة ، فأولياء الله المكاشفون بملكوت السماوات والأرض وأسرارالربوبيّة إنّما يكاشفون في الصّلاة لاسيّما في السجود إذ يتقرّب العبد بالسجود و لذلك قال تعالى : « واسجدواقترب » ويكون مكاشفة كلّ مصلّ على قدرصفائه عن كدورات الدّنيا ويختلف ذلك بالقوّة والضعف والقلّة والكثرة والجلاء والخفاء حتّى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه و ينكشف لبعضهم الشيء بمثاله ،كما كشف لبعضهم الدّنيا في صورة جيفة والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعوإليها ، و يختلف أيضاً بما فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله وجلاله ولبعضهم من أفعاله و لبعضهم من دقائق علوم المعاملة وتكون لتعيّن تلك المعاني في كلّ وقت أسباب خفيّة لاتحصى وأشدّها منا سبة الهمّة فإنّها إذا كانت مصروفة إلى شيء معيّن كان ذلك أولى بالانكشاف ، و لمّا كانت هذه الأمورلاتترا ءى إلّا في المرائي الصّقيلة ، وكانت المرائي كلّها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لاببخل من جهة المنعم بالهداية بل بخبث متراكم الصدء على مصبّ الهداية و تسارعت الألسنة إلى إنكارمثل ذلك إذ الطبع مَجبول على إنكار غيرالحاضر ، ولوكان للجنين عقل مثلاً لأنكرإمكان وجود إنسان في متّسع الهواء ، ولوكان للطفل تمييزمّا ربما أنكرما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السماوات والأرض وهكذاالإنسان في كلّ طوريكاد ينكر ما بعده ومن أنكر طورالولاية لزمه أن ينكر طور النّبوّة ، و قد خُلق الخلق أطواراً فلا ينبغي أن ينكر كلّ واحد ماوراء درجته نعم لمّاطلبواهذا من المجادلة والمباحثة المشوّشة ولم يطلبوه من تصفية القلب عمّاسوى الله فقدوه فأنكروه ، ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقلّ من أن يؤمن بالغيب و يصدّق به إلى أن يشاهد بالتجربة ففي الخبر « إنّ العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه و بين عبده و واجهه بوجهه و قامت الملائكة من

لدن منكبيه إلى الهواء يصلّون بصلاته و يؤمّنون على دعائه ، و إنّ المصلّي لينثر عليه البرّ من أعنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه مناد لوعلم المصلّي من يناجي ماالتفت ، وإنّ أبواب السماء تفتح للمصلّين وإنّ الله يباهي ملائكته بصدق المصلّي فتفتح أبواب السّماء»[١] ومواجهة الله إيّاه بوجهه كناية عن الكشف الّذي ذكرناه ، وفي التوراة مكتوب : يا ابن آدم لاتعجز أن تقوم بين يديّ مصلّياً باكياً فأنا الله الّذي اقتربت من قلبك و بالغيب رأيت نوري قال : فكنّا نرى أن تلك الرقّة والبكاء والشرح والفتوح الّذي يجده المصلّي في قلبه من دنوّ الرّب تعالى من القلب وإذالم يكن هذاالدنوّ هوالقرب بالمكان فلامعنى له إلّاالدنوّ بالهداية والرّحمة و كشف الحجاب و يقال : إنّ العبد إذا صلّى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة كلّ صفّ منهم عشرة الآف وباهى الله به مائة ألف ملك . وذلك أنّ العبد قد جمع في الصلاة بين القيام و القعود والركوع والسجود و قدفرق ذلك على أربعين ألف ملك فالقائمون لايركعون إلى يوم القيامة ، والساجدون لايرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون فإنّ مارزق الملائكة من القربة و الرّتبة لازم لهم ، مستمرّ على حالة واحدة ، لايزيد ولاينقص ، ولذلك قالوا : « وما منّا إلّاله مقام معلوم »[٢] وفارق الإنسان الملائكة في الترقّي من درجة إلى درجة ، فإنّه لايزال يتقرّب إلى الله فيستفيد مزيداً وباب المزيد مسدودٌ عليهم وليس لكلّ واحد إلّا رتبته الّتي وقف عليها وعبادته الّتي هومشغول بها ،لاينتقل إلى غيرها ولايفترعنها ، فلايستحسرون ، يسبّحون اللّيل والنهار لايفترون ،[٣] ومفتاح مزيد الدّرجات هي الصلوات قال الله تعالى : « قدأفلح المؤمنون* الّذين هم في صلاتهم خاشعون » فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة و هي المقرونة بالخشوع ، ثمّ ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً فقال في آخرها : « و الّذين هم على صلواتهم يحافظون » ، ثمّ قال في ثمرة تلك الصفات : «اُولئك هم الوارثون * الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون[٤] » فوصفهم بالفلاح أوّلاً وبوراثة الفردوس آخراً و ماعندي

(١) قال العراقى : لم أجده فى أصل .
(٢) أشار الى قوله تعالى فى الصافات : ١٦٤ .
(٣) اشارة الى قوله تعالى فى سورة الانبياء : ١٩ و ٢٠ .
(٤) الايات فى سورة المؤمنون .

أنّ هذرمة اللّسان[1] مع غفلة القلب ينتهي درجتها إلى هذا الحدّ ولذلك قال في أضدادهم « ماسلككم في سقر قالوا لم نك من المصلّين[2] » والمصلّون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله والمتمتّعون بقربه ودنوّه من قلوبهم نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم و أن يعيذنا من عقوبة من تزيّنت أقواله وقبحت أفعاله إنّه الكريم المنّان القديم الإحسان ».

(حكايات واخبار في صلاة الخاشعين)

اعلم أنّ الخشوع ثمرة الإيمان و نتيجة اليقين الحاصل بجلال الله سبحانه و من رزق ذلك فإنّه يكون خاشعاً في الصلاة وفي غير الصلاة بل في خلوته وفي بيت الماء عند قضاء الحاجة ، فإنّ موجب الخشوع معرفة اطّلاع الله على العبد ، ومعرفة جلاله ، ومعرفة تقصير العبد ؛ فمن هذه المعارف يتولّد الخشوع وليست مختصّة بالصلاة و لذلك روي عن بعضهم أنّه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله وخشوعاً له وكان الربيع بن خثيم من شدّة غضّه للبصر وإطراقه يظنّ بعض الناس أنّه أعمى وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول : وبشّر المخبتين ، أما والله لو رآك محمّد لفرح بك . وفي آخر لأحبّك ، و مشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدّادين فلمّا نظر إلى الأكوار تنفخ و إلى النيران تلتهب صعق وسقط مغشيّاً عليه وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق فحمله على ظهره إلى منزله فلم يزل مغشيّاً عليه إلى الساعة الّتي صعق فيها ففاته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول : هذا والله الخوف ، وكان الرّبيع يقول : ما دخلت في صلاة قطّ فأهمّني فيها إلّا ما أقول وما يقال لي . ويروى عن بعضهم أنّه كان يصلّي يوماً في جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتّى انصرف من الصلاة وتآكل[3] طرف من أطراف بعضهم واحتيج إلى القطع فلم يمكن منه ، فقيل : إنّه في الصلاة لا يحسّ بما يجرى عليه فقطع و هو في الصلاة ».

أقول : ومثل هذا ينسب إلى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنّه وقع في رجله نصل فلم

(١) ان سرعة اللسان . (٢) المدثر : ٤٢ .

(٣) في القاموس : أكل العضو - كفرح - وائتكل ، و تأكل من باب التفعيل - : أكل بعضه بعضاً ، والاسم كغراب و كتاب . والاكلة - كفرحة - : داء في العضو .

يمكن من إخراجه فقالت فاطمه عليها السلام : أخرجوه في حال صلاته فإنّه لايحسّ بمايجري عليه حينئذ ، فاُخرج وهو عليه السلام في صلاته .

قال : « وقال بعضهم : الصلاة من الآخرة فإذادخلت في الصلاة خرجت من الدّنيا . وكان أبوالدّرداء يقول : من فقه الرجل أن يبدء بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ . وكان بعضهم يخفّف الصلاة خيفة الوسواس فروي أنّ عمّار بن ياسر صلّى صلاة فأخفّها فقيل له : خفّفت ياأباالیقظان فقال : هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : إنّي بادرت سهوالشيطان ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : «إنّ العبد ليصلّي الصلاة فلايكتب له نصفها ولا ثلثها ولاربعها ولاخمسها ولاسدسها ولاعشرها وكان يقول إنّما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها [(١)] » .

و اعلم أنّ الصلاة قديحسب بعضها ويكتب دون بعض كما دلّت عليه الأخبار وإن كان الفقيه يقول : إنّ الصلاة في الصحّة لاتتجزى ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه و هذا المعنى دلّت عليه الأحاديث إذورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل [(٢)].

في الخبر قال عيسى عليه السلام : يقول الله تعالى : بالفرائض ينجومنّي عبدي وبالنوافل يتقرّب إليّ عبدي .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : «قال الله تعالى : لاينجومنّي عبدي إلّا بأداء ماافترضت عليه» وقال بعضهم : إنّ العبد يسجد السجدة وعنده أنّه تقرّب بها إلى الله تعالى ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته هلكوا ، قيل : و كيف ذاك ؟ قال : يكون ساجداً عند الله و قلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قداستولى عليه فهذه صفة الخاشعين فتدلّ هذه الحكايات والأخبار مع ماسبق على أنّ الأصل في الصلاة الخشوع و حضور القلب وأنّ مجرّد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد .

تمّ الجزء الأوّل و يليه الجزء الثاني أوّله الباب الرابع في الإمامة والقدوة

---

(١) مر عن غوالى اللئالى وأخرجه أبو داود ج ١ ص ١٨٤ بأدنى اختلاف .

(٢) راجع مسند أحمد ج ٤ ص ٦٥ و ١٣٠ ، وسنن النسائی ج ١ ص ٢٣٢ .

﴿ الفهرست ﴾

رقم الصفحة	الموضوع
٦٦	علم أحوال القلب .
٦٩	وجه عدم ذكرعلم الكلام و الفلسفة في أقسام العلوم .
٧١	إشكال المؤلّف على أبي حامد .
٧٤	فيما يعدّه العامّة من العلوم المحمودة وليس منها .
٧٥	بيان علّة ذمّ العلم المذموم .
٨١	بيان ما بدّل من ألفاظ العلوم .
٨١	تبديل لفظ الفقه .
٨٣	تبديل لفظ العلم .
٨٤	تبديل لفظ التوحيد .
٨٦	تبديل لفظ الذكر و التذكير .
٨٩	ذم تكثير الأشعار في المواعظ .
٩٠	الشطح الّذي أحدثه بعض الصوفيّة .
٩٢	الطامات .
٩٤	تبديل لفظ الحكمة .
٩٥	بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة .
٩٨	سبب إقبال الخلق على المناظرة .
٩٩	بيان شروط المناظرة وآدابها .
١٠٢	بيان آفات المناظرة و ما يتبعها .
١٠٧	ما ورد من طريق الخاصّة في مذمّة المناظرة .
١٠٨	آفة بعض أنواع الوعظ و التذكير .
١٠٩	آداب المتعلّم و المعلّم .
١١٨	بيان وظائف المرشد المعلّم .

رقم الصفحة	الموضوع
۱۲۵	آفات العلم و بيان علامات علماء الآخرة و العلماء السوء .
۱۲۶	أخبار من طريق الخاصّة في ذلك .
۱۳۰	عقاب العالم مضاعف .
۱۳۵	أخبار ذلك من طريق الخاصّة وعلامة علماء الآخرة .
۱۶۹	في العقل و شرفه و حقيقته وأقسامه .
۱۷۲	ما ورد في ذلك من طريق الخاصّة .
۱۷۷	بيان حقيقة العقل و أقسامه .
۱۸۰	نقل بعض روايات الخاصّة في ذلك .
۱۸۲	بيان تفاوت الناس في العقل .
۱۸۶	**كتاب قواعد العقائد**
۱۸۷	طريق التخلّص عن مضائق بدع أهل الأهواء .
۱۸۹	أعقل العقلاء نبيّنا صلّى الله عليه وآله و خيرالشرائع شرعه .
۱۹۰	وصايا سيّدبن طاؤوس .
۱۹۳	تحقيق للمؤلّف .
۱۹۷	بيان أمر أهل البيت عليهم السلام إنّما هوفي كتاب الله عزّ وجلّ .
۲۰۲	كلام منقول من صاحب كشف الغمّة .
۲۰۶	دلائل التوحيد .
۲۰۸	من دلائل التوحيد .
۲۱۱	التصديق بوجوده سبحانه أمرفطريّ .
۲۱۳	إنّ الله سبحانه واحد لاشريك له .
۲۱۴	إنّه سبحانه فردٌ لاندّله .
۲۱۶	إنّه سبحانه متكلّم بمايشاء كيف يشاء .
۲۱۸	انّه سبحانه أحديّ المعنى .

رقم الصفحة	الموضوع

رقم الصفحة	الموضوع